

مصطفى نعيم حسين البديري

الأمّام

مصطفى صادق الرافعي

سأدت جامعة بغداد على طبعه

مطبعة دار البصري تلفون - ٨٩٢٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا
لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *
أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا
هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ *
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْبَدَهُ »
الآيات ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ من سورة الأنعام



إرسموا شخصاً الوفا ثم انظروا من بعد رسمي
لويسمي في الأنام الحب ما اختار سوى اسمي

للشاعر نازك

الأدب

للإمام مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله



من الأصول الاجتماعية التي لا تتخلف ،
أنه إذا كانت الدولة للشعب ، كان الأدب أدب
الشعب في حياته وأفكاره ومطامحه وألوان
عيشه ، وزخر الأدب وتنوع وافتن وبني على
الحياة الاجتماعية . . فإن كانت الدولة لغير
الشعب ، كان الأدب أدب الحاكمين وبني على
النفاق والمداهنة والمبالغة الصناعية والكذب
والتدليس ، ونضب الأدب من ذلك وقل
وتكرر من صورة واحدة .

وفي الأولى يتسع الأديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها
في كل من حوله ، . . إلى الاحساس بالكون ومجاليه وأسراره في كل ما حوله .
أما الثانية فلا يحس فيها إلا أحوال نفسه وخليطه ، فيصبح أدبه أشبه بمسافة
محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيء حتى يعمل ذهابه ومجيئه .
والمعجب الذي لم يتنبه له أحد إلى اليوم من كل من درسوا الأدب العربي
قديمًا وحديثًا ، نك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للأدب في أسمى
معانيه إلا في اللغة العربية وحدها ، ولم يقفل عنه - مع ذلك - إلا أهل هذه
اللغة وحدهم . .

فإذا أردت الأدب الذي يقرر الأسلوب شرطًا فيه ، ويأتي بقوة اللغة

صورة لركة النفس ، وبدقته المتناهية في العمق صورة لدقة النظرة الى الحياة ، ..
ويربك أن الكلام أمة من الألفاظ عاملة في حياة أمة من الناس ، ضابطة لها
المقاييس التاريخية ، محكمة لها الأوضاع الانسانية ، مشترطة فيها المثل الأعلى ،
حاملة لها النور الالهي على الارض .

.. وإذا أردت الأدب الذي ينشئ الأمة إنشاء سامياً ، ويدفعها الى المعالي
دفعاً ، ويردها عن سفاسف الحياة ، ويوجهها بدقة الابرة المغناطيسية الى
الآفاق الواسعة ، . ويسددها في أغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة
خرجت من مدفعها الضخم المحرر المحكم ، . ويملاء سرائرها يقيناً ، ونفوسها
حزماً ، وأبصارها نظراً ، وعقولها حكمة وينفذ بها من مظاهر الكون الى
أسرار الألوهية ..

إذا أردت الأدب - على كل هذه الوجوه من الاعتبار - وجدت القرآن
الحكيم قد وضع الأصل الحي في ذلك كله ! ..
وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدساً ، وفرض هذا التقديس
عقيدة ، واعتبر هذه العقيدة ثابتة لن تتغير ..

ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ، ولم يحدوا بالأدب حذوه ، وحسبوه
ديناً فقط ، . وذهبوا بأديهم الى العبث والجون والنفاق ، كأنه ليس منهم إلا
بفايا تاريخ محتضر بالعلل القاتلة ، ذاهب الى الفناء الحتم ! ..
والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه لا يستخرج منه للأدب إلا تعريف
واحد هو هذا : إن الأدب هو السمو بضمير الأمة .

ولا يستخرج منه للأدب إلا تعريف واحد هو هذا .
إن الأديب هو من كان لأمته وللغة في مواهب قلعه لقب من ألقاب التاريخ ؟

الأسماء

مصطفى صادق الرافعي

لرافعي شخصية فريدة ، تتمثل بروح عربية مؤمنة ، تفيض شاعرية ، وتشرق بياناً ، وتتألق فناً ، وتعمر القول بوجدان سليم ، وتقبل في نفس عصامية حازمة ، تنطلق مع الحياة الانسانية المثيلة بقيم رفيعة ، وأخلاق ثابتة وأهداف سديدة ، بمحاولات تغني بالتجربة ، وتشرف بالوسائل وتنضح بالحكمة . وقد اتخذ من السمو بضمير الأمة صراطه القومي ، الى المثل الأعلى الذي جهد من أجله حياته الأدبية كلها ، الشعرية الوجدانية ، والنثرية القومية والنقدية منها ، التي تتصدى للعصر : تهدمه من جوانبه الضعيفة لإعادة بنائه على أسس سليمة من المثانة والقوة ، والاستعداد الوثيق لحملة التطهير الماضية على أشدها في إرادة التغيير من أجله .. وكأنما جعلها كالمدار الفلكي من حوله ذلك المثل القويم .

ذلك أن الرافعي - رحمه الله - كان قد انتظم الأدب الاعتقادي في معاناة واجدة ، عند بيان التزامه ، ينتصر للعروبة وقيمها وخصائصها في مجالي لغتها وفنون آدابها ، وما تضمنته من مقومات الفكر ومبادئ العقيدة ، والسمات التي تطبع الأمة بطوابعها وتفردتها بين سائر الأمم ، في هذا العصر المتحول العصيب الذي يقذف بالأفكار ، ويوزع المذاهب ، وينوء بالآراء ويكاد

وهو في سبيل ثبات القيم العالية ، وغناها بالمثل الرفيعة وعمران الضمير
يتمزق بوجهات النظر التي تنذر بالأخطار ،.. أو يحتدم مع الأيام ، أو ينبهم
في أحداث غلبت عليه صفته من التاريخ .

القومي بالإيمان ، والسمو بالوجدان العربي .. قد أثر فلسفة خاصة ، وتحركى
الفهم المستوعب ، وقصد حدية هادفة ، يرقى إليها بروح آسية ، وقلب طب ،
وعقل متدبر حكيم .

ومن أجل هذا وذاك كان يجتهد أن يفرد آراءه وبؤنق وجهات نظره ،
ويجلب بذات أفكاره ، ويطبع فنون قوله ،.. وقد يلزم نفسه بما لا يلزم أحياناً ،
من نفحة شاعرة . وعبرة تحفل أسلوباً وتشرق في بيان عربي مبين ، وربما تقطر
ظرفاً وهي ترفل بالمعاني وتنظم مع الحياة الوليدة في العصر عند شبه كلية فيها
رأي يذهب ، وخلوص نية يثبت ،.. ولها تقوى مطمئنة ، وبها انتصار مبدأ
وعنوان عقيدة ، ومنها ينطلق هدف رفيع ، ويصطف سمو بالإيمان يرقى به
في اعتقادية عالية الى أبعد ما يشرق إليه قلب عربي شهيد .

والعل في هذه المقالة التي تقدمت الكتاب بساحة ، بعباراتها الرقيقة التي
تساوق في نغم النثير الرافعي ، والتي وافت مسابقة البيان والتمهيد ، لتوجز من
ثم هدفاً في الرسالة ، وتستنتج غاية في التوجيه ، بما تشف به عما وراهها من حلول
النداء ، وطيب المضمون وجملة المحتوى ، وبما تعمره في الأدب العربي من متانة
الأساس ، وقوة البناء وتصوير النفس الراضية في خلجاتها الدقاق ، وزهو المعاني
بالصور الجميلة التي يلدها البهاء في جلال ، فيستوعبها الضمير قبل الخيال وتطمئن
إليها الأرواح .

وبما فيها أيضاً من تقرير علمي يتصف بالاتزان المنصف ، والعدل الواضح
الحكيم ، .. وبما يسلكها فيه من المذهب المتسم بالصدق والصراحة والحجة القائمة
على الحثيات التي لا تبخس الناس أشياءهم .

ولما لها من دقة الأداء بالسحر الحلال ، وإقبال الغنى بالمثّل ، وحلاوة
البلاغة مع الجمال ، . على ما جاءت به من معروف المفردات ، واتساق العبارات
وعلمية الأسلوب ، وبراعة إنفاذ الحكم .

ولعل في ذلك بعض ما يصوّر لنا من شخصية الرافعي ، ويظهر روحه
الانسانية ويعرض أدبه الاعتقادي ، ويشف عن ضميره القومي النبيل .

* *

كان لا لمثّل الرافعي الأديب الفذ والحجة ، الثبت من دراسات منهجية
تكون بمتناول أبناء الأجيال اللاحقة كالدليل ، .. فتبعث فيه حياً ، وتمضي بأدبه
سويًا ، وترقى بشعره ومعانيه ، في ازدهاء ، وتحلّق معه في خياله العظيم تخترق
الآفاق 1..

وكان لا بد من إعادة النظر في تقويم آثاره ، واستعراض فنون قلعه ،
أمام التبدل الحضاري ، والتحول في المفهومات والقيم ، والتغيير الذي تعانيه
الانسانية بعامة ، والحياة العربية بخاصة ، .. ولا سيما بعد ذبوع المذاهب الآتية ،
وشبوع المنهجية التي تتحرى التوثيق العلمي ، وتقتصد في البحث والمقارنة .

* *

وكان لا بد من تجلّ أمام هذه الكثرة الغشاء من محاولات الانتهازية
الخرقاء في التلفيق والتصدي ، وما تعانيه من مساومات التزييف والتحريف ، التي

رأت على الفكر العربي بخاصة ، فأرهقته بالنعلات ، وآذته بالنظريات المترجمات ، ..
نحسب أن تجمله تبعياً في أحسن أحواله ، .. ولا سيما بعد الذي أقلق الحياة
الوجدانية للعرب ، ومن مكامن الشجن من شعورهم النفسي ، وهزّ ضمائرهم
في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري وبعد مأساة العروبة في الانفصال
بالأقاليم ، والضياع في فلسطين ، .. ذلك أن هذه الانتهازية الأدبية المناقفة
ما تبرح تحاول بغفلة وبسوء منقلب نسف القيم ، وتبديد الاعتبار ، .. ثم
المسخ المشوه للتجديد والتنظيم .

ولما كان من بين الحركات الهادفة ، النهوض بالدراسات المنهجية المقوّمة
لجوانب الضمير القومي للأمة العربية : ثباتاً أمام هائيك المحاولات الغزوية
الكاثرة ، والأساليب الملتوية بالتقليد العائر ، والطرق التي تلتف بالمكر والتضليل
وهي تسعى لحجب الروح العربية عن الجهاد والحياة ، وأخيلولة دون بعث قوة
الابداع فيها ، .. فلا تنأى لها الاندفاع العبقريّة المتميزة التي تأخذ لها مكانها
في صف الحضارات .

فكان لابد من تفويم علمي لمثل هائيك الحركات الهادفة ، ومداينة
منهجية بقيم جديدة ترقى بالتراث الفكري للأمة إلى ما يجعله متميزاً على سواه
من آثار الأمم الأخرى .. بالفضل والسعة .

والامام الرافعي بما ينفرد فيه من الشخصية العلمية للأدب والفكر العربي
الاعتقادي ، وبما يتسم به من السجية القومية الواضحة ، وبما يتسامى فيه من
الروح المؤمنة العالية ، وبما يسمو عنده من الوجدان الذي يرقى بضمير الأمة إلى
التجلي والامتياز ، .. يُمثل مجالات متسعة لمثل هذه الدراسات ، ومعنى لا مثيل

له بين المغاني، .. لا يتمتع به فئته وأدبه وشعره من طاقات الفكر، وآثار الاعتقاد،
وثمرات الايمان تنتظم دُنَى قوليةً أثيرة على الأمة.

وكم كانت أمنيته مشرقة أن تسبقني موافقات دراسية لجوانب الرافعي
الأديب، أو رحاب الرافعي الشاعر، أو آفاق الرافعي الناقد، أو مجالي الرافعي
المفكر وصاحب الرأي الإمام ..

ولكنني وجدت - والاسم يحزُّ في نفسي - أن بيننا وبين هذه الدراسات
مرحلة إعدادية رائدة، كان لا بد أن أتولاها بنفسي، أما محاولاتي الدراسية
الأخرى في شعره ونثره .. بعد أن رأيت أكثر من تصدوا للرافعي في دراسة
أو نحوها - في حياته ومن بعده وفاته - لم يتعدوا تعريف الدكتور محمد صبري
وبضع صفحات لطيب الذكر الأستاذ صديق شيبوب، ومصنّف المرحوم محمد سعيد
الريان في « حياة الرافعي » .. عليها يدورون، ومنها يجترئون مع بضع سطور
أخرى في رثائه تقول: يرحمه الله !

وهكذا وضعت على عاتقي مهمة أن أتجشم العناء، واختلف على المغاني،
واضطرب مع الأحوال .

وقد وجدت الانتظار في الأستاذ الفضيل عمر الدسوقي رأس الدراسات
الأدبية في دار العلوم المحروسة . وكأني وإياه على موعد مع القدر، كان يُجَيِّل
فيه لنفسه أن يتولى مهمة الكشف الصادق، ويفتش بين تلامذته الكثير عن
يقوم بهذا العمل الأثير .

وحين قدمت له نفسي لحمل هذه التبعة .. أخفى غبطته السامية، وراح
يحاورني في عظم المسؤولية التي قد ينوء بها كاهلي في مثل هذه المخاطر الدراسية ..

وكاد يُظهر لي شيئاً من التردد يصرفني عنها أو يخثبر ، وقد أحسست بومها أن
الدسوقي يحاول معي ترجمة الحماسة إلى عزيمة فيها ثبات مقدرة وجلالة عنوان ،
وصبر جهاد . . فدعوت الله مخلصاً أن لا يخيب لي ظناً معه ، وأن لا يحزني أمامه
عند الرافعي العظيم .

ولم أكد أمضي خطوات في القراءة والتتبع والاستيعاب والمطالعة التي
تعوض لي ما فاتني دراسته في مرحلة سابقة ، . . حتى وقفت بعد عام في شبه
امتحان - إن لم يكن قد سماه لي ، فقد عرفته وأدركت مراميه وأبعاده ، . .
ليوافق من ثم على إختياري الموضوع ويترك لي محاولة منهجته بتوفيق ، فكان
هذا الكتاب المدخل الذي يعرض نفسه ، وكتابان آخران بعده أحدهما يعرض
للشعر عند الرافعي مذهباً وفناً ، والثاني بهم أن يحصر التجديد والمحافظة للنثر
العربي عنده بتعريف جديد . . . وبذلك أرجو أن أكون قد أدبت عن الأمانة
العربية الصابرة بعض فرض الكفاية الذي يرفع الاثم عن أبنائها - والله ولي
التوفيق

مصطفى نعمان حسين البدري



صورة فريدة تجمع بين الإمام مصطفى صادق الرافعي
والأستاذ الكبير محمد بهجة الأثري - عند زيارته له في طنطا
في ربيع آذار ١٩٣٦



للاستاذ الكبير

محمد بوجعة الأثري



في الوطن العربي الكبير ، من
ضفاف الخليج الى شواطئ المحيط ،
حركة في التأليف والترجمة والنشر
ناشطة دائبة ، تبشر بإشراق فجر
وضي لنهضة عظمى تنتظم آفاقه .
وليس بضائر هذه الحركة ما يلاحظه
النقاد السوداويون المفرقون في التشاؤم
على بعض إنتاجها الشاب من ضعف
وهزال ، فإن ذلك سيختفي ولا ريب
مع مرور الزمن كلما قويت واشتدت

وتعاظمت شأنها ، ولكن يضيرها ألا يكون في الإنتاج الشاب الذي تنتجه
الجزلُ الحظوظ من ائادة الثروة المعطاء ، والحسن الجميل الموسوم بطابع الاجتهاد

والتجويد والإيقان ، أو يكون فيه من ذلك القليل ولا يزداد نوعه باطراد .
ووجود هذا الطراز الجيد متحقق وموفق ، لا جدال في ذلك ، ولا سبيل لأحد
الى إنكاره ، وإنه يزداد يوماً بعد يوم سمتاً فوق سمت ازدياداً يبعث التفاؤل
بقيام النهضة المرتقبة ، ويشيع الرجاء في نملها وازدهارها في مؤتلف الأيام .

وهذا البحث الذي بين يديك ، وأنت ستقرؤه فترتاح الى حظوظه من
الجهد والاجتهاد والصدق ، هو وأمثاله في هذه الحركة الناشطة الدائمة من
الإرهاص الذي يتقدم بين يدي أنواء الخير بشيراً يقوّي هذا الرجاء . وإنه
ليسرك أن ترى الشباب يتقدمون الموكب رافعين الرايات بالآيمان ، ويقدمون
الشاهد تلو الشاهد من بينات مشاركتهم الجادة في هذه النهضة ، ومنها هذا
البحث الموعب .

وهو من صنعة شاب نابه من طلابهم في العراق ، يؤرخ به أدبياً عظيماً
من أفذاذ الدهر .. أدبه فكر ناثر مشبوب ، وعقيدة أصيلة مثلى ، وعلم يتوارث
ويتدارس ، وفن خالد يثرى به العقل والقلب .

صنعه بأعين « دار العلوم / جامعة القاهرة » ، ووقف من نقاشها له
موقف الواثق بنفسه ، المُدلي بحجته ، المطمئن الى صدق بحثه وصدق اجتهاده فيه ،
وخرج من ثم ظافراً بما طمح إليه من درجة علمية ومن تقدير واستحسان . ثم
ودّع هذا الجهد في إعدادة ، ليستقبل جهداً آخر مثله أو أعنف منه وأثقل
تكاليف في إخراجه وتقديعه الى العربية وقرأتها أثراً مرصوقاً .. شاهداً على جده
ودؤوبه في هذا الجد دؤوباً أناله بعض آرايه في المجد العلمي ، ومثالاً من تعلقه
بأسباب القوة وبالممتع اللذّ المفيد من شؤون الأدب والحياة .. هذا التعلق الذي

تراه في اصطفااته موضوعاته وتوفيقه في هذا الاصطفاء ، ثم في حرصه على بلوغ الغاية منه بتقصيه مواده وموارده ، وضربه في نواحيه ، وإيقاله في أغواره ، نفاذاً الى تبين سماته وتحقيق وجوه خصائصه ومزاياه .. وصورة لنفسه ، جميلة الملامح ، يستعلن فيها إخلاصه لأمنته ولغتها وبيانها ، كما تستعلن فيها أوضح الوعي والفهم ، وتشف عن طيب الطوية وصفاء الضمير .

وأحسب أن هذا التوفيق الذي أصاب منه الباحث ، هو وليد الحب والصدق فيه والصدور عنه . والحب إذا صدق أتى بالأعاجيب ، فهو إذ يصيب شغاف قلب يصب في صاحبه الارادة والعزم والمضاء ، ويربه الحزن الوعر سهلاً من الدماث اللينة فيعتسفه ، والعصي الجاح طيماً حيناً سهل للقادة فيقدم عليه إقداماً يذله ويجعل عسره الى مياسرة .

ولقد أحب صاحب هذا البحث ، إذ هو طالب ناجم في أفق عربي إسلامي خالص ، أدب « الرافعي » حباً أخذ عليه أقطار عقله وقلبه ووجدانه وهام به هيام الوجد والفناء الصوفي ، فعاش به وفيه وله .. مستقرئاً له وقارئاً مدمناً قراءته ، حافظاً روائعه عن ظهر القلب ، متحدداً به ، ومتجاوباً في أعماق نفسه وشعوره مع بلاغته وما تحمل من فن وفكر وعقيدة وفلسفة ، وتجلو من حق وخير وحب وجمال ، حتى تشربه وتمثله وهضمه . ثم هتف به هائف من نفسه أن يكتب فيه ويؤرخ صاحبه ، فعزم وأمضى العزيمة ، ودأب الى الغاية رويداً رويداً غير متلبث ولا وان ، وجهد جهده في ذلك في السنين الطوال ، الى أن بلغ مما أراد مناه ، واستولى على الأمد ، واستوى له هذا البحث الموعب في « سيرة الرافعي وعصره » ودراسات أخرى في « الشعر عند الرافعي » وفي « الرافعي الكائن »

تجلي خصائص هذا الانسان العبقري ، وتكشف عن وجوه أدبه وعن براعته في الخلق والابداع وما تفرى بهما من فري ، وتصف تجديده في بنية الأدب الحديث وصبه القوة والحياة في تركيبه الفني والنفسي والفكري ، وتدل على أثره العميق في ذلك وفي بعث الثقة بأصوله وينايعه ، وعلى جهاده حين تناوح حول الأمة العربية إعصار هذه الشعوبية الرعناء في محاولتها إسقاط أدبها بالنيل منه ومن تاريخه ومن أصوله وينايعه ، وإيهان معانيه في القلوب بالتشكيك في لغته وفنه وبلاغته ومثله ، وبما يلقي عليه من زور القول وفساده وباطله ، قصداً إلى انتزاع الثقة به من نفوس الأجيال الناشئة ، التسلخ من نوازع وساطاته ، وتدخل تحت سلطان آداب أمم أخرى لتحقيق الاستسلام لما وراها من أغراض طواغية وخضوعاً .

على هذا النحو مثل الباحث هذا الأديب العظيم إنساناً وكتاباً وشاعراً ، وصوّره في كامل صفاته وخصائصه ومزاياه إماماً يقتدى به .
وهو قين بأن يتدارس ليعرف كيف يكون العبقري ، وأدبه أحق أدب بأن يُراجع ويحتفل له ، ويولى ما يستحقه من عناية ، ويجعل في موضع الرعاية من الجامعات ومن الأدباء المفكرين : يصلون آفاقهم بأفقه ، ويجددون دراسته ، ويمحضونه من خالص جهدهم واجتهادهم ، ويكشفون أسرار قوته ، ويعثون فنه العبقري ، ويضعونه في مكانه الطبيعي من حقائق هذا العصر ، الذي استعلن نوره لينها جهر آ ممد الشعاع عاليه ، وفي نصابه الحق من الأدب الحديث ومن الأدب العربي كله ومن الآداب العالمية أيضاً ، كما يفرض البحث المنهجي ، وكما يتقرر تحت مجهر النقد والتحليل والموازنات . . بعيداً عن متناوح العواطف

والشهوات والأهواء ، وفي مُنتأى قصي عن نزعات العصبية وعن سلطان
التوجيهات الملتزمة وراء الضباب .

وأدب القوة والصدق في الأداء عن الوجود القومي ومقوماته من فن
وفكرة وعقيدة ، أول شيء تشد الدواعي الى التماسه وتمثيله وبعثه في الحنة الحاضرة ،
إذ الوجود القومي كله يصطلي الجرة ، ويستعد للكرة بعد الفرة المنكرة ، ويحتاج
أشد الاحتياج الى حشد كل أسباب الثبات ، بل الوجود بقوة وشموخ الى
« معركة المصير » .

ويوم بتهياً هذا للدراسات الباحثين الجادين ، ويكون ارتياد القوة المعنوية
والتماس مصادرها هوى النفوس ، وتبرز من ذلك معالم الحق والصدق في « تقويم »
أقدار الأدب الصحيح والادباء الاصلاء ، يختفي هذا « الأدب » الضاوي السقيم
الذي يتسلل الى الفكر العربي ، وينقطع دابر الدراسات الهزيلة بما تلقاه من
الصدود : ما قام منها على الخطب والقش من هنا وهناك ، وضمرت فيها شخصية
الكاتب تحت ركाम النقول ، وما كان منها مظهراً للعصبية صادراً عن
التوجيهات المتخفية الرامية الى تغليب هذا « الأدب » المتهاقت المريض روحاً
وبياناً ، بالا نفاق عليه ، والسعي في إذاعته ونشره ، والكتابة في أربابه من كل
من خف ميزانه وشال ، وحفهم بهالات الاكبار وألقاب العباقرة العظام ، قصداً
الى هذا التغليب .. وتظاهر مكل ذلك ، بشعور عمق من تقدير القيم المثلى ،
هذه الدراسات الجادة للأدب الاصيل القومي المتحرك الثواب ، وللأدباء الكبار
الذي يرفون رايانه في الوطن العربي ، ويمثلون أصالته الفنية والنفسية والفكرية ،
ويعشون به الشخصية القومية الواعية التي تستوي قائمة مستقلة بفكرها وعقيدتها

وإرادتها حرة طليقة من عبودية التبعية وإسار التقليد والمحاكاة، وهما من صفات القروء، ويكون من المثل التي يرسمون شباب القوة والتماسك وثبات الضمير في رسوخ وشموخ أمام التجديات، كما يكون النزوع الدائم إلى الكمال والسمو والتطلع إلى منازل النكرامة وعزة الحياة .

وأنا إذ أضع أدب الرافعي في الصدارة من الأدب، قديمه وحديثه، وأراه حقيقة بالمرجعة الدائمة والدرس الموصول، فذلك بأنه الأدب الرفيع الذي يتحقق هذا كله به، وهو موجود به في سحاء عظيم وعطاء كريم لا حدود له . ولا رب في أن العناية به ربما يكون من مثله من أدب، ويجري مجراه في التيار القومي الدافق، وهو تيار إنساني حضاري نبيل، إنما هي عناية بالوجود القومي، وتثيت له، وإبقاء عليه، وإبراز لشخصيته في الأسرة الانسانية، ولمثله بين أمثال الأمم إبرازاً يعين على فهم حقيقته، ويدعو إلى الإقبال على قيمه والاعتزاز بمشاركته بها في البناء الحضاري العالمي .

وهل بك من حاجة، وهذا البحث بين يديك يحدّثك عن صاحب هذا الأدب الرفيع، أن أسلف لك بعض القول في أدب الرافعي هذا، يقرّب صورته إلى ذهنك، ويصالك بمثله ومدركاته، قبل أن تقبل على البحث وتمضي فيه ؟ اعمل في نفسك شيئاً من حب هذا وحب توفيره لك، وأنا في هذا التقديم إنما أستطيع أن أؤدي لك خطوط الصورة العامة لهذا الأدب، وأوحزها بما يشبه الرمز والالهام .

وأذكر من شأن هذه الصورة العامة ما يدهك منها أول وهلة، هذا المزاج الخاص في أدب الرافعي الذي تحسّه في جملة نيتته وتركيبه الفني والنفسي

والفكري مهيمناً على بلاغته ، جاريّاً في عروق ألفاظه المتخيرة ، وجهله المحكمة الرائعة المحبرة وما تخلقه حولها من جو يتمحير على أسرارته وقسماته ماء الوضأة وإشراقة الروح النبيل . ثم ما تراه فيه من هذه الخصائص الفنية ، وقد اجتمع له منها ما تفرق في سواه من الأدب المتعارف ، ومنها ما لا سابقة له في الأدب القديم ولا نظير له في الادب الحديث مما تميزت به أوضاحه وكان منه مذهب متفرد في الأدب ، على ما حفلت به مذاهب الادب في قديم الزمن وحديثه من مزايَا فنية وفكرية ، ومن أساليب بيانية متنوعة أرى لها كما يرى غيري شأنًا ، وأجد في خاصية كل فن منها كما يجد غيري لونًا باهرًا له بهجة وعليه رواء ، ومذاقًا حلواً وطعمًا لذاً ونكمة طيبة .

والأدب الصحيح الصحة كلها هو ما اجتمع له الفن والأسلوب والطبع والفكر والروح ، واختلفت فيه هذه العناصر ائتلاف العشق ، وصيغت صياغة مؤثرة نافذة . ولكل عنصر من هذه العناصر أسباب ووسائل لا مناص من توفيرها له ، وخصايص تميزه .

وقد اجتمع هذا كله في أدب الرافعي فكانت له خاصية العلم وخاصية القوة والتأثير بفضل قوة الطبع وسداد الفكر وسطوة الروح . وكل هذا إنما يدين لفضل أدوات الاديب الكاملة التي اجتمعت له على نحو ما اجتمعت لقرائح المطبوعين من عظماء أدباء العربية كالجاءظ والقوحيدي وأبي نواس والبحتري والمتنبي والمعري وأضرابهم ، وهم كثير لا يأتي عليهم العد والحصر ممن أوفوا من البلاغة والتأثير على الغاية ، واستولوا على الأمد بأيدي وقوة ، وأبرزوا عبقرياتهم في أروع معارض البيان وأقواها وأخلدها بفضل ما مكنت هذه الأدوات الكاملة

لهم منه . وهي كما مكنت لهؤلاء أن يصوغوا عبقرياتهم على هذا النحو الرائع ،
وكتبت لها أن تسعى إلينا على أعناق الدهور ، وضمنت لها الخلود بين جملة آثار
الأدب الانساني الرفيع . مكنت للرافعي بما ارتوى منها وملك من ناصيتها أن
يسمو بفنه ، ويخلد أدبه وفكره في أبلغ سطوة بيانية وأرقى أسلوب بزخر بقوة
الآداء ، ويحفل بالمعاني الحية والأفكار النشيطة ، وبالتوليد والخلق للصور
والابتداع المثل ، وأن يذهب جملة أدبه من شعر ونثر وبحث ونقد وتأليف
مذهباً عزيزاً في بلاغة الأدب موسوماً بالسحر والجمال .

أما الفكر الذي وعاه هذا الفن الرافعي ، وخلدته كتبه - وهو فكر يؤزره
العلم والعقل والقلب - فقد حدد الرافعي نفسه مذهبه فيه ، واتجاهاته العامة ،
وطبيعته ، والقبلة التي يتجه إليها ولا يفارقها عقله وقلبه ووجدانه ، وأجمل صورة
ذلك كله فأحسن في إجماله التعبير عنه ، وصدق الصدق كله ، وذلك إذ يقول :
« أنا لا أعاباً بالمظاهر التي يأتي بها يوم ، وينسخها يوم آخر . والقبلة التي
أتجه إليها إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها فلا أكتب إلا ما يبعثها حية ،
ويزيد في حياتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ، ولذا لا أمس من الآداب
كلها إلا نواحيها العليا . ثم إنه ليخيل إلي دائماً أنني رسول ، بعثت للدفاع عن
القرآن ولغته وبيانه » .

وأنت إذ تقرأ ففكر الرافعي حيث طالعك به في كتبه ومقالاته تحس
وراء هذا الفكر قوى تتأزر معه ، وتشد من عضده ، وتظهر سطوته . وهي :
روح قوي يهيمن عليه ، وعقل فلسفي مبدع يفرض سلطانه ، وقلب رقيق فياض
يملي أشواقه وعواطفه ونبله .

ولقد أستطيع أن أجمل ذلك في معارض ثلاثة :

معرضٌ تتجلى فيه الشاعرية وفلسفة الحب والجمال ، ويبدو مظهرًا رائعًا
لشيء جديد تتعرفه العربية لأول مرة على هذا النحو في « حديث القمر »
و « رسائل الأحزان » و « أوراق الورد » و « السحاب الأحمر » وكثير من
مقالات « وحي القلم » . وهو يرينا الحب عند الرافعي الأصل الذي بنى عليه
أدبه منذ عُلقه وعلق هوى « عصفورة كفر الزيات » ، ونفض عليه عبقر من
ألوانه وخياله وسحره وهو في نحو العشرين من ربيع حياته . وهو عنده - كما
يلاحظ مؤرخه الأول (العريان) أسبغ الله عليه غلائل رضوانه - غير ما عند
الناس . « هو عند الناس حيلة الحياة لا إيجاد النوع ، ولكنه عند الرافعي هو حيلة
النفس الى السمو والإشراق ، ومادة الشعر ، وجلاء الخاطر ، ونبوع الرحمة ،
وأداة البيان » . والرافعي بهذا الإدراك السامي لمعاني الحب وارتفاعه به في أدبه
مدين لطبيعة مرّباه وورائته واكتسابه من جدوده وبلته . وهو حين أخذه من
معناه الواسع ، خرج به الى السمو والإشراق ، وأدار من حوله في روائعه
فلسفته الخاصة في الحياة والدين والاجتماع حتى جعلها فلسفة الحب والجمال ، وصح
له أن يرسل بلته المشهور ، يصف نصيبه من هذا الحب الفلسفي الصوفي العفيف :

قلبي يحب ، وإنما أخلاقه فيه وديته

ومعرض ثانٍ يجلو نوازعه النفسية والاجتماعية وإنسانيته ورحمته وعطفه
وطلبه الإصلاح ، كما يجلو مداركه القومية ومراميه العليا ونوازعه الحرة . وتستعلن
الوجهة الأولى في « المساكين » ، وتستعلن الوجهة الثانية في معاركه الأدبية
المشهورة ولا سيما ما دار منها حول أصول الأدب العربي والتاريخ الإسلامي

والقرآن ولغته وبيانه ، ومثلته مقالات « تحت راية القرآن » أو « المعركة بين القديم والجديد » وكثير من أناشيده وأغاريده .

ومعرض ثالث تبرز فيه وجوه معرفته وعلمه الواسع بعلوم العربية والعلوم الإسلامية وإطلاعه على الآداب الأوروبية وآيات الفكر الإنساني في الفلسفة والأدب والاجتماع والتاريخ ، وتمثله وهضمه ذلك بوعيه وإدراكه المستقل ، وآثار ذلك منبثة في كل ما كتب ونظم وألف . وتبدو قدرته العلمية في ذروتها في كتابه « تاريخ آداب العرب » كما يبدو فيه ابتكاره في تناوله له من نواحيه الفلسفية وأصوله العليا مما لم يسبقه إليه سابق ولا وُجد له ضريب يدانيه لا فيما كتب الأوروبيون ولا فيما كتب أدباء العربية .

وهكذا قام أدب الرافعي فناً وأسلوباً وفكراً على حقائق خالدة هي من عبقرية الأمة كل الأمة كحقيقة الحياة في الجبلة (PROTOPLASM) : جبلة الأنواع من إنسان وحيوان ، وحقيقة النسخ في عروق الشجر والثمر والنبات ، ونهض بها بناؤه المحكم الرائع شاهقاً شامخاً بين أدب العصر الحديث وأدب عصور العربية جمعاء .

* * *

وهذا البحث ، مدخلٌ إلى أدب الرافعي ، وليس هو في صميم هذا الأدب ، وإن استبانت ملاحظه وأوضحه في ثناياه .

إنه يتحدث عن « الرافعي » الإنسان العبقرى الذي وهب العربية هذا الأدب الرفيع ، وأجد عليها خلال سبعة وثلاثين عاماً فذة التمييز الجديد . وإنه لمبٌ ثقیل باهظ هذا الذي اقتحمه الباحث الفاضل ، فعنى نفسه

حملة فلم ينشؤ به ، وأمر شاغل هوى الشباب عن مثله : يستبد بالوقت ، ويذهب بالراحة التي يتوسد ذراعها الشباب في العادة إخلاداً الى الكسل وفراراً من العمل . ولكن إذا عظمت النفس ، وعصف الطموح بالرأس ، استخفت الأثقال ، وطلبت الجد ، وسعت له ، واستطابت فيه الجهد والنصب .

ولقد اجتمع لصاحب هذا البحث في نفسه هوى في العمل ، وطموح الى المجد ، وحب للبيان حاك في صدره ، فمضى مجاهداً في الطلب ، وأقبل على بحثه بهذه النوازع التي تتصرف به دائماً فيه : يتقصى لبنائه كل شاردة وواردة من أمره ، يطلبها في بغداد ، ويسعى لها الى مصر ، يسهر ليله يديرها في فكره ، ويمضي فيها نهاره في المكتبات العامة معتكفاً في زواياها بين مخزن الكتب والصحف والمجلات ، ينفذ غبارها ، ويدمن تقلبها وقراءتها ، ويمد عينه هنا وهنا لينتزع من ثناياها ما تقع عليه من شيء يتصل ببحثه فيثبته . ثم يمضي الى بيأة الأديب العظيم ودارة عشيرته الأقربين وأهله ، يتسقط فيها أنباءه من أفواه خلطائه ، ومن أهل بيته وأولاده وحفدته : يحاييهم بالموداة الخالصة ، ويستنبثهم أخباره خبراً خبراً مما غاب في صدورهم سرراً لم يفض به ، ويطلب المطوي من كتبه ورسائله وأوراقه ليكشف فيها خبيثاً غاب عنه ، فتفتح له الأبواب الموصدة والقلوب ، ويعطى مناء ، ويمضي حقيقاً بما ظفر به من أرب ، قل أو كثر ، ويضمه الى أشباهه ونظائره مما اكتسب ، ثم يمكث على ذلك كله يصنفه ويؤوبه ، ويتدارسه فناً فناً ، ليخلص الى تسوية بحثه ويتخذ لهذا البحث طريقة منهجية يجريه عليها جهد طاقته ، لا تماً أطرافه ، موثقاً في أعماقه ، يقارن

الخبر بالخبر ، ويثبت الرواية الصادقة ، ويكتب الرأي الذي يراه ، ويقيم على هذا وذاك ما ينشئ من بحث .

وقد كتب صديقي الأستاذ محمد سعيد العريان ، طيب الله ذكراه ، قبل ثلاثين عاماً كتابه « حياة الرافعي » ، وهو أول كتاب يؤرخ الرافعي ، فأدى عنه خبره في رؤية رآها أو رواية رواها ، ولم يكتب فيه رأياً رآه .

أما المؤرخ الجديد ، فمذهبه فيما كتب فيه له شأن آخر غير هذا كما نبهت عليه ، فليست طريقته سرد الخبر ، ولكن بحثه ونقده وتوجيهه والاستنباط منه والتعقيب عليه بالرأي . هذا ، إلى أنه استقل بجهد الخاص في تقصي الروايات ، وقد وقع إليه منها ما لم يقع الى العريان ، واستقرى ما كتبه الكتبون في « الرافعي » له أو عليه ، وأجاله في ذهنه ، ثم كتب عالماً بالموارد والمصادر . وهو يتحدث أول ما يتحدث عن « عصر الرافعي » فيطيل حديثه

إطالة تستغرق زهاء ثلث البحث ، ويكثر فيه الاستطراد ، ويتناول بطريقته الخاصة ، ويعرض حقائق التاريخ ، وينقد منها ما يرى نقده ، وينفض على نقده من الحماسة في بعض الأحيان شواظاً ، وهو يقف « بالرافعي » عند كل جانب من جوانب عصره - وقد تناول منه الحالة السياسية ، والبيئة الاجتماعية ، والحياة العلمية والثقافية ، والحركة الفكرية والأدبية وما سماه انطلاقة الشعر الحديث - ويثبت في ثنايا كلامه شواهد من نظيمه ونثره ، ومن رأيه وفلسفته ، ليستبين تفاعله مع عصره ، وارتفاعه بعقريته وعلمه ووعيه فوق ما اضطرب في آفاقه واختلف عليه من مظاهر الضعف ، وفوق ما تحيط فيه كثير من معاصريه من تقليد وما تورطوا فيه عند الأخذ والنقل والتأثر وقلة التمثيل والهضم لما

يقبسون من آداب الأمم الاوربية : من زيف وضلال وانحراف ، أو كما يقول .
ويعاود الحديث في هذا الشأن بعد حين فيعقد فصلاً مقتضباً يذكر فيه ما أفاد
الرافعي من عصره من أطايب العلوم والآداب وآيات الفكر الانساني في الفلسفة
والتاريخ والاجتماع ، ومن معطيات الحضارة الجديدة ، وكيف كان يلتقف ذلك
بنهمهم ، ويلتمسه من سبيل الترجمة عنها إذ تحيَّفه الزمان فلم ينله شهادة من جامعة ١١
ولم يمكن له من تعلُّم لغة أجنبية ١١ فيمثل ذلك ويهضمه بوعيه ، وتبرز آثاره
في فنه ، ولكن في مزاج خاص يرتفع عن التقليد ، ويمده بالطاقة التي تقوِّي
ملكاته ، وتعذي وعيه واستقلاله الفكري ، ولا يطويه التأثير به في سلطانه ، وإنما
يتساحى الى المرتبة الاجتهادية العليا ، لطبع أدبه وفكره وعقله الاجتماعي بطابعها
الخاص .

وحين يفرغ من عصر الرافعي ، يعمد لأمرته وهي موصولة النسب
بالخليفة العظيم « الفاروق » ، فيؤرخها في قديم وفي حديث ، ويذكر من يذكر
من رجالها ويسرد أسماء العدد العديد منهم ، وهم يتصفون بمختلف الصفات من
العلم والفقہ والأدب والشعر والسياسة والصحافة والقضاء ، ويفضِّل القول
في ذلك ويمتد نفسه فيه ، يضع يده على سر عبقرية « الرافعي » ، ويكشف عن
أثر الوراثية وفعل الاكتساب في ملكاته ، ويصف الطابع الذي ألقاه الربِّي
والقيم المتوارثة في الأسرة على وجهته في الحياة ومذهبه الاعتقادي في رسالته
الفكرية التي صار بها إماماً .

ثم يخلص الى « الرافعي » نفسه ، فيتحدث عن سيرته من ولادته الى
وفاته : يصف تنشئته وتعليمه وتربيلته ، ويتحدث عن سيرته في البيت وفي الوظيفة ،

وعن حياته في دنيا الأدب والفن ، ويصور صورته الخلقية والنفسية ، ويتناول روافد ثقافته ويذكر أثرها في اتساع آفاقه وعمق معانيه وقوة بصره بأدب العرب وبالأدب الأوروبية ونزعات الكتاب الاجتماعيين من الأوروبيين ، ويعرض لفصص حبه وعرائس أحلامه من أدبيات العصر البارعات الأدب والحسن ، وهي أعجب شيء في حياة الرافي ، وبونقها بجديد الكتب والرسائل ، فيورد منها الشيء الكثير مما يوافي بأضواء جديدة تكشف سرائر هذا الحب وسرجات خياله فيه التي انتهت به الى ما قدمت من تساميه به وإدارته عليه فلسفته الخاصة في الحياة والدين والاجتماع حتى جعلها فلسفة الحب والجمال .

ويصل هذا بالتحدث عن آثار الرافي الشعرية ، وآثاره النثرية ، فيتقصصها أثاراً أثاراً ، ويعرّف بها ، ويصف فنونها وصفاً جامعاً ، ولا يخلو من نقد ونقاش لبعض المعاصرين في شأنها ، ولكنه يرى ذلك يستوعب كتاباً برأسه ، فيرجي التفصيل فيه الى طبعة جديدة .

هذا كله مما أصبته في هذا البحث ، قد حجب إليّ الاستجابة لرغبة كاتبه أن أكتب هذا التقديم له على عُرف العصر .

ولست أدري إذ أنثيت في ثنايا هذا التقديم على جده واجتهاده فيما كتب أكننت مقتصداً في الشئ ، أم كنت مسرفاً متجاوزاً حدود القصد والاعتدال ؟ ولكنني على كل حال مطمئن الى أنني أصدر فيما قلته من شيء عن غير الصدق واليقين . وعن هذا المورد الصافي الذي يرويني نبعه ، سأصدر فيما وددت أن أفضي به الى صاحب البحث من رأي مجمل في كليات البحث وفي شيء من جزئياته التي أراها مهمة جداً ، ليستوفي الحسن من أطرافه ، والكمال

كله ، ما استطاع صاحبه إليه سبيلا .

وأنا معجب بأسلوبه وقوة أدائه ورصانة تعبيره وإحكامه ، وليته - إذ بلغ هذا المستوى - احتاط له أكثر فلم يأذن لهذا الترخص في أشياء من ألفاظ اللغة ، ومن شوائب « المطبعة » أيضاً أن يتسرب إليه .

وأنا معجب كذلك بالتزامه العمود المنهجي في البحث . ولن يذهب بطرافة إعجابي هذا ما ألاحظه عليه مما يغلبه من الاندفاع والحاسة في بعض الأحيان فيما زج بين البحث الموضوعي والنقد التاريخي والنبر العاطفي الذي يخرج به إلى الشدة فيقسو بعض ألفاظه ويغنف ، ولا سيما حين يتصل الشأن بالعقيدة أو بالقومية أو بالرافعي نفسه . ولست أجادل في أن عصرنا يحمل في طبيعته من نوازع العدوان والبغي ، ومن ظلم للعروبة والاسلام وتعمد لرجالها العظماء بالإساءة شيئاً عظيماً لا يطاق احتمالاً ولا يصبر عليه ، ولكن مواجهة ذلك بسكينة العلم ووقار الحلم وجلال الحجة أشبه بالبحث المنهجي ، وألصق بالحكمة ، وأدعى إلى الفلج ، وأدنى إلى إحداث التأثير المطلوب . ولو تورط « الرافعي » رحمه الله في أشياء من هذا العنف حين واجه خصومه وخصوم عقيدته مكرهاً لا بطلاً ومدافعاً لا بادئاً ، وكل لمن غنفوا عليه الصاع صاعين وانتصف منهم وأبلغ ، وليته إذ حشد طاقاتها كلها وقذفهم بيناته الدوامغ ، وقف عند ذلك ، ولم يخرج إلى مثل ما جبهوه به من أسلوب ، وقد كان هذا أشبه به .

وألاحظ على البحث شيئاً آخر ، ذلك هو اتساعه في الجزئيات ، وإقحام الباحث أشياء عليه يبدو بعضها ضعيف المناسبة في سياقه ، ويبدو بعضها غريباً عنه أو كالعريب . ومن هذا ما يلقي ظلاً من الجنف عن الحق كالإشارة إلى دراسة

حب المتنبي في « المقتطف » واتهام مبدعها بصدوره بهاعن « الرافعي » انسياقاً من الباحث مع المحكي له من ذلك افتثاناً وظلماً ، وكم للمعاصرين من أشباه هذا التجريح الظالم بعضهم لبعض . ومن نوافل الأشياء أن أدل على مكانة كاتب هذه الدارسة البارعة بين الأدباء ، فما مثله وهو هو علماً وبياناً وبصراً بالنقد والتحقيق والذي يصدر عن غيره وإن كان الرافعي العظيم . وعهدي بباحثنا وورصاته وارتباده الحق أنه سيفعل ما أشير به عليه من اطراح هذا وأشباهه فيما يستأنف من طبع بحثه .

تلك مأخذ طفيفة ، بجانب إحسان الباحث ، سهل خطبها ويسير تلافيه ، وما أراها تثقل على كاتب له في الإجابة آثار وحسنات ، أزجها اليه مشفوعة بالتقدير أن أتاح لي فرصة أنتهزها للوفاء لذكرى صديقي العظيم .
تمية لروح « الرافعي » وذكراه .. إنه نفعه من نفعات الله في الإنسانية ، وحناناً إلى أدبه فهو ضمير حي خالد في عقل الأمة وقلبها ووجدانها ، وإلى جهاده نبراساً يشع النور ، ومصدر قوة يستمد منه الضعفاء والمستضعفون ما يرحمه الله تعالى .

محمد بهجة الاثري

بغداد - ٩/٥/١٣٨٨ هـ

١٩٦٨/١٢/٥ م

الباب الأول

عصير الرافعي

لم يزدحم قرن من الزمان بالعنفوان السياسي ، والتحول المصيري ، والانقلاب الاجتماعي ، والتوزيع القيمي ، والافتراق الاعتقادي والبحران الفكري ، .. كما ازدحم عصر الأمام مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله .

لقد كان عصرًا عصيبًا ، مغممًا بالمآسي ، وضائقًا بالأحداث ، زها فيه وليد الثورة الفرنسية (*) ماشاء له زهو وخيلاؤه ، وعانت منه البشرية عامة ، ودنيا العروبة خاصة ، ما لم تعانها حتى في عصورها السحيقة الموغلة في القدم ، والمندثرة مع النسيان والضياع !..

(*) ما تزال هذه الثورة تتمتع بنفوذ في الدراسات التاريخية والفكرية ، .. وقد استطاعت الغزوية الأوروبية العائدة أن تمتد بها الى مناهج التعليم في الديار العربية ، حتى أشبعَت أفكار الناشئة بشعاراتها ، وسير رجالها ، .. بحيث انزاق أحد الكتبة - اب ينعت النبي محمد « ص » « بنابلي ون السماء » !

وقد تنبه أحد الأدباء العرب الى هذه الحقيقة بعد أن رأى أبناء الأمة يعرفون عن « فولتير » ما لا يعرفون عشر معشاره عن الأمام الشافعي مثلاً !

ولكن لم ينظر الموضوع أحد من ناحية النقد التقويمي ، الذي يتحري الأساس ، .. ذلك ان الصليبية الخائرة والصهيونية الماكرة قد اجتمعتا في هذه =

مسخت في هذا العصر جغرافية العالم خرائطه ، واعيد تلوينها غير مرة بتواريخ جديدة ، واجتمعت أمم ، لتحيل أخرى سواها أمماً .. وتفترق ، ولتحاول بعض من سواها من ثم الحياة القومية بجهد ومعاناة ..

= في هذه «الثورة» وكان من لقاحها «الاستعمار الذي سوغت فيه دول أوروبا لنفسها الاستيلاء على الشعوب باسم هذا الوليد المتمدن .. وانظر روما والقدس - لموشي هيمي (حايم) الذي نشر عام ١٨٦٢ م . ذلك الذي تعشق الثورة الفرنسية هذه وذهب يقول : ان ماعليتنا عمله اليوم لإعادة تأسيس وطن اليهود القومي أن نحتفظ دائماً بالأمل الذي بدأ في الثورة الفرنسية ، في بعثنا السياسي وان نوقظ هذا الأمل كلما نام ، ..

فاذا مكنتنا الحوادث التي تتأهب للوقوع في الشرق من البدء عملياً في إعادة إنشاء دولة يهودية ، فان الخطوة التالية ستكون انشاء مستعمرات في ارض الأجداد وهو عمل لا شك في ان فرنسا ستمد له يد العون » أه ثم راجع أدولف هتلر في كتابه كفاحي - حول حقيقة هذه الثورة .

الفصل الأول

الحالة السياسية

لقد اصاب الخارطة السياسية للوطن العربي عدوى الألوان التي صبغت الأقطار الأوروبية ، منذ كانت المطامع الصليبية العائدة بصورتها الاستعمارية الأخيرة (١) تلتف حول الجزيرة العربية في وقت سابق لهذا القرن (٢) ولا سيما بعد ان تمكنت إنجلترا من ترصيع تاج ملكيتها بألمع درة ، وهي ماسة الهند .. وامتدت يد فرنسا في الهند الصينية (٣) .. وكان لابد لهما من تأمين طريقهما الى هناك ، ولو بالاستحواذ على شطآن الوطن العربي (٤) ومن ثم دياره وأمصاره .. وقد استطاعت بريطانيا - من ناحيتها - عقد معاهدة لندن ، التي حصلت لمصر بموجبها على « استقلال ذاتي » في الإدارة يمكن لحكم أسرة محمد علي (٥) في

(١) مصطفى الخالدي وعمر فروخ - التبشير والاستعمار ص ٤٥ ، ص ١١٤

(٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية - ص ١٥٤ وما بعدها .

(٣) مصطفى الخالدي وفروخ - التبشير والاستعمار ص ١٢٨

(٤) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٢٤ وما بعدها .

(٥) جورج أنطونيوس - بقظة العرب ط ٢ ص ٨٠

سابقة انفصالية خطيرة ؟ .. مبيتة في ذلك جريمة تاريخية منكرة ، تظهر بعد هذا
بقرن ونيف في مأساة فلسطين ! ... ثم واصلت - من ناحية ثانية - إتصالها
بالمنطقة العربية على يد وكالاتها التجارية والقنصلية ، ومواقع أقدامها التيشيرية
- البروتستانتية - الأنجليزبة - ، التي تسابق أقدام فرنسا « الجزويتية » (١)
.. في التسلل الى جسم الدولة العثمانية ، التي أرهقها الزمن وغلبت عليها
رقعة الأرض (٢) .

وقبيل هذا التاريخ كانت فرنسا قد جربت التجرش بالدولة العثمانية لجس
النبض ؟ فألقت بكاملها ومبادئ « ثورتها » على جزائر المغرب العربي استعماراً
غاشماً وغادراً (٣) وكانهما كانتا تسابقان الأرثوذكسية القيصرية - الروسية في
هذا المحاولات الدنيئة .

وبعد ذلك بربع قرن مدت أصابعها - فرنسة - الى لبنان - حيث المواردنة
والكاثوليك : لتسبب في أحداث فتنة طائفية رعناء بين المسلمين والنصارى عام
١٨٦٠ م فتتخذها ذريعة تفسح فيها لنفسها المجال الذي تزعم فيه حماية النصارى ،
وتأخذ لتصرف (محافظ) بيروت من الدولة العلية نصرانية - أولاً ، وتفرنسه
الميسوعي من ثم بسابقة خطيرة (٤)

ثم التفت حول المغرب في تونس .. بقروض دفعت الى فتنة داخلية

(١) الخالدي وفروخ - التبشير والاستعمار ص ٤٥ ، ٥٤

(٢) ساطع الحصري - الدولة العثمانية والبلاد العربية ص ٢٤

(٣) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية - ص ١٥٦

(٤) نفس المصدر ، وانظر جورج أنطونبوس - بقطة العرب ص ١٢٦ ،

وانظر عبد القديم زلوم - مصرع الخلافة .

عام ١٨٦٤ م ، وانتهت بتدخلها السافر (١)

وكان محمد سعيد « الخديو » قد منح نائب قنصلها بالاسكندرية - فردناند دليسبس - إمتياز حفر قناة السويس قبل هذا بعقد من السنين ! ..

وقد استطاعت فرنسا وانجلترا من ثم ان تلتقيا بشباك القناة معاً علي مصر - الصيد الثمين - يوم فرغت خزائن « الخديو » - المستقل بمصر حوزة عن الدولة - وارنكس بجمأة الديون عام ١٨٦٩ م (٢)

وحوالي هذا التاريخ كانت - شركة الهند الشرقية - في البصرة وبغداد تحاول مع القنصل البريطاني أن يعمل معاً علي زيادة عدد المترددين علي مكاتبهم من اليهود المنتفعين ، وغيرهم من ضعاف الخلق الأعاجم والنصارى .. وحتى المسلمين (٣) وخلال ذلك الفصل من أيام الأمة ظهرت حركة انفصالية في اليمن يقودها إمام الزيدية ، . . ولا تستطيع الدولة العثمانية قمعها ، . وإنما تظهر بواقعها الذي تضطر الدولة العلية الي الاعتراف به عن عجز غير خاف (٤)

وفي الوقت الذي كانت فيه انجلترا تتحسين الفرصة للأفراد بمصر حوزة ، كانت يدفرنسة تمتد لاستكمال أسباب الحماية تلقياً علي تونس والمغرب . . حيث حاصرت قصر الباي ، وأرغمته علي توقيع معاهدة تبيح لها ما تشتهي من أطايب

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ١٧١ ، وكذلك الخالدي وفروخ - التبشير والاستعمار ط ٢ ص ١٣٥ الخ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - عصر اسماعيل ج ٢ ص ٩٠

(٣) عبد الرزاق الحسيني - تاريخ العراق الحديث ج ١ - المصالح الاجنبية ص ٤١ ، وكذلك - محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٤٦

(٤) أمين سعيد - ثورات العرب ص ١٤٢ ، الهلال مجلد عام ١٨٩٢ م

البلاد عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ م (١) .

فقد استغلت فرنسا حوادث حدود في تونس ، وانتهزت إنجلترا فرصة عند ثورة الجيش العرابية ، التي كانت قد فرضت على الخديو توفيق وأركان حكمه - نظام الشورى ، وتسليح الجيش بعد ان اضطر الثوار الى مظاهرة عابدين في ٩/٩/١٨٨١ م ، إذ ان الخديو لم يستجب لمطالب أحمد عرابي التي قدمها باسم الأمة في ١٥/١/١٨٨١م (٢) ثم خيانة توفيق الظاهرة ، وطلبه حماية الانجليز . . . (٣)

فكان يوم ١٢ آذار - مارس في تونس ، و٥ حزيران - يونية في مصر ١٨٨٢ م . وافتعال حوادث معينة تسوغ لهما مثل ذلك التدخل السافر ، كالذي حدث في ١١ تموز - يوليه ، . . . وما أدى من ثم الى تسمية « المسألة المصرية » في مؤتمر - الأستانة المنعقد بعد هذا التاريخ (٤)

وما كانت مصر على استعداد تام للمعركة ، ولا كان في بال الثوار مثل هذه الخيانة ، . . . فباغتتهم الانجليز غدر أبعمركة التل الكبير في ١٣ أيلول - سبتمبر ١٨٨٢م - التي دخلوا بعدها القاهرة في اليوم التالي دون كبير عناء (٥) بالرغم من التشبث في

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ١٧١

(٢) يصادف هذا اليوم ولادة الامام الرافعي في الأول من رجب ١٢٩٨ هـ

(٣) كرومر - ترجمة عبد العزيز عرابي - الثورة العرابية ص ٨ - وعبد الرحمن

الرافعي - الثورة العرابية ص ٢١٠

(٤) عبد الرحيم مصطفى - تاريخ مصر الحديث - المسألة المصرية ص ١٨٥

(٥) عبد الرحمن الرافعي - الثورة العرابية ص ٤٤٨ وما بعدها

محاولة الأعاقبة ؟ التي كانت ربما تكلفهم ردم القناة عند الأسمايلية (١) وليس من توارد الحوادث - أو من قبيل الصدف كما يعبر عنه خطأ - ان يكون احتلال مصر في هذا التاريخ ، الذي ظهر فيه كتاب الصهيونية الأول الموسوم بـ « التحرير الذاتي » الذي أصدره « بنيسكر » على أثر ما أحاق باليهود في دول شرق أوروبا - روسية ورومانية وبولندية (٢) . . وإنما كان ذلك الحلقة الثانية في السلسلة البريطانية الملتفة حول مصر بالذات من الدنيا العربية ، منذ أن مهد أمثال نوبار (باشا) في عهد اسماعيل للانتكاسات المالية والأقتصادية التي جاءت فيها تنمة الحلقة لما كان قد بدأ بتكليف البلاد طاقاتها كما مر . . .

لقد كان ذلك بالرغم من مظاهر البعث الثقافي والفكري التي أشار إليها المؤرخون في ذلك العهد (٣) * *

ولا يفوتنا أن المقاومة ، والاتحاد العام بين قوى الأمة لم يقتر في انتفاضات ، تتخلل ذلك التاريخ في حركات وطنية ، وأخرى ثورية متلاحقة ، مثل التي قادها الأمير عبد القادر الحسيني في الجزائر ١٨٣٢ - ١٨٤٧ م ضد فرنسا الثورة (٤) . . وعلي بن خليفة في تونس ١٨٨٢ - ١٩١١ م (٥) وأحمد عرابي في مصر (٦) وحركة محمد أحمد الذي « تمهيدى » في السودان ١٨٨٥ - ١٨٩٦ م والتي

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) كمال رفعة - الاستعمار والصهيونية ص ٥

(٣) الياس الأيوبي - تاريخ مصر في عهد اسماعيل ج ١ ص ٢١٨

(٤) ، (٥) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٠٨ ، ٤١٧

(٦) انظر في ذلك - عبد الرحمن الراغب - أحمد عرابي ومحمود الخفيف

- الزعيم المفترى عليه ومذكرات احمد عرابي .

كان يسببها ومضاعفاتها إضاعة الكثير من أجزاء الوادي لقماً في أشد اق الاستعمار بينه
الاطالين في الحبشة (أثيوبيا) والبلجيكين في الكونغو ، والانجليز في أوغندا (١)
ولا سيما بعد هزيمة خليفة عبد الله التعايشي ، الذي أرسل باللواء النجوي الى
وادي حلفا في رمضان ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٩ م - في معركة « توشيكي »
الشهيرة (٢) .

.. على ان ظهور الزعيم مصطفى كامل ١٨٩٠ - ١٩٠٨ في حركة
« الحزب الوطني » كانت فتحاً مباركاً في كبريات نقاط التحول بالحركة القومية ،
لا لمقاومة الانجليز فحسب ، بل لإضاعة لخطوات العمل المباشر في النهضة الحديثة (٣)
ولا سيما بعد ذلك « الاتفاق الوادي » الذي عاد بين فرنسا وانجلترا عام
١٩٠٤ م (٤) وقد بذرت فيه بذور اقتسام الوطن العربي من ثم في الحرب الكبرى .
هذا في حين كان المشرق العربي - في الجزيرة والشام والعراق - ورجالاته

(١) (٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٤٣ - ثم القضاء على
الحركة المهدوية الأخيرة في السودان بقيادة انجليزية وحلة مشتركة مصرية -
انجليزية ، .. عقدت على أثرها اتفاقية الحكم الثنائي في السودان عام ١٨٩٩ م ،
والتي ارتضخ لها الخديو عباس حلمي الثاني مهادنة منه للانجليز ، .. وكان من
أسوأ هذه الاتفاقية تصوير المصريين بالمستعمرين مشابهة للانجليز واقراءاً بهم -م- ،
ورفع العاملين المصري والانجليزي في السودان معاً ، .. مما أدى اليوم الى مثل هذه
الانفصالية الرعناء التي يعيش فيها شطر الوادي الجنوبي في اضطراب ، وغير
قليل من قلة الاستقرار .

(٣) انظر عبد الرحمن الراجعي : مصطفى كامل ، وكذلك - ذكرى مصطفى
كامل - جمع وترتيب صادق غنيم .

(٤) انظر عبد الرحمن الراجعي - مصطفى كامل ص ٣١٤ .

يلتفون حول دعاة الإصلاح في الادارة العثمانية ، عند جمعية الاخاء العربي - التركي
أو داخل جمعية الاتحاد والترقي نفسها ، ويكادون يذوبون في صفوف العثمانيين .
إذ لم تكن تجول في رؤوسهم فكرة التحرر الاقليمي - على الاقل - ضمن
الكيان الاسلامي كما هي حركة الحزب الوطني في مصر ١ . . . وحتى الدعوة الى
« اللامركزية » لم تكن عندهم في مثل الوضوح الذي كانت عليه في صفوف المصريين
من رجالات جمعية العروة الوثقى ، والجمعية الخيرية ، . . . وحتى جمعية « شمس الاسلام »
التي نهض بها في مصر - واجهة علنية لحزب اللامركزية - الشيخ محمد رشيد رضا ، . .
بالرغم من الفواجع الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تكلف أبناء الديار العربية
بعمامة نكالاً مما يقترفة الحكام الاتراك (١) .

ذلك أنهم كانوا يحسبون مثل هذا التحرك أو الأنعطاف في مسألة الحكم ، . .
إنفصالاً (٢) لا تستعد له الامة بحال ، . . . ويرون فيه خروجاً على وحدتها في
الصورة الاسلامية التي كانت عليها دولة بني عثمان ١ . . .

ومن أجل ذلك يذهبون مع الاتراك في محاولة تسويق مواقف هؤلاء الحكام
من قضايا الامة بعمامة ، وديار الوطن العربي الذي راحت بعض أقطاره تنفصل في

(١) ساطع الحصري - البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٦٨ ، وكذلك جورج

انطونيوس - بقظة العرب ص ١٨١ .

(٢) الدكتور محمد بديع شريف - دراسات تاريخية في النهضة العربية

ص ١٧ ، ١٠٠ وما بعدها .

وانظر كذلك محمد سعيد العريان - احاديث قومية - فصل الحركة

الانفصالية الاولى ص ٢١٥ .

استقلال داخلي مزعوم ، لتستضعف من ثم وتستخذي أمام لبوات الاستعمار ..
كما في اليمن والجزائر ومصر ..

وقد يلتمسون التعلات لمثل الموقف المتفرج الذي اتخذته الدولة العثمانية بغفلة وسوء
طوية من مأساة ما يحدث أمام عينيها، كالذي أصاب العرب في الأندلس، ويمكن
للاقوام الرومية من مكثونية وقبرص «١»

ولا بد من الإشارة هنا الى الحركة العربية الثائرة في الجزيرة العربية ، التي
قام بها الحنابلة بزعامة محمد بن عبد الوهاب في وقت سابق لهذا التاريخ ، والتي حسبها
بعض المؤرخين بمثابة موجة عربية جديدة تطلع في دنيا الجزيرة العربية «٢»
فقد تعاون محمد بن عبد الوهاب مع محمد بن سعود رأس الاسرة السعودية على
ان يمتد سلطانه ويشمل الجزيرة وما حولها ، .. حيث وقفت الدولة العثمانية
من الحركة - حائرة باثرة ! ..

ولو لم تكن في مصر يومها حركة عربية - مصرية أخرى يقودها عسكرياً
إبراهيم «باشا» ، لكان لتلك الحركة - الوهابية - شأن آخر في التاريخ العربي الحديث «٣»
(١) راجع محمد رشيد رضا - العرب والأتراك النار مجلد ١٢ ص ٩١٣ وكذلك
توفيق على برو - العرب والأتراك ص ٣٨ .
(٢) محمد أسعد طلس - تاريخ الامة العربية - الجزء الاول -

الموجات السامية ص ٧ .
(٣) إبراهيم «باشا» من افراد القيادة القلائل في التاريخ ، وهو ابن السيدة
أمينة علي زوج الخديو محمد علي ، من زواجه الاول بالتاجر الحلبي ، .. وقد
سمي إبراهيم علي الخديو محمد علي تيمناً في بادئ الامر ، ثم غلب المؤرخين احتسابه
الابن الأكبر لمحمد علي مع ما كان يظهر من تقارب عمرهما - أنظر مذكرات النبيل
عباس حلیم في المصور ١٩٥٥ م

ويلوح لنا أن الدولة العثمانية كانت قد نظرت الموضوع من زاوية حادة ، تملئها عليها طبيعة تكوينها العسكري ، وقيامها في العالم الحضاري آنذاك .. فعمدت أن تضرب الحركة السعودية - الوهابية بالقوة المصرية . ليضعف كلاهما أو أحدهما ، . . ولكنها خابت آملا . .

فقد لحق إبراهيم (باشا) بالحملة التي قادها طوسون بن محمد علي في آذار ١٨١١ م ، وتبعه بعدها الخديو محمد علي نفسه حاجاً عام ١٨١٢ م - وبتجهيز آخر عام ١٨١٦ م ، قضى فيه على الامير عبد الله ، وأوقعه في الاسر ، وتم له النصر حتي أضحت الجزيرة تابعة لمصر من الناحية الادارية والعسكرية «١»

وبذلك تم إيقاف الموجة النجدية الجديدة ، وتماظمت قوة إبراهيم العسكرية ، وظهرت بوادر زعامة عربية فيه من ثم ، . ولا سيما بعد وضوحه قومياً في الديار الشامية ، وتقربه من العرب - الذين هم أحق بالحكم في رأيه وبهم وحدهم يستطيع بعث الحياة في الحكم الاسلامي «٢»

فقد كان تحرك هذا القائد العظيم نحو الديار الشامية لامر عسكري يعيد فيه هيبة السلطان ، ثم تطور الحال ، فزحف الى دمشق وحلب ، ووصل أطنة - ولولا تدخل الجهات الاجنبية التي سعت للصلح بين الخديو والسلطان ، . . ولولا خشية محمد علي نفسه من طموحه فلربما استطاع ان يعيد بنيان الدولة العربية «٣»

(١) جبل الخانكي - أعلام النهضة الحديثة - الكتاب ٩ - ٣ ص ٥٤٧

وكذلك - » » » - » ١٠ - ٤ ص ٥٧٦

(٢) نفس المرجع . (٣) جورج انطونيوس - يقظة العرب ص ٨٢ وما بعدها

في ما سبق ص ١٦ ، وكذلك المقدسي الاتجاهات الادبية ص ١٦ .

ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً ويتصل بسبب من هذا، أن التحرك السعودي الثاني عام ١٩٠٤ م، الذي أحدث فتنة نجد، والمساجلات الملحمية ما بين آل رشيد وآل سعود قد ترك للدولة العثمانية ساكنة لا تحرك شيئاً .. حتى أطمع فيها الحلفاء «١» ومع ذلك كله وكثير آخر غيره مما لا يتسع المجال لذكره ، .. بقي المشاركة العرب على رأي الولاء أو قريباً منه طيلة عهد السلطان عبد الحميد الثاني - رحمه الله - «٢» لا يرون له بديلاً ،

قال الأمير شكيب أرسلان من قصيدة :

دولة حجة الزمان على الخلق بها دون مصرية الزام
ليس للشرق غيرها فبنوا الشرق طراً بدونها أيتام
لا ترى دولة هزالاً وضيقاً حولها المسلمون والاسلام
وعلى رأسها خليفة عصر دهره تابع له وغلाम
وقد التفت نحو هذه الظاهرة جورج انطونيوس في كتابه « يقظة العرب »
حين قال :

« لم يكن من شأن الدور الذي اتخذه السلطان عبد الحميد لنفسه وهو دور الخليفة الورع - ان يكسب ولاء الملايين من رعاياه عن رضى منهم فحسب ، بل كان من شأنه أيضاً الفوز باجلال ملايين كثيرة أخرى من المسلمين المقيمين خارج مملكته - كندا - والتابعين لبريطانيا العظمى - كندا - وفرنسة وروسية - تأمل !

وربما كان يستهدف الفوز منهم بأكثر من الاجلال ، .. لقد كان يطمع

(١) انظر الهلال - تموز - يولية ١٩٠٥ .

«٢» الدكتور محمد بديع شريف - دراسات تاريخية في النهضة العربية ص ١٧

أن يصبح رأس العالم الإسلامي بالاسم والنفوذ، .. ومما لا شك فيه أن أي نجاح
تصيبه هذه السياسة كان لا بد من أن يزيد مركزه قوة في الميدان الدولي .
ويضيف الى ذلك قوله « .. وعلى المبدأ القائل بأن القداسة تبدأ في البيت
أحاط حياته الخاصة بأطوار من التقى والتقصف، فكان يقوم بجميع «الطقوس» - يريد
الشعائر الإسلامية - بمثابة شديدة، وقد قضى على العادات الفاسدة التي غلط فيها
أسلافه، إذ مارسوها - بحزم ومهارة ، وأحاط نفسه برهط من الفقهاء كان يتمتع
بعضهم بشهرة و نفوذ، فعمد إلى تسخيرهم لتوزيع الصدقات، والوعظ والدعوة اليه»^(١)
وهذه عبارات لولا ما اندس فيها من نظرة صليبية تعمدت كلمات خاصة .
لجاءت صورة تدق في التعبير الواقعي لمعاناة السلطان. (٢)

فقد كان من سياسته التودد التي أبدأها للعرب ، وكون شرفائهم محل عنايته ،
وأهل رعايته في عاصمة الإسلام «إسلام بول» حتى لقد أضحت الخلافة وكأنها ممثلة
بسلطانه وعلم النبوة كأنه يد صولجانه : قال شوقي فيه :

لأيه عبد الحميد جل زمان	أنت فيه خليفة وإمام
ما رأيت مثل ذا الذي تتبني	أقوام مجد أولن ترى الاقوام
رافع الضاد للسهي هل قبول	فيباهي النجوم هذا النظام
قامت الضاد في في لك حبا	فهي فيه تحية ولابتسام

«١» جورج انطونينوس - يقظة العرب ص ٦٨ . ٢» انظر في ذلك - مصرع
الخلافة لعبد القديم زلوم فصل خلع السلطان وكذلك جواد رفعة - الخطر المحيط
بالاسلام ص ١٤٢

وقد نقل عنه أنه كان بسبيل إحياء سنة السلطان سليم بتعريب الديوان وجعل العربية اللغة الرسمية للدولة «١» ومن ثم السعي لتعريب الخلافة نفسها وصرها عن الأتراك المحدثين الذين ما دعوها حق رعايتها، . . وينسب ذلك كله إلى أرومته العربية التي يرتبط بوشائجها عن أمه الزكية . وإلى ذلك يشير شوقي في قوله :
ان عبد الحميد سيف نضته آل عثمان هاشمي المضاء

ومن أجل ذلك أيضاً كانت حظوة الشريف حسين بن علي ، ومكانة أبي الهدي الصيادي ، وغيرهم من فضلاء العرب ، . . وكذلك محاولاته تعهد الشريف فيصل بن الحسين وأخوته لديه في العاصمة (٢) فلا بدع أن نرى الرافعي يقول من بعد :

يامالك الشرقين يارب النهى يا أمراً في العالمين وناهي

يا صاحب الحرمين يامولى الأنا موحامي الدين الحنيف الزاهي

ياراغماً أنف العداة بحكمة قد غادرت ركن الممالك واهي

ولكن سرعان ما اصطدم العالم الاسلامي بأنتقلاب جمعية « تركيا الفتاة » الى جمعية الاتحاد والترقي التي سارعت بالانقلاب في العاشر من تموز - يوليو ١٩٠٨ وعودة « الدستور » وكأنه المشكلة الرئيسة (*) وظهور التتريكية الطورانية من ثم ولا سيما بعد مجزرة الاستانة في ٣١ آذار - مارس ١٩٠٩ م وخلع السلطان عبد الحميد وحل جمعية الأخاء العرب - التركي (٣) .

«١» محمد شيد رضا - المنار ج ٦ م ٢ - المحرم ١٣١٨ هـ - نيسان ١٩٠٠

«٢» جورج انطونيوس - بقظة العرب ص ١٣٩ .

(٣) نفس المصدر السابق - ص ١٨٢

(٥) من النزاعات السياسية التي ظهرت في العصر الحديث - شرعية الانقلاب =

فمئذ نذراح العرب يفتشون عن أنفسهم ، ويتنادون للانتظام في جمعيات أدبية وسرية ، ومنتديات عسكرية ومدنية ما بين عامي ١٩٠٨ م و ١٩١٤ م . كالجمعية القحطانية ، والعربية الفتاة ، والعهد وغيرها (١) .

وهذه الأنعطافة في الحركة القومية هي التي انتظمت العرب من ثم وقربت الامة العربية من الثورة ، بعد أن أدخلت الفكرة في حيز النشاط والعمل لأبناء « الدولة العربية » بعيداً عن العثمانيين ، . . ولا سيما بعد أن يئس العثمانيون العرب - أو كادوا - من تعريب الخلافة أو إيجاد الكيان العربي ضمن الدولة العثمانية الاسلامية نفسها (٢) ، وبعد أن أضحي تعريب الخلافة ضرباً من المستحيل مع جماعة الترقى - الماسونية - التي أرادت صرعها من أول يوم (٣)

= من اجل شعارات ؛ لا تلبث ان تكون فصولاً لمأساة حكم مستبد آخر أفضع وأنكى باسم هذه الشعارات . ومن ذلك ما حدث في تموز ١٩٠٨ م من الانقلاب العثماني ، وعودة الدستور ، وظهور الثالوث الصليبي - الماسوني « حرية . عدالة . مساواة » التي طمست الطورانية معانيها من ثم ، بحيث ما زال الناس يترحمون على من سبق من عهد رغم ما صوروهول من أسوائه . قال الفاروقي من قصيدة يصورها المآل :

كنا نعلل بالدستور أنفسنا بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثاً ولا استجيب لنا في مطلب طلب

- (١) النظر في ذلك أحمد عزة الاعظمي - القضية العربية ، ومصطفى الشهابي - القومية العربية ، وساطع الحصري - نشوء الفكرة القومية ص ١٦٤
(٢) أنظر - جورج أنطونيوس - يقظة العرب - الفصل الرابع والفصل الخامس - ففيهما تفصيل كبير .
(٣) انظر عبد القديم زلوم - مصرع الخلافة - فصل - جمعية الاتحاد والترقي .

ومن ناحية أخرى كان العالم نفسه يعاني من تحركات عسكرية ، ومحاولات
وطنية جرّتها الحروب عبر القارات ولاسيما بعد الحرب الروسية - اليابانية ١٩٠٣م
وما سببته في عرقلة المواصلات البرية والبحرية ، وشيوع الغلاء والجوع (١)
وقد أرسل الرافعي في ذلك اشعاراً عديدة منها ما يقف مع اليابانيين باعتبارهم
شرفيين حتى ليقول :

يا منبهضي الشرق نصر الله يتبعكم وإن كفرتم .. فما للكفر من خذلا
سرّ الأنعام عقول في رؤوسهم والله أكرم من أن يخذل العقلا
ويقول بعد الصلح بينهما في عام ١٩٠٥م :

وغىّ وسلام للمطامع والهوى وإن قيل أوثان وقيل صليب
حتى لقد قال في قصيدة أخرى يصف من حال الناس في تلك الأيام :
ومن نكد الأيام في حتف صرفها لذي الحكم أن يبلى بمن يتحكم
صغار وأوباء وبؤس وقد أتى لشقوتنا هذا الغلاء يتمم
وفي هذا المضطرب العالمي الرهيب والاحتدام العربي الغريب ، والذي يكاد
ينغلق في دورانه حول نفسه ، كان « الاستعمار » ماضياً في أشواطه الباقية ، ممتداً
بجبروته على المشرق والمغرب ، يلقف من أفريقية البلدان ، وبزرد في آسية الموافيء
والخلجان . . . ولا سيما بعد أن أطارت صوابه أمريكا ودولتها الناشئة ،
وتركته في غيرها من التخوم والاصقاع يفتش له عن أماكن أخرى . . .

إذ نجد - بالرغم من إرتقاء عباس حلمي الثاني خديوية مصر بعد وفاة أبيه

(١) انظر صحف تلك الأيام ، ومنها المقتطف والهلل - نيسان - ابريل ١٩٠٤م

(توفيق) عام ١٨٩٢م، ومحاولته التقرب من القوى الوطنية في البلاد غير مرة - لا يستطيع في ذلك حولا ولا قوة، لأنه لم يكن يملك من الأمر شيئا، . . . بعد أن غدا «كرومر» المندوب السامي البريطاني في مصر ١٨٨٣م - ١٩٠٧م . الحاكم الأول مع وجود الخديو والوزارة المحلية والتشكيلة المدنية الأخرى . . ماضيا في السياسة التي رسمها للنهوض بمصر وتحويلها إلى دولة حديثة بأسلوبه القسري الذي ضمنه من ثم كتابه (مصر الحديثة) (١)

وكانت الحركة اليهودية قد مرت بمراحل، زار خلالها (مونتيفور) أرض فلسطين عام ١٨٣٨م، وحاول هايي ربط «روما وأورشليم» بالدولة اليهودية التي اعتبرها مبتدأة بالثورة الفرنسية . . (٢) وأخذ ينسكركم يدعو اليهود للتحرير الذاتي -

وفي تلك الأيام الغائمة نشر الصحفي النمساوي تيودور هرتزل كتابه «الحل الصهيوني» - ١٨٩٥م الذي رأى فيه قيام دولة اليهود على أرض تكفي أمه محترمة (٣) كما انعقد المؤتمر الصهيوني العالمي عام ١٨٩٧م الذي أجمع على أن تكون فلسطين هي أرض الدولة اليهودية (٤) وقد حدث بعد اتفاقية الحكم العثماني - الإنجليزي - المصري، في السودان عام ١٨٩٩م ووقوع حادثة «فاشودة» (٥) أن حصل «اتفاق ودي» بين إنجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤م . جاء فيه العمل على فصل العروبة في آسية عنها في إفريقيا ببقاء خاص مع الصهيونية، حيث اقترحت

-
- (١) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ١ ص ٨٠ وما بعدها . . . وقد ترجم الكتاب إلى العربية . (٢) محمود كامل - عروبتنا ص ٧٤، ٧٥ . (٣) كمال رفعة - الاستعمار والصهيونية ص ٦ «٤» المصدر نفسه . «٥» فاشودة : في جنوب السودان وكانت فرنسا قد احتلتها متسابقة مع =

بريطانية تأسس مستعمرات لليهود في سينا عملية أولى في هذا الفصل (١)

غير أن بريطانية عادت بعد هذا - لسبب غير واضح بل لعله مناورة محكمة اليهودية - تحاول أن ترى على الصهينة أن يجعلوا من أوغندة محطة تجمع أولى لليهود (٢) ولكن المؤتمر الصهيوني الذي اجتمع عام ١٩٠٨ م رفض هذه المناورة - المتباطئة - وأصر على تعيين (ارض الميعاد) في فلسطين (٣) .

وهنا وقع الانقلاب العثماني في العاشر من تموز (يوليو) ١٩٠٨ م بحركة الاتحاديين المعروفة (٤) فقد يش هرتزل من الحصول على امتيازات دينية لليهود

= حليفها في الوقت الذي كان فيه كمشتر يقر الحملة المصرية للقضاء على دولة الدراويش في السودان فثارت الحادثة حفيظة بريطانية ، . . ثم جرت التسوية المشار إليها باطلاق يد فرنسا في الجزائر والمغرب كما تحتفظ إنجلترا بوادي النيل - انظر محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٤٤
(١) كمال رفعة الاستعمار والصهيونية ص ٦

(٢) ، (٣) كمال رفعة الاستعمار والصهيونية ص ٦ - وقد يكون السبب هو في بأس هرتزل من الحصول على اراضي في فلسطين يقر السلطان عبد الحميد بيعها !
(٤) بدأ الانقلاب بتيار اثار هياجاً عاماً في بعض الولايات العثمانية ، اضطار السلطان عثم الحميد أن يتلافى الحرب الأهلية ، فأصدر أمره باعادة الدستور الذي كان قد عطله بعد تشريعه بسنتين عام ١٨٧٨ حفظاً للدولة من الضياع في الديمقراطية السياسية السائدة اكما أمر بالاعداد للانتخابات وأطلقت المدافع اعدى وعشرين إطلاقاً في العاشر من تموز ١٩٠٨ م .

ويظهر ان مثل هذا التدبير الوقائي لم يرض المجموعة المحافظة من سواد الأمة وقد خشيت منه على الصورة الإسلامية للدولة ، . . فاهتلتها العناصر الدسيسة فرصة للإيقاع باركان الدولة الذين لا يرون في التغيير الدستوري فائدة ما ، ان لم يكونوا يرون عكس ذلك ، . . وقد ثار الجنود وبعض الفقهاء وعدد غير قليل من العرب العثمانيين في آذار ١٩٠٩ م مطالبين بإلغاء الدستور والاجراءات الأخرى =

= وإعلان الشريعة المحمدية ، .. محاولة منهم لإعادة هيبة السلطان والحيلولة دون تمكن الدول الكبرى من العهد الجديد .

ولم يجد الخليفة بداً من الاستجابة فسارع الى تأليف حكومة جديدة ، وأطلق المدافع مئة إطلاقاً وإطلاقاً .

ولما وجد الاتحاديون أنفسهم أمام حقيقة كبرى ، تحاول أن تأخذ بخناقهم ، وتلقى بهم في مهاوي الرذيلة مع الخونة والمجرمين ، .. سارعوا الى بذل جهودهم الأخيرة يعاونهم بها « الماسون » بتفتيق ذهني يهودي ، يخشون معه انتكاسة حركتهم الانقلابية وافتضاح أمرها ! . فلدسوا بين الجماهير الثائرة مجموعات من أنصاف المجاذيب والخونة والمأجورين - تعمل على تلهيخ الحركة الإسلامية المضادة للاتحاديين الماسون ، بأعمال ليست منها في شيء ، .. مع أولئك الذين عناهم الشاعر بقوله :

خَلَوْا الطَّرِيقَ لِمَعْشَرِ عَادَاتِهِمْ حَطَمَ الْمَنَاقِبَ كُلَّ يَوْمٍ زَحَامُ
كَمَا تَلَفَتُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ لِيَجِدُوا ضَابِطاً (عربياً) يَقُودُ فِصَالِ أُخْرَى مِنَ الْجَيْشِ ،
لِيَزْحَفَ عَلَى الْعَاصِمَةِ فِي نَيْسَانَ ١٩٠٩ م ، ويدخل القريق محمود شوكة ومعه عارف
حكيم و « كارسو » قارصو اليهودي نجلي السلطان عبد الحميد في قصره ببلد يطلب
اليه التنازل حقناً لدماء الأمة وبإسمها ، .. وتوظيفاً للشروطية « العهد الجديد »
.. وقد أطل عبد الحميد النظر اليهم ، .. وسألهم عن مهمة قارصو في الأمة ! .
وهكذا جاءوا بأخيه محمد رشاد وقد جاوز الخامسة والستين من عمره ، وهو
بعيد عن السياسة ليكون العوبة بأيديهم ، وليقوموا من ثم بجزرتهم الرهيبة التي
ما أنصفها المؤرخون حتى اليوم ! ..

وانظر في ذلك جواد رفعة - ترجمة وهي نزل الدين - الخطر المحيط
بالاسلام ص ١٤٦ .

وكذلك عبد الكريم زاوم - في مصرع الخلافة : وساطع الحصري - البلاد
العربية والدولة العثمانية ص ٩٥ وما بعدها .

وكذلك جورج انطونوس - بقطة العرب ص ١٧٥ وتدبر !! ..

في فلسطين يقرُّ بها السلطان عبد الحميد، حيث استطاع العرب - رغم جميع الغريات
المادية - تبصرة السلطان بحقيقة المؤامرة ، .. وكان من فضائل محبة العرب وسماع
آرائهم والاستئناس بأفكارهم كما قدمنا (١) وكانت قد جرت محاولة اغتياله غير مرة! ..
ومن هنا اكتنف الغموض حركة الاتحاديين أولاً ، وأشارت اليهم أصابع
الأتهم - بالرغم من التبريج السياسي والأعلامي الذي ما يزال يظاھرهم
الى اليوم ! .

ذلك أنه لم يكن خافياً أن للدول الأوروبية يد وراء الأحداث التي سميت على
الدستور في الدولة العثمانية ، فقد سبقتها محاولات إحلال القوانين المدنية ، .. التي
نجعتهم فيها الدولة بمجلة الأحكام العدلية التي بوبت الفقه الاسلامي على الطريقة
المحدثة في المواد القانونية ، مما لا مجال للافاضة في الحديث عنه هنا .

كما ان « الماسون » (*) كانوا يؤلفون القسم الأعظم من أفراد جمعية الاتحاد
والترقي هذه ، ولهم اليد اليهودية الطولى فيما أصاب الدولة من ثمم بما في ذلك
التريكية الطورانية ، التي أبعدت العرب العثمانيين أنفسهم عن الجمعية ، وحلت
منظمتهم الأخرى « الأخاء العربي - التركي » .. الخ مما أسلفناه (٢)

على أن من مضاعفات ذلك الانقلاب ما كان بدء في تلك المجزرة الرهيبة التي
أعقبت أحداث آذار ١٩٠٩ م ودخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب الألمان
وما تلى ذلك من أحداث مزقت الوطن العربي والاسلامي (٣)

(١) أنظر جورج انطونيوس - بقطة العرب ص ١٣٩ - وعروبتنا ص ٧٧

(٢) أنظر بديع شريف - دراسات في النهضة العربية الحديثة ص ٨٨

(٣) الماسون : او البنائون الأحرار - كما يحلو لهم ان يسموا أنفسهم ، ...

ومن ناحية أخرى نجد الحركة الوطنية في مصر تنمو بموازاة هذه الخطوط المبطنة ، وكان لظهور الزعيم مصطفى كامل ، وحركة الحزب الوطني الذي ما فتئ .

=ويزعمون انهم اقدم جمعية في العالم نشأت منذ عهد الرومان الذين كانوا يضطهدون عمال البناء .. وانتظم معهم من ثم المضطهدون الآخرون الذين كانوا ضحايا الفتح العربي الاسلامي ! .. ومن هنا كانت « انسانية » هذه المجموعات تجتمع في الأحاد للعروبة ودينها ، .. فهي تقفل في منتسبها التفكير المنتج ، والعقل المدرك وتسيرهم في درجات .. حتى الثالثة والثلاثين وتترك الدرجة الرابعة والثلاثين لرئيس المنظمة الصهيونية العالمية يتربع عليها ، فيكون الأفراد الماسون من سائر الملل والديانات تحته في الرتبة ، وتبعاً له في العمل والتدبير وانظر في ذلك ما أخرجه أبو صادق من مصنفات في الموضوع عن دار البصري .

(٣) يزعم بعض المؤرخين أن الانقلاب العثماني كان قد فاجأ الدول الكبرى « الأوروبية » بغرابة أربكتها سياستها ! ولكن المتأمل فيما أعقب الانقلاب الأثيم من حركات الانفصال والاقطاع في الولايات العثمانية . يدرك مدى هذه - المفاجأة المربكة !! - التي تضحك من مؤرخيها .

وتأمل في استقلال بلغاريا انفصالا بعد عودة الدستور العتيد مباشرة ، وكذلك الحاق البوسنة والهرسك بالنمسة ، واستيلاء اليونان على جزيرة كريت ، ثم قبرص .. وزحف إيطاليا على طرابلس الغرب وضياع جزر البحر المتوسط في الأرخبيل وما تلى ذلك من الانفجارات الداخلية ...

١ - الثورة الغربية في الحجاز والشام والعراق ؛ وما أدت اليه

٢ - الحركة الكمالية التي استغلت الروح الوطنية والاسلامية بدء في جبهة قومية عريضة .

٣ - مصرع الخلافة . وما صنعه في ذلك اهل الردة من اليهود المتمسلمين

يناوي، الانجليز بأقرار السيادة العثمانية، وعدم الاعتراف بشرعية الاحتلال، ثم إقتراف
الانجليز مذبحه (دنشواي) (*) حتى غدا الشخص مصطفى كامل شأن عظيم، أصبح فيه أمل

« الدونمة » مع مصطفى كامل .

ففي وقت سابق كانت الدولة العثمانية قد آوت إليها عدداً من اليهود بعد الذي
أحاق بهم بعد مأساة العرب في الأندلس ولكنهم لم تكن تستقر بهم الحياة غرب
الأناضول حتى بدأوا يعدون المتاعب للدولة العلية ؛ فأرادت إجلأهم ، ..
ولكنهم سرعات أعلنوا إسلامهم وعصموا دماءهم وأموالهم ؛ .. وكنتموا يهوديتهم
سراً ، لتظهر آثارها من ثم في المحافل الماسونية ، والجمعيات السياسية والسرية
كجمعية تركية الفتاة (الاتحاد والترقي) فيما بعد .. ثم انهم أندسو في الجبهة الوطنية
ووقفوا من خلف مصطفى كامل وحماقاته ؛ التي صرع بها الخلافة الاسلامية -
وانظر مصرع الخلافة لزولم .

.. إذ لم تكند توقع معاهدة لوزان مع إيطاليا - حتى كانت ولايات البلقان
- في اليوم نفسه - قد انفرطت ، وزحفت إيطاليا على ليبيا عام ١٩١١ ، وسقطت
ادرنه في آذار - مارس ١٩١٣ - حتى بكأها شوقي في قصيدته :

يا أخت اندلس عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام

وبذلك قضى مؤتمر لندن على الدولة العثمانية - الدستورية - المشروطية ؛ التي
فاجأت أوربة ودولها الكبرى بانقلابها - الدستوري و - اربكت - سياستها ودولها
كما يتورط أن يوههم نفسه أمثال سباطع الحصري - البلاد العربية والدولة
العثمانية ص ٩٧ ، وجورج انطويوس يقطعة العرب ص ١٨٠ وما بعدها . .
راجع في ذلك - عبد القديم زلوم - مصرع الخلافة ، وضياء الدين الرئيس -
المسلمون ٢-٣ ص ١٢٣ . .

(٥) دنشواي قرية في شبين الكوم ؛ يكثر فيها الحمام ، وقد قصدها نفر من =

مصر القومي لا منازع ولا سيما بعد أن أخذ هذه الحادثة أروع مثل ، وشنها حرباً شعواء على المستعمرين لا هوادة فيها ، واسمع صوته الانجليز في بلادهم ، . . وأجبر « كرومر » على الاستقالة أمام شعور قوى متدفق بدأ مرحلة جديدة من مراحل الجهاد والمقاومة (١) .

ومن هنا نفهم أيضاً لماذا قاوم الانجليز دعوة الحزب الوطني الى سن دستور خاص لمصر (٢) ، ولماذا كانوا قد طاردوا زعيمه الثاني محمد فريد من ثم ، وحكوا عليه بالسجن غياباً لكتابه مقدمة ديوان الشيخ علي الغاياني « وطنيتي » يومذاك (٣) حتى اضطره أن يؤثر المنفي الى أن توفاه الله عام ١٩١٩م (٤)

= الضباط الانجليز في ١٣ حزيران - يونية ١٩٠٦م لصيد الحمام ، فأصاب رصاصة منهم امرأة ، وأحرقت أخرى بيدراً (جرناء) فأثار هذا الطيش حقيقة الاهلين الذين تصدى لهم الضباط بأسلحتهم ، وقتلوا شيخ الخفراء ، فدافع الناس عن أنفسهم بالحجارة والطوب حتى جرح أحد الضباط في رأسه ، ولاد ومن معه بالفرار ؛ فأصابهم ضربة الشمس التي تسببت في موت احدهم .

وقد هول الانجليز من الحادثة ، وقبضوا على عدد من الاهلين ؛ قضت محكمة عسكـرية باعدام أربعة منهم وسجن سبعة عشر . انظر عبد الرحمن الرافعي - مصطفى كامل ص ١٩٧ وما بعدها .

(١) عبد الرحمن الرافعي - مصطفى كامل ص ٢٣٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٢

(٣) « عبد الرحمن الرافعي - محمد فريد ص ٢١٩ وانظر ما كتبه محمد سيد كيلا في كتابه طه حسين الشاعر والكاتب من تفصيلات في الموضوع نقاهها عن صحف ذلك العهد .

(٤) عبد الرحمن الرافعي - محمد فريد ص ٣٦٨

وفي غمرة الأحداث المتتابعة التي أعقبت الأتقلاب، الذي تكشفت فيه حقيقة القوة السياسية ، والعسكرية للدولة العثمانية أمام تلك المعنويات التي كانت تهاجمها دول أوربة - استطالت دولة الطليان بمدوانها على الصومال، وزحفت جيوشها على ليبيا (طرابلس الغرب) عام ١٩١١ (١) .

وكانت هنالك مقاومة بأسلة للشريف الإدريسي وعمر المختار .. حيث لم تستطع تركية الثبات وتركت جيوشها الجبهة لتتسغل في مكان آخر (٢) وكذلك أنهك المتطوعة المجاهدون من عرب المشرق (٣)

وقد خلد الشعر العربي تلك المقارمة الضارية ، فكان الرافعي أسبق الشعراء في القول والاستنفار ، حتى ليكاد - وهو يسلم - ملحق أنفاسه من توالي المفجائع والاحداث - أن يرسم طريق الثورة المؤمنة التي تعيد الأمة سيرتها من الكرامة والقوة فيقول :

لا بدّ من ثورة رجافة حنقاً هوجاء لا نظراً فيها ولا فكر
يمشي بها الموت مجنوناً وكيف خطا فليس إلا قبوراً ثم تحتضر
لا بدّ من غضبة إن ثار ثأرها على الشياطين من جن الفلاذعروا
.. وبصرخ الثأر في دمه ، ولكنه يحتز ممقدا يلحق به من معانيه الجاهلية

فيقول :

ثأر تعظم فيه أن يقال له ذنب - مخافة أن الحلم يغفر

-
- (١) ساطع الحصري - محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ٤٦
(٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٤٠ - وقد كف الإدريس، وظل المختار في المقاومة حتى عام ١٩٣٠ م ، وبالقبط عليه غدرآ انتهت المقاومة .
(٣) شكيب أرسلان - شوقي - ص ٣٥

نأر العربن إذا جاءت ثعالبه فلم ير السهل فيه الضيغم الهجر
نأر اليتامى ونأر الثاكلات ونأر الخدر يفضى ، ونأر العرض يشتهر (١)
وأكثر الشيخ محمد عبد المطلب من شعره في هذه الحرب ، وقال الزهاوي ، ..
وأرسل شوقي قصيدته الرائعة في عمر المختار التي يقول في آخرها :

في ذمة الله الكريم وحفظه جسد ببرقة ومسد الصحراء
.. ثم كانت الحرب التي إندلعت في أوربة أولا بسبب مقتل الأرشيذوق
فردنان وزوجته في حزيران - يونية ١٩١٤ م فقد زحفت جيوش النمسة على
الصرب (٢) وتوالى دخول الدول الى ساحاتها ، .. حتى قامت على النطاق العالمي
المعروف ما بين الحلفاء والألمان ..

وكان من حماقات أنور وطلعة وغيرهما من اركان الحكم الجديد في الدولة
العثمانية أن دخلت الحرب الى جانب الألمان ، .. ومكنت للدعاية الألمانية من
أفئدة الناس حتى ليكادوا يحسبون غليوم الثاني امبراطور المانية حامى حمى المسلمين
وناصرهم ، حيث قال الرافعي :

.. ومنقت للأسلام والشرق دولة تملى بها ملك وسر سرير
لقد كان عون الله فيها ونصره ففارقها منذ قيل أنت نصير

* * *

تمكنت من عرينها فاستقدتها بحبلى بلاء ، « قائد وزير »
وأطفأت ماضيها « بطلعة أنور » فيا أنور لم يبق في اسمك نور .. (٣)

-
- (١) الرافعي - السيف العثماني - المقطم ، الهلال ديسمبر ١٩١١ .
(٢) محمد عبد الله عنان - مأساة مايرلنج - طبعة دار المعارف وفيه تفصيل كبير
(٣) الرافعي - غليوم الثاني - المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩١٩ م .

.. وقد تمكنت بريطانيا من استغلال هذه الحرب أبشع استغلال ، فواصلت هي وفرنسا تطبيق إتفاقها الودي لعام ١٩٠٤ ، وراحت هي توقع بسلاطين وأمرأه وشيوخ الجنوب والخليج العربي في حبائلها بمعهادات واتفاقيات تتجدد فيها الألتزامات مع طواريء الظروف والتفسيرات ، وتبيح لها طرق المواصلات التجارية والحربية وتحمي اساطيلها وتمون جيوشها (١)

وفي وقت سابق للحرب كان جواسيس فرنسا وسفراؤها يحاولون التحرش بالدولة العثمانية ، كحادثة الارصفة المشهورة التي اشار اليها الرافعي بقوله :

وغرّ فرنسا أن ترى الليث باسمًا فلم تدر حتى لج فيها « سفيرها »
وجار عليها الدهر شعثًا خطوبه فهب لها عبد الحميد يجبرها ..
بصير بنور الله في كل أزمة تردّ عيون الصيد حسرى شعورها
أجلوك يا غضب الشبا ما هنت به وقبلك ما ضر النبي هديرها (٢) الخ
وكذلك محاولة إغتيال السلطان عبد الحميد بعد فشل هرزل من الحصول على وعد منه يمكن اليهود من فلسطين أو أراضيهـا (٣) وفي تلك الأيام جرت محاولة للأجهاز على روسية القيصريّة بثورة شيوعية. (١٩٥٠)

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٢٤

(٢) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٣٤

(٣) أنظر ما سبق - وقد قال شوقي :

هنيئاً أمير المؤمنين فأئتما نجانك للدين الحنيف نجا

وهكذا التقت قوى الشر والخيانة ف وقعت الدولة العثمانية في دوران الحرب والضياع بالتجزئة والاندحار ، بعد ما كادت لها بالمؤامرة المستمرة حتى أجهزت عليها من ثم .

وكانت الحلقة الوسطى في هذه السلسلة الإجرامية لدول الاستعمار ان انتهزت بريطانيا فرصة قيام الحرب ، فسارعت في ١٨ كانون الاول - ديسمبر ١٩١٤ م الى إعلان الحماية الأنجليزية على مصر ، وزوال صفة السيادة العثمانية الشرعية عنها (١) ومن أجل تثبيت ذلك عمدوا في اليوم التالي الى خلع الخديو عباس حلمي الثاني - وقد كان في أوربة خشية أن يعود إلى محاولة التقرب من القوى الوطنية ثانية ، .. وأقاموا حسين كامل باسم سلطان مصر (٢)

وليقف الأنجليز بالمصريين من ثم ضد محاولة الدولة العثمانية استعادة مصر الى الخطيرة العثمانية عام ١٩١٥ م في حرب الترعّة المشهورة ، حيث حاول أحمد جمال (باشا) والي الشام أن يعبر قناة السويس فاختق مرتدّاً الى فلسطين (٣) . .. وكانت آخر أيام العثمانيين في عهد عبد الحميد تحاول أن تلد الحياة العلمية والعملية في ديار الاسلام فاستقدم الخبراء من أوربة لدراسة أحوال البلاد وكيفية

(١) أنظر بلاغات الوكالة البريطانية في الهلال ٢٣ - ٣٢٦ ؛ ومما هو جدير بالذكر أن المرحوم أمين الرافعي كان قد أوقف جريدة - الشعب - التي كانت تنطق بلسان الحزب الوطني - كي لا ينشر نبأ إعلان الحماية ، فيعتبر كالمقربها واقعاً .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - ثورة ١٩١٩ م ، مقدمات ثورة ١٩٥٢ ص ١٥٦ وعزة دروزه - الوحدة العربية ص ٢١٠ .

(٣) مذكرات جمال باشا السفاح ص ١٦٣

أعمارها واستثمار كنوزها وخيراتهما وكان في من استفادتهم الدولة العثمانية المبشر المهندس الانجليزي « ولیم و لکوکس » ، . . الذي درس مشروعات الري في العراق والجزيرة ما بين عامي ١٩٠٣ - ١٩٠٤ م ، . . وقدم تقاريره الضافية في هذا الشأن مما أسال اعاب الاستعماريين الانجليز الى مثل هذه الكنوز في أراضينا البكر .

كما كان للأرساليات التبشيرية والقنصلية ، واليهود وغيرهم من الخونة والجواسيس كثير مما تحتاجه الدراسات الاجتماعية لأحوال البلاد .. (١)

حتى وأنت ظروف الحرب من ثم ومكنت لبريطانيا أن تنزل جيوشها في البصرة وتبدأ عمليات احتلال العراق والجزيرة الى الفرات الاعلى لنلتقي وحليفها فرنسا ، في تجديد الاتفاق الودي بمعاهدة (سايكس - بيكو) التي منقت الوطن مناصفة بين الحلفاء ؟ . . وما يزال يعاني من مخلفات الاحتلال والحماية والتبعية الى اليوم ما يعاني من مشكلاته التي رافقت تلك المراحل الغزوية ، . . والتي تظهر اليوم في العقد الفكرية ، والانتكاسات السياسية والأنواء الاقتصادية ، والأسواء الاجتماعية ، . . التي تستهلك جهد الطاقة الثورية للأمة .

وقد تمكنت فيه جيوش الاحتلال البريطانية المختلطة من البصرة والعمارة ، . . ولكنها توقفت عند الكوت تجاه مقاومة ضارية أبداها المحاصرون العرب في الجيش العثماني ، وضربوا فيها الأمثال في البسالة والمروءة ، حتى أعاقوا قوات الجنرال تاويزند عن التقدم ، ثم أسروه في حركة التفاف بارعة أفقدته صوابه حيث

١- محمد رشيد رضا - المنار ١٨ رمضان ١٣٢٢ هـ

أعلن إستسلامه .

ولولا خيانة من بعض ذوي النفوس الدنيئة ، والخور الذي دب في عزائم الضباط الأتراك وألقى في روعهم أنهم يدافعون عن غير بلادهم ، لكان في انتصار العرب في الكوت فاتحة عهد للتحول في الجبهة .. ولكن !

وعلى أثر هذه الهزيمة الشنعاء بالذات التي عانتها جيوش بريطانية ، وإنذار الحلفاء في معركة « غاليبولي » في الأناضول ^(١) .. تلون الحلفاء، وتفتقت الذهنية الإنجليزية عن لعبة جديدة يجرون فيها أحلام العرب ^(٢) إذ لم يبق أمامهم غير أمير مكة - الشريف حسين بن علي - وقد عرفوا عنه موقفه من إنقلاب الاتحاديين وخلافه لزعماء الدولة العثمانية في دخولهم الحرب الى جانب الألمان ، . فبدأوا له « ستوزر » ثم « مكماهون » في القاهرة يرسلانه ، ويلبس الأخير منهما مكامن الشجن من أحلامه في الاطاح القومية .. فيستحوذ عليه من ثم (٣)

ولا سيما بعد الحماقات الطورانية التي أقدم عليها أحمد جمال « باشا » السفاح في نقل الفرق العربية من الديار الشامية، ومحاكماته التي أصدر فيها أحكام الاعدام في القوميين العرب ^(٤) غير مفرق بينهم وبين من اندسوا في صفوفهم من جواسيس

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٣٥

(٢) نفس المصدر - ومما يجدر ذكره أن الرأي العام في مصر كان منصرفاً

عن هذه الاحلام الثورية للعرب ، ومشغولاً بأحواله الداخلية الخاصة في الاحتلال والحماية ، وكان هاتيك حالة مقصورة لذاتها !

(٣) أنظر ملحق جورج انطونيوس - يقظة العرب ، وكذلك عمر أبي النصر جهاد فلسطين العربية لترى هاتيك المراسلات .

(٤) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢٤٠ وما بعدها

فرنسا « المجرمة الحرة »^(١) وبالرغم من تعهداته للشريف فيصل بن الحسين بعدم تنفيذ الاحكام ولكنه فعلها (٢)

وهنا بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحد إلى الربى ، وكان الشريف في ضيافة الأيوبيين في الشام فثارت ثأرته وخطب كوفيته وعقاله على الارض ، وقال كلمته التي سارت مثلاً للروح العربية الثائرة : لقد طاب الموت يا عرب ! .. (٣)

وما كاد يعود الى والده في الحجاز ، حتى انفجرت الثورة العربية رسمياً في التاسع من شعبان ١٣٣٤ هـ (١٠ حزيران - يونيه ١٩١٦) بحركة قومية تستهدف استعادة السلطان العربي في الحكم ، وإقامة الخلافة العربية وبناء الدولة الاسلامية الجديدة رداً ثأراً على تلك الأجراءات التعسفية ، والتصرفات الهوج ، التي عاد يمارسها « الاتحاديون » الأتراك « ٤ »

وقد تمكنت الثورة من الحامية التركية في الحجاز وسارت حتى العقبة التي أطار سقوطها بيد الثوار صواب الخلفاء ، فسارعوا الى عقد معاهدة « سايكس - بيكو » السرية ، وجيش الانجليز المصريين بقيادة الجنرال آكني المزحف على الديار الشامية ومساندة قوات الامير فيصل - ظاهراً - وموازاة الجيش العربي ومسابقته في دخول دمشق عاصمة الأقليم ليجعل لهم مثل هذا السبق صفة الاحتلال التي ثبتوها بمصر « ٥ »

(١) عبد العزيز رفاعي - أصول الرعي القومي ص ٨٤ وأنظر مذكرات جمال

(٢) جزر ج انطونيوس - - يقظة العرب ص ٢٨١ وما بعدها ، ..

(٣) المصدر السابق

« ٤ » المصدر السابق ص ٦٨٥

« ٥ » محمد عزة دروزة - الرعدة العربية ص ٣٢١

ولكن يظهر أن الأمير الهاشمي كان من الحيلة بمكان ، فقد سبقت طلائعه وراء الجيش التركي المندحر في أفطع هزيمة وانسحاب عرفها في تاريخه ، ودخل الأمير دمشق، وأعلن من هناك قيام الحكم العربي .. كما طلب إلى الضباط الإنجليز مغادرة البلاد بعد انتهاء مهامهم .. ولما أدرك الإنجليز ما وراء ذلك من عزائم - وقد رأوا زخم الثورة القومي يمتد لهما بكتسح كل ما يعوقه .. فتفتت ذهنيته عن أسفين يكون لنا في قلب الثورة .

وهكذا أعلن بلفور وعده المشنوم في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧م لليهود بنظرة العطف البريطانية التي عهد لهم بأعداد فلسطين وطناً قومياً .. (١) . وذلك فتناً في عضد الثوار العرب، الذين أهملوا ذلك في بادئ الأمر، حتى أذاعت الثورة الروسية عام ١٩١٧م بعض أوراق الاستعمار ومنها معاهدة سايكس - بيكو فأقام العرب المؤتمر السوري والعراقي من ثم في تموز ١٩١٩م معلنين قيام الحكم العربي في جميع أنحاء الديار السورية بما فيها فلسطين ، مع الاتحاد الكامل السياسي والاقتصادي بالقطر العراقي وبحدودها التي كانت أيام الولايات العثمانية وتسمية الملك فيصل (٢) مغفلين بذلك النظر في « الوعد » برفضه جملة وتفصيلاً ومعتبرين إياه غير ذي موضوع ١ .

وقد تم إعلان هذه الدولة في ٨ آذار - مارس ١٩٢٠م بصفة واقعية . وكانت هناك فرحة طائرة ملأت قلوب العرب أجمعين في مشهد قومي رائع

(١) كمال رفعة - الاستعمار والصهيونية ص ١١

(٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ١٢١ وكذلك جورج انطونيوس

- بقظة العرب ص ٣٢٨

لا مثيل له (١) .. بالرغم من بعض العوائق والمنغصات التي لا تخلو منها
حركة ثورية جادة (٢)

وكانت يد فرنسا مطلقة في المغرب العربي ، تستضيف الجزائر مستوطنين
فرنسيين من شذاذهم ومتعطلهم (٣) وترى فاس زحف قوات لتأمين التجارة
وحماية السلطان .. وبعد ذلك في ١١ آب ١٩١٢م قبل يوسف الامثال لفرنسا
بعد تنازل أخيه عبد الحفيظ .. فافتسمت سرا كش هي وأسبانيا حماية (٤)

ولم يكد يولد الظرف الصهيوني الأخير حتى سارعت أميركا الى دخول الحرب
مع الحلفاء ، متدوعة بمباديء « ويلسون » الشهيرة القائلة بحرية الشعوب في تقرير
المصير خشية امتداد الايام في الحرب ، وانقلاب ميزان القوى ، وضياح المكتسبات
والفرص التي تهبأت للحلفاء في الغرب حتى هاتيك الساعات .

وفي تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٨م انتهت الحرب ، وكانت ديار العروبة
ومواطن الاسلام قد اوضحت نهياً مقسماً بين الحلفاء ، مستعمرات أو محميات أو هي

(١) محمد عزر دروزة - الوحدة العربية ص ٣٥٩

(٢) كان جمهور الموارنة والكاثوليك في بيروت قد قابلوا رفع العلم العربي على
سارية دار الحكمة في بيروت بالاستعاض الشديد ، ولم يهدأ لهم روع إلا عندما
رأوا الجيش الفرنسي يحتل لبنان ! .. فاستقبلته نساؤهم بالأحضان ، ورحل البطريرك
الماروني الى باريس بثبت أقدام الاحتلال ! . ليتسبب من ثم بمأساة ميسلون ٢٤ تموز
١٩٢٠ وانهمار الحكم العربي في الشام - انظر دروزة - ص ٣٤٩ وما بعدها

(٣) محمد عزرة دروزة - الوحدة العربية ص ١٦٠

(٤) محمد عزرة دروزة - الوحدة العربية ص ١٨٥ وما بعدها .

في انتظار بقايا التصفية ١.

وما كادت الحرب تضع أوزارها، حتى كان الوطن العربي وديار الدولة
أجمع تن من وطأة الاحتلال الذي أناخ بكل كفه وكل قواه، يبدد ثرواتها، ويقسم
أقاليمها، وينقص عليها فرص الحياة والاجتماع والوحدة ..

وإزاء هذا المآل الذي إنتهت إليه الأمة بعد الحرب كان لابد من اندلاع
المقاومة المحلية، .. استكشافاً لحقيقة وجود أبناء الأمة في هذا العالم الجديد ..

فكانت مصر أسبق الأقطار في إعلان السخط على المحتلين، والانطلاق بالثورة
الوطنية - ولا سيما بعد فشل العرب في اللحاق بمؤتمر فرساي يستعرضون فيه مآلهم
من أوراق العهود والمواثيق مع الحلفاء - .. لتأخذ مكانها من معاهدات الصلح
والتصفية، .. ولكن هذا المؤتمر أصمّ أذنيه عن سماع الاصوات الضعيفة والمغلوبة
وأوصد الأبواب في وجوه الشعوب المنكوبة، وافرّ الحالات الجديدة، وسعى
الى تسمية الدول المستعرة والحامية للبلدان العربية والأسلامية (١) بما لا يتعارض
مع إتفاق الحلفاء الودي في عام ١٩٠٤ م.

فقد حاول سعد زغلول وبقية من زعماء مصر الذين كانت علاقتهم بالإنجليز
غير علاقة الحزب الوطني النافرة والتي تأتي إلا الجلاء (*) - السفر الى مؤتمر الصلح
للدفاع عن قضية « مصر » فأبى عليهم السير ونجت ان يزودهم بجوازات سفر

(١) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٢١٢، ابراهيم شريف - الشرق

الاولى ص ١٠٤ وما بعدها .

(*) عند إعلان الحماية البريطانية على مصر، التي القى القبض على أركان الحركات
الوطنية، ولم يصب سعد منها شيء!! فتأمل .

« مصرية » واستخف بهم الى الدرجة التي ساء لهم فيها عم يتحدثون ؟ وبأسهم من ينطقون ؟ ١ .

ثم كان ما كان من السعي لأعتقالهم ونفيهم الى مالطة ، حتى انفجرت الجماهير في القاهرة بمظاهرات تعلن فيها غضبتها على المحتلين ، .. وامتدت بها الى انحاء القطر حتى البستها ثوب الثورة الوطنية في آذار - مارس ١٩١٩ م .

وكانت شرارة النهب فيها الشعور القومي ، وعم الاضطراب البلاد .. حتى لم تعد قوى الحماية البريطانية تستطيع المحافظة على النظام ، .. فاضطر الانجليز الى مناورات يطلقون فيها سراح سـعد ويسمحون له ولرفاقه بالذهاب الى شأؤوا (١) .

في الوقت الذي سعت فيه حكومة « لندن » الى أن تؤلف لجنة « ملتر » تدرس فيها الحالة في البلاد وتقدم مقترحاتها بهذا الخصوص ، .. ولكنها اخفقت أيضاً امام ثبات الشعب وتمسكه بمطالبه المشروعة . وانفجار الثورة ثانية في نيسان ابريل ١٩٢١ م . (٢)

وقد أسهم الرافعي بهذه النهضة الوطنية في إرساله النشيد القومي على لسان الجمهور ، والذي كان له أبعاد الاثر في جمع صفوف الأمة ، وفيه يقول :

الى العلا .. الى العلا بني الوطن الى العلا كل فتاة وفتي
الى العلا في كل عصر وزمن فلن يموت مجدنا كلا ولن

« ١ » عبد الرحمن الرافعي — ثورة سنة ١٩١٩ ص ١٠٤ وما بعدها .

« ٢ » أمين سعيد — تورات العرب ص ٢٢ .

والذي يصور فيه الوحدة الوطنية بقوله :

إيماننا كنيسة ومسجدا دين اتحاد للبلاد وهدى

وكل ما في العمر يوماً وغداً وكل ما نملك للمجد ثمن .. (١)

على ما سوف نفصل القول فيه عند الكلام على آثاره الشعرية .

ولكن حدث عقب عودة سعد زغلول في نيسان .. أبريل ١٩٢١م أن ظهرت

برادر الانقسام في الحركة الوطنية ، .. وكاد يتحول فيها غضب الأمة وثورتها

على المحتلين الى شعارات حزبية حمقاء تنشب بالأشخاص وتشعل نار الفتنة

الداخلية . (٢)

وقد أشار الراجعي الى ذلك بقوله « .. اما الحالة السياسية فقد أفسدها اهلها ، ..

لأنه لا فلاح لامة يعلن بعضها بعضاً اصلاً مقدساً (٣)

كما ادت مواقف سعد الفردية الى انقسام الوفد نفسه (٤) ولا سيما حين

تألفت (ميلشيا) اطلقت على نفسها اسم « جنود سعد » تنصدى لكل من يخالفه

الراي وقد آذى بها مناوئيه من أعضاء الحزب الوطني خاصة الذين رفضوا قبول مبدأ

المفاوضة من غير جلاء القوات المحتلة ، .. وقد جاء نعت هذه الكتائب على لسان

صادق الراجعي - بعد تصديها لأمين الراجعي لسان الحزب الوطني بقوله :

« استفاض بين الناس ان معالي سعد باشا ذو جنود .. وانه هو وقيله يطلقون

اسم « جنود سعد » على فئة أمده الله بها تنصره بالعرب وتبلي خصومه بالأذى

(١) أنظر الراجعي - الرسائل ص ٦٧ ، ٧٠ ..

«٢» عبد الرحمن الراجعي - في أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ١٠ ، ٣٠ وما بعدها

(٣) الراجعي - الرسائل ص ٧٩ .

«٤» عبد الرحمن الراجعي - في أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ١٦

وتتدسس الى مكروهمم بأنواع البلاء ..

ولقد كان العرب من جاهليتهم الى إسلامهم الى عجمتهم يطلقون لفظة «جنود سعد» التي يفخر بها الرئيس على الحشرات والهوام المؤذية ، التي يجيء بها الصيف وينشر بها اللدغات واللسعات والمؤذيات ، .. الى ما يجلب الأمراض وبدني العلل وما عسى أن يكون سبباً في وباء مجتاح ، أو بلاء يخلق الناس خلق الشعر .. الخ) (١)

وبالرغم من ذلك كله فقد مضي سعد على شاكلته ينتهز فرص إخفاق الاتفاق بين الانجليز والمنشقين عليه ليجمع الجماهير اليه ، ويؤلف لنفسه قوة شعبية تقال من شأن معارضيهم وتعزلهم عن طريق الكفاح الوطني ، .. ولكن لم تكد تفشل حكومة عدلي يكن في مفاوضات لندن (٢) حتى اعتقلت السلطات المحتلة سعد زغلول ونفته الى جزيرة سيشل - شمال شرقي مدغشقر ثم نقلته الى جبل طارق (٣) وقد حاول امين الراجعي ان يوحد الصفوف إزاء هذه الحالة المتردية ، وكادت تعود الوحدة الى الوفد ، .. ولكن (النبى) اقبل يفاوض عبد الحالى ثروة لاعلان تصريح ٢٨ شباط - فبراير ١٩٢٢ م قاضياً بإلغاء الحماية على مصر والاعتراف بها (مملكة مستقلة ذات سيادة) في مناورة (يقصد بها التغيرير بالامة

(١) الراجعي - الأخبار - نوفمبر ١٩٢١ ، رسائل الراجعي ص ٧٧ .

على أن أمين الراجعي هو الذي كان وراء سعد في ظهوره السياسي أنظر عبد الرحمن الراجعي - في أعقاب الثورة ج ٢ ص ٢٨٦

(٢) عبد الرحمن الراجعي - في أعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ٢٤

(٣) نفس المصدر ص ٣٠ .

واستألة نفر من أبنائها للاستعانة بهم على تنفيذ سياسة الانجليز على حد ما جاء في بيان الحزب الوطني آنذاك .

وهكذا إنقلب السلطان احمد فؤاد الى ملك في آذار - مارس ١٩٢٢م وصدر بعد ذلك ماعرف بدستور نيسان - ابريل ١٩٢٣م الذي جرت بموجبه الانتخابات العامة في كانون الثاني - يناير ١٩٢٤م بعد عودة سعد ورجال الحزب الوطني من منافيتهم... والتي جاءت بأغلبية وفدية ساحقة، أظهرت فيها الأمة نضجاً سياسياً واعياً تلتف به من حول الزعيم سعد زغلول ، قال فيه الراجعي يومها مشيراً الى دعوته في في تربية الضمير القومي للأمة :

يا سعدُ ما حلَّ مصرًا قبلها بطلٌ	كانت قلوباً وأرواحاً عساكره
قد كان ظاهر هذا الشعب باطنه	فالיום باطن هذا الشعب ظاهره
تركته بالضمير الحرّ مندفعاً	أمر الهدى.. ما الضمير الحر أمره
ولن يهون بشعب أو يعز به	في كل ما ناله إلا ضائره
إن الضمير جناح حسين تحبسه	يرى السما كلها في الحبس طائره (١)

كما وضع على لسان سعد نفسه نشيده القومي الثاني الذي يقول فيه :

إسلمي يا مصرُ إني الفدا	ذي يدي إن مدت الدنيا يدا
أبدأ لن تستكيني أبدأ	إني أرجو مع اليوم غداً
ومعي قلبي وعزمي للجهاد	ولقلبي أنت بعد الدين دين

(١) نشيد سعد زغلول الراجعي ص ٢١٢

لك يا مصر السلامه وسلاماً يا بلادي
إن رمى الدهر سهامه أُنقِها بفؤادي

واسلمي في كل حين

ولكن وزارة سعد لم تعمر طويلاً ، فسرعان ما اصطدمت بالمندوب السامي - النبي - عقب مصرع المرदार ، .. فقدمت إستقالتها بعد عشرة شهور لتخلفها حكومة زيور (الأتقلاب الأول) التي أظهرت الأستخذاء امام السلطات المحتلة بحيث سارعت الى حل المجلس النيابي ، وحاولت تأسيس حزب (الاتحاد) زيادة في أسباب التخاذل والانهزام - لنزعم من ثم الولاء للقصر (١)

* * *

اما الدولة العثمانية فقد كان الحلفاء قد إستعادوا قوتهم بعد هزيمة «غاليبولي» وتحول الحرب الى جانبهم ، .. فاحتلوا الأستانة في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٨م ، .. ودخل جيش اليونان أزمير بعد انتهاء الحرب في ايار ١٩١٩م ، .. فأرأى الوطنيون الترك أن بلادهم مهددة بالتمزق ، .. فتولوا تنظيم الجهاد الوطني وانشيء المجلس الكبير الذي انعقاد له الشعب التركي بعد ما تقدم إليه الفقهاء ورجال ابطال مثل كاظم بكير وعلى إحسان ونور الدين وعمر فوزي قبل أن ينظم إليهم مصطفى كمال فقطعت هذه الجمعية علاقتها بالأستانة وقد كانت مستسلمة لمطالب الحلفاء بتوقيعها معاهدة سيفر (٢) التي اعتبرتها الجمعية الوطنية فاشلة ، ونشبت الحرب بين (١) عبد الرحمن الرافعي - في اعقاب الثورة ص ٢١٢ وأنظر سعيد العربيان - حياة الرافعي ص ١٦٨ .

(٢) راجع الدكتور ابراهيم شريف - الشرق الأوسط ص ١٠٤ و ١١٩ وما بعدها

القوات الوطنية التركية والجيش اليوناني ، فظفر الترك باليونان في عدة معارك أهمها « أين أونو » في كانون الثاني - يناير ١٩٢١م و « سقارية » في آب ١٩٢١م و « دملويتار » آب ١٩٢٢م التي قذف بعدها الترك بالأروام (اليونان) إلى البحر واضطراً الخلفاء إلى إبرام معاهدة « لوزان » للصلح مع تركيا الجديدة وتسوية الحالة في الشرق الأدنى عامة (١)

وكان لأخبار الحرب الاستقلالية التركية هذه صدى في الشعوب العثمانية - ومنها الأقطار العربية . فكان الأدب والشعر يستبقان الأحداث في القول . . ومن ذلك قصيدة أحمد شوقي :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالداً الترك جدد خالداً العرب
يوم كبر (١) فخيّل الله راقصة على الصعيد وخيل الله في السحب
هزت دمشق بني أيوب فأنتبهاوا يهتفون بني حمدان في حلب
ومسلموا الهند والهندوس في جنل ومسلموا مصر والأقباط في طرب
ممالك ضمها الإسلام في رحم وشيخة وخواها الشرق في نسب
ولا أزيدك بالأسلام معرفة كل المروءة في الإسلام والحسب (٢)
وفي البيت إنتباهة عبقرية ، تذكر وتخشى لم يتنبه لها سواه - حقاً لقد كان

- (١) شكيب أرسلان - شوقي ص ١٢٢ ، وعهد الرحمن الرافعي - في اعقاب الثورة المصرية ج ١ ص ٧٥ ، وانظر مقدمة الشوقيات لمحمد حسين هيكل ، على ان المؤرخ عبد التقديم زلوم له وجهة نظر تستحق التأمل في كتابه « مصرع الخلافة »
(٢) أحمد شوقي - الشوقيات .

شوقي شاعر العصر الحديث ، .. وقال الرصافي في بغداد :

سمي المصطفى لازات تعلق الى أوج يطاول كلَّ أوج
نصرت على بني اليونان نصراً أقام الغرب في هرج ومرج
فدّر كالشمس في فلك العالي وحل من الكمال بكل برج (١)

أما الرافعي فيجمع به الخيال في شطحة يخيل فيها له أن مصطفى كمال هذا سيف من سيوف الله فيخلق في ذلك الخيال المجنح الوئاب ، ويملا محتوى قصيدته معاني ، ويتفلسف قوة وضعفاً .. ويعود الى مفهوم القوة العسكرية التي كانت طابع الدولة العثمانية المميز ، فيتنفس فيه . وكأنه يترجم عن ثورة قومية تستعر في صدره . ولم يكن يعرف موقعها من العالم العربي - الإسلامي . فتشبه له الدعوات السياسية القائمة يومها في « اللامركزية » وتعريب الخلافة . وتجديد الدولة الإسلامية .. غير الذي يهيم .. فيقول :

بد الله مدت - وهو فيها مهتدٌ على عنق اليونان تفري وتغمد
نضتهُ فهزته فبشت فرنده فأهوت به فهو القضاء المجسد
ولله مثلُ الأنبياء صوارمٌ نروح وتمضي حيثما الحق يكسدُ

رما هم به رجي السماوات رجها على المارد العاتي مضى يتمرد .. الخ (٢)
ولكن لم تكد توافي الظروف مصطفى كمال وتظهره على بقية رفاقه ، الذين سعى الى طمس أخبارهم وبطولاتهم من أول يوم .. ويأخذ ميثاقاً من الحلفاء

(١) الرصافي - ديوان الرصافي .

(٢) الرافعي - الاخبار . ٨٠٢ - ١٩٢٢ م .

في «لوزان» حتى يمكن لأهل الردة «الدونمة» من نفسه وللماسون من سياسته .. فأقدم بحماسة طورانية أخرى على إلغاء الخلافة ، ونفي الخليفة وحيد الدين من البلاد . واقتصر بالحكم على الأناضول .. وبذلك صدقت نبوءة الرافعي من أن تركية «لا تحكم على رجل واحد من غير الترك ، .. وأنها ضاقت بحماسة أنور» (١) وزاد مصطفى كمال هذه الحماقات بأقدامه على قطع كل ماله صلة بالعرب حتى الدين الإسلامي الحنيف وحروف اللغة ، ويوم الجمعة الفضيل (٢) في شعوبية مرذولة عزل بها تركية عن عالمها الطبيعي مع المسلمين ! . وقد ترجم شوقي خواطر الأمة الإسلامية إزاء هذه الأحداث برأئته التي رثى بها الخلافة حين قال :

عادت أغاني العرس رجع نواح	ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه	ودفنت بين تبلج الأصباح
ضجت عليك منابرٌ وماذنٌ	وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة	أحما من الأرض الخلافة ما؟
بالرجال لخرة موءودة	قتلت بغير جريرة وجناح .. (٣)

(١) الرافعي — الرسائل ص ٥٦

(٢) ومما يؤسف له ان هذه الحماقات الكيالية ما تزال تتشبث بالترك الى اليوم حتى لتكاد تسيطر على قوى التفكير المؤمن عندهم بالرغم مما أصابهم بسببها من الانقطاع والفجيرة وسواها ..

(٣) أحمد شوقي — الشوقيات .

وأرسل الرافعي غير حديث منظوم ومشهور، جمع بعضها الجزء الثالث من وحي القلم في مقالات: تاريخ يتكلم بعد كفر الذبابة وكلمة وكليمة .

* * *

وكان مكر الحلفاء في المشرق العربي مكرآ كبارآ . وتبييتهم كان أفظع وأشنع وإجهازتهم على عروبتة كانت أنكى وأمر .. بحيث لم تستطع واقعية الحكم العربي الجديد في الحجاز والشام أن تتلاقى ذلك المسكر والتبئيت والأجهاز - ما دام مؤتمر الصلح يقف وراء الحلفاء يمكن للأستعماريين من البلاد بالأنتداب والحماية والتعاهد بعد الأحتلال والتبعية .. وكأنهم الأوصياء على تقرير مصائر الشعوب ..

وبالرغم من مباديء « ويلسون » التي جرته بها بريطانيا ليدخل طرفاً في الحرب الى جانب الحلفاء .. فان هذه المباديء ما لبثت أن انكشفت على العالم بمقررات مؤتمر الصلح الذي أقر للحلفاء بكل ما سبق لهم الأتفاق عليه ، لتوزيع مناطق النفوذ فيما بينهم، بعد تصفية الدولة العثمانية ، ودحر المانية ، ومن ثم تقويض الحكم القيصري في روسيا وإلهاؤها عنهم بأوضاعها الداخلية أمام الثورة البلشفية؛ وهكذا وجدت فرنسا - المجرمة الحرة - نفسها ثانية في متصرفية بيروت .. وجيوش الجنرال غورو تزحف على دمشق ، وتنسف الحكم الفيصلي في وقعة « ميسلون » التي استشهد فيها وزير الحربية يوسف العظمة في ٢٤ تموز ١٩٢٠م (١) .

وما زال السوريون الى اليوم يعيشون في حنين الى تلك الأعراس القومية

(١) راجع الحصري - في « ميسلون »

التي دامت سنين من الحكم العربي ١٩١٨ - ١٩٢٠ .. كحنينهم الى عهد بني أمية
الظهير ١ .. وربما زادوا عليه الآن حنيئاً آخر لآيام الجمهورية العربية المتحدة
التي كانت فيها سورية الداخلية إقليماً ! ..

لقد أضطر الملك فيصل إلى ترك البلاد بعد مقاومة يائسة ، واتيجه مع وزير
خارجيته عبد الرحمن الشهبندر الى مصر . ثم سافر من الإسكندرية الى أوربة
محاولاً أن يقتحم مؤتمر الصلح ، ويذكر المؤتمرين بمواثيق وعهود قطعها الحلفاء
على أنفسهم للعرب .. ولكنهم تركوها وراءهم ظهرياً ! .. (١)

وبعد ذلك توالى الثورات في سورية الداخلية ، يقودها صالح العلي في
اللاذقية تارة ، وينفجر بها ابراهيم هنانو في حلب تارة أخرى ، .. وتعود فتندلع
في وادي حوران ، فيقتل رئيس الوزراء - علاء الدروبي - وكل من تعاون مع
فرنسا في تقويض الحكم العربي (٢) .. حتى كانت الثورة الكبرى في تموز
- يوليو ١٩٢٥م التي امتدت من جبل العرب وعمت الديار السورية كلها سنتين
من المقاومة الباسلة ، .. كادت أن تؤتي ثمار الاستقلال ، .. وهكذا بقيت سورية
في مدها القومي ، وجزرها أمام وطأة الاحتلال الفرنسي الأثيم حتى قيام الحرب
الثانية ، وسقوط فرنسا أمام زحف القوات الألمانية ، .. ومن خلال ما اعتري

(١) عبد الرحمن الشهبندر - ذكريات العهد الفيصلي في الشام المقتطف -

١٩٣٤م وقد طبعت اخيراً بعنوان مذكرات الشهبندر، ودروزة - حول الحركة

العربية الحديثة ج ١ ص ١٣

(٢) امين سعيد - الثورات العربية ص ٧٠

فرنسا وإنجلترا من منلوقة الاحتلال لسورية أيام الحرب، خرجت سورية من ثم ظافرة باستقلالها (١) .

أما القسم الجنوبي من سورية المعروف بفلسطين، فنظراً لمكانة الآثار التاريخية المقدسة عند اليهود والنصارى ، فقد كانت هنالك خطة صليبية جديدة لأقتطاعه من الوطن العربي الاسلامي بالاحتلال والانتداب ثم تمكين الصهيونية منه بعد حين .. وفي عام ١٩١٩م عقد المؤتمر الفلسطيني القوي رفضاً إجماعياً لوعده «بلفور» ثم أُلحقه بمؤتمر آخر في الثامن من آذار ١٩٢٠م عقد البيعة للملك فيصل الأول ، باعتبار فلسطين جزء لا يتجزأ من الديار الشامية .

ولما نسف الفرنسيون الحكم العربي في دمشق ، عاد المؤتمر ثالثة لينظر في حدود فلسطين التي ظهرت آنذاك - بأنقسام الديار إنداباً - وجدد رفض الوطن اليهودي، وبدأ الشعب المقاومة في آب عام ١٩٢٩م، .. فكانت حوادث العنف، التي اتسمت بالحزم والثورة ، ومن أشهرها حادثة البراق والتي توالى بعدها كتب الانجليز البيض والملونة ؛ لحل المشكلة الفلسطينية الناشئة ، حتى كانت الثورة الكبرى ما بين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٩ (٢) التي أوقفها إندلاع الحرب العالمية الثانية ، وتمكن الانجليز من مصر والعراق بمعاهدات تحالف مهدت لهم سبيل السيطرة التامة على فلسطين .

-
- (١) راجع في ذلك - كفاح الجيش العربي السوري
(٢) راجع عمر أبي النصر - جهاد فلسطين العربية ، صبحي ياسين - الثورة الكبرى وامين سعيد - ثورات العرب ، وعزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٨٩ وما بعدها ..

أما لبنان - المتصرفية والبلد - فقد حرص الموارنة والكاثوليك على الاحتلال الفرنسي ، وآثروه على الحكم العربي الذي قبلوه بامتعاض عند رفع العلم العربي على سارية المحافظة ببيروت (١) ولكن مقاومة المسلمين والأرثوذكس للاحتلال الفرنسي برزت في الاستفتاء الأمريكي عام ١٩١٩م والذي خرج بنتيجة الرغبة في الوحدة الشاملة مع سورية الداخلية . (٢)

* * *

وأما في العراق ، فقد سبقت الإشارة الى الثورة العربية في الحجاز التي مكنت الحلفاء من استرداد أنفاسهم في الحرب واستجماع قواهم بعد هزيمة الأنجليز في الكويت ، فلملأوا شعث قواهم وأنجدوها بحملة مختلطة أخرى بقيادة الجنرال « مود » الذي إخترق نحو بغداد في ١٧ آذار - مارس ١٩١٧م فاتحاً « محرراً » للعرب من الأتراك ١١ .

وحاول الأنجليز استفتاء الشعب في موضوع الحكم عام ١٩١٨م ، .. وتكشفت نواياهم عن عزم بالحاق العراق بالهند أو حكمه بأمره برسي كوكس عميد الاستعمار في خليج البصرة ، ..

ولكن المقاومة القومية استمرت في طول البلاد وعرضها ، ولا سيما في شمال العراق (٣) ، ثم إنداعت بعدها ثورة عارمة في الثلاثين من حزيران - يونية

(١) محمد عزوة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٧٣ وما بعدها

(٢) نفس المصدر ص ٤٨٢ ..

(٣) عبد المنعم الغلامي - ثورتنا في شمال العراق ..

١٩٢٠م بعد أن قتل الشيخ ضاري الحاكم السياسي « لجان » . . ورفع العلم العربي في أنحاء القطر ، . . وأصطدم الثوار بالقوات المحتلة في الثاني من تموز ١٩٢٠ م ، وأستمرت الحالة الثورية خمسة شهور كلفت المحتل الكثير في وقائع بطولية بلغ فيها الأندفاع والحماسة درجة التهور ، . . ولا سيما في معركة الرميثة (الرانجية) . . وقد عقد بعدها مجلس الوزراء المؤقت البيعة لفیصل بن الحسين ملكاً

دستورياً على العراق من الموصل حتى الخليج^(١)

هذا في الوقت الذي سارت محاولاتهم لتقوية الملك عبد العزيز آل سعود ونصفية حكومة الهاشميين في الحجاز !

وبالرغم من مناورات الإنجليز حول شكل المعاهدة ، فقد أستطاع فیصل وبعض رجاله التخفيف من صورة صك الأنتداب على طريقته السياسية المشهورة في بجملته (خذ وطالب ..) . . حتى وصل بها صيغة معاهدة ١٩٣٠م التي دخل العراق بعدها عصبة الأمم باعتباره دولة العرب الحديثة المستقلة عام ١٩٣٢م (٢) وقد بعث أحمد شوقي قصيدته في هذه المناسبة التاريخية أنشودة على لسان محمد عبد الوهاب يقول فيها :

يا شراعاً وراء دجلة يجري بدموعي تجنبتك العوادي
سر على الماء كالسبح رويداً وامش في اليم كالشعاع الهادي .. الخ

* * *

هذا في الوقت الذي سلكت فيه يد فرنسا العانية سبلا متى في قطع الصلة بين

(١) عبد الرزاق الحسيني - تاريخ العراق الحديث ج١ ص ٤٢

(٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤٤٦ وما بعدها .

المغرب العربي والمشرق وتاريخ العروبة (١) ، . .

فقد فتحت باب التجنس لدمج السكان العرب بالحياة الفرنسية نفسها ، . . وقد اعتبر المسلمون في الجزائر مثل هذا ردةً وكفرًا ، وقاطعوا المتفرنسين فلم يعودوا يصاهرونهم ، ولم يسمحوا لموتاهم أن يدفنوا في مقابر المسلمين (٢) الى ألوان أخرى من المقاومة السلبية الحادة .

وفي تونس تواب على زعامة الحزب الدستوري على باش وعبد العزيز الثعالبي الذي أزعج مؤتمر الصلح (٣) وما بين عامي ١٩٢١م - ١٩٣٢م لعبت فرنسا أدواراً جهنمية في تبديد الثورة العارمة ، وفي الأطباق على البلاد بارهاب فظيع ، كذلك الذي مارسه في سورية (٤)

وفي مراکش ثار ماء العيين ، ومع ان ثورته فشلت ، إلا أن روح التمرد والمقاومة بقيت حتى عام ١٩١٥م (٥) كما ثار في الجنوب موسى حمو ، وخالد أبو القاسم النفادي الذي استطاع أن يستمر في المقاومة حتى عام ١٩٣٥م (٦)
هذا بالإضافة الى ثورات في جبال الأطلس حتى عام ١٩٣٣

(١) مر بنا اتفاق فرنسا الودي مع إنجلترا عام ١٩٠٤م

(٢) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٣٢٦ ، ٤٠٨ ، وما بعدها . .

وأنظر البشير الأبراهيمي في (أحاديث البصائر) . .

(٣) محمد عزة دروزة - الوحدة العربية ص ٤١٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤١٧ .

(٥) المصدر نفسه ص ٤٢٥

(٦) المصدر نفسه ص ٤٢٦

ومن خلال الأحداث كانت تضطرب السياسة المصرية ما بين الأحزاب التي
فرخها حزب - ذوي المصالح الخاصة - (الأمة) في الوفد ، والاحرار الدستوريين
ثم « الاتحاد » ، إضعافاً للحزب الوطني وتبديداً للمبادئ القومية والوطنية التي
ثبت عليها في مقاومة سلبية بأسلة .

وكان لشخصية أمين الرافعي ومواقفه زمام الامان في اتجاه السياسة الوطنية
كلما أحاق بها أو تمزقها ظرف من الأحوال المتعاقبة . . .

فقد رفع عقبرته إزاء ما ترتب من انحدار الحالة السياسية في البلاد على عهد
الانقلاب الاول (حكومة زيور) - ودعاني تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٢٥ الى وحدة
الصفوف ، إنفاذاً للبلاد التي عطل فيها الدستور وتناحرت الأحزاب ، . . .

ولم يكن أمين يتوقف عن إلحاقه في هذه الدعوة - وبعد صدور بيانات للوفد
والاحرار الدستوريين تؤيد مذهب أمين الرافعي والحزب الوطني ، اجتمع المجلس
النيابي (المنحل) في فندق الكونغرنتال ، وقرر عدم الثقة بالوزارة (١)

ولم تستطع الوزارة التشبث بالبقاء مع تعنتها ومحاولاتها الترفيع غير مرة ، . . .
حتى عقد المؤتمر الوطني برئاسة سعد زغلول نفسه في شباط - فبراير ١٩٢٦م (٢) واصدر
قرارات أذغنت لها الحكومة ، وأجريت الانتخابات وفق مرسوم الانتخاب المباشر
وفاز الوفد - وإن لم يحل فوزه من أنانية على حساب الآخرين (*) وتألفت وزارة

(١) الرافعي - في اعقاب الثورة ج ١ ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٣

(٥) بالرغم من أن دعوة الائتلاف كانت للحزب الوطني وأمين الرافعي ، . . .
إلا أن الفردية السعدية والأنانية التي أتصف بها حزب الوفد أثبت إلا القصد في
تصفية « الحزب الوطني » على مراحل ، . . . وفي هذه الانتخابات أصرت على إقصاء
عبد الرحمن الرافعي عن دائرته في المنصورة - مذكراتي ص ٥٨

عدي بكن الائتلاف الاولى - ، وعادت الحياة الدستورية ، التي يشير إليها قول
الرافعي :

وبعث دستور البلاد وكان من أوراقه قد افء في اكفان
بعد ان تنجى سعد عن رئاسة الوفد كي لا يصطدم بالانجليز ثانية .
وعندئذ أصبح سعد زعيم الامة لامنازع تشرئب إليه الاعناق من كل مكان
ويقدم صادق الرافعي اليه كتاب « اعجاز القرآن » ليقول فيه كلمته المشهورة
« بيان كانه تنزيل من التنزيل أو قيس من نور الذكر الحكيم »
وأمام هذا الائتلاف ، ومظهر وحدة الصف عرض محمد نجيب (باشا) وظيفة
« شاعر الملك » الفخرية على الامام مصطفى صادق الرافعي ، فتقبلها عرفاناً بالجميل
وأرسل في الملك فؤاد قصائده التي استهلها برأئته التي يقول فيها :

ما بين آن في الزمان وأن	تهدى لمصر هدية الرحمن
بعوفق ملك عليها مصلح	أو فاتح بطل لها معوان
يأتي وفيه من الرحيم مراحم	بعثت لما في مصر من أحزان
في كشف معضلة وردّ ملمة	ودفاع طارقة من الحدثان
الله يشهد أن مصرأ موطن	متقدس في أفقه النوراني (١)

وقد استطاع أن يعبر فيها عن وجهات نظره السياسية والاجتماعية ومقارناته
التاريخية من خلال الأسم الماسكي على ما سوف نعرض له (٢)

(١) المقطم - ١١٥٠٥ - ١ رجب ١٣٤٥ هـ .

(٢) أنظر محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ١٦٨

ولكن لم يكده سعد ينتقل الى الرفيق الأعلى في آب - اغسطس عام ١٩٢٧م
 ويحقق به أمين الرافعي في ٢٩ كانون الأول - ديسمبر ١٩٢٧م حتى عادت
 الانانية تستشري في صفوف هاتيك الاحزاب (*)
 فقد خلف مصطفى النحاس سعد في رئاسة حزب الوفد، ثم ارتقى الوزارة باسم حزب
 الاغلبية النيابية في آذار - مارس ١٩٢٨م (١) مما دفع حزب الاحرار الدستوريين
 الى عدم التورع عن خيانة الائتلاف والتآمر عليه مع النفوذ الانجليزي والقيام
 بالانقلاب الثاني وتأليف وزارة محمد محمود (باشا) بعد إقالة النحاس في حزيران
 يونية ١٩٢٨م . (٢) والى ذلك يشير الرافعي بقوله :

لا يلومن* مستبد اذا ما	نفسه أخرجت له مستبدا
أعظموا البرلمان والشعب فيه	أن يعدوا الانصاف خصما للدا
أكبروا البرلمان والشعب فيه	ان يسموا فيه من الشعب (وقدا)
ان فرقا ما بين انصار شخص	يتولاهم وأنصار مبدا (*)

وأعاد محمود صورة مأساة الامة التي لقيتها على عهد (زيور) وحزب
 الاتحاد عام ١٩٢٤م ، .. فسارع الى حل البرلمان ، وتعطيل الدستور (٣) وحكم

(٥) وقد لاحظ صادق الرافعي ذلك في المقالين البليغين الذين رثا بهما سعد
 زغلول وزين الشباب أمين - على ما سوف نعرضه في مكانه من الدراسة

(١) عبد الرحمن الرافعي - في أعقاب الثورة ج٢ ص ٤٣

(٢) » » » » ج٢ ص ٥٠

(٣) » » » » ج٢ ص ٥١

(٥) صادق الرافعي - الاخبار ٨ أكتوبر ١٩٢٨م .

البلاد بالحديد والنار (١) غير ملتفت الى الاستنكار الذي أذاعه الحزب الوطني ،
والنداء الذي وجهه حزب الوفد (٢)

ومضى في هذا الاندفاع أكثر حين عمد الى تثبيت النفوذ البريطاني ،
ومحاولته اصدار تشريعات من شأنها ان تضر بالمصلحة القومية للبلاد (٣) والى ذلك
يشير قول الأمام الرافعي :

في مصر من عنت السياسة عقدة في كل آونة ثجر حبالا
من شدة هازادت به عسراً ومن أرخى تزد من ضعفه استفحالاً.. (*)
ولكن محمود (باشا) اصطدم بالامة بعد مفاوضاته هندرسن وموافقة على
مشروع معاهدة تبقى فيها جيوش الانجليز بمصر وتقر الحكم الثنائي في السودان (٤)
ويظن أن انصالاً ما بين الوفد والانجليز أدى الى قبول شروط الوفد في النظر
بالمعاهدة بعد عودة الحياة النيابية (٥) واستقالة محمود وتأليف وزارة عدلي
الثالثة .. التي أجرت الانتخابات أواخر عام ١٩٢٩م وجاءت بأغلبية وفدية
أيضاً (٦) أعادت النخاس الى الحكم ثانية (٧)

(١) عبد الرحمن الرافعي - في اقطاب الثورة ج ٢ ص ٧٤ وما بعدها .

(٢) » » » ج ٢ ص ٥٤ وما بعدها .

(٣) » » » ج ٢ ص ٧٢ وما بعدها .

(٤) » » » ج ٢ ص ٨٣

(٥) » » » » ص ٩٥

(٦) » » » » ص ٩٧

(٧) » » » » ص ١٠٠

(٥) المقطم - شوال ١٣٤٧ هـ

.. ولكن حدثت مشادة بين الوزارة والقصر أودت بها استقالة .. وهيات

للا انقلاب الثالث أن يقهر الأمة (١)

وهكذا جيء بإسماعيل صدقي خصم الدستور الالد ، والمستمر الأول بحقوق الشعب الذي أعاد المناساة ، فألغى الدستور وعطل الحياة النيابية. كما ألغى الانتخاب المباشر ومجالس البلديات والنقابات وأعلن دستوراً آخر يكون منة من الملك للشعب (٢) وألف من وزرائه حزباً سماه على (الشعب) كما فعل حسن نشأت في حزب (الاتحاد) سنة ١٩٢٤ (٣)

وكانت سنوات عجاف ، زورت فيها الانتخابات، وعطلت الصحافة ، وكتمت الافواه (٤) وخلف على الحكم بعد صدقي عبد الفتاح يحيى وكان أضعف من الهوان (٥) وقد اضطر القصر بعدها الى أن يعهد لمحمد توفيق نسيم بتأليف الوزارة - نوفمبر ١٩٣٤ م ، التي حاولت ترضية الشعب بإلغاء دستور صدقي (١٩٣٠) وحل مجلسيه الشيوخ والنواب (٦) ولكن دستور ١٩٢٣ م بقي معطلا ١١

وقد بقيت الحالة كذلك حتى عادت المظاهرات تحتجح البلاد . ويصيب الطلبة منها نصيب الغرْم بالنار والرصاص ولا سيما بعد تصريحات صموئيل هور وزير الخارجية البريطانية بعدم صلاحية دستور ١٩٢٣ م وإن دستور ١٩٣٠ م لا يحقق

(١) الرافعي - في اعقاب الثورة ج٢ ص ١٠٨

(٢) » » » » » ص ١٣٠

(٣) » » » » » ص ١٤٢

(٤) » » » » » ص ١٥٢ - ١٦٣

(٥) » » » » » ص ١٨١

(٦) » » » » » ص ١٩١

رغبات الامة (١)

وهنا ظهر افتقاد الامة لصوت أمين الرافعي في دعواته الى وحدة الصف ،..
ولكن أخاه عبد الرحمن الرافعي ، سد ذلك الفراغ بسعيه وحافظ رمضان وندائه
الموجه الى الامة بهذا الشأن (٢) بعد رفض النحاس للفكرة . . . (٣) بدافع من
أنانية خلفاء سعد . . ثم عاد فقبل المشروع !

وهكذا تألفت الجبهة الوطنية من الوفد المصري والحزب الوطني والاحرار
الدستوريين والشعب والاتحاد . وحتى المستقلين (٤) ، وقد نجحت في
عودة دستور عام ١٩٢٣ م (٥)

ولكن جزاء سعي عبد الرحمن الرافعي لم يكن بأفضل من نصيبه في إئتلاف
عام ١٩٢٦ م (٦) فقد عاد « الوفد » يصر على إبعاده عن الحياة النيابية إمعاناً في
تصفية الحزب الوطني ومبادئه . . .

وفي كانون الثاني - يناير ١٩٣٦ انتهزت الأحزاب «الاحرار والاتحاد والشعب»
الفرصة لتتخيه وزارة نسيم . ولكنها فشلت في تأليف وزارة إئتلافية (٧)
ثم ألف علي ماهر الوزارة التي أجرت الانتخابات في أيار - مايو ١٩٣٦ م

(١) الرافعي - في اعقاب الثورة ج٢ ص ٢١٠

(٢) إنظر المقطم ٢٨ نوفمبر ١٩٣٥ ، وكذلك الأهرام ١٥ ديسمبر ١٩٣٥ م

(٣) الرافعي - مذكراتي ص ٨٦

(٤) الرافعي - مذكراتي ص ٨٨ - في اعقاب الثورة ص ٢٠٣

(٥) الرافعي - في اعقاب الثورة ص ٢١٠

(٦) » » » » ص ٨٩ وقد مر بنا ذلك

(٧) الرافعي - في اعقاب الثورة ج٢ ص ٢١٢

عقب وفاة الملك فؤاد في ٢٨ نيسان - أبريل ١٩٣٤ م - وقد جاءت كذلك بالأغلبية الوفدية ١.. (١) التي سارعت بعدها وزارة النحاس الى عقد معاهدة ٢٦ آب أغسطس ١٩٣٦ م (٢) التي شابهت المعاهدة العراقية نوعاً ما ودخلت بموجبها مصر عصبة الأمم دولة مستقلة... وسماها النحاس - عفا الله عنه - وثيقة الشرف والاستقلال... بالرغم من معارضة الحزب الوطني لها الذي اعتبرها غير شرعية!.. وقد رغب ومهاشبان الوفدا الى الامام صادق الرافعي أن يؤلف للحياة الاستقلالية الجديدة نشيداً فكان نشيده العظيم الذي عرف بـ «النشيد القومي»:

حماة الحمى يا حماة الحمى هلموا هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدما أموت أموت ربحيا الوطن
والذي سبق النشيد الفائز بالجائزة الاولى شهرة وذبوعاً لما انصف فيه من
الثورة والقومية بحيث استهلكت الثورة العظيمة (٢٣ يوليو ١٩٥٢ م) عهداً بأعمامه
ثانية على المدارس والنوادي .. على ما سوف نفضله في مكانه

* * *

.. وعلى هذه الحالة السياسية التي مرت بنا من الحماية والاحتلال والنفوذ،
الى الثورة والمقاومة، والاستقلال واشكاله الصورية والاقليمية، كانت خارطة
الوطن العربي تلون ما بين الحريين العالميتين .

وقد أعادت الحرب الثانية، التي اندلعت في حريف ١٩٣٩ م الكثير من
هاتيك الصور، بما أعقبها من مآسي وفواجع دونها مآسي وفواجع
الحرب الأولى .. والتي ما زالت مستمرة إلى اليوم !..

(١) الرافعي - في اعقاب الثورة ج٢ ص ٢١٧
(٢) الوثائق والمعاهدات - اصدار الايام الدمشقية ص ٤٠٩

وكانت ايام العرب فيها توزع بين الالمهم وآمالهم ، . . حتى كانت ذبول
المأساة التي أخذت بخناقهم وحركتهم القومية ، في قيام دولة اليهود في فلسطين . . يوم
إختتمت بريطانية وحلفائها سلسلة حلقاتها في استعمار الوطن العربي بما أقدمت عليه
من انسحاب مييت ليلة ١٥ أيار - مايو ١٩٤٨ م ، . . لتبدأ فصلا جديداً في
المأساة القومية للأمة العربية ، . التي يعاني منها مليون فلسطيني يعيشون لاجئين
بعد ان سلبتهم « الأمم المتحدة » « ومبادئ حقوق الانسان » « وتقرير المصير »
وطنهم الذي سكنوه عشرات المئات من السنين . . ١ .

. . ينظر هؤلاء . . وينظرون وراءهم مئة مليون عربي ، وبضع مئتين من
ملايين المسلمين . . انفجار الثورة الفلسطينية التي تستعيد الوطن الحق من برائن
« الأمم المتحدة » وشرعتها ومبادئها . . ١١ .

على ان قيام الحياة القومية في السياسة العربية ، عقب تحول الانقلاب
العسكري في مصر عام ١٩٥٢ م الى حركة ثورية أعادت وادي النيل الى الحضيرة
العربية ، . . بعد ذلك الاضطراب السياسي والاقليمي ، . . قد أثار بواذر
العروبة من جديد في اجتماع إعتقادي ولید عرف بالقومية العربية بين الأنحاء
العالمية ، . . وهي تمتد في انحاء الوطن العربي تستخلصه لنفسها من برائن الاحتلال
والتبعية ، وصور الاستعمار ، وذبول المعاهدات والمواثيق ، - وأنواء التجزئة
والأقليمية ، وأخلاط الحزبية ، وأوضاع الانحراف ، وأفطاع الشعوبية ، والوان
السياسات المنهزمة ، لتمضي به نحو الوحدة والاستقلال على آمال من الحرية
والاشتراكية ومبادئ من العقيدة والنظام ، تعيد بزيان الكيان الاجتماعي للعرب
من جديد ، . . ليؤدي دوره في الحياة ، وبلغ رسالته للعالمين .

وأرى ان مشابهة ما تقوم الآن بين خطوات الثورة العربية المعاصرة ، وبين
احلام الراقعي ، ولا سيما في قيام الجمهورية العربية ، تلك التي تحدث عنها بقوله :
﴿ . . وما أراها إلا ستنهض في مصر وسورية نهضة من يستجمع ، وربما
شهد الناس دهرأ يصلح أن يسمى فيه ما بين العراق والأطلسنطق « جمهورية اللغة
العربية » وما هو بعيد ، والله غالب على أمره ﴾ (*)
علي ان هذه النهضة ، وذلك الاستجتماع ، وصلاح الدهر ، هي الشغل الشاغل
لضمير الأمة وللحركة القومية العربية وبحرانيها الفكري في دنياها القائمة اليوم . .

(*) الراقعي - الهلال - شباط - فبراير ١٩٢٠ م ٤٠٠ ص - وقد يعجب
المرء كيف تجري لفظة الجمهورية على لسانه ، ومصر والأقطار العربية الأخرى ،
تنأرجح يومها بين الولاية والسلطنة وأحلام الممالك ؟ !

الفصل الثالث

البيئة الاجتماعية

كانت الأمة العربية قد عانت الأمرين من التسلسل الأجنبي والنفوذ الشعوبي ، . . ولاقى من صروف الأحن وآوالي الحن ، ما لو ابتليت به أمة لاندثرت في زوايا التاريخ ، ولأصابها من الإهمال ما ينسيها وجودها ، ويجعلها بخبر كان ! . . ولكنها بقيت خالدة على الحدثان كأن في وجودها معجزة ربانية . . .

فقد اندمى اللون الفارسي في الحياة العباسية حتي كاد يطغى على مظاهر الحياة العامة للناس ، ثم لحقة الشكل التركي بصورة من الفروسية أولا والتسلط من ثم ، . . مما أدى في النهاية الى ضياع كثير من صفات الحكم العربي ، بين نفوذ دويلات البويهيين والصفويين والسلاجقة والغزنويين والعباسيين (الفاطميين) والمماليك بأطوارهم حتى العصر الأخير .

وكان استسلام الامة للحكم العثماني كالمحصلة لتلك العهود التي سلفت فانحدرت

بها الى ما انتهت اليه من خضوع وضياع ١

ولكن كان من فضائل هذا العهد العثماني إعادة جمع الامة في وحدة يقبض عليها السلطان ، وتهيمن عليها القوة العسكرية ، . . ذلك ان دولة بني عثمان نفسها قامت بالاعتبار الحربي ، وما برحت عنها هذه الصفة تعتمد لها لتصفية الاوضاع التي قطعت افطار الاسلام وأوصال الوطن بحكم الطوائف (١) .

على ان الاهمال لجوانب الحياة الاجتماعية الاخرى للامة ، قد أدى الى ضعف النظام الحيوي لهاتيك الجوانب ، وآذى الاقتصاد القومي ، وأضر بموارد العيش ، وأركس البلاد في مضائق من التخلف والبدد وفقدان الرخاء . . . فقد كان هم الدولة العثمانية الأول في الحفاظ على مظاهر الصورة العسكرية ، وعدم الانتقاص من القوة الضاربة ، . . بل ترك الناس وشؤونهم يديرونها بأنفسهم (٢) وفي سبيل تهيئة الموارد للجند ، وتموين الجيوش راحت تضارب في الاقتصاد والتجارة ، وتجاوزت بأنواع الزراعة التي هي عماد حياة الامة في ذلك الحين (٣) ، . . وتهمل الصناعة ، او تنصرف عنها ! حتى لجأت الى قبول أنظمة الاقطاع ، غاضة النظر عن اسوائها ، فهي تجتزي الاراضي المنزوعة من اهليها ،

(١) محمد رشيد رضا - الوحدة العربية - المجلد ٦ - ج ٣ - المحرم

١٣١٨ هـ وما بعده .

(٢) عمر الدسوقي - محمود سامي البارودي - ص ١٩ .

(٣) راجع عبد الرزاق الهلالي - قصة الارض في العراق والشام - العربي -

٦٧ ، ٦٨ . وكذلك عبد الرزاق الظاهر - الإقطاع والديور في العراق -

او الاميرية - تمنحها باللزمة بألوف الافدنة لرؤساء العشائر كما في العراق والشام (١) او تطلق فيها اليد لقواد الجيش من الضباط الانراك او المالك في حق التصرف (٢) ، ولكن من الناحية الثانية فقد مكنت الدولة من مسح جميع الديار والأمصار بهذه الوسيلة (٣) .

وقد كان من نتائج هذا ان توزعت صفوف الامة في طبقات واضحي تبدد الطاقات وضياع العبقريات وإفلات فرص التكافؤ .. اشبه بالمسلمات الاجتماعية في تلك البيئة . ومما زاد في تلك الحال سوء اعتماد الاقطاعيين للارض . واعتبارها « ممالك » لهم تتداول فيما بينهم بالهبة والشراء بما فيها من ثروة حيوانية او طاقة بشرية ..

مما أدى من ثم الى تفاوت اجتماعي خطير بين صفوف الامة وطبقاتها . ولم تعد هناك قيم عامة للانسان .. وإنما تتحدد هذه القيم تبعاً للطبقة التي ينتمي اليها الفرد !

فكانت مصر في عهد محمد علي وأولاده « منارة كبيرة خاصة بهم وبحواشيهم يديرها مشرفون من قبلهم يسمونهم « الملتزمين » يجبون لهم خيرات البلاد ويرهقون الفلاحين بالطلبات وأخذونهم بالقسوة والعنف حتى يحصلوا منهم على ما التزموا به .. ويوفروا لأنفسهم ايضاً رغيد العيش (٤) .

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) محمد صبيح - قصة الارض في الاقليم المصري -

(٣) عمر الدسوقي - البارودي - ص ١٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧ .

ولكي يؤمن شر خروج العشائر على طاعة الوالي او السلطان في الشام والعراق كانت يد الشيوخ « السراكيل » والوكلاء . . تمتد حتى الى اموال الفلاحين الخاصة (١) .

« وكانت الضرائب كثيرة تتجدد على الدوام وغرامات تفرض بغير نظام حتى بلغت حداً لا يستطيع معها الاهالي الاداء لشيء مما يفرض عليهم . . . ولم يكن هناك وقت معين لها ولا قاعدة وإنما هي على حسب اشتهاؤ الحاكم فتارة يجبرون على أداء أموال السنة كلها واخرى يطلبون فيها بضرائب السنة القادمة في منتصف الحاليه ولا محيص لهم عن الأداء او من تأخر . . عوقب بالحبس والضرب او انتزع منه المال فهرأ الى آخر ذلك من المعاملة الخشنة القاسية » (٢) .

ومما يزيد ذلك سوء أن هذه الضرائب كانت تعطى بالزمة ايضاً ، للموظفين الاداريين وكان الفلاح من جراء هذه الاجراءات التعسفية والبطش والجبروت - بين حالين أحلاهما مرٌّ فهو إما ان يلجأ الى من يقرضه بالربا الفاحش إذا أثر الاحتفاظ بأرضه وسرعان ما تنتزع منه إجراءاً وتنفيذاً لعشور الراباة وإما أن يتركها ناجياً بنفسه (٣) وقد تبع ذلك ظهور فئات من المرابين اليهود والنصارى من الاجانب الذين مكنتهم الحماية والاحتلال من رقاب

(١) عبد الرزاق الهلالي - العربي ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) محمد عبده - تاريخ الامام - ج ٢ ص ٧٤ - اخرجہ الشيخ محمد رشيد

رضا ، وهي من مقالة نشرت في الوقائع المصرية تصف حال مصر عام ١٨٨٠م

(٣)

الناس حتى غدت كلمة «خواجا» عند الفلاح كالبيع الذي يخيف الاطفال ٠٠١
وفي ذلك يقول الراقعي في نشيده الذي وضعه على لسان الفلاحة:

إياك أن تذكر لي «الخواجا» فقد رأيت جارنا «المحتاجا»
راح اليه ماله ٠٠ وماجا وباع حتى البسط والدجاجا

* * *

إياك والرهن على الغيطان فتزل الدود على الاقطان
وتفتح الابواب للشيطان وتجعل الهدم على حيطاني (١)

* * *

وهكذا حتى اضحت فئات قليلة تستأثر بالثراء الفاحش وبمحبوبة
العيش وتسرف في اللذات وتسكن القصور وتزوج بالاجنبيات وتنظر الى
السواد الاعظم من ابناء الامة نظرة السيد الى العبيد فلا تختلط بهم ولا تزوجهم
ولا تعمل لهم إلا بمقدار ما يهيء لها دوام الرفاهية (٢) كما أن اغلب هؤلاء
السراة في هذه الفئات كانوا من غير العرب ١ .

أما سواد الامة فالمتعلمون منهم - وهم قلة قليلة - يمثلون العنصر الصالح
في المجتمع وكانت تغلب عليهم المحافظة على التقاليد والالتزام بالقيم والامثال
لاوامر الدين الحنيف ٠٠ وهم الذين غدوا من ثم عماد الحركات القومية والوطنية
وعدة الامة في جهادها (٣) .

(١) الراقعي - النظرات ج ١ ص ٦٩ .

(٢) شجل عطا - خليل مطارات ص ١٦ .

(٣) عمر الدسوقي - البارودي ص ٣١ .

وأما غير المتعلمين - وهم الغالبية العظمى من أبناء الأمة في الأرياف والمدن - يعينهم في ذلك كثرة ما أوقفه المحسنون لذلك من العقار والأموال والموارد الأخرى . . وذبوع لون من التكافل الاجتماعي تعارف عليه الناس فيما بينهم فيه المعونة والنصيحة والمصاهرة وجبر الخواطر . . وكذلك ما أنشئ من تكايا وربط وزوايا تؤوي إليها الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . . ولكنها من ناحية أخرى أضحت بيئة صالحة لا يصحح الإيمان بالكرامات والخوارق يقوم مقام الدين والعلم (١) . . بسبب من عسر تلك الأيام وضم البيئة الاجتماعية بمستوى العيش الكريم على الناس .

كما أوقعهم سوء الحكم والجهل والنرض فرائس بيد المحتالين والمشعوذين والرايين من الأجانب (٢) كما ألقى في روعهم الابتعاد عن وسائل التغيير على أنماط الحياة نفسها .

فوظائف الدولة مثلاً قلما كان يحظى بها أحد من العرب (٣) لأنها كانت نهياً مقسماً بين الترك وأبناء الممالك ، ولا سيما الوظائف العليا . . والتخلف في المحاولات الزراعية ، وفي المضمار العلمي لتطوير وسائلها الحديثة أو تصنيعها . . خلق نوعاً من التقاليد الاجتماعية البالية ، التي تأبى الانسلاخ أو التبديل ، وحول الحياة نفسها إلى حال من الجمود ، أدى إلى التمزق

(١) عبد الرحمن الجبرتي - عجائب الآثار ج ١ ص ١١٣ .

(٢) أحمد حسن الزيات - في أصول الأدب ص ٤٣ .

(٣) محمد رشيد رضا - الوعدة العربية - المنار ، محرم ١٣١٨ هـ

في صفوف الامة ، وتفاوت طبقاتها بشكل لا يرتقه او يجمعه غير لون من الاحسان والصدقات العابر ، التي لا تنسى الفضل (١) .

تقوم الحرب في اقصى الشرق بين الروس واليابانيين عام ١٩٠٣ م فسلا تترك الشرق العربي يفلت من ويلاتها ، حتى تعطل فيه التجارة ، وتشيع البطالة ، وتغلو في الاسعار ، وتكاد تحتاجه بالمجاعة ١ .

ويظهر الطاعون في بورسعيد عام ١٨٩٩ م وينتقل الى الاسكندرية ، . . وينفذ الى البصرة في الخليج ١ فلا ينقذ الناس غير رحمة ربك !
وتحتاج الهبيضة البلاد طويلاً وعرضاً ما بين العراق والشام ومصر . . فلا نجد من يقف أمامها في مكافئة او إلقاء . . حتى تضع حرب الاوبئة أوزارها بنفسها .

والى ذلك يشير شوقي بقوله :

ذاقت نواك وروعت بثلاثة بالدار بعد المحل بعد النار
وأراد بالنار ذلك الحريق الذي شب في ميد غمر ونظم في فجيئته العظيمة
أكثر الشعراء حتى قال الراعي :
أنتهم وراء النار كل فجیعة تسوق لهم في « ميد غمر » جهنما
إذا عصفت شددت مع الناس شدة فلم تبق بين البائسين منعا . . الخ
وتنقل جنود الاحتلال - المختلطة من جميع الاجناس الافريقية والاوربية
والآسيوية - من الأوبئة الاخرى ما تقدمه للفقر والجهل الذي يضرب بأطنابه
- شر ما يحتاجان اليه من ثالثها ١ . .

(١) الراعي - الإحسان الاجتماعي - المقنطف ، ايلول ١٩١٤ م

مكل اولئك وكثير غيره من الانواء أوجد الوائنا من التعاسة ، وضروبا
من هوان العيش التفت اليها العربي الحديث فسميا إنسانيا ، وقلما كان يتركها او
يلتفت اليها من قبل (١) .

وفي قصيدة الراقعي في « اطفال الشوارع » نبوءة تحذر ، وحقيقة تقرر
في مثل قوله :

إنما شرد السلامة والامن صغار رُبُوا على التشريد
ما رأى الحقد في الأبالس قوماً كصغار غدوا كبار الحقود ..
الى أن يقول :

فانقوها من فتنة سوف تدوي بهروق من جهلهم ورعود
فتنة تهدم الفضيلة والايما ن بالشر ماحقاً والجود
وكانه ينظر في لوح الغيب فيما لقيته الحياة العربية من ثم بالانقلابات
السياسية والحزبية !!

وإننا لنجد ان ثلث أدب الراقعي - على الأقل كانت مبادئه من صور
ومخلفات وأسواء هانيك البيئة الاجتماعية ، التي أجمل صورتها بمثل قوله:
صغاراً وأدياء وبؤس وقد أتى لشقوتنا هذا الغلاء يتمم (٢)
وعسى ان نفي ذلك حقه في الفصل الذي عقدناه للموضوعية المحدثة في
أدب الراقعي .

فلا عجب ان نرى بعد ذلك كله سقوط هيبة المسلمين من عيون اعدائهم ، ..

(١) محمد لطفي جمعة - الانسانية في الادب - الكتاب ج ١ م ٣ .

(٢) الراقعي - الديوان - ج ٢ ص ١٩ .

تلك الهيبة التي أخذوا صورتها معهم عبر التاريخ ، من لدن الفتح العربي المبين ،
حتى الثبابة القومية الباسلة بوجه الغزاة الصليبيين التي دامت زهاء قرنين من
الزمان ٠٠١

فقد عادت أوربة تفكر في استعمار البحر المتوسط من جديد (١) وفي سبيل
ذلك زعمت لنفسها تعلقاً أن تنتقل بالشرق العربي - الاسلامي من عصر مظلم الى
عصر إحياء ونهضة ، وتملكها الغرور ، وأخذتها العزة بالاثم والكبرياء ، ٠٠ فركبت
لذلك رأس العناد ومتن الشطط تؤثر ان تستبق بنفسها الى ذلك وباستعمال وسائل
الاستعمار الحديثة بما فيها القوة العاشمة (٢) .

ولعل من أوائل من سوغوا لأنفسهم مثل ذلك التدبير بعض حملات
التبشير ، والمحافل الماسونية ، التي كانت تنتشر في الاقاليم لتلتقط المتعلمين فتقتل
فيهم مواهب التفكير المنتج وبقارق الالمية والتوفيق ، ٠٠ ممهدة ومظاهرة من
ثم لرحلة نابليون العسكرية على مصر وديار الشام بعد ان منحته معطيات
« الثورة الفرنسية » مسوغات التدخل والاحتلال والاستعمار بالمنطق التبشيري -
للماسوني نفسه ٠٠١

ومن ذلك ايضاً ، وبالخطوات إياها تلك « الأقدام » القنصلية والتجارية
الفرنسية في لبنان ، والانجليزية في بغداد والبصرة والاسكندرية (٣) .

(١) أحمد عبد الكريم - تاريخ التعليم في مصر ص ٣٤ .

(٢) أحمد حسن الزيات - الرسالة ٣٥١ ، وانظر عمر فروخ ومصطفى

الخالدي - التبشير والاستعمار - ص ١٩١ وما بعدها .

(٣) عمر فروخ ومصطفى الخالدي - التبشير والاستعمار - ص ١٣٢ .

ولكن هذه الاجراءات والمحاولات للتدخل في شؤون الشرق الاسلامي قد أيقظت من الناحية الاخرى روح المقاومة الداخلية (١) وأثارت المناقشات الحادة بين الدول الاوربية نفسها ومحافلها وكنائسها (٢) ٠٠١ حتى ليجازف كثير من المؤرخين في إرجاع ذلك الى جلبة الحملة الفرنسية ، التي هزت الشرق ، بما وضعته فيه من آثارها الثقافية ، والنزعات الثورية القومية . وقد فتحت عيون الامة عليها - وهي تحفل بالحياة وتهيم بها النفوس (٣) .

وهنا أدرك الحكم العثماني أن لا بد من التخطيط لسياسة إصلاحية تنتقل بالديار الاسلامية من الخراب والتخلف ، الى ما يدنو بها من العصر والحضارة العمرانية الجديدة .

وقد حاول بعض السلاطين ، ولا سيما بعد محاولات الدول الأوربية التدخل بشؤون الدولة العثمانية الداخلية عند معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م .

كما نفذ بعض الولاة مشروعات في الاصلاح ، كالذي قام به مدحت باشا في العراق والشام ، وكذلك ما اقدم عليه محمد علي ومن أتى بعده في مصر . وكذلك محاولة أحمد جمال باشا في رسم خطة لبناء دولة حديثة . في الشام والعراق

(١) عبد الرحمن الراغبني - تاريخ الحركة القومية - مذكراتي ص ٦٧ .

(٢) الوثائق والمعاهدات ص ٥٥ .

(٣) اسحق موسى الحسيني - محاضرات الموسم الثقافي في الكويت -

ص ٢١٠ وما بعدها .

قبيل وأثناء الحرب الاولى (١) .

وقد كان في ارتقاء السلطات عبد الحميد الثاني عرش الخلافة الاسلامية فاتحة عهد جديد يدرك العصر ، ويهيم بالحياة العمرانية والمحاولات الاصلاحية ، التي تجدد شباب الدولة ، وتعيد « للرجل المريض » ماضي قوته .

وكان عبد الحميد - عفا الله عنه - قد رأى في الشكليات « الديمقراطية » كالمعوقات ، .. واعتد بنفسه ثقة ومخاطرة ، ففسف الدستور الذي أعلنه بعد سنتين من تشريعه - ١٨٧٨م ، وسمى بثبات وعزيمة الى دراسة موضوعية لبرامج إصلاحية شاملة ، لا تقف عند قطر ، واستعان بخبرات مهندسين وعلماء أجنبية ، واعتمد قوته المعنوية في دفع هذه الحركة الى هذا السبيل .

ولعل كثيراً من المشروعات الاعمارية الضخمة التي قامت في الوطن العربي ، وتقوم بها القوى الثورية اليوم ... كانت خطوطها الأولى قد انتظمت في أيامه ١ .. بما فيها مشروعات السدود والقنوات ، وطرق المواصلات البرية ، ومنها ما لا يزال فكراً حتى الآن .. كمشروع الخط الحديدي ما بين العقبة والبصرة ، والقناة الموازية له حتى جنوب العراق (٢) .

وربما كان يمكن أن تغدو هذه البرامج منطلقات إصلاحية جذوية - وفي أسرع مما تمت به حتى أيامنا الحاضرة - لو مد الله في حياة الدولة العثمانية ، ولم تجهز الدول الاستعمارية عليها بالانقلاب والحرب ثم التجزئة والتزيق في الاحتلال ، والحماية ، أو التبعية والمخالفة ١ ..

(١) أنظر الوثائق والمعاهدات ص ١٧ .

(٢) محمد رشيد رضا - المنار - شوال ١٣١٥ هـ وكذلك رمضان ١٣٢٢ هـ

وذلك أن مثل هذه الدراسات المهمة ، وما تكشفته عنه من معلومات فريدة ونادرة ، زادت في سعر الاستعمار ، ونهت أساطينه الى خطورة تنفيذها وعودة الحياة الثابتة الى الشرق العربي التي تفوت عليه مآربه ، . . . فعمد الى محاولاته بغذ السير في أشواطه اليها على الشكل الذي أوجزنا فيه الذكر عند كلامنا عن الحالة السياسية .

واقعد كان لتهديد الرسائل التبشيرية أثر واضح ومتميز في تطوير مظاهر البيئة الاجتماعية في مختلف الاقطار والمحيط الذي تنشأ فيه بخاصة . إذ تمكنت من طبعه بطوابع جديدة ، . . .

كما كان للبعوث التي أرسلت الى الاقطار الاوربية - وفرنسا بالذات - الأثر الاوضح في هذا المضمار .

ومن بين آثار هذه وهاتيك كانت تمتد محاولات الدول النصرانية في المزيد من طلبات الحماية للنصارى في الدولة العثمانية ، والتمكين لارسلات التبشير الأرثوذكسية - الروسية ، واليسوعية - الفرنسية والبروتستانتية الامريكانية والانجليكانية ، . . . ثم افنعال الأزمات فيما بينها ، مضايقة الدولة في التحكيم فيما كان يشجر بينها . . . (١)

ولم يكن بعض الولاة العثمانيين - في الديار الشامية بخاصة - حيث تكثر هذه الارسلات - يحسنون التصرف ، فقد كان يعوزهم النضج السياسي ، واللباقة في تناول مثل هذه الامور ذات الحساسية الحادة . . . إذ أنهم قابلوا

(١) أنظر عمر فروخ ومصطفى الخالدي في - التبشير والاستعمار - .

مثل هذا الاندساس الصليبي والمضايقة الغزوية بأبغار صدور المسلمين من الدروز ،
فأثاروا حفاظهم فحفوا الى السلاح يعملونه في رقاب النصارى (جواسيس فرنسا
والدول الكافرة) (١) غير مرة . . . وكان من أثر ذلك أن عمد النصارى
بعامة الى تسليح أنفسهم ، نشداناً للثأر . . . وأثاروها فتنة عمياء سنة ١٨٦٠ م
- بتوقيت خاص - امتد لحيها الى داخل سورية حتى لم تعد تفرق بين مسلمين
ونصارى بل تطحن كل من كان أمامها (٢) .

ومما يؤسف له حقاً أن الدولة العلية لم تعد تدرك يومها مدى تصرف
ولاتها هناك ، وما استطاعت أن تكبح جماح تهوهم الأحمق ، او تحاسبهم على
تقصيرهم في حقوق أبناء الامة من الرعية . حتى دق قناصل فرنسا وروسيا الباب
العالي نفسه مهددين بالتدخل المسلح ومشرطين الشروط ١ .

وقد تمكنت مواقفهم وتهديداتهم أن تسفر عن مثل نظام المتصرفية
يفرض على لبنان لينكش في حدوده ببيروت ما بين الجبل والبحر . فلا ثغر
ولا سهل . وإنما تمتد المحاولة لتقتصر صفة المحافظ نفسها على نصرانية متفرسة (٣) .
وكان من أثر ذلك سوء الحياء ونكد العيش وقسوة لواقع الاليم
ونزوح السكان الى المدن والسواحل ثم هجرة الكثيرين منهم الى وادي النيل
وأفريقية الغربية والى ما وراء البحار في الأصقاع الامريكية بحثاً عن مجالي
الحياة ومصادر الرزق (٤) .

-
- (١) أنظر احمد جمال (السفاح) في مقدمة مذكراته .
 - (٢) عبد العزيز الرفاعي - في أصول الوعي القومي ص ٥٧ .
 - (٣) أمجد الطرابلسي - شعراء العروبة في الشام ص ٦ .
 - (٤) جورج غريب - الهجرة وأسبابها - الأديب ، أيلول ، سبتمبر ١٩٤٩ هـ

وكانت مصر - حيث الجوار واللغة ووحدة العادات والتقاليد والقرب
والعرفة بشؤون الحياة كالتى أهابت بأهل السعي من أولئك الى حيث الأمن
والسعة والرخاء (١).

وقد لقي حملة الاقلام من النازحين - بخاصة - أهلا وإخوانا لهم في وادي
النيل . . فشاركوا في الوظائف والحياة العامة ، وصهرتهم المصرية حتى عاشوا
أوفياء لها تلحج قلوبهم آمالها وآلامها . وكان لهم في الصحافة والأدب شأن جليل -
ولا عبرة بالشواذ (٢).

وقد التفت الرافي الى ذلك فقال في « خيانة الوطن » وما هي عليه
أخلاق الخونة وذمهم وما تنطوي عليه ضمائرهم من خواء :

يا من يخون الوطن المفتدي يطلب أن يغنى وأن يغنا
لو وازنوا الارض وأموالها بذمةٍ ما بلغت درهما

-
- (١) أسعد طلس - مصر والشام في الغابر والحاضر ص ٨ وما بعدها .
(٢) عادل الغضبان - نجيب الحداد ص ٩ - ومن أولئك للشواذ أصحاب
بعض الصحف التي كانت السنة للمحتلين الانجليز والطامعين الفرنسيين ،
والغزويين الامريكان - كأصحاب الاهرام والمقطم والمقتطف وسواها .
وقد حدثني الشيخ محمود محمد شاكر عن بعض هؤلاء « الشواذ » وكيف
كانوا عيوناً للانجليز على الثوار المصريين والقوميين العرب من أبناء جلدتهم عام
١٩١٩ م . ووصف لي حادثة بعينها - يوم اقتحم جنود الاحتلال أحد المتاجر
المقفلة - في ميدان ابراهيم باشا - على بعض المجاهدين ، فقتلوه هناك جميعاً
نتيجة دسيسة دنيئة من أولئك « الشوام » الشواذ ! ..

أول من يزري على خائن من يرغب الخائن ان يكرما
ومن ير المظلوم يرجو هنا ظلمه . . فاعتده أظلماً
كصاحب الشاء سطا الذئب في قطيعه بغية ان يطعما
نجاهه ينصحه مخلصاً أن يطبخ الشاة لكي تهضما !
كما انتظم الحركة الوطنية في مصر زعماء من أبنائهم ولادوا فيها . . وفي
مقدمتهم زين الشباب أمين الرافي وعبد الرحمن الرافي مؤرخ الحركة القومية
الحديثة في مصر (١) .

كما رفع راية الاعتقادية القومية فيها أديبنا العظيم مصطفى صادق الرافي
ليجعل من مصر منطلقاً عربياً جديداً ، ومناراً إسلامياً تعشو اليه الأمة من شتى
أقطارها .

ذلك أن السفر الى أرض الكنانة والسكن فيها لم تقتصر على النصارى
فحسب ، بل شمل الكثيرين من أبناء الديار الشامية من المسلمين ، منهم من ينشد
التجارة كالحليين والخليليين ، ومنهم من يطلب العلم في معاهد الأزهر الشريف
كالرافعيين ، .. ومنهم من ينال الخطوة والجاه والسلطان ، ..

على أن منهم أيضاً من كان يفر بحريته من اضطهاد الولاة العثمانيين له
ولأفكاره كالحكيم عبد الرحمن الكواكبي والشيخ عبد الحميد الزهراوي ، ومحمد
كرد علي وعشرات آخرين غيرهم ، . يلتمسون الدعة والأمن في القطر المصري
الذي يتمتع بشيء من الاستقلال الداخلي عن الدولة العثمانية ، .. زادته الأيام
من ثم بصيغة الاحتلال والحماية الفرنسية فالبريطانية ! ..

(١) لاحظ فصل الرافعيين الآتي .

فى هذه البيئة غير المتجانسة إجتماعياً كان لعاب الاستعمار يسيل لامتلاك
أجزاء من الدولة العثمانية المترامية الأطراف ، وبسط نفوذ الدول الأوروبية عليها
او اقتطاع بعضها ، . . فكان ما كان من التسلل والاحتلال ونكبة البلاد
بالأرزاء الأخرى ! . .

ومن ناحية ثانية فقد سعى المحتلون أنفسهم للقيام ببعض مظاهر الإصلاح
على ما تعلمه عليهم فكرة الاستعمار نفسها ، ولو بأعادة هيبة الحكم بالبطش . . لصرف
أبناء الأمة عن المقاومة ، التي كانت بسالتها تقض المضاجع منهم ، وتزيد من
إحتياطاتهم أمام الحركة الوطنية .

ومن ذلك يقول « كرومر » فى كتابه « مصر الحديثة » :

« لقد سرت روح جديدة الى سكان مصر . وتعلم الفلاح كيف يعمن
النظر فى حقوقه . وأدرك « الباشا » المالك أن لمن يجاوره من الفلاحين حقوقاً
يجب احترامها . . حتى المدير (المحافظ) لم يعد يجرؤ على استعمال السوط المعلق
فوق رأسه ، والذي كان يلهب به ظهور الفلاحين . . .

وكادت تختفى السخرة المجانية وذهب الرق من الوجود ، وانقضى اجل
المرابين . كذا . . وأصبح للقانون كلمة بعد أن كان القضاء يباع ويشترى ، . .
كما أحكم توزيع المياه . . حتى عاد المصريون يحبون أرضهم بعد أن كانت مجلبة
لأنكدهم وضياعهم . . الخ (١) .

(١) عمر الدسوقي - عن كرومر - مصر الحديثة .

Eral - Cromer - Modern Egypt Vol - 11 - PP - 55 - 75 .

وكان قد افتتح سد اسوان على عهد الخديو عباس فى ١٠ كانون الأول -

ديسمبر ١٩٠٣ م -

وقد أراد المحتل بذلك وسواه أن يتوحد للشعب ويظهر له أن الاستعمار
رحمة للناس تخلصهم من ولائهم المستبدين وأوضاعهم المتخلفة وحياتهم النكدية .
وزاد في ذلك أن سعى الى نقل مظاهر الحياة الجديدة في أوربة بغري
بها أبناء الأمة العربية ليتطلعوا إليها ! فيأخذوا عنها .. فيستطيع بذلك أن
يصرف طموحهم نفسه اليه من ثم ١ ..

ولكن كان من الناحية الأخرى أن شاع اقتباس هاتيك المظاهر وتعلق
الكثير بـصور الاجتماع الأوربي وعاداته وتقاليده الوافدة .. وكان لما تنقله
« الأوربا » والأجواق التمثيلية والغنائية من صور الحياة في العالم الغربي أثره في
نفوس الناس بعمامة أمام مثل هذه الفنون .

على أن هذا التطلع لم يقف عند الأخذ والاستعارة بل سرى في جوانب
الحياة الأخرى بمظاهر براقة ، وألوان حضارية جديدة ، وأنوار مدينة متألقه .
فقد « غرقت البلاد في موجة من التفرنج امتدت الى أصول الأخلاق
والثقاليدي ، فعبست بها ، حتى غدت المقامرة والرشوة والمحابة والمضاربة بالمال
- وسواها من الأدواء الأوربية - مستحكمة تنفث بسمومها في شرايين المجتمع ..
وعاد التقليد في المأكل والملبس ، وفنون البناء والتظرف ، والأخذ من
الحياة الأوربية ما يصلح وما لا يصلح مفتونين بكل جديد .. حتى العمارات راحت
تخترق السحاب بعيداً عن الدور والقصور وفنون العمارة العربية الجميلة (١) .

وتراخى ميل المحافظة على التقاليد ، .. وكان من أثر فتح النوادي
للمقاصف ، والألعاب الرياضية وسواها أن امتدت موجة أخرى من التقليد

(١) عادل الغضبان - نجيب الحداد ص ١٤ والمختارات .

تصيب اللغة العربية ، يخلط فيها مترادو هذه النوادي ألفاظاً من اللغات الفرنجيات
تظرفاً وتأنقاً ، ومحاولة لوك الكلام بلمهجات خاصة لا تخلو من لوثة وميوعة إن
خلت من التخنث والرقاعة والفساد ١ .

فلا عجب أن يرى بعضاً من الأدباء يتصدى لهذه الظاهرة ، وينظر الى
مثل هذا التغيير بغير قليل من الاشمئزاز والامتعاض ١ فنجد نجيب الحداد مثلاً
يخاطب فتي العصر بقوله :

يا الله قل لي يا « فتي العصر » ماذا تركت لربة الحذر ؟! (١)
ولا يرى أمين ناصر الدين الرقي في الخلال الطيبة التي تجري مع الفطرة
الاسلامية والروح العربية فيقول :

تسمونه عصر الرقي وما ارتقى سوى الشر فيه .. لا الخلال الاطايب
ويستفهم محمد رضا الشيبني مستنكراً بقوله :

خداع وكذب واقتراف وقسوة وظلم .. أهذا العالم المتمدن ؟!
أما أستاذنا الرافعي فلا يرى الشرقي قد أخذ من التمدن العلمي شيئاً ،
وإنما سلك اليه سبيل التقليد الرقيق في « التمدن الانثوي » . وهو مصطلح ساخر
حاول فيه نعت العادات المستهجنة في التطرف في الأزياء والرقص والسباحة وما
إليها ، فقال عن شبان الجيل :

تمدن والتمدن ما رأينا رذائل تشتري نقداً وديناراً
وأخلاق بها ضحكت علينا لدن ذكرت تمدنتنا الانام .. (٢)

(١) عادل الغضبان - نجيب الحداد - المختارات .

(٢) الرافعي - النظرات ج ١ ص ٤٣ .

ثم يعود إليهم في قصيدة أخرى عن «التخثث» يقول فيها :

أفي الشبان قد مسخ الشباب ؟ أم الدنيا اغترها الانقلاب ؟
رأيت لبعضهم أمراً عجائباً وليس كمثل أمر عجاب
يسيل «تخثثاً» ويندوب لطفاً فهل في أرضنا رجل مذاب ؟
وفيه من الذكورة نوع حسن تتم به أنوثتها الكعاب
وهمة الثياب فليس يمشي إذا ما سار بل تمشي الثياب .
تراهم تابعين لكل أثنى وبين الشبه والشبه انجذاب (١)
ولا عجب أن نراه بعد ذلك يدرك نقص التمدن الحديث ، فيقول من
قصيدة :

مضى زمن كانت به حاجة الوري لبعث بني في يديه الرسائل
وذا زمن مسّت به حاجة الوري لبيعث في هذا التمدن فاضل .. الخ
ومن هنا ندرك مثل الموقف المتزن الذي يقفه الرافعي من الحضارة والمدنية
الجديدة ، فلا يرى لها نقصاً إلا من ناحية «الفضيلة» .
ولعل في المقدمة البليغة التي كتبها لرسالة الأدبية الفاضلة (الزهرة) في
« الدخينة » والتي يقول فيها :

أبها الشباب إنما الحياة هي القوة على الحياة ، وليس من شيء يعينكم على
تهاويل هذا الزمن العصبي إلا قوة الأعصاب ، فاحفظوها سليمة باقية على قانونها
الطبيعي ، وجنبوها المسكرات والمخدّرات والمُدخّلات ، .. واعتبروا هذه الرذائل
في صورها الحية .. فأنكم لن تجدوا في أهلها إلا العبودية للعادة الضارة المستحكة ،

(١) الرافعي - التخثث - الحال - ١٠ تموز / يوليو ١٩١٩ م .

وأنتم تريدون القوة الغالبة لا الخول البليد .. »

.. وذلك ما يكشف لنا عن المفاصد التي غشيت البلاد، فاشتبيحت فيها الحرمات، وأهريقتم المسكرات، وفشت المخدرات، ولعب فيها القمار بغير دار ..! واجتريء على الفضيلة والقيم في أكثر من ناد ..! ويفسر لنا ذلك حقيقة بعض المواقف من الحضارة العربية التي نعتت بالتمزمت والرجوعية، .. وكان الرافعي أقدر معاصريه في تحديد موقفه كما مر.

وأما المرأة فقد كانت هناك بعض الأسر تتعهد بناتها بتعليم خاص، وتربية أسرية محدودة تتلقى فيها الفتاة مبادئ القراءة والكتابة، .. وقد تتقدم في مضمار الأدب (١).

ولكن السواد الأعظم من النساء كان في زاوية من الإهمال لا تصلح فيه إحداهن لغير الرتبة في « مصلحة الككنس والرش » في البيت (٢).

وكانت الارساليات التبشيرية قد تنبّهت الى ذلك، فسعت سعيها من أجل إنشاء المدارس الأهلية والخاصة في أنحاء مختلفة من الأقطار العربية، .. وسارع اليهود - في العراق - بخاصة الى التعاون مع هذه الارساليات او المسابقة معها، حتى لم تلبث أن انتشرت في الأقطار المصرية والشامية والعراقية مدارس الراعي الصالح والقديس يوسف وبطرس وغيرها من الأسماء التي ترتفع فوق

(١) جرجي زيدان - آداب اللغة العربية - ج ٤ ص ٢١٤ ، وماري زيادة

(مي) - المرأة الشرقية - المقتطف ١٩٢٥ م ، وانظر كتابها عن عائشة التيمورية.

(٢) حسن السقطي - نقد ديوان الرافعي - الجامعة ج ٤ أيلول / سبتمبر

١٩٠٦ م

لاقت تلك المدارس مشيرة إلى مذهب الارسالية نفسه وتبعتها ! ..

ولما كان من آثار الحكم العثماني التخلف في المضمار التعليمي وتربية المرأة بخاصة ، فقد طغى اللون الغربي من ثم في مناهج التعليم ، .. وكانت هانريك المدارس قد حملت الكثير من مدنية الغرب وحضارة أوربة تحت شعارات العلم والتقدم والتربية (١) .

ثم إنه كان للمرأة من بعد أدب ، وارتفع لها صوت في الصحافة الناشئة بين صدى التقاليد ومن لقاح الفكر الجديد (٢) .

ولسكتنا يجب أن ننظر الى حركة « تحرير المرأة » التي أخذت مكانها من التاريخ ، بوجهة نظر تحليلية جديدة تقارنها او تقرنها مع الأحداث التاريخية الموازية لها ، والتي وقعت في ايامها ، ..

إذ لم يكد صوت مصطفى كامل يرتفع بالحركة الوطنية الى مثالية فضالية جديدة ، .. وتنعطف دعوة الشيخ محمد رشيد رضا الى تعريب الخلافة ، . حتى كانت الصهيونية تسارع الى عقد مؤتمرها الأول والثاني في نفس الفترة الزمنية ! . ويخرج كتاب قاسم أمين في « تحرير المرأة » عقب المؤتمر الصهيوني الأول بعام واحد ! .. فنجد أن نقد كتابه هذا وما احتواه من دعوة الى مساواة المرأة في الحقوق والواجبات بالرجل - كما في أوربة - على زعمه - مستدلاً بذلك على نصوص من القرآن الكريم اعتمد في آيات لم يحسن تأويلها ، وأحاديث شريفة

(١) عمر فروخ - الخالدي - التبشير الاستعمار ص ٨٠ ، ٢١٨ .

(٢) أنظر مقالة الأنسة (مي) المشار اليها .

لم يقو على تخريجها (١) .

وقد شغل كتابه هناك والذي أتبعه به (المرأة الحديثة) الفكر العربي في الرد عليه وعلى ما استطال فيه من دعاوى .. عن الالتفاف القومي من حول الحركة الوطنية أولاً ، أو الوقوف بوجه المؤامرة الصهيونية في وقت مبكر ٠٠ .
كأنجد الدعوة الى السفور - وهو التطور الثاني من الحركة - تقوم وتشتد أيام الحماية البريطانية حيث تكسكم الأفواه ، وينزل رجال الحركة الوطنية ضيوفاً على المعتقلات والسجون ، ٠٠ . وحيث تتمخض الدنيا العربية كلها بثورة تستكشف فيها قوتها للحياة المستقلة العائدة .

وفي الوقت الذي كان فيه العرب بين نيران الحرب ومضاعفاتها ، ٠٠ .
وانفجار وعد بلفور في قلب الثورة العربية تظهر مجلة « السفور » لتشغل الناس بفتنة من الآراء والاجتهادات ، تنوزعهم في مذاهب وأحزاب ٠٠ .
وقد يكفي أن نذكر ما كان من أمر الاتحادات النسوية ودعوتها الى رفع « نون النسوة » وحقوق الانتخابات في البرلمانات المزيفة غداة المناحة القومية التي أعقبت الحرب الثانية وضياع فلسطين ، والتي كان من ذيلها خلق « اسرائيل »
دويلة لليهود ٠٠ .

ولم تخل هذه الحركة النسوية نفسها من التخليط (٢) كما أن دعوة قاسم أمين نفسها لم تكن تنسم بالنصریح ، ٠٠ . وكان من أثرها ما تعانیه المرأة العربية اليوم من حياة بكتشفها الضیاع من بعض أركانها ، وتكاد تبعد بها التقاليد والتقاليع

(١) أنظر فلسفة الطائشة المرافعي بوحى القلم ، وهناك شبه كبير بين تناول الماسون لآيات الكتاب المبين ، وبين الأسلوب الذي اتخذها إليها قاسم أمين !

(٢) انظر قصيدة الزهاوي . مزي يا ابنة العراق الحجابا ...

الجديدة عن طبيعتها ، أو تصرفها عن فهم ماهية المرأة نفسها ، مما لا مجال للافاضة فيه هنا .

ومن ناحية أخرى فإن سير الحضارة الانسانية نفسها قد تقدم بالمرأة ، يغشى بها الميادين الاجتماعية والعلمية والفكرية ، . معلمة وطبيبة ومهندسة وموظفة ، حتى لتزحم الرجل في بعض الأحيان في مجالي رزقه في العمل ، وحتى التجارة والتسويق ، .. بعد الذي انفسحت فيه أمامها أبواب الدراسة في الجامعات والبعوث مهينة لها الفرص جميعاً ! ..

ولكن كالثالث التقاليد والعادات المستوردة والوافدة بالشبان ، .. فقد لاثت أخلاق أخرى بالفتيات ، ... وقد تجاذب الأدب الحديث هذه وهاتيك في آراء وأحاديث فيها وجهات من النظر ، تجتمع في ضرورة « تربية المرأة » وإعدادها للحياة في كرامة .

فنجده محمد حافظ إبراهيم يظاهر قاسم أمين في دعوته ، فيقول في

قصيدته :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي في حب مصر كثيرة العشاق
.. من لي بتربية النساء فانها في الشرق علة ذلك الاخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق
وكأما يتدارك نفسه بقوله :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً بين الرجال يجلن في الأسراق

.. فتوسطوا في الحاليتين وأنصفوا فالشر في التقيد والاطلاق (١)

ونرى معروف الرصافي يدعو الى « تربية البنات » في قصيدته :

هي الأخلق تنبت كالنبات إذا سقيت بما المكرمات

تقوم إذا تعهد بها الربى على ساق الفضيلة مشورات

ولم أر في الخلائق من محل يهذبها كحضن الأمهات

فحضن الأم مدرسة تسامت بتربية البنين أو البنات (٢)

ومن ثم نلاحظ الرافعي ، وقد خص المرأة من أدبه وفنه ما يعمر مؤلفاً قائماً

بذاته ، ففي الملاحظة الأولى ندركه يبدأ من المسلمات الأولية في مثل قوله :

الطفل أول ما يفكر في التي هي أمه حتى يشب ويكبر

وراه يفكر بعد ذلك في التي هي قلبه حتى يحب ويشعر

.. ويظل يفكر بعد ذلك في التي هي زوجه حتى يزيد ويكثر

ثم نجدده يفسف رأيه في المرأة فيدعي أن « كل الانسانية في نصف

(١) حافظ ابراهيم - الديوان ج ١ ص ٢٨١ ط ٢ .

ويظهر أن حافظ كان قد أدرك خطر اندفاعته في تأييد دعوة قاسم أمين

وقوله قبل هذه القصيدة بعشر سنوات :

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه

الى اليوم لم يرفع حجاب ضلالم فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه

.. الخ ديوانه ط ١ ج ١ ص ٨٣ .

(٢) الرصافي - الديوان

الانسان» (١) ويحكم عليها مسبقاً بمثل قوله :

فحسبك نيلاً قاله الناس أنجبت وحسبك فخراً أن يصونك باب
لك القلب من زوج وولد ووالدٍ وملك جميع العالمين رقاب (٢)
وفي الوقت الذي يستنكر عليها «التبرج» (٣) و «الحسن المصنوع» (٤)
ويحذرهما بمثل قوله :

لمن تتبرجين؟! وذوي سبيلٍ وما هي أفق شمسك أو هلاك
أما تخشين أنك في طريق؟! يرف بها الحرام على حلالك
وإن الناس قد شهدوا نساءً سواقط كلهن على مثالك ١١
ويسخر لها من دعاة «تحرير المرأة» بقوله :

أهم أحرار هذا الدين فينا؟! وما بلغوا عبيداً عند مالك؟! (٥)
ثم إذا بنا أمام دعوة من أكرم الدعوات الانسانية والقومية ، تلك التي
جاءت متميزة في قصيدته «الشرق المريض» إنصافاً للمرأة ، ورفعاً لمكانتها
الاجتماعية الى الأمومة الراحية حباً وكرامة حيث يقول مستبقاً أكثر الشعراء في
الموضوع ، وكأنما ينظر عن معاينة :

(١) الرافعي - النظرات ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) » - الديوان ج ٢ ص ٣٩ .

(٣) » - التبرج - الحال - ٢٠ شباط (فبراير) ١٩١٩ م

(٤) » - النظرات ج ١ ص ٩٢ .

(٥) مذهب الإمام مالك في الحرية مشهور ، وانظر قصة (أمراء للبيع)

لرافعي .

ربوا لذا الشرق يا قومي ممرضة تمنحو عليه بأحاساس ووجدان
تطبه روحها مما ألمَّ به فإن أقتل داء الشرق روحاني
يرى عواطفها الأديان خالصة إذا تلعب أهله بأديان
ربوا له الأم يا قومي فلو وجدت في الشرق ما طاح في ذل وإهوان
تلك التي ترفع الدنيا وتخفضها بطفلها فهو والدنيا بميزان (١)

الى آخره مما قصرت عنه سائر الدعوات الأخرى لتحريرها أو تجزيرها وتحويلها
بذلك الصراخ المستيري غير المتزن الذي ظهر به (انصارها) المهلوسون
ومدعو المطالبة بحقوقها ، ممن لا تزال تجد أقوالهم لها سوقاً سياسية ا

* * *

ولقد كانت دعوات الاصلاح الاجتماعي والحفاظ على القيم العليا، والخلقية
الاسلامية ، وتقويم التقاليد العربية قوميًا ، تجتمع أحيانًا ، .. او تنفرد في
صيحات أهل الذكر والفكر من الأدباء والشعراء ، .. كما تبرز في جمعيات ،
او تظهر من شرفات بعض الأحزاب ، لتسير بموازاة الحركة الوطنية والقومية
جنباً الى جنب .

واعل من اسبق هذه الجمعيات في عصرنا الحديث تلك التي ضمت جمال
الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في « العروة الوثقى » ، والتي انتظم فيها
نخبة من ابناء الأمة في شتى اقطارها .

وقد كان لجريدها اثر بالغ في عرض الحقائق الواقعة في الديار الاسلامية ،

(١) الرافعي - المقتطف - كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ م .

والإشارة الى مواطن البدء والمنطلقات في الإصلاح العام (١) .

ثم لما قامت في الأناضول جمعية « تركية الفتاة » التي انقلبت فيما بعد الى جمعية « الاتحاد والترقي » . . تألفت في الكنانة جمعية « مصر الفتاة » حتى اقام عبد الله النديم بمكانها « الجمعية الخيرية الاسلامية » ، والتي عادت من ثم ثانية على اسمها نفسه هذه الجمعية التي ضربت المثل في التعاونية الاجتماعية التي عملت عليها في سريتها وعلنيتهما ، مما يقدر لها بأعجاب بالغ ، ولا سيما فيما نجفل به آثارها الى اليوم (٢) .

وقد جرت من ثم محاولات عدة لتأليف الجمعيات الاجتماعية في مختلف اقطار الدولة العثمانية ، ولكن كان من اعظمها دعوة وميثاقاً تلك التي قامت بدعوة من الشيخ محمد رشيد رضا ، وعرفت بجمعية « شمس الاسلام » والتي انطلقت في العقد الثاني من القرن الرابع عشر الحالي .

وأحسبها قد جمعت بين ما عرف من الدعوة الى « اللامركزية » من أجل قيام كيان عربي متميز في الدولة العثمانية ، وبين روح دعوة « العروة الوثقى » الإصلاحية ، .. كما ضمت اليها نخبة صالحة من كرام العرب ، الذين كانت لهم اصوات في اليقظة القومية مسموعة ، كالسيد عبد الحميد الزهراوي والشيخ رضا شرف ، .. وسواهم من شتى اقطار العروبة .

ولم تكن تقبل احداً من حزب « تركيا الفتاة » ولا تبليح غير اعضائها الحضور في اجتماعاتها ، قصداً في العمل الثمر ، وخشية من اندساس السفهاء ..

(١) تاريخ الامام محمد عبده ج ٢ ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٢) عمر الدوقي - في الأدب الحديث - ج ٢ ص ٢٨٨ وما بعدها .

وقد وُشِّحت مجلتها « المنار » بتاج يرمن الى تتويج الخليفة العربي الجديد ،
وابتداء من السنة الأولى شرع رائدها الشيخ رضا بكتابة سلسلة مقالاته
الجبارة عن « الوحدة العربية » (١) ، التي تميزت بالعمق التاريخي والفقهى
للموضوعية المحدثة في الحركة القومية ، ..

ومما هو جدير بالذكر أن شائئها من « الماسون » والطورانيين والشعوبيين
الآخرين ، قد تصدوا لها منذ أيامها الأولى ، وناصبوها العداء ، .. فزعموا
تآمرها على السلطة العثمانية تارة ، وخصوصيتها في (القومية العربية) وانتقادها
للخديوية (المصرية) أخرى ، .. ولا سيما بعد أن امتدت فروعها في الاقليم
المصري ، والديار الشامية والحجازية ، وكادت تؤتي ثمارها الاجتماعية والقومية ..
حتى قيل أنها كانت تحيا باسناد من السلطان عبد الحميد نفسه ، في محاولته صرف
الخلافة عن العثمانيين ! (٢) .

وقد وقفت لهؤلاء واولئك بالمرصاد تفضيح إدعاءاتهم « البنائية الحرة »
بما فيها تلك التي يستدلون عليها بآيات من الذكر الحكيم ، (٣) وتسفه آراءهم
المختلطة والتي ليس فيها شيء من وضوح العقيدة او سلامة الهدف .
ونجد الرافعي يبعث الى منشي المنار برسالة يعلن فيها افتتاح فرع لها في

(١) راجع هذه المقالات ابتداء من عدد المحرم ١٣١٨ هـ - نيسان

١٩٠٠ م .

(٢) حدثني بذلك خالي السيد علي البهري - رح - في معرض ذكرياته عن

النهم التي ألحقها الإتحاديون به غداة تنازله عن عرش الخلافة ! ..

(٣) أنظر المنار - ذي الحجة ١٣١٧ هـ .

طنطا يطلق عليه « جمعية السنة الاسلامية » (١) إيثاراً قومياً لمصطلح السنة على وصف الشمس ! .. يقول فيها: « نظرت في المسلمين فرأيت من ذكر قد اسقط في يده، وفُت في عضده، وأقلم وأناب، .. ورجع وتاب، .. فأعلنت في الناس ان يجتمعوا لينتفعوا، .. وجعلت المقر مسجد البهي - قدس الله سره - والميعاد يوم الخميس .. ثم كتبت ورقة عليها « جمعية السنة الاسلامية » وأعطيتها لانسان، فأقبل في البلد وأدبر ونادى فحشر .. الخ .

ومما هو جدير بالذكر ان جمعيات وطنية وقومية كانت قد قامت في الفترة التي أعقبت المطالبة بالدستور العثماني - في مصر وسائر البلاد العربية الاخرى ، وفي العاصمة نفسها (الاستانة) ، ومن اشهرها المنتدى العربي ، وجمعية الاخاء العربي - التركي والعربية الفتاة ، والجمعية القحطانية والعهد .. وسواها (٢) .

ولكن الطابع السياسي كان يغلب على معظمها . وقد استطاعت فيما بينها ان تعقد المؤتمر العربي الاول في باريس عام ١٩١٣ م الذي صارحت فيه حكومة الاتحاديين بضرورة تطبيق نظام الحكم المحلي في الأقطار العثمانية ليكون للديار العربية كيانها المتميز واقعياً وضمن المحافظة على الوحدة القومية للدولة .. الخ (٣) .

(١) الرافعي - المنار - المحرم ١٣١٨ هـ - أيار ١٩٠٠ م .

(٢) راجع في ذلك - جورج انطونيوس - بقظة العرب ، وعزة دروزة - الوحدة العربية - ، وحمدي طربين ومصطفى الشهابي وساطع الحصري وكلامهم عن هذه الجمعيات في مؤلفاتهم القومية .

(٣) راجع المؤتمر العربي الاول - طبع دار الكشاف ١٩٢٩ م .

ومن الجمعيات ذات الصفة الاجتماعية الصرفة ، تلك التي ألفها النازحون السوريون في مصر والتي سميت بجمعية (الاحسان السورية المصرية) .. والتي اشتهرت بأسواقها الخيرية السنوية واحتفالاتها التي كانت تجمع فيها الكتاب والشعراء والخطباء ليتحدثوا في المجالي الاجتماعية والتعاونية ..

وكان الرافي كالخطيب الدائم لها في كل احتفاء او مهرجان .. ١

ومن فوق منبرها ارسل آراءه الاجتماعية وميز دعوته الانسانية وكان يقارن بين ماوصلت اليه المذاهب الاجتماعية الكبرى في اوروبا وبين ما نستطيع اخذه منها ونطبعه بطابعنا القومي الذي يميزه ، .. بدراسة احوالنا وأوضاعنا الاقتصادية والقانونية ..

ومنهما كانت دعوته الى الاشتراكية العلمية والاحسان الاجتماعي .. وتمزية المساكين من المذنبين في الارض . كما سنفيض به في دراستنا للموضوعية الحديثة في ادب الرافي (١) .

ثم لما كان من نتيجة الحرب : فقد توقفت كثير من هذه الجمعيات واندثرت ولكن لم تكد تلوح في الافق انباء انتصارات الجبهة الوطنية - التركية في الاناضول حتى عادت بعض العناصر التي تنسبت بالولاء العثماني الى تجمع جديد في (الرابطة الشرقية) التي حاولت الاتصال بالخلافة - وكانت لما تزل

(١) راجع الرافي في الديوان ج٢ ص ٢٦ الهامش ، وسركيس - ج٧

تموز (يوليو) ١٩٠٥ م . وتاريخ آداب العرب ج٣ ص ١٣٦ - المقتطف ١٩٠٩ م ... الخ ، المقتطف أبار (مايو) ١٩١٢ م - المساكين ص ٧٤ ، المقتطف أيلول (سبتمبر) ١٩١٤ م .

قائمة في الاستانة التي احتلها الحلفاء ١ .

ولكن تنفيذ معاهدة سابكس - بيكو في تقسيم ديار الوطن (١) ، قد أوجد كيانات جديدة في الأقاليم قامت بحدودها معوقة على الرابطة ما تهدف اليه من إعادة ربط الأوصال .. كما أن مصطفى كمال نفسه قد أقدم على إلغاء حكومة الخلافة ، والاكتفاء بحكومة انقرة ، مما خيب الآمال من جديد وبعثر قوى التجمع .. ولا سيما حين أتبع ذلك الاجراء الاثحق بسلسلة من الحماقات الاخرى تقطع كل صلة للترك بالاسلام ، حتى حروف اللغة العربية ، ويوم الجمعة الفضيل (٢) مما كان لها اسوأ الآثار في حياة الامة وشعوبها الاسلامية بعامة .

أما الحياة الحزبية فهي ظاهرة اجتماعية جديدة ، حاولت القيام على الطريقة المتبعة لمثلها في فرنسا بخاصة ، .. وكانت مصر أسبق البلاد العربية في هذا المضمار . فقد تنادى بعض المخلصين عقب فشل الثورة العربية والاحتلال الانجليزي للمقاومة والمطالبة بحقوق مصر في السيادة الوطنية ، .. وظهر مصطفى كامل ١٨٩٢ م - ١٩٠٨ م بحركته التي عرفت فيما بعد في تجمع الحزب الوطني والذي يميز بثبات مبادئه ، وإخلاص رجاله ووضوح اهدافه وغاياته طيلة ستين عاماً من وجوده

ولكن فئات من المثقفين الجدد من « ذوي المصالح الخاصة » - كما كان يحلو لهم أن ينعثوا انفسهم - ، تجمعت هي الاخرى لتؤلف حزباً سياسياً يسمى على « الامة » وليكون موازياً للحزب الوطني .

(١) راجع المعاهدات والوثائق ص ٦٢ .

(٢) « عبد القديم زلوم - مصرع الخلافة - .

وكانت راحة الانفصال عن الدولة العثمانية . وموالاة الانجليز والانفراد بمصر . لا تخفى عن بعض اتجاهاته ، ولا سيما عند بعض اعضائه الذين كانت لهم صلات بالمحافل الماسونية والارساليات التبشيرية المنتشرة في البلاد ، والتي كانت تغذيها الوكالات والقنصليات الاوربية بالاضافة الى نشاط دار الاعتماد البريطانية في صفوفهم ١ . (١)

على ان الحزب الوطني ومصطفى كامل بالذات لم يكن ليشغل نفسه بمثل الموضوعات الجانبية التي يحاولها هؤلاء . . . ومضى في دعوته قدماً ، مؤمناً بالجامعة الاسلامية ، ومقرراً بالسيادة العثمانية وعدم جدوى الانفصال بالافليم المصري ، ودعا - فيما دعا اليه يومها - الى إنشاء مدارس الشعب الليلية ، التي تطوع للتدريس فيها رجال الحزب وشبابه (٢) .

وكذلك دعا في جريدته (اللواء) الى إنشاء (الجامعة) في (فكرة وطنية انشق لها مكانها في الحوادث ، وبذلت لها الامة ما بذات ، وشكرت لها وجدّها بها الجد (٣) .

ولكننا نجد ان (حزب الامة) يلقف الفكرة ، . . . ويضع عينه عليها من اول بوم ، حتى لقد خرجت (الجامعة) تهادى من المحفل الماسوني في القاهرة (٤)

(١) محمد محمد حسين - اتجاهات الوطنية - ج ١ ص ٧٣ .

(٢) عبد الرحمن الرافعي - مذكراتي - ص ١٦ .

(٣) الرافعي تحت راية القرآن - ص ٦٨ .

(٤) عبد الطيف حمزة - الصحافة والأدب - ص ٧٨ .

يزفها المثقفون - المتمدنون من ذوي المصالح الخاصة باسم الأمة !
ثم مرت الحزبية بفترة ركود عقب الانقلاب العثماني وإعلان الحماية
الانجليزية على مصر ، وأصاب زعماء الحزب الوطني الاعتقال والنفي .
وما كادت الحرب تضع أوزارها - حتى عاد بعض هؤلاء - ليجتمع من
جديد باسم (الحزب الديمقراطي المصري) (١) يزعمون به تجمع (الوفد المصري)
الذي كان مفروضاً أن يمثل الأمة في جميع اتجاهاتها الوطنية ، ومطالبها في السيادة
القومية . ولا سيما بعد اندلاع الثورات في مصر والأقطار العربية .
ولكن ما لبث (الوفد) أن اقتصر على فئة أخرى من (ذوي المصالح
الخاصة) تعمل على حجب الحزب الوطني الذي يقاوم الاحتلال ويرفض
الحماية ولا يقبل التبعية بدلاً عن الجلاء ! .

وما كاد دستور ١٩٢٣ يظهر حتى انفرط من هؤلاء وأولئك فئة أخرى
تزعم الحرص على (الدستور) وتنعت نفسها بحزب (الاحرار الدستوريين)
وتلجأ الى الصحافة والنشر - تذيع فيها دعواتها بمجازفة وغير قليل من المبالاة
حتى لم تخلُ واجهاتها في الحقيقة والواقع من محط لنزول الأفكار الوافدة -
وكأنما فرّخ فيها الاستعمار فكرياً - بواردات أوربية متفرنجة - تزعم تجديد الحياة
والثقافة - والتغريب بمصر . . أو شرقتها عن الأمة العربية فرعونياً .

ولم تقف مضاعفات الحباله السياسية في مصر الى هذا الحد - وإنما تبع
موقف الوفد وانفرادياته - ولا أقول انانيات زعمائه - الى الانشقاق في صفوف
السياسيين غير مرة - أدت فيما بعد الى ظهور احزاب وفئات أخرى كالاتحاد

(١) راجع أدب الثورات لمحمود صادق ص ٢١ .

والشعب - ثم الكتلة السعدية .. الخ والتي ما برحت تتنازل عن أهدافها القومية وواجباتها الاجتماعية وتعلق بالصورة السياسية حتى غدت الحزبية نفسها مرادفة للمغامرات السياسية حسب ! .

ومما يلاحظ أن الحزب الوطني كان الوحيد بين هذه الأحزاب في الثبات على المبدأ ، والقيام على رسالته الوطنية والقومية ، وتمسكه بالأهداف العليا للأمة ، وإن هبط مستوى نشاطه الاجتماعي على توالي الأيام ..

وقد لاقى زعيمه الثاني - محمد فريد - النفي والتشريد ، كما تلقى زعماءه الآخرون الاعتقال والاهمال عقب إعلان الحماية ، ..

وبسبب من ثبات أمين الرافعي وإخلاصه .. تلقى إعتداء « مليشيا » الوفد المسماة بمجنود سعد ..

وما انفكت الحزبية والأحزاب في الوطن العربي اجمع تلتف حول نفسها ، وتسقق صفوف الامة بمذاهبها وأفكارها وعجاجات رجالها ، .. وقد تنبه الرافعي الى ذلك في سبق فكري لم يكن لمعاصريه من الأدباء والشعراء ، .. فقال من قصيدة :

تباين ما بين الرجال وكلهم	على زعمه بالأمر خير كفيل
فيا عصبة الأحزاب ردوا حلومكم	وجروا على غير الثرى بذبول
وما أنتم في أمر شيء من الهوى	فما بال واش بينكم وعذول ؟
وأحييتموها سنة جاهلية	عداء أصيل فيكم ودخيل

الى أن يحضهم النصيحة بقوله :

تخلدوا بأمر العلم واستجمعوا له قواكم فإن العلم خير دليل (١)

وكأنما كان ينظر من لوح الغيب حين يقول بعد ذلك بسنوات :

خلدوا عن الشعب حرّاً وانظروا تجدوا بمصر ميزان هذا الشرق يعتدل (٢)

.. إذ ما كادت تندلع ثورة الجيش في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ م ، ..

حتى رفعت عن الشعب تلك السلاسل التي أكثرتها المذاهبيات الحزبية ، بعد أن
افتضحت حقيقتها أمام الأمة ، وكادت تصرفها عن حقيقتها الاجتماعية .

* * *

وإزاء ما أحدثته حركة الأحزاب في الصحافة والفكر بعامة من هزة
لا تخلو من تشكيك إعتقادي ، وضلال مبين ، .. يقتاده بعض المتفرنجين من
واردات أوربة ، أمثال سلامة موشي ومبتسرانه في الترجمة ونقل الآراء من
غير اضج ولا تمثيل ، وطه حسين وإنتحاله لأساليب البحث ، وإلياس أبي شبكة
ودعوته المتفرنسة . الخ حيث لم يكن يتصدى لهؤلاء وأولئك من ذوي الاتجاهات
الأدبية والفكرية المشبوهة ، والتي لا تستوي مع النضج في قيم علمية تصيب هدفاً ،
غير رجلين إثنيين لم تكن أصلهما من مصر (١) .

أما أحدهما فهو الامام مصطفى صادق الرافعي ، الذي نازل دعوات رجال
حزب الامة الى العامية (٣) ووقف في وجه « تفرنجاتهم الديمقراطية » وما حبذته

(١) الرافعي - النظرات - ج ١ ص ٢٣ .

(٢) « - المقطم ١٩ ربيع الأول ١٣٤٨ م .

(٣) أنظر الرافعي - البيان - ١٩١٢ ، المعركة .

للرأفة من الحياة الجديدة (١) ، . . وسفّه كل مفتريات مواليدهم « الأحرار »
في محاولة البحث والنقل ، . . وأظهر الامة حقيقة الامانة العلمية في الترجمة
والأخذ ، تلك الأمانة التي لم يكن يتحلى بها رجل منهم ولو بمقدار (٢) .
وأما الثاني فهو الامير شكيب أرسلان ، وقد كان له من منزلته القومية
مجال الهيبة والرأي ، وقد مضى يظهر الرافعي في ثورته المؤمنة ، ومقاومته
الباسلة .

وقد مكّن لهما وانضم اليهما رجل ثالث من الشام أيضاً هو الشيخ محب
الدين الخطيب - حفظه الله - في مجلتيه « الفتح والزهاء » بخاصة ومسلسته
« الحديقة » . . وكان لوعيه العلمي واستيعابه للتراث ظهراً عظيماً .
ومما يغبط عليه حقاً أنهم وجدوا في مصر نفسها المجال الأرحب لمواقفهم
القومية النبيلة الرائعة .

ويصف لي أحد من عاصروا تلك الايام كيف أن الانسان المصري كان
يقف مشدوهاً او كالمتفهم السائل أمام ذلك البحران الفكري ، والصراع الحاد ،
الذي يستطيع المساهمة الفعالة فيه ، ولا المحاولة الجدية في وقت ذلك الاتجاه المضلل
الريب ، الذي احتسب عليه فرعونياً تارة ، ويونانياً أخرى (٣) .

(١) انظر الرافعي - الرسائل ص ٥٧ .

(٢) انظر الرافعي في - المعركة تحت راية القرآن - وردوده على وشي

وطه حسين .

(٣) راجع الحصري - الإقليمية - في مناقشته لطفه حسين وكتابه

- مستقبل الثقافة بمصر - .

حتى ليقول الرافعي :

إنا في زمن يجيش بفتنة في الدين تأتية من الأركان
في كل دهر كان إبليس يُرى فرداً .. وفي ذا العصر إبليس !! (١)
ولكننا نجد من أثر هذه المواقف أن نشأت جمعية الشبان المسلمين في عام
١٩٢٧ م التي حظيت بالالتفاف الاعتقادي من حولها ، . . وانطلق منها نشيد
الرافعي « شباب العالم المحمدي » وقد فاز بالجائزة الأولى ليصبح من ثم شعار
الثورة الفكرية المؤمنة ، والذي يقول فيه :

يا شباب العالم المحمدي ينقص السكون شباب مهتدي
فأروه دينكم كي يهتدي دين عقل وضمير ويد (٢)
وكان من أثر مواقف الرافعي الانفرادية ، وعصده أرسلان ، ومساهمة
الخطيب ، واقتصار « الشبان المسلمين » على الحفلات التاريخية والنبوية ، أن
فكر معلم شاب في الاسماعيلية ، بضرورة تنظيم دعوة كبرى للإسلام في العصر
الحديث ، وهكذا انتظمت جمعية « الإخوان المسلمين » التي عمرت الاعتقادية
القومية ، وظهرت على الملأ بصورتها العربية المؤمنة التي راحت تسابق انتشار
جمعيات الشبان المسلمين في مختلف الأقطار العربية والإسلامية (٣) .
ولكن حدث أن أغريت بالعمل السياسي وساومتها الأحزاب . .

(١) الرافعي - المقطم - ١ رجب ١٣٤٥ هـ - ديسمبر ١٩٢٦ .

(٢) الزهراء - ج ٤ ص ٦١٢ .

(٣) أنظر الرافعي في قصة الأيدي المتوضئة - وحي القلم - ، وراجع
الدكتور استحق موسى الحسيني - الإخوان المسلمون .

فكانت تنتقل من طور الى طور حتى كانت الحرب الثانية ومأساة فلسطين . .
ولم يكده يستشهد رائدها الشيخ حسن البنا عام ١٩٤٩ م حتى دب اليها الوهن .
ونحلت الى جماعة حزبية حملت نفسها ودعوتها بسلسلة من الحملات . يقدم
عليها مواترون وحاقدون في صفوفها حتى انتهوا بها الى مالا تحسد عليه
من مأساة !

ومما هو جدير بالذكر - بعد أن غدت الدعوة القومية العربية غنواناً
إجتماعياً ضخماً في الحياة النضالية والاعتقادية - أن جماعة من الطلبة العرب كانت
تنتظمهم دار العلوم المحروسة في تلك الايام تنادوا فيما بينهم الى تأسيس جمعية
يطلقون عليها اسم (الوحدة العربية) ذلك الشعار الوليد في الدنيا السياسية
للاقاليم العربية بعد الحرب . .

وعكدا تألفت من صفوف الطلبة تنتظم فتحي رضوان وصالح جودة
وعمر الدسوقي من مصر وكمال ابراهيم وبديع شريف من العراق وتيسير
ظبيان وسامي السراج من سورية .

وقد اختارت هذه الجمعية المرحوم محمد علي عاوبة ليكون رئيساً لها
لعرويته الظاهرة ولا سيما بعد اشتراكه بمؤتمر التوفيق بين السعوديين والزيديين
عقب حرب عسير ونجاحه في المؤتمر .

وبقيت هذه الجمعية حتى انتقل صفوة أعضائها الى المملكة المتحدة طلبة
بعثات علمية فعادوا يتجمعون هناك ويحيون مع « الوحدة العربية » هدفاً وفكراً
ويناصبون الاستعمار والصهيونية حرباً لا هوادة فيها وكان يتناوب على منبر
الخطابة في « هايدر بارك » كل من الاستاذ عمر الدسوقي وعبد الرحمن البراز

ويحمون أنفسهم بأنفسهم من اعتداء اليهود (١) . وقد ضمت إليها عبد العزيز الدوري - أمين سرها فيما بعد - وعز الدين التنوخي وقاسم البزركان وإسحق موسى الحسيني ... ولكن حدث أن تفرق شمل بعض هؤلاء الطلبة عائدين بعد اندلاع الحرب فانتهى بها الأمين الى الحل عام ١٩٤٣ م .

ولعل ظهور هذه الجمعية من الطلبة في دار العلوم بمصر أولاً في تلك الايام هو الذي شجع المؤرخ القومي الكبير أمين سعيد والمجاهد عبد الرحمن الشهبندر ومحمد علي علوبة وغيرهم على الإقدام في إنشاء (الرابطة العربية) في مصر .

التي دعت فيها بعد الى قيام دولة العرب القومية الموحدة .

وهذه الرابطة هي التي أحييت ذكرى الامام الرافعي الاولى ، فأقامت لها أروع احتفال (٢) .

* * *

وهكذا كانت البيئة الاجتماعية ، وهي تتلقى الانواء هائجة عاصفة حيناً وثائرة متمردة أحياناً ، وضائعة بين التعاسة والشقاء ، يخيم عليها الصغار والبلاء في كثير من الأحيان ؟

(١) عمر الدسوقي ، وعبد الرحمن البزاز ، وبديع شريف - في أحاديث خاصة ، وانظر الرسالة - ٣٩٥ / ١٩٤١ م .

(٢) أنظر - الرابطة العربية - ١٠٠ - ١٨ ربيع الاول ١٣٥٧ هـ - ١٨ أيار (مايو) ١٩٣٨ م .

الفصل الثالث

الحياة الثقافية والعلمية

كان للفترة التي سبقت النهضة الحديثة في التاريخ العربي حسنات ، قصر المستشرقون عنها معرفة ، فغفلوا عن الوقوف عليها بأمانة علمية ، .. ولم يكتفوا أنفسهم بتعدادها على الأقل ، .. فبقيت « مظلمة » عليهم ، وشايعهم في ظلمها غير قليل مؤرخي الحضارة وجوانبها في تلك الفترة أيضاً ١٠١ .

فإذا نحن سلمنا في الحكم بمجدها في القرائح والأذهان ، .. ورأينا معهم وقوفها دون الاجتهاد والابداع والابتكار - من غير إعتبار بالظرف السياسي ، والحوال الاجتماعية التي مرت بها واكتفتها من جميع جهاتها ... وأخذنا بوجهات النظر التي تنعتها بالجمود وتتهمها بالتخلف ، وترمينا بالضياع ١١١ .. فلا يمكن بحال أن ننكر ذلك الدور العلمي الذي قام في أثنائها بعمليات التجميع الخطيرة في المعالم والتراجم والمحتويات (الفهارس) ١ ... أو ننقصها بعض ما اتصفت به من الهمة في الحفاظ على التراث بالايجاز والتلخيص ، .. أو أن نتحيفها فيما عانت به عملياتها هذه مع العلوم والفنون بين المتون والشروح مما كان بعض أسس التعليم

ووسائل الاعداد في النهضة العلمية القائمة ١٠٠

وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال الامام ابن حجر العسقلاني ، والامام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ من بين أعلامها الكثر (١) ، وننظر في أسماء مصنفاتها ، وجداول مؤلفاتها ، وثبت تختصراتها وتجميعاتها ، لنندرك مبلغ المجاهدة التي عانتها تلك الفترة في الحفاظ على روح الحضارة العربية ، ومادة الشريعة الاسلامية وعلوم القرآن العظيم ، وما يتصل بالفقه بخاصة من علوم الحياة والطبيعة ،.. وكذلك فنون اللغة والآداب جميعاً .

وما زالت الى اليوم بعض هانيك المصنفات في الطب والحكمة ، والكيمياء والفلك والحيل (الميكانيك) تتداول ، ويجدد فيها بعض علماء الاتقان العلمي (التكنولوجيا) مادة غنية بالمعرفة والمعلومات .

لقد كانت الحياة العلمية تسير في نمو داخلي تغلب عليه البساطة ، ويتكلف له أصحابه من وسائل المعرفة تلك الخصيصة العربية في الحفظ والنص والمراجعة ،.. وإن لم تكن تخلو من تعقيد في بعض الأحيان .

وما كانت مدافع الحملة الفرنسية على مصر غير شارة الخطر الدائم (٢) الذي ينبه الأذهان ، ويثير الشعور القومي ، ويشجذ الهمم للإيمان بكرامة الحياة أولاً ،.. على هدى من المجالي الحضارية ، وبصيرة من الجوانب العلمية ، وينهض بالامة على أسلوب المقارنة بين ما تحياه بواقعها المتخلف ، وما تراه من الحياة

(١) راجع في ذلك معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة والاعلام للزركلي

وغيرها من كتب التراجم .

(٢) أنظر عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ١ ص ١٣ .

الأوربية العجيبة ، التي نحفل بأطياب العيش والسعة والرخاء .

فقد كانت تنعجلى هاتيك المشاهد من صور الحضارة الأوربية بالحياة الثقافية ، التي يتملأها العرفان كما كانت تسعى بها جيوش الاحتلال في ادوات العلم والأعتدة معاً ، على الشكل الذي سوّغت به « الثورة » الفرنسية ، والحركة التبشيرية ، .. لعمليات الاستعمار عبر القارات (١) .

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضتها هذه الحملة الفرنسية (١٧٩٨ م - ١٨٠١ م) ، فقد تركت لها آثاراً في الشرق العربي ومصر بخاصة لا تمحى من الذاكرة التاريخية ، .. حتى لقد زعم بعض المؤرخين أنها كانت حملة علمية أكثر منها حربية للنفوذ والاستعمار (٢) .

ولكن مثل هذا الزعم يقابله الرأي الحصيف الذي يقول « لا يمكن أن يكون للحملة الفرنسية - وصفتها عسكرية إعتدائية ، وهدفها الاحتلال - أن يكون لها لمسة النبي أو مسحة الرسول في البعث » خلال ثلاث سنوات ما كفّ الشعب فيها عن صنوف من المقاومة (٣) .

فمن الناحية الأخرى نلاحظ ما كان من اتفاق الآراء عند ذوي الحيل والعقد في الأمة ، وسراهم من العلماء والفضلاء .. على أن المعرفة هي سبيل النهضة والحياة الحضارية التي تلحق بركب الأمم المتقدمة .. فلا بد من وسائلها ، في

(١) عمر فروخ ومصطفى الخالدي - في التبشير والاستعمار - وكذلك

جون غنتر - شخصيات عالمية - الجمهورية ١٧ آذار ١٩٦٥ م .

(٢) محمد رفعة - تاريخ مصر السياسي - ج ١ ص ٣٩ .

(٣) راجع اسحق موسى الحسيني - محاضرات الموسم الثقافي في الكويت

ص ٢١٠ .

إحياء التراث القومي ومدارسه ، والقيام بعمليات نقل الآثار الحضارة العلمية
المحدثة الى اللغة العربية (١) .

ومن هنا بدأت تتعدد العوامل الاساسية للنهضة العربية الحديثة ، وتختلف
السبل في قيام الحياة العلمية والثقافية عند العرب من جديد .
فوجد الاهتمام بالطباعة لانقاذ التراث من عمليات النسخ وما يلحقها من
تخريف وتصحيف ، فابتكر الشماس عبد الله زاخر في لبنان شكلاً فريداً للطباعة
وطريقة الطبع والحبر . . وما يلحقها (٢) ، قبل أن تصل مطبعة نابليون الى
القاهرة بسنوات .

ويجب الوالي مدحت (باشا) الى بغداد مطبعة الزوراء .. وتقوم من ثم
المطبعة الأميرية ببولاق القاهرة وإن ما صنعتها في إخراج أمهات الكتب العربية
في العلوم والفنون والتاريخ والأدب والشعر يعد من طلائع الثورة في الكتاب العربي ،
مما كان أثره بالغاً في عمليات إحياء التراث القومي ، والسعى الحميد في توفير
الكتاب لمجلات أوسع في صفوف الأمة وأبنائها .

وما لبثت أمهات الكتب النادرة ، وفرائد المصنفات بالاعشرات أن
أصبحت في متناول الأيدي ، كالمثل السائر لابن الاثير والأغانى لأبي الفرج
الأصبهاني والتاريخ لابن خلدون ، والعقد الفريد لابن عبد ربه وإحياء علوم
الدين للغزالي ، والتفسير المراتبي ، والأمل في علي الغالي ، ووفيات الأعيان

(١) راجع رشيد رضا - الوحدة العربية - المنار - المحرم ١٣١٨ هـ .

(٢) أنظر - الكتاب - أعلام النهضة - ٣٢ م ٦ ج ٦ .

لابن خلكان ، ومثات غيرها مما لا يمكن حصره عدأً ، .. الى جانب مثات اخرى من الدواوين لمشاهير شعراء العربية في شتى عصورها ، وكذلك كتب التراجم والطبقات (١) .. الخ مما سهل على الشادين في الادب والمطلبين للحكمة ، والمغرمين بالفنون الاطلاع عليها ، والحفظ منها ، والبحث في مختلف مجاليها العلمية والتاريخية ، والقندية التقويمية .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن تلك الطبعات الاولى لهذه الأمهات ، ما زالت تتصف بالأصالة ، وتعتمد صورتها كالأساس العلمي عند المراجعة والبحث ، .. مما يدلنا على أن علماء عاملين ، كانوا يقفون على عملية إخراجها ، متوخين القصد العلمي في حفظها من غير خطأ مطبعي أو تحريف أو تصحيف ، .. وتدلنا إشارات الرفاعي في مصنفه العظيم « تاريخ آداب العرب » على عظم ذلك التراث كمّاً وكيفاً ، كما توضح لنا إرشاداته للشيخ ابي رية في رسائله عن روح الانتقاد التي سار عليها طلب العلم عائداً !

ثم أنه نشأت مطابع أهلية اخرى كدار إحياء الكتب العربية للحلي في القاهرة والهاشمية بدمشق والعربية ببغداد ، وغيرها من أمهات دور النشر والطباعة القائمة اليوم كدار المعارف ، ودار الهلال .. ولكن كثرة هذه المطابع الأهلية وتحولها الى محال تجارية ، قد أفسد مثل المهمات العلمية والقومية في بعث التراث ونشره ، .. فقد عاد الجشع المادي يؤذي أخراج الكتب ، ويبدل من صورتها العلمية ، وربما شحنها بأخطاء مطبعية تحتاج معه الى المراجعة والبحث والاعداد العلمي للأثر ، وهو ما يقوم الآن بحركات بطيئة ، ودراسات جامعية ، وأخرى

(١) راجع الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ١ ص ١٣ .

علمية نتمنى لها الحياة الأوفى والأسلم ١٠١ .

والى جانب ظهور الكتاب العربي المطبوع ، وانتشاره ، توسعت حلقات
الدرس والمتابعة ، وازداد السك في التعليم ، والكيف في الاعداد والتوجيه ، ..
وتعددت وسائل المعرفة ، ومهدت سبلها ، فكان له أثره البالغ في النهضة التعليمية
والحياة الثقافية بعامة .

وكان الأزهر قد لقي في الشيخ محمد عبده طاقة نفاذة ، وقد سعى لتطوير
التعليم وتهذيب المنهجية التي سار عليها آماداً طويلة ، وذلك فيما اشترعه من سنن
الأنظمة الحديثة ، والتي كان يؤمل فيها الأثمار في المجال العلمي ، والاسراع في
دفع عجلة التقدم الفاعل .

ويلحق بالأزهر كل معهد كان يجري معه في أشواط متشابهة ، ومنهاج
تكاد تكون متوافقة في المفردات ، كالمدرسة العادلية في الشام ، وحلقات الصحن
العلوي في النجف ، وجامع الامام الأعظم في الأعظمية ببغداد ، وجامع الزيتونة
في المغرب ، وسواها ..

وقد كان لقيام « دار العلوم » في القاهرة عام ١٨٧٢ م ، التي رعاها
الشيخ علي مبارك ناظر ديوان المدارس ، .. واهتمامها بعلوم الشريعة الاسلامية
وآداب اللغة العربية والعلوم الحديثة - الأثر البالغ في الانقلاب بالمنهجية
الدراسية مما أدى من بعد الى اتساق الوعي القومي في الدنيا العربية كلها ..
على هدى من أهداف نبيلة وقصد فيها ، وبصيرة من التراث العربي وتطلع
بمحاولات علمية مستحدثة في الدراسة ترتفع بالمستوى الثقافي عامة وتعتمد

ليقظة فكرية تؤتي أكلها العلمية بعد حين (١).
وكان الامام محمد عبده يأمل أن يتم على طريقها توحيد التعليم وتوحيد
مناهجه وسموه ؛ فقد كانت عنده « تصلح أن تكون ينبوعاً للتهذيب النفسي
والفكري والديني والخلقي .. » (٢).

وربما حسب المسؤولون يومها أنها المحاولة التي تسمو على المنهجية التقليدية
في المعاهد الدينية الملحقة بالمساجد وتظهر في الوقت نفسه أمام غزو الانظمة
والمناهج الجديدة التي جاءت بها معاهد التبشير والمدارس الأهلية التي قامت
على الفرار الاوربي المحدث .

وحسبنا أن نذكر هنا أن السلطان عبد الحميد - رح - كان قد أشار بفتح
دار مماثلة لها في سامراء . درءاً لخطر شعوبي كان يتسلل الى العراق في ذلك
الحين (٣) . وسعى الى عضد معاهد أخريات في الديار الشامية تقف بأزاء مدارس
النصارى التبشيرية التي تغذيها حكومات المذاهب المختلفة في أوربة . والتي كانت
تغذ السير في انتشارها وتدخل البرامج التعليمية الحديثة واللغات الاوربية وتحاول
تدريس بعض العلوم بها (٤) بالرغم من وجود مثل « المدرسة الانجيلية »
ببيروت التي اتخذت العربية لغة التدريس العلمية بها في بادئ الامر محاولة

(١) راجع يوبيل دار العلوم المطبوع عام ١٩٥٥ م .

(٢) محمد رشيد رضا - تاريخ الامام محمد عبده - ج ١ ص ٣٧٨ .

(٣) تاجي القسطيني - تاريخ المدرسة الحميدية (مخطوط) .

(٤) راجع لويس اليسوعي - الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج ٢

سياسية في محاربة التركية والتودد للعرب (١)
ولكننا نجد - بعد التمزق السياسي الذي أصاب الوطن العربي فشلت
العرب في ديارهم . . . أن هذه « المدرسة » وأختها الأخرى في القاهرة تسبى
نفسها بحقيقتها « الجامعة الأمريكية » ، وتعود فتتخذ الانجليزية لغة العلم والتدريس
بها ، . . . ولا تنسى أن تلقي في روع تلامذتها من أبناء العرب أن لغتهم العربية
قاصرة عن اللحاق بالمصطلحات العلمية الحديثة ، . . . كأن لم يكن للتاريخ الحضاري
والعلمي للعرب سبب أو صلة بهذه العلوم والمصطلحات . . .

أما من ناحية التعليم العام - الابتدائي والثانوي - فقد كانت هنالك خطط
رامية الى فتح المدارس ونشر التعليم ملاحقة للمدارس التبشيرية والاهلية ومزاوجة
للمدارس العربية - غير النظامية - التي لم تزل ملحقة ببعض الجوامع .
وفي هذه المدارس التي فتحت أواخر العهد العثماني في مختلف أنحاء
الولايات كانت تدرس العلوم بالتركية والعربية معاً ١
وهي التي ورثتها مزارات المعارف والتربية في الاقاليم المنفصلة عن الدولة
العثمانية إحتلالاً أو حماية أو تبعية ١ . . . وكانت لهذه السلطات الجديدة الأثر
الأول في توجيه التعليم بها وجهة غير قومية ، كالثي جاءت في مشروعات دنلوب
في مصر ، وستيف في العراق حتى أثمرت منها أجيالاً علمانية ، فشلت في الحفاظ
على القيم القومية الامة ، وما يزال الضياع السياسي ، والضلال المبين يحتوي حتى
الذين تقدمت بهم الابام الى صفوف المسؤولية التربوية والقيادة الوطنية ، والزمام

(١) عمر فروخ ومصطفى الخالدي - التبشير والاستعمار ص ٩٥ .

النوحي، والحرية الفكرية، والمجال الاعتقادي في الحياة العلمية والثقافية بعامة !
وعاد يحس به كلُّ مرءٍ واعٍ ويشعر بوطأته الانسان الفرد في صفوف
الامة حتى حذا التفكير المتأمل المنتج بعض الهيئات التعليمية في الاقطار
العربية وبجامعة الدول العربية بالذات الى التنادي لايقاف ذلك الضلال ولو عن
طريق المؤتمرات التربوية . التي توصي بمراقبة برامج التربية : والارتفاع بمستوى
المناهج التعليمية والثقافية .. التي نأمل في تطبيقها تحولاً علمياً في التعليم العام :
حتى يتم لنا التغيير الجذري الذي يعود بالامة سيرتها الحضارية الاولى على
هدى وبصيرة .

نقول ذلك بالرغم من عملية نشر التعليم على أوسع نطاق . التي تعانينا
هذه المدارس : وكأنها تقوم بعملية مسح تعليمي بالقضاء على الجهل .. بمعرفة
فك الخط أولاً ..

* * *

والى جانب هذا النشاط في النواحي التعليمية الرسمية والاهلية كان لقيام
بعض الجمعيات شأن جليل في محاولة العناية بالتعليم : وتجاوز الشؤون الاجتماعية
والشكلية الى الاقدام على تأسيس المدارس وإنشاء المعاهد مباراة المدارس المدنية
نفسها واستيقافاً للإمام في إنقاذ أبناء الامة مما يلتاث في مدارس « الفرير »
وسواها من مدارس الارساليات التبشيرية .

ولعل من أهم هذه الجمعيات التي ذهبت المذهب القومي في
الاتجاه بالتعليم وجهة ترضاها المصلحة العلمية للامة : جمعية المعارف

بمصر (١) والجمعية السورية (٢) ثم الخيرية الاسلامية . التي انضم اليها الشيخ عبد الله نديم وأعاد الشيخ محمد عبده تكوينها بعد الثورة العراقية (٣) ثم العروة الوثقى .. وبعد ذلك جمعيات شمس الاسلام والرابطة الشرقية والهداية الاسلامية . التي كانت لها فروع في مختلف أنحاء مصر وسورية والعراق .. وكذلك جمعية الشبان المسلمين والاخوان المسلمين في مصر والتقدم الاسلامي بسورية والتفويض في العراق .. الخ من ..

وكان اقيام لجان للتأليف والترجمة والنشر في هذه الاقطار ، و نواد ثقافية وقومية ، كاليان العربي والجمعية الفلسفية والجغرافية في مصر ، والنادي العربي بدمشق ، والمثني ببغداد . دورها في النشاط التعليمي والحياة الثقافية وذلك عن طريق ما يلقي على منابرهما من خطب ومواعظ ومحاضرات . وما يقوم في حركتها من حلقات دراسية واجتماعات سنوية وموسمية .. وكذلك فيما تنشره من المؤلفات والرسائل والدوريات .. وغيرها مما أثمر في الثقافة العامة وحسب للناس القراءة والاطلاع ورقى بالبعض منهم الى الأخذ والاستيعاب والمناقشة .

(١) عبد الرحمن الراجحي - عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٥٦ .

(٢) محمود كامل - عروبتنا - ص ٤٣ ، وراجع بديع شريف - صراع العرب والموالي ص ٩٩٠ ، والموضوع نفسه في كتب القومية العربية لمحمدي طربين ، وطانيوس والحصري والشهابي ..

وقد نشأت الجامعة السورية كذلك ! ..

(٣) عمر الدسوقي - البارودي ص ٤٤ .

وحسبنا أن نذكر ما كان لنداء الزعيم مصطفى كامل في « اللواء » لسان
الحزب الوطني في إنشاء مدارس الشعب وقيام الجامعة الأهلية - المصرية -
لتكون عوناً على إعداد جيل مثقف يحمل تبعه الصراع السياسي والفكري في
البلاد . وينهض بالامة الى المستوي اللائق بها بين الأمم .

وقد كان للادب العربي أثره في قيامها ومباركتها لها وهكذا كانت
قصيدة حافظ ابراهيم (١) :

حياكم الله أحموا العلم والأدبا إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا
ولا حياة لكم إلا بجامعة تكون أمّا لطلاب العلاء وأبا
تبني الرجال وتبني كل شاهقة من المعالي وتبني الغزّ والغلبا .. الخ
وكذلك نظرة الرافعي في قصيدته « نبأ مصر » التي عجب فيها من
تقاعس المهمل في إبراز كيان الجامعة (٢) .

ومما يذكر بهذا الصدد أن لدراسات المستشرقين في التراث القومي (*)
كانت مكانة خاصة في هذه الجامعة ، وبسبب قرب من نداءات الرافعي
إهتمت الجامعة بالدراسات الأدبية ، وتاريخ آداب العرب (٣) .

(١) ديوان حافظ - ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٧٢ .

(٢) الرافعي - النظرات ج ١ ص ١٤ .

(٥) راجع موضوع المستشرقين - لويس شيخو - آداب القرن التاسع
عشر ، وجرجي زيدان - آداب اللغة العربية ج ٤ ، ونجيب العتيقي - المستشرقون .
(٣) راجع الرافعي - المعركة تحت راية القرآن ص ٦٨ ، وسعيد العريان
- حياة الرافعي - ص ٦٥ .

ويضاف الى هذه الحركات التعليمية المحلية ، عمليات البحوث العلمية الى
الديار الأوربية ، والأصقاع الأمريكية ، . وقد كثر عدد طلبة البعثات والتبادل
الثقافي ، وتواتت الاعارات بين الجامعات ، وتبودلات الزيارات العلمية ، .
وكثرت المحاولات في البحث عن كنوز الآثار العلمية والتاريخية والحضارية في
مختلف أقطار العربية .

ويرجع بعض المربين الى هذه البحوث والمحاولات العلمية الأثر في التوسع
بالتعليم العالي في كل من مصر وسوريا والعراق ، . ثم الأقطار الأخرى . .
حتى ليعدُّ بعض النقاد اليوم مثل الدكتور طه حسين خلاصة التيارات الدراسية
التي سعى بها الى الحياة الأدبية في الأزهر ثم الجامعة المصرية فالسوربون بفرنسا ،
والى عهده بالتدريس الذي أضحي به عميداً للأدب العربي في كلية الآداب (١) .
وكان من أثر التوسع في التعليم أن وجد الجيل القاري ، . والذي
لم يعد الكتاب وحده ولا المحاضرة أو حلقات التدريس تكفيه ، . وعندئذ
أصبح للصحافة مكانها من سير الحياة الفكرية ، وانتشار المذاهب الأدبية ،
واحتدام الآراء ، . وتحرك اللغة وتعاظم قوة نموها وازدهارها ، . حتى غدت
العامل الاساسي في النهضة (٢) .

وكان المسيحيين السوريين بخاصة أثر كبير في النهضة بالصحافة في لبنان
ومصر ، . وقد سبق لنا أن عرضنا لأسباب هجرة بعضهم الى الديار المصرية ،
وبسطنا يوازها عند كلامنا عن البيئة الاجتماعية .

(١) مجمل يوسف نجم - الأدب العربي في آثار الدارامين - ص ٣٢٧ .

(٢) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ١ ص ٨٩ .

ففي عهد محمد علي هاجر الى مصر من سورية تراجمة وطبايعون ، عنوا بنشر التراث العربي الى جانب عنايتهم وعملهم في « الوقائع المصرية » وغيرها من الاعمال الرسمية الاخرى . . .

كما أن الدعوة الى الهجرة كانت تصدر عن المثقفين السوريين ، الذين ضاقت بعض جماعاتهم ذرعاً بالاجراءات التركية ، فرأوا من الحكمة الانتقال الى مصر ، حيث الامن والدعة والحرية ، التي حاولت بها سلطات الاحتلال من ثم تكريس الانفصال بمصر عن الدولة العثمانية ، . . . ولتكون للكلمة الجاسوسة والمندسة مكانها في صفوف هؤلاء . . .

وما لبثت هذه الهجرات غير المنقطعة تحدث أثرها الواسع المدى في المجتمع المصري المثقف بالذات . . . وفي التحول بال نظرة الى العاطمة العربية - القومية (١) .

وهكذا وجدنا فارس نمر ويعقوب صروف ينقلان مجلتيهما « المقتطف » من بيروت الى القاهرة (٢) وينشئان هناك « المقطم » جريدة يومية الى جانب المجلة العلمية ، . . . لتأييد الاحتلال وتكريس وجود الانجليز وتصوير وجودهم غير الشرعي في مصر بالصورة الانسانية التي كان يدعيها كرومر (٣) .

ووجود هذه الجريدة هو الذي شجع من كانوا ينعتون أنفسهم بـ « ذوي المصالح الخاصة » . . . من أن يكونوا لأنفسهم حزباً يسمونه على « الامة » . . .

(١) جورج انطونيوس - بقطة العرب - ص ٧٩ .

(٢) كان ذلك عام ١٨٧٦ م .

(٣) محمد محمد حسين - الإنتجات الوطنية ج ١ ص ٧٣ وما بعدها .

ويصدرون بعد ذلك صحيفتهم « الجريدة » برئاسة أحمد لطفي السيد لتقطع أشواطاً أخرى مع المحتلين .. ما دامت مصالح محمود سليمان (باشا) ورفاقه مضمونة من المعتمد البريطاني والمحفل الماسوني (١) .

وكذلك سعى تاجر الصابون سليم تقلا وأخوه بشارة الى إصدار « الأهرام » - كبرى صحف الدنيا العربية اليوم ! - ولتعنى بأخبار الفرنسيين وتأخذ عنهم ! .. ولعل عنايتها بالخاصة الخديوية ولشعر شوقي بخاصة (٢) هي التي مكنت لها من الانتشار والاتساع في التوزيع ! ..

وإزاء ذلك كان لا بد من وجود صحافة قومية . لا تداري المحتل . ولا تحاييه ، ولا تترى في وجوده شيئاً طبيعياً . ولا منطقاً سليماً مهما كانت التعللات التي يزعمها أعمدة الاستعمار ! .. فظهرت « المؤيد » للشيخ علي يوسف عام ١٨٨٩ م التي ما لبثت أن غدت جريدة العالم العربي غير منازع وكان لها بالغ الأثر في الحياة العربية (٣) .

كما رحبت بمصطفى كامل - من قبل - وهو بعد شاب يتقد غيرة وحماسة ونشرت له المقالات الضافية والملمة . وكانت تفرد صفحاتها الاولى لمثل هذه المقالات الوطنية والاصلاحية التي كان يكتبها كبار الكتاب في ذلك العهد

(١) محمد محمد حسين - الاتجاهات الوطنية ص ٧٨ ، وانظر كذلك

- الدولة العربية المتحدة - ج ٣ ص ١٠٣ .

(٢) راجع شكيب أرسلان - شوقي - ص ٨ .

(٣) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٨١ .

كالشيخ محمد عبده وعبد الكريم سلمان ثم عبد القادر المغربي ومحمد كرد علي ومحب الدين الخطيب وسواهم (١) .

وعلى صفحاتها الحرة ظهرت بواكير الأدب الحديث كما عنيت بالشعر ، ونشرت للبارودي وصبري وشكيب أرسلان ، .. ولأحمد شوقي ، .. وغيرهم وهي التي هلت بميلاد الرافعي شاعراً .

وكذلك قامت « اللواء » لتكون لسان الحركة الوطنية ، وفيها استقبل الزعيم مصطفى كامل ديوان الرافعي بقولته التي ذهبت مثلاً « .. وسيأتي يوم إذا ذكر الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان » (٢) .

ولما توقفت هذه الجريدة بعد وفاة الزعيم .. تابع الحزب الوطني إصدار الصحف التي عرف بها في الثبات على المبدأ ، والقصد في الأهداف القومية ، .. فكانت جريدة الشعب ، ثم جريدة الأخبار وكان المرحوم أمين الرافعي - الرجل الحر الضمير الكبير النفس (٣) قلم الصدق والصرامة والوطنية السابقة في هذه الصحف (٤) .

ثم لما تفرقت السياسة أهواء ، وتمخض حزب الأمة عن واليد حزبية « أفسدت الحالة السياسية في مصر ، وجعلت بعض الأمة يلعن بعضها لعناً مقدساً » (٥) .

(١) عمر الدسوقي - علي يوسف - الكتاب - تموز - يوليو ١٩٤٨ م .

(٢) انظر سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٥١ .

(٣) الرافعي - الرسائل ص ٣٩ .

(٤) راجع ذكرى أمين الرافعي - لصادق عنبر .

(٥) الرافعي - الرسائل ص ٧٩ .

كان للأحرار الدستوريين صحفهم وللوفديين صحفهم والآخريين صحفهم ، .. فكانت السياسة ، وكوكب الشرق والبلاغ والجهاد .. الخ .

والى جانب هذه الصحف اليومية قامت المجلات الاسبوعية والشهرية ، ويلاحظ لأول وهلة أن جل هذه المجلات كانت بيد الأدباء والكتاب السوريين ، كالبيان والضياء للشيخ ابراهيم اليازجي ، والمجلة لتحليل مطران ، والهلل لجورج زيدان ، والمقتطف ليعقوب صروف ، والجامعة لفرح أنطون ، وسركيس لسليم سركيس ، والمنار للشيخ محمد رشيد رضا ، والزهور لأنطون الجميل والبيان للشيخ عبد الرحمن البرقوقي (١) ، والزهره للشيخ محب الدين الخطيب ، والعصر لاسماعيل مظهر وأبولو لأحمد زكي أبي شادي ، والرسالة لأحمد حسن الزيات ، والثقافة لأحمد أمين .. وغيرها من المجلات التي كانت تظهر وتختفي كالكواكب في سماء الفكر العربي .

ولم تتخلف صحيفة من هذه عن فتح أبوابها لأبحاث العلوم ، ومصورات الفنون ، .. ومجالات الأدب .

(١) أنظر سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٣٢٢ - وقد ثبت لدينا أن الرافعي كان رأس التحرير فيها ، ويحتفظ الشيخ أبو رية بالمقالة الافتتاحية الأولى بخط الرافعي بالقلم الرصاص - وهي تعد اليوم وثيقة قومية سابقة .

كما يحتفظ بمسودات أخريات بخطوط الكتاب ، وقد جرى فيها قلم الرافعي الأحمر تهديبا وتشديبا .

وقد نشرت فيها فصول في الزراعة والصناعة ، مترجمة وموضوعة ،
وأبحاث في التاريخ ومقالات في الفكر الانساني والفلسفة ، جنباً الى جنب مع
الأخبار السياسية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، . وغيرها .. مما تفتقر اليه
صحافتنا اليوم ..! بالرغم من التقدم العلمي في فنون الطباعة والخراج ! ..
كما فسيحت المجال فيها لصراع فكري ، ومناقشات علمية ، من أشهرها
تلك التي عرفت بمعارك الأدباء ، والتي أثمر فيها البحث والدراسة والتتبع بنماء
علمي موفق وكان المرافعي في هذه المعارك نصيباً كبيراً (١) .. - حتى ليخيل إلي
أنه لم يكن يكتب فصلاً من فصوله أو بحثاً من تأليفه ، أو رأياً من تصنيفه - حتى
يجد أمامه من يسأل ، أو يرد - أو يحاول المناقشة - وقد يصل أن يلج في
الخصومة واللد (٢) .

ومع ذلك كله فقد استطاع أن يثبت وجوده العلمي وشخصيته الأدبية
التميزة في هذه الصف جميعاً أمام مختلف التحديات والتحديات التي كانت
تقف بوجهه - أو تحاول منازلته - وغمر آرائه - أو نبز مؤلفاته ، وألاعجب من
ذلك أنه لم يكن يقتصر على صحف معينة في القراءة والاطلاع أو الكتابة والنشر
بالرغم مما كان يلحقه من أذى ..!

وعلى صفحات هذه الصحف قامت حركة التجديد - ونشطت في مختلف
شؤون الأدب والفن .. أمام التحول والتأثر بالعلوم الحديثة - والفنون
الترجمة .

(١) أنظر أنور الجندي - المعارك الأدبية - مادة المرافعي .

(٢) سنبط الحديث عن الموضوع في كتابنا التالي .

وعالجت هذه الصحف فنون الأدب بدراسات قيمة ، ما لبثت أن تعاطمت من ثم وأضحت كتباً ومراجع في الموضوعات التي تصدت لها ، كما فتحت صدرها للخطابة ، ونمت المقالة وجودتها ، وبسطت للمحاضرة ، ومكنت للأقلام أن تغرس على صفحاتها مختلف الآراء دائرة بالفكر والمذهبية على أفلاك جديدة ، يكن للعرب عهد بها حتى في المناظرات الكلامية والمجادلات المعروفة في مصنفات آثارهم (١) .

وفيهما أيضاً خرجت أول بادرة لنقد الشعر والأدب وتقويمه « تأثرت بالقديم تأثر ولاء وإخلاص ، وأخذت من الحديث كل مفيد ونافع » (٢) . ويلاحظ فيها أيضاً أنها فسحت المجال للعناية بالترجمة عن اللغات الأخرى ، وأفادت من هذه الترجمة في عمليات تصحيح الأخبار التاريخية ، وتهذيب السير ، والسمو بالتراجم والتمكين للنقد المنهجي والعلمي أن يأخذ سبيله في هذه المجالات . .

كما نلاحظ فيها أيضاً حظوة للقصص والروايات تزيد في تطعيم الآداب العربية بالمعاني وتقدم بفنونها الى التقليد والمقارنة ثم الانفراد بمذهبيات جديدة في واقع الحياة . .

ويلوح لي أن كان هناك كلاستباق بين الكتاب والعلماء في عمليات الترجمة والتلخيص عن اللغات الأوروبية الحديثة ، .. الى اللغة العربية . . ثم ما لبثت هذه الحركة الفريدة في الترجمة أن انتظمت في مجموعات من العلماء والأدباء أنست الناس ما كانوا يحفلون به من أخبار عصور الترجمة في (١) و (٢) محمد يوسف نجم - الادب العربي في آثار الدارسين ص ٣٢٧ .

العهدين الأموي والعباسي ، . . وما يلاحظ أيضاً أن الترجمة العلمية في المجالات الطبيعية والزراعية والاقتصادية والاتقانية الحديثة « التكنولوجيا » كانت أدق وأوفى منها في المجالات الفكرية والأدبية ، . . وعندى أن العلوم آمن في النقل منها في الفنون ، التي قد تصيبها الوجدانية بالفهم الخاص ، . . فيؤثر بعض المترجمين الاختصار ، والتلخيص ، . . ومن ثم يخلط بين ما يراه حقاً وما ينقله صدقاً ، كما نرى ذلك في الترجمات الأولى بخاصة .

على أن مثل هؤلاء المترجمين - حين أعيانهم فن الترجمة من الظهور عليه - والتمسك من أدواته ، . . عادت بهم معرفتهم اللغات الأخرى إلى إبتسار الآراء ، والسرقة والتلفيق مما لا مجال في إفاضة الحديث عنه . . !

ومع ذلك فإننا نرى اليوم أعمالاً عظيمة ترجمت إلى العربية ، . . وكان الرافعي - رح - ملحاحاً على نقل روائع الفكر والعلم عند القوم ، . . يستعجز عباس العقاد مرة ، ويلحف في الطلب على اسماعيل مظهر ، ويدلي لسواهما برأيه بترجمة الآثار التي فيها حرية الفكر ، واستقامة المنهج ، والقصد العلمي . . (١)

وكان سليمان البستاني قد نقل رائعة هوميروس - الألياذة إلى العربية شعراً ، ومن أصلها اليوناني ، . . مما حدا بالرافعي أن يبارك له هذا العمل الجليل بموشحة غنائية راقصة (٢) .

(١) راجع اسماعيل مظهر - المقتطف ٩١ حزيران (يونيو) ١٩٣٧ م ، وأجوبة الرافعي على أسئلة مجلة الهلال ، تشرين الأول (أكتوبر) وتشرين الثاني نوفمبر عام ١٩٢٦ م .

(٢) أنظر الرافعي - الديوان ج ٣ ص ١٢٠ .

أما المجموعات التي انتظمها من الترجمة ، فقد كانت بحسب اللغات التي تنقل عنها ، حيث حظيت كل لغة أوربية حديثة بفئة من ترجمة الأدباء العرب ينقلون عنها بعض آثارها الشهيرة ، ويتأثرون أساليبها في البيان ، ويقدمون روائعها الأدبية بخاصة .. فيبشرون بها ، ويدعون إليها تعلماً ومعرفة من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، ومن أهم هذه المجموعات :

أ - تلك التي نقلت عن الفرنسية ما كتبه أساطين آدابها أمثال لافونتين ، وفكتور هيجو ، ولامرتين وبودلير .. وسواهم ، .. وأشهر من نقل عنها أمين الحداد وفرح أنطون وشبلي الملائم أحمد حسن الزيات والدكتور طه حسين ومحمد مهدي البصير وإسماعيل مظهر وغيرهم .

ب - التي نقلت عن الانجليزية روائع شكسبير ، وملتون وكيكس وكبلنغ وبيرون .. وسوهم .

ومن أشهر أخبارها نجيب الحداد ، و خليل مطران وعباس العقاد وسلامة موسى .

ج - التي نقلت عن الألمانية آداب جوته ، وشر ، وهابني ، ومن حواريتها عبد الرحمن بدوي ومحمد عوض محمد .. وغيرهم .

د - التي نقلت عن اللغات الأخرى كالروسية والهولندية والاسبانية ، وما يزال تراجمتها في ازدياد ، وتراجمهم في نمو وإطراد ..

ومما لا شك فيه أن ما ترجم من هذه اللغات يؤلف اليوم مكتبة ضخمة جداً ، ويدعو الى العجب والتأمل معاً .. ولا أعتقد أنه قد تيسر للغات العالم ما تيسر للعربية في هذا الصدد .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الفكر العربي بعد اتساقه الحديث وقيام
الأدب المنبعث في طوابعه الجديدة التي نمّ فيها عن الأمانة القومية والعمق
العلمي والانتساع في مجالي الثقافة .. قد أخذ هو الآخر دوره في الانتقال
ترجمة الى اللغات غير العربية وقامت حركة مقابلة لترجمة الآثار العربية الحديثة .
ومنذ أول القرن ترجمت مجموعات مختارة من الشعر العربي الى الفرنسية
من بينها قصيدة اسماعيل صبري - لواء الحسن (١) .. وكذلك ترجم الاستاذ
عبد الحميد سالم قصيدة الرافعي « النيل والطبيعة المصرية » الى الفرنسية ونشرت
في صحف باريس عام ١٩٢٨ م (٢) كما ترجمت مقالته « الاحسان الاجتماعي »
في وقت سابق .

كما نقل قصته « رؤيا في السماء » طيب الذكر الاستاذ فيليكس
فارس .. (٣)

ونقلت الى لغات أخرى آثار عربية أخرى غير الشعر . منها تاريخ
التمدن الاسلامي لجورج زيدان وعودة الروح لتوفيق الحكيم والأيام لطف
حسين .. الخ ..

ومن بين الآثار التي نقلت الى لغات مختلفة ديران « أغاني الكوخ »
لمحمود حسن اسماعيل و « بساط الريح » لفوزي المعلوف .
وكان من بين اتجاهات جامعة الدول العربية وحركة الجمهورية العربية

(١) راجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) أنظر رسائل الرافعي ص ١٣٩ .

راجع فيليكس فارس - رسالة المنير ص ١٢٧ .

المتحدة . . تنظيم العمل في نشر بعض الآثار القيمة الى اللغات الحية .

* * *

ومما هو جدير بالذكر والمراجعة وربما دعا الى الإشفاق والألم أحياناً .
الى جانب إغناء المكتبة العربية بالآثار والروائع العالمية ما كان من أثر
الثقافات المتعددة بهانيك اللغات أن نشأت بين ظهرانينا مذاهب فكرية متفرجة (١)
تتحزب وتتمصب لمذاهب فكرية وأدبية في هانيك اللغات التي تقرأ فيها
وتنقل عنها .

وقد أثار فيما بينها خصومات لم تخل من شحنة ولد وربما معارك
جانبية مضحكة .

وعلى سبيل المثال نذكر أن أنطون الجليل كان قد نشر كتاباً عن احمد
شوقي - رح - بأسلوب فيه طبيعة الجليل السمحة وسجيته الهيئة اللينة ولكن العقاد
- عفا الله عنه - كالذي إهتبلها فرصة ينال فيها من الاثنين معاً ويتحدث عن
« طريقة الصالونات الفرنسية التي لا تصرح ولا نهاجم ولا تنقد ولا تكشف
في وضوح عن العيوب الأدبية » .

وقد أثار بذلك سجلاً أدبياً بينه وبين الدكتور طه حسين على صفحات
الرسالة بين اللاتينيين والسكسون ١٠١١ . وكأنهما من أبناء السين والثاميز ولم
يعترف أحدهما من النيل بلة ريق ١٠٠١ .

وبلغ « التفرنج » الفكري والتبعة الأدبية حدة الرقاعة عند البعض من

(١) راجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - ج ٢ ص ٦٢ ، وكذلك

أنيس المقدسي - الإنتاج الأدبية - ج ١ ص ١٤٠ .

أدباء لبنان فقد تفرس إلياس أبو شبكة في كتابه « روابط الفكر بين العرب والفرنجة » .. الى درجة يقول فيها « .. قد لا نخطئ، إذا قلنا أن فرنسا هي ثدي العالم ، وأن معظم الحركات الاجتماعية والسياسية والأدبية قد وضعت من هذا الثدي » ١ .

وزاد فرج الله الحائك بقوله « نحن لا نستطيع أن بين محبتنا فرنسا ، وبين تأثيرها الثقافي علينا ، فنحن نعيش في وسط فرنسي في روحه ولغته » (١) .

* * *

وبجانب هذا وذاك فقد استبق الصراط مؤلفون عرب فوضعوا جملة مؤلفات في مختلف الموضوعات باللغات الأوربية الحديثة ، ولا سيما الانجليزية والفرنسية والألمانية ، .. ونذكر من هذه المؤلفات « بقظة العرب » لجورج أنطونيوس ، و « تاريخ العرب » لفيليب حتى ، و « ابن خلدون » لشارل عيساوي ، و « حول الجزيرة العربية » لأمين الريحاني ٢٠ الخ (٢)

يضاف الى ذلك جملة صالحة من الرسائل العلمية ، نال فيها أسانذة فضلاء كبريات الشهادات من الجامعات الأوربية ، .. وقد درسوا فيها موضوعات قومية وتاريخية وعلمية وفق أحدث المناهج في البحث والاستنتاج . وقد تركت هذه الآثار العلمية ، وتلك المصنفات والترجمات أثرها في الفكر

(١) الجمهور - اللبنانية ، ١ حزيران (يونيو) ١٩٤٠ م - كتاب متفرنسون ، ويقابل ذلك مقال كتبه عبد الله المشنوق بعنوان « تعلمت من تلاميذي » في الحياة البيروتية عام ١٩٤٤ م .

(٢) أنظر أنيس المقدسي - الإنجازات الأدبية ج ٢ ص ١٥٣ .

العربي الحديث ، ومذاهب التربية والتعليم بخاصة ،

منها ما يأخذ الشكل العلمي الذي انتهت اليه حضارة الغرب ، .. فيجنح الى الأخذ وتقليد القوم بطفرة ينسأخ فيها الشرق عن ماضيه وحاضره ، ليلحق بالركب الأوربي ، .. فيزعم الاتجاه الجديد ، (١) ومنها ما يزيد فيمتهم العربية نفسها بالقصور عن الاستيعاب العلمي ، . فيسعو الى التعليم بلغة أوربية (٢) ومنها ما يحاول الحياة العلمية التي تنصر الاتجاه القومي بجهود جهيد (٣) .

وإزاء هذه المجالي المتعددة ، والحياة العلمية المتسعة ، والوفرة في المعلومات الثقافية ، كانت اليتظة الفكرية تدب في صفوف الكتاب ، وتسابق العلماء ، .. وتنتظر الشعراء في مناحي فريدة من جوانب الثقافة والاجتماع .

ولعل من أدق ما يلفت النظر ، ويشير الاعجاب ، أن يجد المرء سعياً حثيثاً للمذاهب الفلسفية بعصر الحياة ، ويتقدم من الجمهور ، يأخذ بيده تارة ، أو يندب به أخرى الى ما يشوق إليه من استبصار في جوانب الحياة كلها .

كما يرى الانسان في نشاط الآراء الاجتماعية ، واتصالها بالناس في واقعهم ، واستهدافها معهم للأغايات الكبرى في الكرامة الانسانية ، وما يأخذ بمجامع القلوب . وكان لشيوخ المناهج العلمية ، وذبوع النظريات التطبيقية ، والمحولات التفسيرية والتحليلية أن انتقلت بعض هذه المناهج والنظريات ، حتى الفرضيات

(١) كالدكتور طه حسين وكتابه « مستقبل الثقافة في مصر » راجع

نقاش الحصري له في كتاب « الإقليمية » .

(٢) هو سلامة موسى .

(٣) راجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ١ ص ٦٤ وما بعدها .

الى معالجة القضايا الانسانية التي تستهدف تغيير أساليب الحياة والعيش في معظم مجالاتها الحيوية عند الحضارة والاجتماع .

و كان لانتقال هذه المعلومات الانسانية الى الشرق العربي عن طريق ما أسلفنا ذكره من الترجمة والبعوث والدراسات ، .. أن قامت حركات مشابهة وأخرى مقارنة ، وثالثة تحاول الانفراد بالأخذ والتمثيل ، وطبع هذه المعلومات بطوابع قومية فيها تفاعل ودراسة ، وفيها استكمال أداة ومحااجة ، ومنها ينطلق أسلوب رشيد يتناول الأحداث بثقة وجدارة .

ومن أهم الأفكار التي ثارت في الشرق العربي خلال القرن الأخير . فوسمت يقضاه الفكرية ، .. الروح القومية بما يتخللها من المباديء وما يقوم بها من الدعوة الاعتقادية والفلسفة الكلية والالتزامات الأخرى والنزعة الاشتراكية التي تذهب بالعدل في صفوف الأمة الى غايات بعيدة وحرام كانت تحسب بعض المذاهب أن لم يصلها تشريع .. وتضمن الحرية الاجتماعية للجمهور عند معظم مجالي نشاطه وفي أوسع آفاق دنياه .

وكان للفكر الأوربي في هذه الناحية مقام الرافد الذي يبعث الحياة ويوقظ النشاط ولا سيما في الفترات التي اندلعت فيها الحركة الفرنسية وقامت خلالها حرب التحرير الأمريكية حتى انفجرت الثورة الروسية ..

أو بتقدير آخر كانت للفكر الأوربي ما بين حرب السبعين ١٨٧٠ م وحتى الحرب الثانية عام ١٩٣٩ م وما كان قد عاناه من صراع بين المذاهب الاجتماعية العديدة . والفلسفات الأكثر . ما أعطى الفكر الانساني بعامة . والعربي بخاصة دفعا حيويًا يزججه بالمثاليات . ويمضي به الى ما تهدف اليه كل أمة من

مصير عزيز ، و حياة كريمة .. نجد فيها الانسانية نفسها بعض غاياتها في الوجود .

ولعل من أفعال النظريات القومية في الفكر العربي تلك التي عرفت عن المفكرين الألمان وفلاسفتهم ، ابتداءً من الفون هيردر وهيجل ونيتشه ... وانتهاءً بماكس نوردو (١) والتي إهتمت باللغة من حيث هي الأساس الاول في الثبات القومي ، حيث تضم اليها تراث الأمة كما تحتفظ بعاداتها وأخلاقها وتقاليدها المميزة .

وذلك مذهب يأترف مع الروح الأدبية للعرب (٢) لذلك نرى الكثير من ادبائهم ومفكرهم المحدثين يأخذون بها . ويعربون مضمونها حتى لا نجد في أحيان كثيرة بعض صلة بين ما يذهبون اليه من آراء حديثة أحياناً وبين ما تأثروا به من الفكر القومي الألماني .

وبالرغم من اضطراب مفهوم القومية في أول القرن ما بين الاقليمية

(١) ماكس نوردو — يهودي مجري ، ولكنه كتب في الألمانية ومات عام ١٩٢٣م وما يزال كتابه «روح القومية» - الذي ألفه على شكل رواية ترجمها عادل جبرة منذ عام ١٩٢٢م - كالمعين لنظرية اللغة في القومية ، .. ومما لا ريب فيه أن لأرائه اللغوية والقومية أبعاد الأثر في بعث اللغة العبرية عند اليهود في هذا القرن ، ، والتي عادت تضطر الاستخبارات العالمية الى تعلمها ! .. فتأمل ! وانظر عبد الرحمن البراز — هذه قوميتنا ص ١٠٤ وما بعدها .

(٢) لا أرى أن النظرية الألمانية بعامة كانت تغرب من مذهب الإمام الشافعي في اللسان — على ما سوف نفصل فيه القول عند دراسة الضمير القومي في أدب الرافعي .

المحدثه و « الوطنية » والجامعة الشرقية أو الدينية ، والصفة اللغوية (١) ، فإننا نجد آثاراً فكرية في الأدب الحديث تدل على نضج مبكر في هذا الشأن .
فما كادت تشيع قصيدة الشيخ ابراهيم اليازجي في « إستنهاض العرب »
التي يقول فيها :

تنهبوا واستفيقوا أبها العرب فقد طأ الخطب حتى غاصت الركب
.. فيا لقومي وما قومي سوى عرب ولن يضيّع فيهم ذلك النسب
حتى نجد الرافي كالذي يبادر فيعارضها في قصيدته « اللغة العربية والشرق »
التي يستهلها بقوله :

أمّ يكيد لها من نسلها العقب ولا تقيصة إلا ما جنى النسب
كانت لهم نسباً في كل مكربة وهم لنكبتها من دهرها سبب
لا عيب في العرب العرباء إن نطقوا بين الأعاجم إلا أنهم عرب
وينذهب فيها ذلك المذهب القومي الحريص على الأساس ، .. حتى
يختمها بقوله :

إذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت
للعرب أيّ خمار بينها الكتب
وفي المعادن ما تمضي برونقه

بد الصدا .. غير أن لا يصدأ الذهب
وقد أحدثت هذه القصيدة يوماً حواراً بين الأدباء ، .. ذهب بعدها

(١) راجع عمر دقاق - في دراسته « الإنجاه القومي » في الشعر العربي
الحديث .. ط الشرق - ص ١٩٦٣ م .

فرح أنطون الى نعت الرافعي بشاعر الشرق (١) وكأنا أراد أن يصنفه بشاعر العرب القومي ، حيث كانت تختلط هذه المصطلحات مع معانيها (٢) ٠٠ وحاول غير واحد من الشعراء أن يقول في الموضوع نفسه .

ولعل هذه الوجهة الاعتقادية في أدب الرافعي المبكر كانت بسبب من أرومته العربية العمرية ، وسوريته ولقائه بالشيخ عبد الحميد الزهراوي - أحد أعضاء حزب اللامركزية ، والذي رأس المؤتمر العربي الأول الذي عقده الطلبة العرب بباريس عام ١٩١٣ م .. والذي كان كالمهذب لأدب الرافعي في ذلك الحين (٣) .

ولا يقف الرافعي عند هذه البادرة القومية ، وإنما راه - في الوقت الذي كانت ما تزال الدراسات القومية في اللغات الأوروبية نفسها تعاني من اختلاف النظريات ، واصطدام المذاهب واحتدام الآراء ٠٠ - ينقطع منذ عام ١٩٠٩ م للتأليف في جوانب منها ، بفكر ثاقب يدلُّ فيه على الأصالة والعمق والاستيعاب . فيرتقي بالقومية نفسها من الفكرة والنظرية حتى يصل بها الى الدعوة الاعتقادية ، التي تمهذب الروح العربية ، ونجمع العرب على لغة القرآن ، ونطبع

(١) أنظر فرح أنطون في مقدمته لهذه القصيدة - الجامعة ٦ ، ٧ - ايلول (سبتمبر) ١٩٠٣ م .

(٢) راجع عبد الرحمن البزاز - هذه قوميتنا - ولا سيما الفصول التي تحدث فيها عن تحرير القومية ، والأرض والتاريخ والدين .

(٣) عن رسالة للشيخ الزهراوي بعث بها الى الرافعي في ذلك الحين .

العقيدة الإسلامية نفسها بطابع الجنسية العربية (١) ، والقومية التاريخية . (٢)
ويتبادر إلي أن الرافعي لم يكن ليفصل القومية عن المعنى الاجتماعي العام
لنظام العربي - الإسلامي فقد كان يتأمل المذاهب الاجتماعية الحديثة في الاشتراكية ،
ويحاول أن يجد لها جذوراً في شعاب الحضارة العربية ، وآفاق الفقه الإسلامي ،
وما أبقاه التاريخ من أخبار ، ومجالي الحديث عنها ، .. فقد عرف مذاهب
« أوفن » والاتحاديين وسانت سيمولن ، .. وراجع حكيم الشرق الشيخ عبد
الرحمن الكواكبي وأخذ عنه وجهته في المقارنة بين سماه « الاشتراك العمومي
المنتظم » والذي جعل أساسه الزكوات والصدقات المالية ، .. مما جاء في كتابه
« طبائع الاستبداد » حتى لقد قال فيه الرافعي :

.. فقد كان إن هز البراع رأيتَه يصول بأَمْضَى من فَرْدِ القواضِبِ (٣)

وبين المذاهب الاجتماعية الحديثة .

وقد ذهب الرافعي أكثر - ولا سيما بعد فشل ثورة المائشفيك - الشيوعية عام
١٩٠٥م - في استغراق آثار العرب في جاهليتهم نفسها يبحث عن هذه الموضوعات
حتى انتهى إلى القول « .. لا تكاد نجد مبدأ من المبادئ الاجتماعية التي قررناها
الفلسفة الحديثة إلا وله ذكر في شعر هؤلاء الأعراب » .. واستشهد بقول زهير
ابن أبي سلمى المزني في مدح العرب :

على مكثرتهم حق من يترهم وعند المقلين السباحة والبدل

(١) انظر الرافعي - إعجاز القرآن ط ٤ ص ٦٠ وما بعدها ..

(٢) الرافعي - المعركة ص ٦٠ .

(٣) الرافعي - رثاء حكيم الشرق - الديوان ج ١ ص ١٤٣ .

حتى قال « .. فمهما أدت مذاهب الاشتراكية ، ومهما قلبت آراء علمائها ، لا نجد صوابه يخرج عن هذا البيت » (١) .
 وزاد على ذلك قوله في الاشتراكية العلمية (٢) ورأيه في « المائدة الخيالية » (٣) ودعوته الاشتراكيين أخيراً ليأخذوا مبادئ مذهبهم نبينهم الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم (٤) على ما سوف نفصل فيه القول في كتابنا الآخر ، الذي نبحث فيه الموضوعية المحدثّة في أدب الرافعي .



- (١) الرافعي - تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ١٣٦ .
 (٢) الرافعي - الفقر والفقراء - المقتطف -- أيار وحزيران (مايو ويونيو) ١٩١٣ م .
 (٣) الرافعي - الهلال - شباط (فبراير) ١٩٢٤ م - تحت راية القرآن ص ٤٦ .
 (٤) الرافعي -- سمو الفقر في المصلح الإجتماعي الأعظم - وحي القلم ج ٢ ص ٧٠ .

الفصل الرابع

الحركة الفكرية والأدبية

كان للحالة السياسية التي فصلنا الحديث عنها ، وللمهضة الاجتماعية التي عرضنا لجوانب منها ، ولتطور الحياة العلمية ، واتساع المجال الثقافي ، وكذلك تحول الفلسفات في اليقظة الفكرية .. أن ظهر أثر ذلك في العقل الأدبي للأمة ، وعمل على تحريك القرائح ، وانبعثات الحيوية والنشاط في الحركة الأدبية ، .. كما كان ذلك الأثر واضحاً في الانتقال الحضاري ، والمحاولة المدنية ، والامتياز الثقافي .

فقد تقلصت بعض النظريات القديمة ، واندحر الكثير من الأوهام ، وظهرت نزعات حرة تأبى التقيد بالتقليد الذي يحول دون النمو الروحي ، .. كما أحدثت حركة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبد الله فكري في مصر ، والشيخ القاسمي والكواكبي في الشام .. آثاراً تحسب للتمكين الصحيح حساباً (١) .

(١) أنيس المقدسي الإتهامات الأدبية ج ٢ ص ١٠ .

واستطاع العلم أن ينقل الدين الى آفاق ينشأ عنها أدب روجي جديد ،
يقدر القيم الإلهية ، ويقوم بالمثل العليا الانسانية ، ويفتح أمامه آفاقاً جديدة
من الايمان وينير له سبلاً لم يكن يعرفها من قبل لإدراك وجوده (١) .

وقد مرّ بنا ما كان لقيام دار العلوم من أثر في الحياة العلمية والثقافية ،..
فقد عملت أولاً على إخراج التأليف العربي في هذا العصر عن تقاليده في الأمالي
والرواية ، وجمع الطرف والتنقذ ، والدوران بها بين مصنفات الطبقات والتراجم ،
الى لون جديد من الأخذ والاستيعاب ، يتصف بشيء من المنهجية الحديثة ، التي
تعنى بتمحيص الآثار ، وتحليل المعاني ونقد الأساليب والتبويب والمقارنة .

وما يزال كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين الموصفي يعد كالمفتاح
الأول في هذا المضمار والمحاولة الموفقة الفريدة في هذا الباب ، والتي ألحقت العصر
بالحياة دون أن تقطع به الأسباب عن سوابقه .

فقد تضمن القسم الأول من هذه « الوسيلة » إيجازاً لعلوم اللغة العربية ،
وخلاصة لآراء الأقدمين في نقد الشعر وتكوين الآثار الأدبية .

واحتوى القسم الثاني على دراسة لفنون البلاغة ، واعتمد فيها على كان
لابن رشيق القبريواني من أحكام في وحدة القصيد . . وكلامه الغامض في
الموضوع بعامة ١ .

على أن الجديد في هذا الأثر النفيس هو ما كان من استشهاد المؤلف
بشعر تلميذه اللواء محمود سامي البارودي ، ونثر السيد عبد الله فكري ،.. ومحاولته

(١) محمد حسين هيكل — ثورة الأدب ص ١٣٠ .

تقويمها وفق المعايير النقدية والبلاغية التي أوجز في صفحتها (١) .

ولم يلبث هذا الكتاب - بل هذه الخلاصة المتقاة - أن أضحي الزاد الأدبي الجيل الرعيل الأول من أدباء العصر ، لا في مصر فحسب بل في سائر أقطار العربية ، .. عليه يعكفون ، وإليه يرجعون ومنه يأخذون فيمتدون في محاولاتهم التقليد والابداع في الآثار الأدبية (٢) .

ثم كانت محاولة الاستاذ محمد توفيق الطويل ، الذي تخرج في دار العلوم ، والتحق بالمعاهد الألمانية ، ليتم دراسته العليا ، .. فقد تأثر في كتاب « بروكلان » في تاريخ الأدب العربي .. وراح يملئ على طلبة الدار كتابه - هو في هذا التاريخ على المنهاج الحديث .

وكان سليمان البستاني قد شرع في كتابة مقالات لمجلة الهلال في « تاريخ الأدب عند الافرنج والعرب » جمعها فيما بعد في كتاب أخرجه عام ١٩٠٤ م ، .. وعاد الى إخراجه مذهباً ومنقحاً عام ١٩١٢ م .

ولما قامت الجامعة الأهلية بمصر عام ١٩٠٨ م ، دعا الرافعي الى الاهتمام بدراسة الأدب العربي وما لبث أن كتب مقالة الأول في « الجريدة » (٣) للتأليف في الموضوع ، وأتبعه بالمقال التالي يوضح فيه بعض ما التبس على الجامعة من

(١) راجع - الوسيلة الأدبية - ولا سيما ص ٤٧٤ وما بعدها .

(٢) أنظر الرافعي في حديثه عن شوقي - المقتطف - تشرين الثاني (نوفمبر)

١٩٣٢ م ، - وحي القلم ج ٣ ص ٣٢١ ، ٣٥١ ، وراجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢١٢ .

(٣) راجع الرافعي - المعركة بين القديم والجديد ص ٦٨ وما بعدها .

الأمس (١) ثم انقطع هو يجمع المادة ليخرج بها على الناس ، في الجامعة وفي غيرها من الأوساط بمؤلفه الفخيم « تاريخ آداب العرب » الذي درس في الجزء الأول منه اللغة والرواية وقد عدّ فتحاً مبدئياً في الدراسات الأبية ، التي تمنهج لنفسها من غير سابقة في التقليد ، أو محاولة في التأليف (٢) وكأنه كان يرشح نفسه لسدانة الموضوع في الجامعة ، بدلاً من « نالينو » الإيطالي وسواه من المستشرقين ، الذين لم تكن في دراساتهم ومحاضراتهم لطلبة الجامعة شيء لا يعرفه الرافعي . (٣) وكان من أثر دعوة الرافعي أيضاً أن تصدى جورجى زيدان لكتاب « برلمان » نفسه ، يأخذ عنه طريقته ويحاول تعريبه بابتسار ، .. حتى لم يكن يخلو عمله من نقل مفضوح في الصورة والتحويل (٤) .

وما زالت محاولة الدكتور طه حسين في « تجديد ذكرى أبي العلاء » تعدّ الأولى من نوعها وثمره الجامعة الأهلية ، التي توفر على إنضاجها ثلاثة غير جهد صاحبها (٥) وقد وافقت على منهاج أوربي غير متكامل .

وقد أعاد الدكتور طه حسين المحاولة حين تصدى للتأليف في الشعر الجاهلي عام ١٩٢٥ م . وبالرغم من أخذه عن الرافعي ، وإثارته لبعض القضايا ،

(١) المصدر السابق ص ٧٦ .

(٢) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث .

(٣) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٦٨ .

(٤) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث .

(٥) رسائل الرافعي ص ٢٠ .

فإنه قصر في الاستشراف الى آفاق علمية أخرى ، يوفق فيها (١) ، وما زال - عفا الله عنه - على حالته هاتيك حتى في تصديه للتأليف في « الفتنة الكبرى » (٢) إذ أن من عيوب طه حسين أن لا يعود الى مراجعة ما يجنح إليه من مغامرة يقذف فيها بنفسه ويعتد برأيه محتجاً بأساس ما ..

وإذا كان من آفات الأديب العربي « المبالغة » والتهويل ، .. فلا يجوز أن تنسحب هذه على الدراسات المنهجية التي تعتمد التحليل والمراجعة والمقارنة الحدية قبل التسليم برأي ما .

* * *

ولقد نالت من ثم الرسائل الجامعية في موضوعات الأدب وتاريخية تطرد مع الحركة الأدبية نفسها في أشواط ما تزال تقطع فيها أسباب اليقظة الفكرية ، تتسابق علمياً ، .. ويظفر بعض النبغاء فيها بأعلى الشهادات وأوقى الدرجات ، .. حتى لتكاد الدراسات الأدبية تكون عنوان الحركة الفكرية والانبعاث الأدبي القائم اليوم .

وقد استطاعت المحاضرة التدريسية أن تتجمع في أُماليها على طلبة المعاهد بخاسة ، أن تثمر في مؤلفات كلية تتناول الأدب العربي من عدة زوايا ، .. حتى ظهرت المصنفات المعروفة اليوم في « الأدب العربي وتاريخه » للأستاذ محمود مصطفى ، وتاريخ الأدب العربي للسباعي بيومي ، والوسيط والمفصل في

-
- (١) سلبسط الحديث في ذلك عند كلامنا عن « عيال الرافعي » الموضوع الذي أدركه حول من أخذ عنه حدية آرائه ، ولم يكن يحسن استعمال أدواته .
- (٢) راجع الشيخ محمود شاكر فيما كتبه عن الفتنة في الرسالة عام ١٩٤٧ م .

تاريخ الأدب العربي للشيخ أحمد الاسكندري ورفاقه ، .. وتاريخ الأدب العربي
للأستاذ أحمد حسن الزيات .. ثم في الأدب الحديث وتطور النثر الحديث
للأستاذ عمر الدسوقي ، والمجمل في تاريخ الأدب العربي للأستاذ محمد
بهجة الأثري .

وكان لهذه المؤلفات أثرها البالغ في الرسائل الجامعية ، التي وافت في
النصف الثاني من القرن الرابع عشر الحالي ، .. ونذكر منها على سبيل المثال تاريخ
الشعر العربي للدكتور نجيب محمد البهيتي ، والحياة العربية في الشعر الجاهلي للدكتور
أحمد محمد الحوفي ، .. وغيرها من الرسائل العلمية الموقفة .

» » »

وعادت كتابة التراجم والسير الى الحياة من جديد ، مستفيدة من
المنهجية العلمية في التخطيط والتفصيل ، وإن لم تخل محاولاتها الأولى من التقليد ،
فقد كتب الدكتور محمد حسين هيكل سيرة النبي العربي محمد بن عبد الله صلى
الله عليه وسلم ، متأثراً الى حد كبير بكتاب المؤرخ الفرنسي « برنهام »
في « حياة محمد » وبناء على هذا الأصل الفرنسي ، ولولا هذا الأصل ما كتب
هيكل في حياة الرسول حرفاً (١) ..

كما كتب بالطريقة ذاتها الدكتور طه حسين « على هامش السيرة »
في ديباجة عربية يشرق فيها الأسلوب بالعبارة الرائقة ، ويرحل بالأصول التاريخية
الى عربيتها ، .. ولكنه لم يكن يبدو فيه العربي المؤمن ، ولم يخل أسلوبه من

(١) محمود أبو رية - هامش رسائل الرافعي ص ٢٢٣ .

« تهكم صريح » (١) . على أن الأصل الذي أخذ عنه طه حسين كان فرنسياً أيضاً ، وقد كشفه أحد أخوتنا الجزائريين الذين كانوا يدرسون معنا على الأستاذ نجيب البهتي في جامعة بغداد ، وذلك أن « هؤلاء قوم مستعمرون من عقولهم » (٢) .

وكان الراجعي قد هم في كتابة السيرة النبوية ، على نمط افترعه هو من المقالة البيانية والتأمل في الحوادث ، وتوليد المعاني ، وتفتيق الذهن على ما انغلق أو انبهم منها ، .. ولكنه لم يكتب منها غير صفحات ، ونشر بعضها في وحي القلم (٣) ، ..

ولكن العقاد - اهتبلها فرصة بعد وفاة الراجعي ، فأخذ عنه بعض نهجه ، . وراح ينحو منحى « مالروا » في الترجمة الأدبية ، فقطع أشواطاً في « العبقریات » (٤) .

وعلى أنها لم تخلق الى السماء الراجعية في قوة العبارة ، وإشراقة البيان ، ونور الأسلوب وشدة الأسر .. إلا أنها استكملت بعض أدواتها التاريخية ، بالرغم من آفة العقاد في أخذه ما يوافق منه هوى أو يأنلف مع وجهة نظره ويطلب من مزاجه ١ .

وكان هو والدكتور طه حسين بعد ذلك فرسي رهان في الموضوعات

(١) الراجعي - الرسائل ص ٢٧٠ .

(٢) الراجعي - ص ٢٢٣ .

(٣) اجتمعت لدي الآن ، وعسى أن يعين الله في إخراجها بالاسم الذي أراده رحمه الله في « الكتاب النبوي » .

(٤) راجع لإحسان عباس - فن السيرة ص ٦٢ .

التاريخية والاسلامية ، تحتاج الوقوف والمدارسة وإطالة النظر ، ولا سيما في الظروف السياسية التي وجهتها ، .. وبخاصة في تلك الموضوعات التي تصدب لها فأثارا غير معركة في المناقشة والرد .. والانتهاج (١) .

وكانت الى جانب ظهور التأليف والترجمة والتصنيف في الموضوعات العلمية والأدبية بعامة ، .. ولوجود الصحافة اليومية والدورية ، والتي تحتاج الى السرعة والعناية معاً ، فقد ولدت « المقالة » في فن من فنون القول ، - قد تكون تطورت - بسبب عوامل النهضة - عن المقامة أو الخطابة ، .. أو تحولت عن الخطبة ، فكانت سبيلاً وسطاً بينهما ، .. وإنما تميزت عليهما بشروط التوفر والاستيعاب ، ثم الصدور برأي يوضح هدفاً وحيجة تبلغ قصداً ١ .

وقد نما فن المقالة نمواً سريعاً ، وتنوعت هي وتوزعت في نواحي النشاط الاجتماعي والثقافي (٢) ولا يفوتنا أن نذكر أنها اعتمدت الترجمة أولاً ولا سيما في الناحية العلمية .. حتى كادت تنفرد على يد الدكتور يعقوب حروف ، وفارس نمر وشبلي شمیل ، وسواهم ، ..

ثم قامت من جديد عند اسماعيل مظهر ، والدكتور مصطفى مشرفة وكادت تنال الحظوة لدى الدكتور أحمد زكي ومحمد عارف البرقوقى وغيرهم . وهي اليوم تمضي بأشواط تبشر بكل خير في هذا المضمار العلمي الوليد . (١) كان المرحوم محمد سعيد العريان (ق) قد تصدى لبعضها في الثقافة ، وكذلك وقف الشيخ أحمد والشيخ محمود محمد شاكر في الرسالة وقد أكمال محمود الكلام حتى لا يكون من المفيد أن يعيد كل منهما النظر فيما كتب ! ..

(٢) عبد اللطيف حمزة - الصحافة والأدب ص ١١٤ ..

وكانت المقالة السياسية التي انطلق بها الشيخ علي يوسف في (المؤيد)
وسدد خطاها بفنه الخطابي الزعيم مصطفى كامل في « اللواء » وسار بها من بعده
أمين الرافعي في « الشعب » و « الأخبار » وكتبها كذلك عباس العقاد ومكرم
عبيد ومحمد حسين هيكل ، وثار بها في العراق عبد الغفور البدري وأمين أحمد
في « الاستقلال » ونازل بها الزعماء القوميون أساليب السياسية الملتوية عند
حكومات الاحتلال والتبعية .

أما المقالة الاجتماعية ، فقد عاناها معظم الكتات والأدباء .. والسياسيين ،
ولا سيما بعد أن أضحى الاجتماع القومي والانساني المعين الذي لا ينضب لما يحتاجه
هؤلاء من معاني الحياة التي يهدفون إليها بقصد أو دراية ، أو مذهب واتجاه .
.. وقد كتبها المويلحي ، ونظر بها مصطفى لطفي المنفلوطي في جريدة
الشعب ، واستهدف فيها الرافعي في « الجريدة » و « البيان » والمقتطف والهلل
والمضمار ثم الرسالة . وضمنها من قوة حجته ، وروعة عارضته البيانية ما سماها الى
أوج عال من الاتناق والساد ، .. ولا سيما تلك التي عالج فيها معضلات الانسانية
الكبرى في الفقر والفقر ، والجهل والطيش والخلط وتخاذل أوربة على ما
سوف نعرض له في فصل خاص .

وقد برزت بها من ثم الأنسة « مي » ولا سيما في موضوعات المرأة ، ..
وتنوع بها أحمد أمين وكتب بها غير هؤلاء وأولئك في معظم ما يزرخ به المجتمع
الجديد من مسائل وقضايا .

وكانت كذلك المقالة الأدبية التي تميزت في أشكالها الثلاثة وهي ترقى
في الأدب الحديث وتمتد به الى جمهور القراء والدارسين معاً .

حيث اصطلفت التقريرية منها الحديث عن الأدباء والشعراء تصف من
أحوالهم ونعمت آثارهم وتجتزئ القول في النعت والتقويم عن النقد
والتحليل... وقد يكون إبراهيم المويلحي قد بدأها ولكن مصطفى لطفي المنفلوطي
سار بها أشواطاً وهو يعرف بالأدباء والشعراء ثم تلاه محمد صبري فالعقاد
وأما النقدية والتقويمية فإن الشيخ إبراهيم اليازجي يقف في مقدمة
منشئيه مع صاحبي المقتطف حتى تلاهم الجيل اللاحق كالرافعي والعقاد ومي
وفيلكس وفارس ..

ويلاحظ عليها من ثم أنها راحت تتوزع مع مذاهب النقد التي قامت في
الأدب الحديث من بعد .

ولكن المقلّة البيانية قد أوتيت حظاً كبيراً من العناية والتجويد... ذلك
أن ما تحفل به من معاني تأتي على صيغ بلاغية خاصة وأساليب اللغة والانشاء
تميزها وتقوم بها على وجوه من هائيك المعاني وما تتفتق عنها ونماذج من الظلال
وما ينير من حولها وأشكال من الأصداء ترن من بعدها... وهي ترتفع كلما
ارتقى الكاتب في مجالي الثقافة العلمية والفنوية ويمكن من الحصيلة العلمية
الواسعة .

وقد يكون إبراهيم المويلحي في طليعة من نوثقها كما يكون الشيخ إبراهيم
اليازجي في مقدمة من سار بها قصداً وغاية... كما كان الشيخ محمد رشيد رضا
والشيخ محمود شكري الآلوسي في عداد من أخرجوها أطواراً أخرى . تنفصل
فيها عن (المقامة) وتسقل بذاتها .

ولكننا نجد الرافعي قد وصل بها القمة . ولا سيما حين عرضها في مجموعة

« وحي القلم » وفصل فيها القول في المقدمة التي عقدها لها والتي قال فيها « لا وجود للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملت عليها ، يقيمها الكاتب على حدود ، ويدبرها على طريقته ، .. مصيباً بالفاظه مواقع الشعور ، مثيراً بها مكمن الخيال ، آخذاً بوزن تاركاً بوزن ، لتأخذ النفس كما يشاء وتترك .. الخ » (١) .

وكان الرافعي ذا مذهب في الأسلوب له أتباع ومعجبون ، ومعظم أتباعه من هؤلاء الذين يرون رأيه في الحياة المعاصرة ، وقيسونها بمقياس للمثل العربية العليا ، .. وقد حاولوا أن يقلدوه في أسلوبه ، ولكن أحداً منهم لم يصل الى ما وصل اليه من الصور البيانية .

.. وغاية ما وصلوا اليه ، هو محاكاة ذلك الأسلوب القوي الجزل الخالي من الأساليب الاعجمية (٢) .

وقد زاد عليها الاستاذ أحمد حسن الزيات من المترادفات ، وتقابل الصور ، واتفاقي السجعات ، ما كاد يطعمهم بطابع خاص (٣) ، وعرفت له بالرغم من غمز مارون عبود له والرافعي بمحاولة « قوقعتها » على حد تعبيره .

وكادت هذه المقالة البيانية أن تذوب وسط الاساليب المستعجمة والصحافة الاخرى ولا سيما بعد أن تحول عنها أحمد أمين وطه حسين وهيكل والعقاد والمازني وسواهم .. ولكنها عادت فأشرقت عند الاستاذ عادل الغضبان ، الذي

(١) الرافعي - البيان - مقدمة وحي القلم .

(٢) الدسوقي - نشأة النثر وتطوره ص ١٠١ .

(٣) عمر الدسوقي - تطور النثر الحديث ص ١٠١ .

طلع بها من جديد في أفق جدير بالاعجاب والاحترام (١) .

* * *

أما فن الفصة والرواية فإن أثر الترجمة والتقليد للمذاهب الادبية في أوربة ظاهر واضح فيها وقد حفل العصر بترجمات لمعظم روايات القوم وقصصهم ، سواء منها ما تناولات التاريخ عندنا كروايات تاريخ الاسلام لجورحي زبدان ، أو تحدثت عن تاريخ الثورات والحركات القومية في أوربة نفسها .. وسواء منها ما صورت قصص المحبين والعشاق ، أو عرضت لمجموعات الفقراء والبائسين من أبناء الامم ، .. ووضعت مؤلفات ومصنفات عدة في القصة مترجمة وموضوعة ، فقد حاول جبهة الادباء العرب في العصر الحديث كتابة القصة على مذهب من المذاهب الادبية ، .. ابتداءً من حديث عيسى بن هشام للمويلحي وعبرات المنفلوطي ، وقصص طه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل .. ومحمود تيمور وسواهم .

وكان الرافي قد هم في مطلع حياته الادبية أن يكتب القصة ، ويؤلف في الرواية ، ويصوغ مترجمة لاحداها .. ولكنه قصر في ترك هذا الفن .. حتى إذا ما عاد اليه في آخر أيامه .. كان يخلط فيه بين المقالة والمقامة ، ولا ينال من فن الفصة غير هدف الحكاية (٢) .

وكانت هنالك ظاهرة في الحركة الأدبية جديدة بالوقوف حيالها والتأمل فيها بوعي وإدراك فقد ثار فن النقد الأدبي ، وامتد في المناقشات

(١) عسى أن يخرج مجموعة منها في « وحي الكتاب » .

(٢) سنفصل ذلك عند الكلام عن فنون الأدب الرافي .

الى ما يكاد يوصله اليوم غاية في المذهبيات الحديثة . . . فكثرت الدراسات النقدية للأدب وفنونه كثرة يأخذ بعضها من بعض أحياناً .

وتكاد كتب النقد ومناهج البحث في اللغة والأدب تؤلف مكتبة ، يحار المرء فيها ، من أين يبدأ ، وماذا يدع . . .

وهي ظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على مبلغ اهتمام الأمة بالأدب وأهليه ، . . . ومحاولة تقويم آثاره بمعايير علمية جديدة ، . . .

وربما كان غير أديب أو ناقد بمحاول أن يصنع لنفسه مذهباً فيها ، . . . سواء قلد فيه سابقين له أو أخذ عن مذهب ترجمت آثاره ، أو حورت بعض اتجاهاته ، . . . أو حاول أن يفترع له منهجاً في النقد يبتدعه فيعرف عنه .

.. ويُعدُّ كتاب « الوسيلة الأدبية » للشيخ حسين المرصفي كالباكورة الطيبة ، ويمثل الدور الخطير الذي قامت به « دار العلوم » في سبيل الحفاظ على اللغة ، وبعث الأساليب البيانية في الأدب من جديد مع الأخذ بسنة التطور والتجديد .

ثم كانت محاولات المنهجية الحديثة ، تكاد تقتفي آثار المستشرقين ، كما فعل الدكتور طه حسين في آراء مرجليوت في الشعر الجاهلي التي نشرها عام ١٨٨٣م ، فطبعتها على الشعر نفسه في كتابه « في الشعر الجاهلي » الذي ألقاه أمالي على طلبة الجامعة عام ١٩٢٥م .

أو تقرأ محاولات النقاد ونظرياتهم في أوربة والآداب الإنجليزية والفرنسية بخاصة ، فتحاول تطبيقها على الأدب العربي ، كمحاولة الأستاذ عباس العقاد ورفيقه المازني في « الديوان » .

ولكن محاولة الرافعي فيما كتبه عن البارودي ، وصبري ، والشعر العربي ، .. وما ردّ فيه على الدكتور طه حسين في المعركة بين القديم والجديد ، وما حلل فيه شاعرية كل من عبد الله عفيفي وعباس محمود العقاد - وقد وضعهما « على السقود » وما أنصف فيه حافظ ابراهيم ، ورفع من قدر أحمد شوقي ، .. وانتهى الى منهجه في نقد الشعر تعدد كالمذهب النقدي المتميز به على جميع معاصريه ، ..

فقد كان يستوعب علوم العرب في الفن ويفقه مصطلحاتهم تحليلاً وتفسيراً ، يأخذ عن الترجمات ما يمتاز بالأصالة والغرض ، .. ويمثل ذلك كله في طبيعته الشاعرة ، وروحه الأدبية الثائرة ، .. حتى ليمثل فيه « النقد الذي يربي الأدب ويسمو به » .

وقد حفل النصف الثاني من القرن الرابع عشر الحالي بالكثير من هذه الدراسات النقدية ، وكان المرحوم طه ابراهيم قد سبق في هذا المضمار حين أجمل « تاريخ النقد الأدبي » عند العرب ، .. حتى بعثه من جديد الاستاذ أحمد الشايب في « أصول النقد الأدبي » امتاز فيه بشيء من المقارنة المنهجية ، وكأنه مهّد من بعد للمرحوم أحمد أحمد بدوي ليخرج كتابه الفخيم « أسس النقدي الادبي عند العرب » الذي ربما كان وراء محاولة الدكتور محمد المنذور في دراسة « النقد المنهجي عند العرب » . وكذلك عند حشده لمطالعاته في « الميزان الجديد » بعد شيوع التأليف بالمقصد أو ما يعبر عنه سابقاً بالتلفيق وكذلك محاولة الدكتور أحمد أمين في كتابه « النقد الأدبي » .

ولم تكف تترجم بعض الدراسات النفسية . وتظهر بعض مصطلحات

التطبيقية في الفنون والآداب حتى رأينا الأستاذ الجليل محمد خلف الله أحمد يعمد الى دراسة مقارنة وموفقة يتناول فيها الموضوع « من الوجهة النفسية في دراسة الأدب » .. الذي أعجب الكثير من الأدباء ، .. حتى لقد أخذ سيد قطب بعض منهجه ومضمونه ، وأدخل حشداً من مصطلحات جماعة علم النفس التكاملي ليكتب هو الآخر كتاب « النقد الأدبي - أصوله ومنهجه » .

وما برحت هذه المكتبة في نماء وإطراد ، .. وإن غلبت عليها في السنوات الأخيرة صفة الترجمة الكاملة لمثل هذه الآثار عند الغرب ، .. فظهر كتاب الناقد الأمريكي ستانلي هايمن (النقد الادبي) مترجماً بقلم الدكتور إحسان عباس ، .. وكتاب إليزابيث درو « الشعر كيف نفهمه ونتذوقه » مترجماً بقلم محمد ابراهيم الشوش ، وقبلهما « منهج البحث في اللغة » لكرومي ترجمة المنذور .. الخ . .. ولعل مرد هذا التحول تهافت الدراسات النقدية ، وأخذها الواحدة

عن الاخرى ، أمام العوامل والظروف التي طرأت على الحياة الادبية بعامه . على أن أكثر المطالعات والدراسات النقدية في العصر الحديث ما زالت مقالات وأحاديث موزعة في شتيت من الصحف والمجلات ، لا يكاد يتوفر عليها الباحثون للغلبة التي تقع فيها هذه الآثار بين مكنتيات الاقطار العربية ، .. ولعدم وجود النظام المكتبي - الفهرس - الذي يعين الباحث على أداء مهمته ، .. فليس في وسعه أن يرى من بين عشرات الالوف من هذه المقالات غير التي تنميأ له في بضعة من صحف قطره ، أو القطر الذي يزوره ويدرس فيه ، .. وحتى هذه قد تكون ناقصة - إن لم تمتد إليها يد الحجب السياسي ، والسطو الذي يقطع الاثر بالمقص خلاصة ! .

ومن هنا كان النقص كالملازم لكثير من الدراسات النقدية والادبية بعامة في العصر الحديث،.. غير التقصير الاخر في الاستيعاب والاخذ، وغير الزايف التي تستولي على بعض الدارسين في التقرب من أديب كبير، أو الخشية من بطش ناقد شهير ١ .

وبذلك سارت هذه الاحاديث والابحاث يتوكل بعضها على بعض - وعلى ما فيها من المسلمات التي لا ترضى إعادة النظر، وهي تدور، وفي دورانها نوع من التقرير ١

ولو أردنا الاستطراد في هذا الموضوع لخرجنا من تلك الصفحات ندور أيضاً حول مفوماتها التي استقر بعضها في الازهان .
على أن الامر من الخطورة بمكان، ويحتاج الى عمليات مسح كبرى أمين أماكن محتوياته « بيبليوغرافيا » قبل أن تنصدي له الدراسات الجامعية التي تتولى جوانبه جميعاً .

* * *

وكانت جوانب الحركة الادبية قد امتدت الى المكتبة العربية فعمرتها من جديد، ونمت نمواً كبيراً بفضل ما طبع ونشر من كتب ودراسات وأبحاث مما تقدم ذكره .

وقد لوحظ ميل الاشخاص الى اقتناء الكتب، وإعداد المكتبات الخاصة . الى جانب الهمم العالية التي تصدى فيها بعض الموظفين الكبار في الدولة لتأسيس المكتبات العامة، كالتي أعدها الحكومة العثمانية في الاستانة ودار الكتب المصرية التي تأسست عام ١٨٧٠م . ومكتبة الازهر الشريف ومكتبات الاروقة

والمساجد الاخرى .. ثم المكتبات البلدية وخزانات الكتب التيمورية والزكية التي وقفها أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا - شيخ العروبة . وكذلك مكتبات الديار الشامية كالظاهرية بدمشق والأحمدية بحلب والشرقية ببيروت والخالدية في القدس .. الخ .

والمكتبة المرجانية والخالدية والأعظمية وغيرها من مكتبات المساجد في بغداد ومكتبات مكة المكرمة وخزائن الكتب في المغرب والهند .. الخ (١) . بحيث أصبحت هذه المكتبات لا تقل أهمية عن مكتبات أوربة في متحف برلين وبون وكبرج والأسكوريال وايدن وبطرسبورج وباريس والفاتيكان والتي تضم من آثارنا الحضارية ما لا يزال نتطلع الى معرفته ولو عن طريق التصوير والاستنساخ ١ .

وحسبنا أن نذكر ثقافة الامام الرافعي واختلافه على المكتبات العامة والخاصة ، لنرى مبلغ العناية بالكتب والمصنفات ، فقد ذكر الاستاذ سعيد العريان أنه كان يستعين بمكتبة الجامع الأحمدي الى جانب مكتبة أبيه ومكتبة البلدية ودار الكتب المصرية ومكتبة أحمد زكي باشا وأحمد تيمور باشا ويمقوب صروف (المقتطف) وزيدان (الهلال) وسواها من المكتبات الخاصة .

وبناءً على ما تقدم ذكره موجزاً ، وما لم يرد لاقتصادنا في الحديث ، كانت الحركة الأدبية تنقسم بالانبعاث وتحفل بالحياة الانسانية ، وتخلد آثاراً ممتازة ، وأزهاراً طيبة ، وثماراً يانعة .

(١) راجع في الموضوع - جورجى زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٥٥ وما بعدها ..

ولعل من أهم مميزات الانبعاث الأدبي الحديث ، ما حفل به في وجهته
الانسانية مع الاهتمام بالاجتماع العام ، وغيره الادباء والشعراء على البائسين ، ورفقهم
بالكلدحين ، وإشفاقهم على اليتامى والأيتامى والمشردين والمعوذين ، ونصرتهم
للجبهيات والمنظمات التي تعنى بحياة الفقراء ومواساتهم والحدب عليهم (١) .

وربما كن في بروز فكرة الحياة الكريمة وحسبانها من لوازم الايمان
الصحيح نقلة عظيمة في الأدب العربي تطعمه بالفكر ، وتمضي به الى العلوم
الفلسفية والاجتماعية يأخذ منها ويضع فيها حتى رأينا وكأن روحاً من التفاؤل
الكبير والتأمل الواعي والتصرف المتزن بقي الناس مغبة السقوط والتشاؤم
والقنوط يأساً وتسليماً بالمقدير وأنوائها .. قد أخذ سبيله في صفوف الأمة عن
عن طريق الادب وآثاره .

فوجد الرافعي يقدم لإحدى قصائده بمثل قوله : « تندفق الحياة بين
شاطئين يمتدان من غياهب الماضي الى غيب المستقبل أحدهما شاطيء الانسانية
والآخر شاطيء من رحمة الله وينهما تجري الحياة الى غايتها متغيرة متجددة
متدافعة لا تثبت قطرة منها على قطرة .

ومنى قرر الانسان ذلك في قلبه عرف أن ما يلزم به من أقدار الحياة
إنما هو من الحياة نفسها وأن هذه الاقدار يحملها النهر عنه فيما يحمل « (٢) ثم

(١) سنعرض لذلك بالتفصيل عند بحثنا لجوانب الاجتماع في أدب الرافعي -
وانظر محمد لطفي جمعة - العنصر الإنساني في الأدب الحديث .. الكتاب سنة ٢٠٢ م
ج ١ يناير ١٩٤٧ م .

(٢) الرافعي - الهموم - المقتطف - تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٣٣ م .

يرسل قصيدته في الموم .

ويتبع هذه الطريقة الشاعر عبد الرحمن الشكري ولا سيما في قصائده التي عاد ينشرها في الرسالة بعد صمته الطويل (١) حتى نراه يقول :
إنما العيش أن تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلاً
وكأنما كان يقابل معروف الرصافي بهذه المعاني التي تحملها الكلمات - جريئاً غمراً ذليلاً - وقوله الذي يفرق في التشاؤم :

أرى الخير في الاحياء ومض سحابة

بدا خلباً والشرّ ضربة لازب

وما جاء فيه من (ومض السحابة) و (ضربة لازب) بحيث تكون الحياة ذات منطق رائع - قد يفهم أحياناً - فيحتاج بذلك الى قوى أخرى ، تصور فيها الحياة ويعرف عنها ذلك المنطق .

ولم يقتصر مثل هذا الاتجاه على الايمان بالحياة ولكنه تجرّى أيضاً مسائل تتعلق بالوجود نفسه . وامتد الى الغيب يتأمل النفس ويحاول تأويلها من جديد ، وينظر في آلاء الله يدرك شيئاً من عظمة ذات الجلالة ويرى السعادة في مثال فلسفي يعي صور المعنويات .

وكان أحمد شوقي وما عرف عنه من المباريات الشعرية والمعارضات التي سابق بها الافدين والمحدثين وسابق بها نفسه أيضاً .. من أوائل الشعراء في هذا المضمار - فقد عارض ابن سينا في عينيته المشهورة في النفس وتأويلها - فذهب

(١) راجع أنيس المقدسي - الإنجازات الأدبية ج ٢ ص ٩٣ وما بعدها .

فيها مذهب الاقدمين من الفلسفة الافلاطونية الحديثة حيث قال ابن سينا:

هبطت إليك من المحل الأرفع
حسناً ذات تعزز وتمنع
فقال شوقي:

ضمي قناعتك يا سعاد أو ارفعي
.. يا نفس مثل الشمس أنت أشعة
هذي المحاسن ما خلقن لبرقع
في عامر وأشعة في بلقع
فاذا طوى الله النهار تراجعت
شئ الأشعة فالتقت في المرجع (١)
وقال آخر:

يا نفس موطنك الخلود وإنما
هذا القدوم على رحيل منزع
وقال آخرون قصائد أخرى، اجتمع بعضها في الكتاب الذي أخرجه
جامعة الدول العربية عن مهرجان ابن سينا المنعقد في بغداد عام ١٩٥٢ م.
ولم يسم في تلك القصائد جميعاً شاعر كالأستاذ عادل الغضبان في مثل قوله
يدحض ذلك المذهب الوثني في تأويل النفس وتفسيرها:

أسطورة النفس الأئيمة قصة
نبئت على دمن الزمان المهيح
أيام يرتع في الجهالة ذو الحجبى
ويدين بالأوثان كل سميذع (٢)
وقد نقل صاحب الطلاسم - إيليا أبو ماضي - هذه العينية الى « السعادة »
فخار في تفسيرها أيضاً، حتى لقد كان يحسبها « العنقاء » ذلك الحيوان الخرافي
الذي لا وجود له،.. حيث قال في قصيدته:

أنا لست بالحسناء أول مولع
هي مطمح الدنيا كما هي مطمحي

(١) المقتطف - مجلد ٦٤ ص ٤ .

(٢) راجع « مهرجان ابن سينا » ومجلة الكتاب - أبريل - نيسان ١٩٥٢ م .

ولكنه يعود في آخرها مؤمناً بالإنسان نفسه :

.. وعلمت حين العلم لا يجدي الفنى أن التي ضيَّعتها كانت معي ! (١)

ولما احتسب الدكتور شخاشيري ولداً له جرى على لسانه قول اليأس

الحزين شعراً :

أبى السعادة والأيام تأبأها مرّت علينا فلم نشعر برؤياها

فأجابه الرافعي بطيب خاطرة بقوله :

الله أوجدها للناس قاطبةً فما الذي عن جميع الناس أخفاها ؟ !

فصل صفار الورى عن همٍّ أوّلها وسل شيوخ الورى عن همٍّ آخرها

إن السعادة أن ترضى بلا غضب .. وكيف ذاك بدنياً لست ترضاها ؟ ! (٢)

وبذلك كاد يقترب من الحقيقة بنفس راضية وإن لم تطمئن .

وقد ذهب المهاجرة من العرب في الأمريكتين في حد الاغراق في مثل هذه

الموضوعات ، فلا تكاد تجد أحداً منهم لم يتعرض لها ، .. وإن أصابهم التأويل ،

وحارت بهم سبل التفسير ، فيقول مسعود سماحة وكأنه يجلو صداً السنين ويعيد

الأصداء :

حارت عقول الباحثين وفصرّت وسواك كلّ عاجز ومقصّر

لم يعثروا إلا بما أوحيته وأذعته لهم ، ولمّا يعثروا ..

ولكن موجة من الشك ، والضياع - اللا أدريّة - كانت تحتاج بعض

هؤلاء الغرقين في البحث عن الحقائق والدقائق في هذا الوجود .

(١) ايليا أبو ماضي - الجداول ص ٤٦ .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ١٠٦ .

وما لبثت هذه الموجة أن تغدت بحوادث قلقة في الفكر الاسلامي نفسه ، فأخذت من شطحات بعض المتصوفة ، ونطحات أهل الفلسفة ، واستبطن دعاة التشييع ما انحرفت به الى الزبيع ، وتجاوزته الى الالحاد ، وكادت تجهر بالكفر والعصيان .

وقد أفادت من ذلك الشعوبية المحدثثة في السياسة الاقليمية بخاصة ، وما زالت بعض فترات التاريخ تحتضن هذه الحالة مع « اليسارية » المحسوبة على الجمهور ، .. تعشعش فيها وتفرخ .

ومما لا ينكر أن توالي المحن على الشرق العربي ، وما اقيته الروح القومية من التضاد والتصادم مع الاستعمار ومجاليه السياسية والاقتصادية والفكرية ، وإيماره في الضياع والتمزق ، .. كان قد أثار موجات من الفزع أضعفت الشعور بالعدل الانساني ، والايمان بالقيم العليا ، .. وحدث بالادباء أن يلتمسوا الخير عن طرق أخرى ، ومنها القوى المادية (١) .

ولم تخل بعض الاتجاهات الفكرية في الأدب العربي الحديث من نظرات هادفة ، وأخرى تلتمس الاعذار عن الدهر ، وفساد النظام ، وثالثة تجرؤ الفكر الى محاولة الاهتمام بالفطرة ، والعناية بالاجتماع عامة ، .. خروجاً بالحياة الواقعة نفسها الى منطلق جديد لا ينتظر مسح دموع البائسين بالاحسان فقط ، .

فنجسد الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطي يرفع آهات الفقر في قصيدته « صوت الفقير » (٢) ، .. ويعود فيحاول أن يمسخ « العبرات » من عيون

(١) أنيس المقدسي - الاتجاهات الأدبية ج ٢ ص ٣٥ .

(٢) المنفلوطي - الهلال ص ١٧ - ٢٢٠ .

المحزونين ، ٠٠ ويرى « النظرات » للمتطلعين من المعدمين ٠٠
وتكاد ظاهرة التناقض في الارزاق تستهلك عواطف الشعراء بلا استثناء ،
وكأنما كانت الرافعي يرفع عقيرته بصيحة ثورية يهتز لها طيب الذكر
فرح أنطون ، وبعدها من الانطلاقات الاشتراكية في الأدب العربي عندما نشر
له قصيدته التي يقول فيها :

أليس من التغابن - وهو ظلم - جزاء السعي يكتب للقعود ؟ !
وبزفر « الامير » شكيب أرسلان مع « الفقير » في مثل قوله :
أفي الحق أن يشقى الفقير بعيشه وذو المال في شر الغواية يسرف ؟ !
ويقرر أحمد محرم حقيقة الواقع الذي يعانيه الفلاح - فيقول :
يُغني ألوف الترفين بماله ويعيش في فقر وفي إملاق
ويعود فيخاطب « ابن الريف المصري » بقوله :

كم من غنى وافٍ ورزق واسع لبني البلاد على يدك متاح
. ولكن روحاً تشاؤمية كانت تطفئ أحياناً على الشعراء والكتاب في هذا
الموضوع ، حتى لنجد السيد أحمد الصافي الفجقي - وهو يعارض قصيدة محرم -
يقول بإشفاق يَمُّ عن مرارة وأسى :

رفقاً بنفسك أيها الفلاحُ تسمى وسعيك ليس فيه فلاح
لك في الصباح على عنائك غدوة وعلى الطوى لك في المساء رواح
وكأنما استعصت عليه المسألة حلاً حين يقول :

ياريف إن كتاب بؤسك مشكلٌ يعيا بحل روزه الشراح ٠٠

* * *

وإذا كان قد اشتهر عن بعض الشعراء عنايتهم بالبائسين والأياشي
واليتامى،.. وتقدمهم معروف الرصافي في هذه الشهرة في قصيدته « اليتيم في العيد »
و « الأرملة الرضعة » .

قاني لا أعتقد أن أديباً عربياً صرف فنه ، وأوقف شعره ، وثار في فكره
وإنجابه بإيمان ثابت ، ودعوة هادفة ، ومبدأ قويم ،.. يؤلف بها مذهباً يعرف
به مثل إمامنا مصطفى صادق الرافعي .

وهذه قصائده ومقالاته ، وخطبه وأحاديثه ، ما اجتمع منها في ديوانه
الأول ، وما لا يزال ينتظر الانضمام الى الأجزاء الأخرى ، وما تألف على بعضه
في كتاب « المساكين » أو كان من « وحي القلم » في دراساته الاجتماعية ،
وتحليلاته الواقعية ، وخطبه الاحسانية ، وروحه الاشتراكية ، وعقيدته القومية ،
وخلقه الاسلامي ،.. ما يلقي لنا الأضواء التي تجعلنا نحكم له بالصدق في تمثيل
الاجتماع العربي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الحالي ،.. وأنه التقى
بالصفوة من نبغاء الفكر في العالم ممن يخططون للإصلاح الاجتماعي في سبيل
الكرامة الانسانية .

ولسوف نعقد لذلك فصلاً خاصاً في دراستنا اللاحقة .

وإننا نجد إزاء هذه النظرات الانسانية المثيلة ، والروح الأدبية النبيلة
في الفكر العربي المحدث ، أن مال الكثير من الشعراء والكتاب الى الحياة
الريفية ، والفطرة القريية منها ،.. محاولين الاتصال بالطبيعة بروح جديدة ،
وتسامر ينزع عنه كلفة الحياة الحضرية ومظاهرها ، ويجعل من أحدهم كائناً حياً ،

يعني من غير إجهاد ، وبحس من إثارة ، ويخالط أبناء الفطرة في الريف فيشاركم
مشاعرهم الفريدة ، ويتذوق أمرجتهم الطيبة ، .. ليعود فيصور من ذلك كله
لوحات فنية ، ذات روح معنوية للطبيعة الحية التي لم تختلط بها الأدراة ، ..
ويفيض في نزعات يسمو بها الوجدان ، وينبعث الضمير حياً بالإيمان .

ويحسب الأستاذ محمد عبد الغني حسن أن الرافي « قد أحس الجمال في
الأراضي والطبيعة الريفية ، كما أحس البؤس عند الملاح فكان كالذي يعطي
إشارة البدء » (١) في هذا الاستباق .

فإذا كان أبو الطيب الكندي - المتنبي - قد أخذ بمفاتيح البداية حين قال:
أفندي ظباء فلاة ما عرفن بها - مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ننى ليرى عن فطنة وذوق أن :

حسن الحضارة محبوب بتطرية وفي البدواة حسن غير محبوب
.. فإن الرافي قد أحيا هذا المذهب في الشعر العربي الحديث ، .. فهو
يستبق الشعراء في وقفة متأملة في جمال الكون تبدو فيه القرية المصرية - الضيعة -
عند الصباح الباكر فيقول :

دموع الفجر هذي - أم دموعي تفرق بين أجفان الربيع
.. ولاح الصبح يسفر عن جبين عليه الشمس حالية السطوع
فوردت الطبيعة وجنتيها - ونضرت وجهها الحسن الطبيعي (٢)
ويمضى بعد ذلك مأخوذاً بفتناتها ، ومعجباً بمشاهدها الساحرة ، ..

(١) محمد عبد الغني حسن - الفلاح في الأدب العربي ص ٢٥ .

(٢) الرافي الديوان ج ١ ص ٤٧ .

فيصف الفتاة القروية ، وقد بكرت تملأ جرثمتها ، .. جارياً على مذهب أبي الطيب
في المقابلة حتى يقول :

.. فذاك الحسن لا ما تشتره ضارثهما من الحسن المبيع
وقد جرى الرافعي في هذا النهج الجديد المرحوم أحمد محرم في قصيدته
« الطبيعة وفتاة الريف » والمرحوم محمود الخفيف في « فتاة القرية » .. كما سار
عليه أيضاً بعض تلامذته الآخرين ، كللرحوم علي محمود طه الذي زاد عليه
الحنين الى تلك الأصقاع بمثل قوله :

يا حبذا هو من مراح للصبا والكوخ من مشى لنا ومصيف
ويكاد الشاعر محمود حسن اسماعيل يكون إمام هذا الاتجاه بعد الرافعي
لا منازع ، منذ وضع ديوانه الأول « أغاني الكوخ » وعاد في الثاني « هكذا
أعني » ليقول في الفلاح مثل هذه المعاني المبتكرات الجميلة :

كم صببا السنبل الحبيب اليه ساكباً بين راحه قبلاثة
عشق الدهر كفه فتمني خلد أطرافها على ورقاته
ومما يتصل بهذا وذلك من تفنن الشعراء في الطبيعة وآثارها « صلوات
في الخراب الأخضر » و « شجرات الشتاء » للرافعي ، التي كتبها بأسلوب
النثر ومعاني الشعر يحسب أن النثر لا يضيق بمثل هذه المعاني حتى عاد اليوم من
يسمى مثل ذلك الضرب من الكتابة « قصيدة نثرية » .

ويلحق بذلك أيضاً قصائد الشعراء الآخرين كالبنفسجة لجبران ،
والفراشة المحتضرة لأبي ماضي والبلبل والورد لكل من الرصافي وأحمد رامي ..
الى آخر ذلك من عناوين هذه المفترعات الأدبية .

ومن ناحية ثانية نجد أن الحضارة ووسائلها الحديثة كانت ذات تأثير كبير على الحركة الأدبية ، وقد كان المخترعات الباهرة ، ومجالي العلوم الظاهرة ، .. والبيئات الاجتماعية الجديدة ، .. وما التف به هذه وهاتيك من مسائل القيم والاعتبارات الوليدة ما دخل بالأدب العربي برزخاً آخر من جديد الموضوعات . ففي الوقت الذي يتخطى فيه الرافعي وصف المخترعات ، نجدته يتأثر بها غابة التأثير حتى لنكاد نرى عنده غيرة من القطار بمثل قوله :

كيف هام القطار حين رآها أترى حسنهما استهما القطاراً (١)
سار يطوي جوانب الأرض طياً ولو استطاع أن يطير لطاراً (١)
.. ويقول بدعوة عصرية واضحة تصرف الأدب عن تقليد القدماء :
يا سعد هذا عصرنا فدع النياق يشفها الاتهام والأنجاد
واهجر حديث الرقتين وأهله بادت ليالي الرقتين وبادوا (٢)
حتى إذا ما عاد الى القطار أخذته منه روعة هندسته ، فحسبه بيتاً يتحرك :
كالقصر فيه نكلٌ خود حجرة ولكل صب مضجع ووساد (٣)
.. ويخرج الرصافي الى الوصف في تأمل هذه المخترعات فيقول في « القاطرة » :
وقاطرة ترمي الفضأ بدخانها وتنهب صدر الأرض في سيرها نهبها
تمشّت بنا ليلاً تجر وراءها قطاراً كصف الدوح تسحبها سحبها
ويجفل الرصافي بالسيارة احتفالاً يقابل به بين وسائل العصر ، وما كان عليه الأقدمون من حال :

-
- (١) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٧٠ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ٧٢ - ٧٣ .
(٣) الرصافي - الديوان ٢١٦ .

تلك المطية لا ما كان يذكرها أديب ذبيان من عيرانة النيب
لو امتطأها لبيد قبل^١ تاه بها على الحواضر قدماً والأعارب
ولا أطال ابن حجر وصف منجرد على السراة كيت اللون يعبوب (١)
ويفترق شوقي عن حافظ في النظرة الى «الباحرة» فبينما يقول شوقي :
هت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء (٢)
يشور البحر على باخرة حافظ فيتركه يقول :

عاصف يرتمي وبحر يغـير أنا بالله منها أستجير (٣)
ولا بكتني شوقي في وصف الطائرة ودهشته منها بمثل قوله :
قم سليمان بساط الريح قاما ملك القوم من الجو الزماما (٤)
وإنما يردفها بأخرى يحكي فيها «فاتح الجو المصري» (٥) الطيار صادق
الذي جاء بطيارته من أوربة في يوم مشهود كتب فيه الراجعي للمقتطف في العنوان
وأرسل شوقي قصيدته :

من فتى حل^٢ من الجو بهم فتلقوه على همام وراح
ليس من يركب سرجاً آمناً مثل من يركب أعراف الرياح (٦)
وزاد الراجعي في احتفائه بالجيش يوم كتب مقالته في «أجنحة المدافع المصرية» (٧).
ومع ذلك كله ، فقد كان للجانب الآخر من الحضارة على الحياة العربية
شأن آخر ، وقد مر الحديث عنه م

-
- (١) الرصافي - الديوان ص ٢٢١ .
(٢) الشوقيات - ج ١ ص ٥ . (٣) حافظ - الديوان ص ٢٢٧ .
(٤) الشوقيات ج ٢ ص ١٠٧ . (٦) المصدر نفسه - ج ٢ ص ١٩٤ .
(٥) و (٧) مقالات كتبها الراجعي - المقتطف - آذار - مارس ١٩٣٠ م .

العلماء والمفكرين

انطلاقة الشعر العربي الحديث

يحاول بعض المفسرين أن يذهبوا في تحليل الحياة الحضارية عند الأمم
مذاهب ، يمنهجون فيها لدراساتهم في السلوك الانساني والاجتماعي العام ، وما
يكتنفه من أحوال البيئة والثقافة والعرفان ، .. حتى لتغلو بعض هذه المذاهب
أحياناً ، وتضحي أفكارها كالمسلمات، الجدلية عند المناطقة .

ومن ذلك قولهم في سبق العقل الأدبي للعقل العلمي عند كل أمة ، ..
وهم يذهبون في تأويل ذلك ، أن أول ما يستيقظ في الانسان وجدانه ، .. الذي
ما يلبث أن ينشط به فيغشى ميادين الحياة المهيأة في جوانبها الاجتماعية والحضارية ،
فيتأثر بها في مجرى سواها ، .. حتى تتمكن النهضة من ثم أن تلحق الأمة
بالركب العلمي .

والعقل الأدبي السابق هذا الى جانب إحتفائه بالوجدان ، كثيراً
ما يبعث من ملكات التخيل ما يصور بها طموح الآمال ، ويزين إشراق الأحلام ،
أو يسوغ ضلال الأوهام من الناحية السلبية الأخرى .

ولا تكاد ملكات التخيل هذه تنمو في الأفكار حتى تندفق بالمعاني ، وتلوح في الصور ، التي يأخذ بها الجمال الى مواطن الفن من التصوير والشعر والمحاكاة .

ومن أجل ذلك يذهب هؤلاء المفسرون الى أن الشعور بالأحاسيس الوجدانية هو الذي يبعث الحياة عند الأمم ، .. وينظرون في ذلك النهضة الأدبية والانطلاقات الشعرية التي تستبق بها الأمم حياة الحضارة المتدفقة فيما بعد . ولا يقف هذا التفسير عند حدود نشأة الأمم وصيرورتها ، .. وإنما يتجاوزه الى ما يصيب هذه الأمم من النكسات والحن؛ التي قد تعود بها القهقري الى ما قبل النشأة ، .. تلتمس لها سبيل الحياة من جديد ! ..

على أن الذي أذهب اليه ترجيحاً أن الحياة الوجدانية ، والنشاط العلمي ، والنهضة الحضارية في شتى جوانب الاجتماع الانساني .. تأتي نتيجة تفاعل مع البيئة والعصر بأوسع معانيهما ، .. وعلى درجة هذا التفاعل يتوقف الظهور في الاستعداد والاخذ بأسباب الحياة في جانبيها الرئيسين الوجداني الذي يتصل بالعقل الأدبي ، .. والحيوي الذي يسعى مع الانقلاب والتطور العلمي .

وهذان الجانبان هما جناحا الحضارة والمدنية عند كل أمة .

نخلص من ذلك كله الى أن أمتنا العربية كانت قد عانت من ضياع التاريخ الحضاري لها ، ما أفقدها الكثير من أيامها مع ذلك التاريخ .. وقد خسرت في مسيرة حياتها روح الابداع في عقلها العلمي ، .. فتوقف الفكر في عقول أبنائها رديحاً طويلاً من الزمن ، .. وانحسرت حضارتها عن التقدم ، .. وما زالت كذلك تستبطن ذاتها وتجتزئ بقايا معارفها حتي غلبتها الاحداث على أمرها ..

ولكنها عادت في أخريات تلك العهود لتحاول استنشاق نفس الحياة ،
واستئناف سيرها الحضاري في الوجود الانساني .
وهكذا تنبّهت فيها خصائصها فسعت الى الطريق التي تكلفُ الامم ،
فكان لها من وجدانها القويم حياة أخرى لعقلها الادبي .
ومن أوليات هذه الحيات إنطلاقة الألسنة عند أبنائها بالأحاسيس
ال عاطفية والشعور الانساني ،.. تجري بما تميزت به من فن القول والأداء الشاعر .
حتى كانت نهضة الادب الحديثة ، وانطلاقة الشعر العربي التي نفرد لها
هذا الفصل لأنها كانت من أظهر علامات التغيير في الامة على سراطها المصطف
في سبيل الحياة العائدة .

ولم تكند أيام القرن الثالث عشر الهجري تدافُ مطبقة على آخرتها
لتختتم سنيّه ، حتى كانت هنالك حياة لانسان عربي تصدق القدر في موعده ..
يجبـو في منتصف عامه الثاني ، ليلقف حلوى الالهام عند مراتع الجمال في
قرى مصر .

وما بين طفولة هذا الانسان ، ونهاية القرن التاسع عشر الميلادي عمر
يافع يمضي في صباه الى الشباب في مثالية مستوفزة ، ومعاناة قيمية تستهدف لها
الحياة الكريمة شرعة ومنهاجاً ! ..

وفي مثل هذه السنوات الغضة من أيامه ، كان الشعر العربي لما يزل يعاني
من سكرات القرون - رغم استنشاقه لنفس الحياة ،.. وما انفكت معانيه تعاني
من السبابة ،.. وأخيلته تعودها الحى الراجعة ، بالمرض .

وبالرغم من امتداد الشعر في بلاد العراق والشام - على ما كان يحسب الشيخ محمد وشيد رضا - أنها « لا تزال أقرب الى السليقة العربية من أهل البلاد الأخرى » حتى ليخال « أن الشعراء النابغين فيها أكثر منهم في غيرها » (١) . وأرجح أن كثرة من شعراء العراق والشام كانت أسماؤها ذات صدى في تلك الأيام ، . وكان في نظمها ومحاولاتها الشعرية كالامتداد للنفس الشعري العربي الذي تخافت منذ آخرة العهد العباسي ١ . وهي التي ألقت في روع الشيخ رضا مثل هذا الرأي في الحكم .

وعلى كل حال فإن ظهور أمثال عبد الباقي العمري وعبد الغفار الأخرس وصالح الفوزيني ، وشهاب الدين العلوي ، وجعفر الحلي وسواهم في العراق ، وحسين بيهم واليازجيين والبستانيين وآل الماراش ، وإبراهيم الأحمد ، ووزرق الله حسون وأديب اسحق ، وعبد السلام الشطي وعبد الفتاح اللاذقي وأحمد فارس الشديان وغيرهم في الديار الشامية ، .. قد أوجدلونا من إنبعاث الحياة في الشعر العربي ، بالرغم من المحافظة على الصورة الشعرية للقرون المتأخرة ، .. فلم تكن تظهر عليه ظاهرة تجديد في معانيه وأخيلته ، إلا بمقدار ، وكأنما كان حسبه من الأخذ والعطاء في هذه الحياة أن يعود بمرقعة جديدة تبرز أساليبه ، .. يجتر لها العربي نفسه من معين في الشعر ، المعاني التي لم تنبأها الأيام ، ولا تنكرها البيئة الاجتماعية ولا يرتفع بها الخيال إلا على أجنحة من المروقات البلاغية .

ومع ذلك كله فقد كان هذا الشعر أعلى قدراً مما كان عليه الشعراء في

(١) أنظر مجلة المنار - الشعر والشعراء - ١ م ص ١٣٣ ، م ٦ ص ٧٩٢ الخ .

القطر المصري .. حتى كان جيل علي الليثي وعثمان جلال وعبد الله النديم ، وعبد
الكريم سلمان ومحمود صفوة الساعاتي وعبد الله فكري والابيارى ، الذين عناهم
الرافعي بمثل قوله : « إن قصارى ما يكون من أبرعهم شعراً ، وأبدعهم صنعة
إذا نفض رأسه ، وزاد في حركة قلبه ، وضرب على جبهته بكلتا يديه .. أن
يعطس بيوت فيه نكتة من البديع أكثر ما تكون من نحو حسن الأخذ والتضمين
والاقتباس .. الى ما يماثلها » (١) .

وبالرغم من انطلاق شاعرية الشيخ عبد المحسن الكاظمي بعد أستاذه ابراهيم
الطباطبائي، والتي آذاها بالاطالة وأتعبها بالارتجال .. واعتسف لها أساليب القدامى،
ولاسيما في ديباجة الشريف الرضي ، ودوران الكميت ومحاولة دعبل الخزاعي ،
وبالرغم من استرسال السيد محمد سعيد الجبوبي النعجي بموشحاته التي حاول
أن يمتد بها في روح فنية تجري مع دار الطراز لابن سناء الملك ، وتكلف بفنون
صفي الدين الحلي ، وبعض خصائصه في الأساليب والمعاني ..

وبالرغم من ثورة الشيخ ابراهيم اليازجي بقصائده القومية ، وحماسه
العربية ، .. فإن براء الشعر العربي من تخلف اليهود لم يأت على الصورة المرجوة
أو المنتقاة .

ولكن المعجزة كانت قد حدثت في أرض الكنانة بالذات .. فقد
تغلب على عوائق الأيام ، وعوائق الدراسات الشعراء الفحل محمود سامي
البارودي بعد أن « خلع كل » العقد التي كان يحجل فيها الشعراء من قبله ،
ونفخ فيه روحاً جديدة من الأصالة ، وأزال عنه كل ما كان يعوقه من أعشاب

(١) الرافعي - شعر البارودي - المقتطف ، آزار - مارس ١٩٠٥ .

البديع ، . فافجر النبع وتدفق الأدب والفن « (١) .

« وكأنا هي عصا ساحر قلبت الميت حياً ، والضعيف قوياً ، والمعدم ثرياً ،

فيعيد للبناء قوته ومجده ، وزخرفته الطبيعية الجذابة دفعة واحدة » (٢) .

ليأخذ عنه من جاء بعده أخذ معاصرة ، ويعترف من نبهه اعتراف الظمان

يطلب الري ، .. حتى كان اسماعيل صبري وأحمد شوقي ، ومحمد حافظ إبراهيم ،

ومصطفى صادق الرافعي وسواهم في أرض الكنانة .

ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي والشبيبي وسواهم في العراق .

والأمير شكيب أرسلان ، وخير الدين الزركلي وفؤاد الخطيب وشبلي

الملاط وغيرهم من أبناء ديار الشام . أولئك الذين استبقوا الصراط في الابتداعية

المحدث ، وعملوا فن القول العربي الشاعر بمآثر من فنون فصائدهم أعادت للادب

العربي مكانته ، وتجلت في هيئة الفكر ورهبة الحياة .

وما كان ذلك الجليل يعول على « الوسيلة الأدبية » ويتخذ البارودي

مداراً فلنكياً معاصراً فحسب ، . وإنما تنافس على السبق ، وتباري في السمو

والعرفان .

فلا يدع أن يرى الشيخ رشيد رضا وهو يحسب « كأن السليقة العربية

رجعت الى البارودي بالوراثة لأحد أجداده الأولين من غير عناء في كسب

ملكاتها » وأن « وجود البارودي نفسه هو من قبيل ما يسميه الحكماء بالرجعة » (٣)

(١) شوقي ضيف - شوقي شاعر العصر الحديث ص ٤٤ .

(٢) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ص ١٥٧ .

(٣) رشيد رضا - المنار ١٨٩٩م - الشعر والشعراء ، م ٦ ص ٧٩٢ . الخ .

على حد تعبيره .

وذهب الاستاذ عمر الدسوقي أكثر حين جعل من البارودي محور الدراسات الأدبية الحديثة وكالعنوان لما قبله وما بعده في الشعر والنثر معاً (١) . وسرت بعد ذلك نزعة نحو الشعر وصقل معانيه ، والاعتراف من مناهل الفكر في العالم الجديد والحضارة المدنية ، وانتهاج أساليب الفرنجة في صوغه على أساليب من القصص والبيان .

وما كاد خليل مطران يدعو لبعض ذلك في مجلته المصرية حتى استجابت له طائفة منهم نقولا رزق الله وداود عمون وأمين الحداد وسواهم . كما أخذ نحوه بعض الأخذ مصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن شكري ، في الرعيل بنطلق معهم في حرص وإتقان عبد الحميد الرافعي ، وبشارة خليل الخوري - الأخطل الصغير - وخليل شيبوب وأحمد زكي أبو شادي ، .. وعبد الرحمن صدقي وغيرهم .

وبتميز عنهم بالديباجة العربية والأصالة القومية ، والمذهب الشوقي ، ملي الجارم وفؤاد الخطيب ومحمد بهجة الأثري ، وخليل مردم وعلي الجندي وزكي المحاسني وإبراهيم أدهم الزهاوي وسواهم ، ..

ومن نهج هؤلاء ومذهب أولئك ولدت فئة أخرى ، أخذت مكانها بقوة وجدارة وملكت قلوب الناس بالإكبار والاعجاب معاً ، بما لها من ميزات الاتساق في الأسلوب والقصص في التجديد والعطاء ، . ومن أشهر هؤلاء الشعراء المحدثين ، محمود غنيم ، وعادل الغضبان وأنور العطار ، وعلي محمود طه ، وعمر

(١) راجع عمر الدسوقي - في الأدب الحديث - .

أبوريشة ، ومحمود حسن اسماعيل وإبراهيم طوقان ، ومحمود الحفيف ، وحليم دموس ومحمد عبد الغني حسن . . وغيرهم .

وفي آثار هؤلاء ، وأولئك الشعرية ما يفيض بالحياة من المعاني ، ويتقلب في صور البيان العربي الجديد ، وما يعد بحق جامعاً للتباعدية - من الناحية القومية الأدبية ، والابتداعية العصرية بما فيها من وجدان وحبوية في آن واحد . وقد انتهاز العقاد فرصة صداقته للشاعر عبد الرحمن شكري ، وفسح الرافعي المجال له ولزميله المازني في الترجمة والكتابة بمجلة البيان ،... - التي كان يصدرها نسيبه الشيخ محمد عبد الرحمن البرقوقي ويترك له مهمة الإشراف الفني عليها - فأراض فريحتيه على قول الشعر متأثراً بما يقرأ للشعراء الانجليز بخاصة ، . . . وعندما لم يجد صدى لدواوينه - التي أصدرها ابتداءً من عام ١٩١٦م - يقربه من طبقة الشعراء الذين طبقت شهرتهم الآفاق وفي مقدمتهم شوقي والزهاوي وحافظ والرصافي والرافعيان ومطران . . أقدم على صنع حركة نقدية أصدر فيها وصاحبه المازني جزءين من كتاب « الديوان » عام ١٩٢١م من عشرة أجزاء كان يحسب فيها هدم هؤلاء وإشادة بنيانه الشعري هو ، . . ولكنه لم يوفق الى غاية ، ولازمته شهوة الهدم ، فأجهز رفيقه المازني على شكري زميلها ، في الوقت الذي تصدى فيه هو لشوقي والرافعي بنقده المعروف ، . .

وبالرغم من من جميع ما أثير حول الموضوع ، وما أفاضت به الاقلام في نعت أبعاد المذهب الشعري الذي دعا له ، لم يأت فيه بجديد لم يظن اليه ثقات الأدب العربي كالحافظ والجرجاني وابن قتيبة وسوام ، . . وبالرغم مما

تكلّف له من النقل والترجمة للأفكار الغربية في هذا الشأن . حتى أتم إخراج
سبعة دواوين نعتها مارون عبود بالسبع العجاف (١) . . . ولم يغد العقاد بعدها شاعراً
بقدر ما كان مترجماً ومثقفاً كبيراً ذا مذهب في الوعي الاجتماعي العربي المعاصر .

ثم كان هنالك اتجاه آخر خاطر بالانطلاقة الشعرية في وجهات من
الاستبطان الذاتي والأداء النفسي ، وما انبعثت فيه الروح العربية الوليدة من
الضيق والالم وتختلف الحياة الاجتماعية والحضارية فيها عن ركب الالم الناهضة .
وقد رأينا ابراهيم طوقان وفخري البارودي بخاصة يشوران في أناشيدهما
الوطنية والقومية وبتيه « علي محمود طه » في ملاحته عبر البحار ، . . ويصعق
جبران خليل جبران من حالته المادية والمرضية وتطلعاته الحائرة ، . . ويطير
فوزي المعلوف « على بساط الريح » ويتزلزل أبو القاسم الشابي ، ويمنح
محمود حسن اسماعيل في خيالاته ، . . ويدور آخرون هنا وهناك .

.. فلم يكتف هؤلاء بالتجديد البسيط ووحدة القصيد العضوية ، وأهداف
الشعر النفسية والقومية ، وإنما امتدوا به الى الأساليب بنوعونها، وابتكرونها،
واستهدفوا المعاني نفسها بمجازات وكنائيات واستعارات جديدة يثيرون حولها
ضباب الغبش لتحلوا الحقيقة عندهم ، . . وفي آثار هؤلاء كانت بواوير الاقتحاح
والأثمار في الشعر العربي ، والتي تغذّت فيها فنون الشعراء على بعض مذاهب
ومتجهات في الآداب الأوروبية .

ولم يكفد ينقل عن الغرب بعض آثار هوتن الأمريكي ، و ث . س إليوت

(١) زادت هذه العجاف الآن حتى بلغت ما « بعد البعد » .

الانجليزي وإدجار إلن بو الفرنسي ولوركا الأسباني .. حتى قامت بيننا زوبعة عاصفة لم تحل من تمرد فيه روح عبقرية ، . وإن تفرق في مناهج وضل في مسالك ، .. ودار مع الضياع في توزع وانفلات .

فقد بدأ ذلك عبد اللطيف الشهابي عام ١٩٣٢ م « بحفنة رماد » من العراق وجمع من بعد صلاح لبكي وتابعه نزار قباني في « طفولة نهد » (١) وغاص سعيد عقل في أساطير وثنية وأخرى مسيحية ، .. حتى راح إلياس أبو شبكة يتعب نفسه في البحث عن « أفاعي الفردوس » ، وتاهت « عاشقة ليل » أن تدرك نازك الملائكة ، بعد ما غامر بشر فارس مع « ناصعة الجبين » واضطرب السياب « لأزهاره الذابلة » .

ولم تزل العاصفة حتى استدارت فطارت من بين صفوف دعاة السهولة والانبساط والأدب الشعبي والعامي .. الخ ليعيث فيها عبد الوهاب البياتي « تهشيمًا بالاباريق » وليلتاث من حوله بالنزعات الشعبية ، والانحرافات الشيوعية من بعض اللا أخلاقيين من زبانية الحزبية المقيتة وجمهر الجاسوسية المرذولة ، وإمعات اليهود ! .. (٢)

(١) من المرافقات المثيرة أن يدعي كل من الشهابي والقباني أنهما من تلامذة الرافعي في اتجاهاتهما الشعرية ، ويعدان لذلك بدراسات تسوغ لهما مثل هذا الإدعاء ! .. وقد أطلعني الشهابي على صفحات منها .

(٢) انظر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٣١٤ وما بعدها ، وقد ذكرنا ذلك استطراداً .

ولعل من المفارقات التي تدعو الى التأمل الواعي أن يكون اللقاء تاماً بين هذه العناصر التي تحسب نفسها على اليسار « الجمهور » ، وبين وكالات الثقافة والنشر الصهيونية والاستعمارية على ما جاءت به الأيام من فضائح وعيوب (١) . على أن المؤتمرات السياسية ، والأحداث التاريخية والمصيرية القاءة والقاعدة في أيامنا العالمية والقومية ، .. يد في هذه الحركات المذهبية الجديدة لم تكن لها فيما سبق من عصور .

ولا يغيب عن البال أن ما قدمنا من إيجاز يكاد يكون تخطيطاً لعنوان ضخم ، .. قد لا يكون مصيباً في تسمية أحد الشعراء المحدثين بدقة ، وقد يكون

(١) .. وكان ذلك على مراحل ، منها الإستعانة بالقوة الدولية كما حصل لبعض الموارد والكاتوليك مع اليسوعيين الفرنسيين (الجزويث) . ومنها التطلع للمغانم كما هي اتجاهات « ذوي المصالح الخاصة » ، .. ومنها الإنجاء الى الحرية والتقدم كما هي عليه دعوات « التراجمة » من مثقفي العصر ، .. ومنها التحزب للآراء والأفكار الصادرة من بلد معين في أوربة ضد آخر ، كما هو الموقف الذي اتخذته بعض الكتاب ما بين الحربين ضد هتلر والنازية - الإستراكية القومية ، وخلال الحرب الثانية بخاصة ، .. ومنها التنادي لإخوان الحرية ، واللقاء مع فلاسفة الوجود الجديد .. الخ . ومنها ما تكشف عن علاقات الصحف التي كانت تنشر للشيوعيين بخاصة كمجلة شعر وحوار مع وكالة المخابرات الأمريكية .. ومنها أن يرث اليساريون في مصر مثلاً صحف الدعاية المعروفة . .. الى آخره مما يحتاج الى تأمل ونظر ومدارسة !

هنالك شاعر يتقدم على صاحبه ، أو يتأخر عن رفقته ، . . ولا يقف مع رتبته
أو طائفته .

كما يكون هنالك شاعر تتمثل في شعره وصور من أدبه معظم هاتيك
الاتجاهات والنزعات مثلاً سيمثل أمامنا الراجعي العظيم .

لقد نقل بعض النقاد تسمية «مدارس» على أساليب بعض الأدباء العرب
وتشابهها فيما بينها وأخذها عن غيرها ، ، تقليداً لما يقوم عند الغربيين والفرنجة
بخاصة من مثل هذا التوزيع في دراساتهم النقدية والتقويمية عند أدب الترجمة .
ولكننا لو تأملنا مدلول كلمة «مدرسة» وهي تجمع أو تنعت بعض
الأدباء والفلاسفة والفكرين عند أولئك ، لوجدنا في نقلها الى المتجبه والمذهب
أو الأفراد . . ضرباً من المجازفة لا تجوز على الفكر العربي بعامة ، والأدب
من ثم والشعر بخاصة .

ذلك أن النزعة الفنية للأديب العربي ما تزال تعوّل على الذات ، . .
والفرد هو الصورة المصغرة للأمة في صفتها الاعتقادية ، . . وهذه الفردية تكاد
تكون طاغية على مذهب الأديب العربي .

وكلمة «مدرسة» عند أولئك ، وتعدد هذه المدارس كان وليد ظروف
إجتماعية امتدت على مدى قرون ، كان خضوع الفنان فيها أو الأديب العربي
خلالها لأحوال معاشية ، وأخرى سياسية بالإضافة الى ميراثه المذهبي الديني
والطائفي ، ونزعاته الفكرية التي تتحزب فيما بينها .

فالمدرسة عندهم تدور في هذه الأفلاك فلا تكاد تخرج عليها إلا بمقدار ما تكشف

فيه عن وجهات نظرها مهما اتسمت بالمخاطرة ، ومهما التفت من حولها الضجيج ..
وهذا ما لم يتهاى له المجال بيننا حتى اليوم ، .. حتى عند أصحاب النزعات
الشعوبية التبعية والمذهبيات الطائفية ، أو غيرهم من الراكضين وراء سراب
الأحزاب .. وإن سلمنا جدلاً بصديق المدلول المدرسي وانطباقه « لغوياً »
عندهم ، ولم نقل بضيق تلك اللغات في هذا المضمار (١) .

وعلى ذلك فإن مثل القول بالمدرسة القديمة ، ونعتها بالاتباعية ، وتمييزها
بالمحافظة على الأصول ، أو إعجابها بالكلاسيكية ، وحسبان البارودي وشوقي
ومحمد عبد المطلب والكاظمي ومحرم وسواهم عليها ، ..

والرأى في المدرسة الوسيطة وتسميتها بالابتداعية ، ووصفها بالوجدانية ،
أو حسبان العاطفة من ميزاتها والاختلاف في تعريب « رومانسية ورومانتيكية »
من أجلها ، وإضافة المطران والرافعي وشكري وغيرهم إليها ، ..

والمجازفة بمدرسة « الديوان » و « أبولو » والظن بحداثتها ، .. وتلفيق
أسماء الشعراء من الطبقات الأخرى لها .

والتجاوز بالصفة الى الاصطلاح بمدرسة شوقي ومدرسة العقاد ومدرسة
الريحاني ومدرسة جبران ومدرسة فلان وعلان .. الخ .

إن هو إلا ضرب من الانسحاب الذي يتجاوز بالقدر على المقدار ، إن
لم نقل من النقل غير الواضح ، والترجمة التي تدل على بلادة في الذهن لا يتجاوز

(١) للرافعي تحليل رائع في الموضوع - أنظره في - سر النبوغ في الأدب -

المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩٣٣ م - وحي القلم ج ٣ ص ٢٦٣ .

به الحرفية .. فهو من المبالغات التغلبيية التي لا لزوم لها بحال (١) .

وعلى سبيل المثال نجد الشاعر عبد الرحمن شكري وقد عُمدَ رأساً ناضجاً
للتجديد بعد خليل مطران والرافعي، يختلف مع زميليه العقاد والمازني الى الدرجة
التي تحدث جفوة يتحدث عنها بألم ومسارة كل من تصدى لهؤلاء الثلاثة بتاريخ
أو دراسة ونحوها (٢) .

والفروق بين هؤلاء الثلاثة في فنونهم الأدبية والشعرية هي عندي أكبر
بكثير من الفروق الفنية بين الرافعي والعقاد مثلاً ، أو بين شكري وشوقي ، ..
حتى قبل أن يفترق شكري عن العقاد والمازني ، تلك الفُرقة التي ما يزال الزعم

(١) أخذ بهذه التسميات أنور الجندي في «وسوعاته» عن الأدب العربي
الحديث ، ولم يجد الدسوقي ضيراً من تسمية بعض المجموعات والفئات الأدبية
بالمدارس ، ج ٢ ص ٣١٤ ، .. وربما غدت اليوم من المسلمات الأولى والبدائية
لكثرة ما تنشره الصحافة حول الموضوع من أحاديث و«قالات» هي غير الدراسة
المنهجية التي تستهدف .

(٢) راجع ابراهيم المازني - الديوان - صنم الالاعيب ، وعمر الدسوقي
في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٤٤ ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتي - الشعر
المعاصر على ضوء النقد الحديث ص ١٥٧ ، وعلي أدهم - المجلة - شباط - فبراير
١٩٥٧ م ، ونقولا يوسف - تقديم ديوان شكري ص ٩ ، والعقاد - الهلال
شباط - فبراير ١٩٥٩ م ... وأخيراً كتاب نعمات فؤاد - في أدب المازني -
وبالرغم من تلة المرض التي التمسها العقاد، وندم المازني الذي أعلنه عام ١٩٣٤م
وتخفيف الوطأة التي حاولها يوسف .

التاريخي يحاول جعلها أو تخطيطها بالجمال 1..

إلا أنهم إذا ما اعتبرنا المشابهة المذهبية بين الثلاثة في - نتحهم - من أثر الأدب الانجليزي المحدث بخاصة 1 .

وقد سبقت إشارتنا الى ما كان للرافعي من يد في جمع العقاد وشكري والمازني في مجلة البيان التي كانت يصدرها نسيبه البرقوقي ، ويحمله مسؤولية الإشراف المباشر عليها .

فقد أهد العقاد لترجمة وشجعه عليها ، ولا سيما بعد الذي نقله فيها من مذهب نوردو في القومية ، وآراء برنارد شو في المرأة والاجتماع .

ومضى مع عبد الرحمن شكري في اختراق آفاق الشعر الجديدة ، وسلك سبيله معه الى جوانب الحياة المختلفة ، ومراميهما البعيدة .

وعاد هو والمازني في محاولات تقويمية وأدبية تنصدي لآثار الأدباء والشعراء بالتعريف والنقد .

ولعل في المقارنة والسخرية التي عرف بها المازني في نقده لحافظ ابراهيم في مجلة عكاظ عام ١٩١٤م ولطه حسين في «حصاد المشيم» شيء من تأثير الرافعي ومذهبه في النقد ، ولا سيما حين تصدى لصديقه حافظ ابراهيم بعد نشره «العمرية» ، ووقف في وجه طه حسين ومحاضراته في الشعر الجاهلي . ما سيأتي بيانه مفصلاً في دراستنا التالية .

وليس من نوارد الخواطر أن يقدم عبد الرحمن شكري بين يدي دواوينه وقصائده بتلك المقدمات التي تحدث فيها عن الشعر وفنونه ، وشروط الإبداع والابداع فيه ، وصور التجديد في أخيلته ومعانيه ، أو محاولات التفسير

النفسي للأداء الفني في شعره .. فقد كان الراجعي قد سبقه الى مثل ذلك في مقدمات دواوينه وقصائده في الصحف وأحاديثه في الشعر والشعراء .

فإذا كانت مقدمات الراجعي قد جمعت آراء الأقدمين وشيئا من مترجمات العصر ، وعرضت لما عن لها من فكر وخواطر ، لما تنضج في بعضها أول القرن .. فإن ما تقدم بعد ذلك من دراسات أدبية وما مثل من أفكار وما جدت في النقل عن الأسم الأخرى ، ثم معرفة شكري نفسه وإلمامه باللغة الانجليزية .. قد مهد له في التوفيق الى المقدمات ، وتقديمه المادة الفنية لمحاولات زميله من ثم في « الديوان » .

ولعل من أبرع التفاتات الشاعر حافظ ابراهيم وهو يحتفل بديوان الراجعي أن يقول عام ١٩٠٦ م مخاطباً صديقه الراجعي :

أراك - وأنت نبت اليوم - تمشي بشعرك فوق هام الأولينا
وأوتيت النبوة في المعاني وما دانيت حد الأربعينا !
وبالروح العالية هذه نفسها يستقبل ديوان عبد الرحمن شكري بعد ذلك بسنوات
ثلاث عام ١٩٠٩ م فيقول :

أفي العشرين تعجز كل طوق وترقصنا بأحكام القوافي
شهدت بأن شعرك لا يجارى وزكيت الشهادة باعترافي ..
ومن ينظر في تقریظ هؤلاء الثلاثة لمؤلفات الراجعي في تلك الفترة يدرك ذلك تمام الإدراك .. ويألم أشد الألم من بعد للتمرد الذي مارسه العقاد - عفا الله عنه - فألجأه الى ما تنكب فيه عن الطريق السوي مع الرفقة والصدافة .

حتى ليحسب بعض الأدباء بأن مقالات شكري في مجلة عكاظ ، والتي تصدى فيها لشعر العقاد لم تكن تخلو من إغفار رافعي .. وإت حاول التلصص منها (١) فقد ظن شكري أن المازني يحتمي بالعقاد في نقده له في الديوان ، .. فراح يسترضي شوقي والمجلة التي وقفت لشعره في نقد شعر العقاد رأساً .. (٢) ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن المرحوم أحمد زكي أباشادي كان أسبق هؤلاء الثلاثة في التجديد في الصورة الشعرية ، وقد تميزت له قصائد ومقطعات فيها من التأمل الواعي والاستبطان الذاتي ما يفوق به شاعرية هؤلاء الثلاثة من ثم (٣) ومع ذلك فإنه لم يكن يتنكر للرافعي طيلة حياته ، وإنما كان يفخر بأخذه عنه وإعجابه به (٤) .

.. ومع ذلك كله فإنني أعود فأتساءل هل في مقدورنا أن نسمي مدرسة الديوان ؟! أو نقول بمدرسة شوقي ، أو نزعم أن للرافعي وسواه مدارس ؟! . لقد كان التأثير بينهم تشجيعاً أو بحاملة ولم يخل من منغصات ، بالرغم من إثارة الوجدان وشحن الأذهان ، وتنبيه الحواس ، وتفريق العبقریات ..

(١) أنظر عكاظ ٥٨ ، ٦١ ، ٦٥ والرافعي - الرسائل ص ٧٢ ، .. وكان ذلك في آخر حديث مع العريان رحمه الله .

(٢) تحسن مراجعة العقاد - شعراء مصر - وبيئاتهم في الجيل الماضي ، وم . ع الأول - مجلة السفور - آذار - مارس ١٩١٨ م ونعمات فؤاد - المازني ص ١٤٢ وما بعدها .

(٣) راجع كمال نشأة - أحمد زكي أبو شادي - رائد الشعر الحديث .

(٤) أنظر أنور الجندي - الحب والمجد في حياة الشعراء .

بعاطفة الصداقة والزمالة أو المحبة والإعجاب والمعاصرة ، .. وحنى العتاب
والمدابرة .. ولم يكن ذلك فيما بين هؤلاء وأولئك وسواهم من الفئات الأدبية
والشعراء بمذهبية فكرية لها فلسفة كلية أو انتظام مثالي « أيدلوجيا » أو حزبية
اجتماعية .

ولا بدّ أن نعيد الى الأذهان هنا أيضاً ما كان للضمير العربي من حركة
قومية لها الأثر في انطلاقة الشعر ، التي أخذت بالاتساق والاتقان مع
المحافظة على الأصول البيانية ، في إشراق العبارة الشعرية ، والجملة الأدبية ، ..
وبماتهما في العصر من ضمانات الوجدان ، وطاقت الفكر ونزعات التحرر ،
وأحاسيس الاجتماع ، وبحالي القوة والابداع في ذلك كله ، .. تتوثقها مشاعر
الآمال والآلام ، وصور الأحلام والأيام ، .. ويرفدها عطاء التاريخ على مفترق
الطرق ، .. وتقوم بها همة الانبعاث ، وفطرة الإيمان وقوة الاستعداد .

وعسى أن نوفق في عرض ذلك عند عقدنا للفصل الذي نتحدث فيه عن
الضمير القومي في أدب الرافعي .

* * *

هذا من ناحية القوام العام للشعر العربي الحديث ، أما مضمونات القصائد
والمقطعات والأغاريذ فقد دخلتها معان جديدة ، منها المترجم الذي أخذ عن
آداب الأمم الأخرى ، ومنها المبتكر الذي برفده التفنيق الذهني لبعض الشعراء ، ..
واتساع الأخيصة مع الحياة الوليدة .

ومن ذلك نرى ضروباً من المذاهب الأدبية والفكرية التي نشأت في
آداب الأمم الأوروبية ، قد انتقلت بشكل أو بآخر الى الشعر العربي ، واندرست

بين مضموناته ١.. في الواقعية والابتداعية والرمزية ، وما افترع عن هذه
وسواها من مذاهب واتجاهات في كتابة الشعر ، وتنويع البيان ، ..
فلا غرابة أن نرى من ثم محاولات تتناول الشعراء العرب فتوزعهم
في مجموعات بحسب هائيك المذاهب ، أو أن نقف أمام أديب يحسب أن أساليب
الشعر والكتابة لم تعد عربية ، وأن كثيراً منها افتقد الحصيصة القومية ، واعتسف
له طريقة مما في إحدى اللغات الأخرى .. الى آخر ذلك مما كان ينشر في مجلة
« الرسالة » بخاصة ١..

* * *

أما الصورة التي بات ينظم الشعراء بها قصائدهم في هذه الانطلاقة ، فقد
كانت في أشكالها العامة لا تكاد تخرج على المؤلف عند العرب من هذه الألوان ،
مع القصد في عمود الشعر .

وقد بقيت الصورة التقليدية ذات مكانة في الشعر ، وإن لم تخرج على
أوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي وبحوره الستة عشر وقوافيه المعروفة ،
وهذه البحور وإن كانت في ضروبها ومجزوءاتها قد تزيد على الخمسين
وزناً ، إلا أننا لا نجد شاعراً قد ألم بها جميعاً ، أو حاول غير الاوزان الموسيقية
التي تألف النفس ، .. كما ندر أن نجد قوافي في بعض الحروف كالذال والضاد
والطاء الخ مما كان يعتسف الشعراء القدامى ..

وعلى أن الرافي كان « مكشراً » في مطلع حياته الشعرية ، إلا أننا نجد
من أوسع شعراء عصره في النظم على مختلف البحور ، حتى زعم يوماً أنه
أخترع البحر الذي سماه بالمنفجر ، .. ومع ذلك فقد كانت قوافيه مأنوسة ليس فيها

ذلك القلق أو الشذوذ والاستغراب الذي نجمه عند غيره .

وما تزال القصيدة العربية هذه بقوانينها الخليلية تنال خلوداً أدبياً . رغم جميع محاولات مزاحمتها أو الانتقاص منها بالنقد والتشطير الذي يمس سيادتها ..
أما الموشحة ، التي ابتدعت في الاندلس وازدهرت من ثم في المشرق والمغرب . . . واحتفى بها ابن سناء الملك في « دار الطراز » وتغنّت بها « العناري المائسات » . . حتى استطابت في العراق عند صفي الدين الحلي ، الذي عني بأسمائها بعد أن أصبحت أسلوباً معروفاً يمارسه شعراء العربية في كل مكان ، وجاراه من ثم كل من السيد محمد سعيد الجبوبي ، والسيد حيدر والفاروقي وسواهم في النسيج على منواله .

وكان لشعراء المهجر بخاصة عناية بها ، وقد زادوا ما تتسم به من الادوار المتناسقة ؛ والاغصان المتساوقة ؛ والاسماط المترتبة ؛ . . واخذوا بها نحو بحور وأوزان أخرى غير التي نقلت بها من الاندلس . . وقد استطاع المحدثون النظم على أشكالها ؛ كما تأثروا بأفانين النظم في اللغات الأخرى فانشأوا موشحات وأغاريد وانشيد فيها إبتكار وعليها مسحة من الجمال والروعة (١)

وفي « أغاريد الرافعي » الديوان الذي جمعناه له نماذج من هذه الموشحة في الاغنية والنشيد ممتازة الصورة ؛ عالية المحتوى ؛ رائعة البيان ..
ويلحق بالموشحة ما نظم بأشكال أخرى غير القصيدة ذات القافية الواحدة ومن ذلك ثلاثيات خليل مطران ؛ ورباعيات محمد السباعي وغيره ؛ وخماسيات محمد بهاء الاميري ؛ .. وسداسيات وسباعيات لسوى هؤلاء ..

(١) راجع مجل مهدي البصير — الموشح .

وقد أخذ الشعراء والشبان والمتأثرون بالآداب الافرنجية ينظمون قصائدهم على هيئة مقطعات تستقل كل قطعة منها عن الأخريات بقافية ..
وكان لذبوع الغناء ، وانتشار الأناشيد القومية أثرها في إحياء هذه الصورة الشعرية وازدهارها ، وقد عادت الأغاني هي الأخرى تعتمد عليها في رقيتها والقيام عليها ، .. أداءً وموسيقى .

وكان السيد محمد سعيد الجبوري قد بعث الحياة في هذه الموشحات ، وقد تابعه الرافعي في ذلك ، ووضع خليل مطران نشيداً على شكلها ، .. كما حاول آخرون .

ومن يبصر في أناشيد الرافعي « اسلمي يا مصر » و « الشباب الحمدي » و « حماة الحمى » وينظر في مجموعة أناشيد « العروة الوثقى » لبشارة الخوري ، و ابراهيم طوقان وفخري البارودي .. يجد نماذج حلوة ، وصوراً جميلة لمثل هذه الموشحات .

* * *

أما الصورة الجديدة المحدثه للشعر في الاكتفاء بالسطر من غير عجز ، .. أو الإخلال بالوزن بزيادة تفعيلة على هذه الشطرة ، أو نقصها من أطرافها ، .. وإحاطتها بالنثر في شكل ما 1 .. أو تسميتها بالقصيدة النثرية ، والشعر المنشور ، أو النثر الشعري ، .. فقد بدا على ما يظهر في ممة تقليد المترجمات النثرية للقصائد الشعرية في اللغات الأخرى ، .. وصادف هوى دينياً وثنياً أو صليدياً عند بعض الفئات ، .. فألبأتهم الاستساعة لهذا اللون الجديد الى القول بتجديد كتابة الشعر ، والزعم بتسميته .

وإن كانت تسمية الشعر النثر « تدلُّ على جهل واضعها ومن يرضاها لنفسه ، فليس يضيق النثر العربي بالمعاني الشعرية ، ولا هو قد خلا منها في تاريخ الأدب » .

ولكن سرَّ التسمية هذه أن الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة ، يظهر فيها الاختلال لأوهى علة ، ولأيسر سبب ، ولا يوفق إلى سبك المعاني فيها إلا من أمده الله بأصح طبع ، وأسلم ذوق ، وأفصح بيان ... « غير أن النثر يحتمل كل أسلوب » (١) لأنه لم يتبها له فراهيدي آخر يضبطه في بحور ، أو يحدده بأوزان غير الذوق البياني للكاتب .

ومع ذلك فقد ظهرت قصائد النثر في العصر الحديث بنماذج ثلاثة ، تنسب الأولى منها إلى أمين الريحاني ، وإنشاده للشورة العربية ، وعمرثاته للملك فيصل الأول (٢) : وهي كلمات منشورة فيها شبه لما روي من سجع السكهان ، ويكتنفها شيء من الغموض في الصورة والضباب ، الذي تنبهم به بعض المعاني فتبعث على التأمل ، .. وموسيقاها غير المنتظمة ..

وتنسب الثانية إلى جبران خليل جبران في مناجاته للأرواح « البدائع في الطرائف » ويا بني أحي في « العواصف » وقد جاراها منير الحسايني في « عرش الجمال والحب » وصاحب « نسجات وزوابع » وسواهما ..

(١) الرافعي - الشعر في خمسين سنة - المقتطف - كانون الثاني - يناير عام ١٩٢٦ م ، وحي القلم - ج ٣ ص ٣٨٥ .

(٢) الريحانيات وانظر عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٣٢٦ ، والمقدمي - الإنجازات الأدبية ج ٢ ص ١٩٧ .

وقد يكون للشعر الانجليزي بخاصة ، والذي لم يكن يلتزم بعروض وفواف كالتي في العربية ، أثره في هذا المضطرب (١) .

أما الرافعي فقد مضى من ناحيته يثبت رأيه في اتساع النثر العربي للمعاني الشعرية ، وقد جاء بنماذج من ذلك في السحاب الأحمر وأوراق الورد ، والتنهدات والربيع الأزرق ولحوم البحر وغيرها .. صوّر فيها ألواناً من المعاني الشعرية في آيات من الجملة النثرية .

وقد أسرعت القصيدة النثرية الريحانية في الاندثار ، ولم يكتب لها الحياة بعد صاحبها ، ولكن الجبرانية ، والرافعية ما تزالان تقشبان بالحياة والبقاء .

* * *

ومما تجدر الإشارة إليه أن حب التجديد والتطور بالشعر العربي عند بعض الشعراء قد بلغ محاولة استخراج أوزان من اللغات الأخرى كالفارسية والتركية ، والأوربية بعامة ، . . وكان أحمد شوقي سابقاً بذلك حين نظم قصيدته :

حفاً كأسها الحبِّ فهي فضة ذهبٌ

وبالرغم من نجاح هذه المحاولة ، فإنها لم تعد استحداث مجزوء للبحر المتدارك ، لم يكن معروفاً من قبل .

وكذلك حاول خليل مطران (٢) والرافعي في « طبل الحرب » أو البحر المنفجر ، الذي نظم فيه بعض الأناشيد ، . . كما حاول بشر فارس في قصيدته :

جنبوا الناس عن أذني أذني زلزات طربا

(١) ، (٢) راجع الزهور - ج ٢ السنة الأولى .

مثل قلب تحدّثه سره الرّد فاضطربا.. (١)
 علي أن الدكتور اسماعيل أدهم لم يكن يرى إمكانية زيادة بحر جديد،
 أو استحداث تركيب آخر للبحور المعروفة، .. وإنما مرّد تلك المحاولات الى
 تبديل التفاعيل واجتزائها، .. وليس ذلك باختراع ولا زيادة (٢).
 وعلى أن هذه المحاولات، لم تأت بشمر (٣) فإن الأستاذ حكمة فرج البديري
 قد أرجعها الى ضروب من الأبحر العربية نفسها وضبط أوزانها بتوثيق (٤)
 وكأنما كان يثبت رأي المرحوم أدهم.

* * *

على أن من أهم ميزات الانطلاقة الشعرية ما كلّف لها من الاتجاه الفني
 في القصة وضروب المحاكاة الأخرى .

وكان الرافعي قد عقد فصلا للمقتطف درس فيه الشعر العربي خلال
 خمسين سنة من ظهوره ، فرأى الجديد الأهم في هذا النوع القصصي الذي توضع
 فيه القصائد الطوال ، وصياغة بعض الشعر على أصول من التفكير في الانجليزية
 والفرنسية .. لما فيه من الغرابة والحسن ، .. كما لاحظ عليه الانصراف عن
 إفساده بصناعة المديح والثناء ، لتأثير الحرية الشخصية ، .. وكذلك الاكثار من
 الوصف والابداع فيه ، وإهمال الصناعات البديعية ، والنظم في الشؤون القومية
 والاجتماعية .

(١) الرسالة ٨ - ٨٩ ، والثقافة ٣ - ١٥٣ .

(٢) أنظر الرسالة ٨ - ٣٤١ كانون الثاني - يناير ١٩٤٠ م .

(٣) أنيس المقدسي - الاتجاهات - ص ١٩٧ .

(٤) راجع كتاب العروض - لحكمة فرج البديري ط - البصري ١٩٦٥ م .

وربما فات الرافعي أن يذكر التمثيلية وغيرها من هذه الفنون الوليدة ،
ولعله احتسبها على الفن القصصي ، . . والمقال موجز جداً ليأخذ صفحات من
مجلة ، وكأنه استغنى عن الأمثلة والنماذج (١) .

وقد حلق في القصة الشعرية غير واحد من الشعراء ، .. كما اتسمت
بعض قصصهم بسمو الخيال وقوة الأسر ، وحياة اللغة فيها وتدفقها بالمعاني ،
وانثيال ألفاظها عند الحوار ، ..

وأبرز هذه الأعمال كانت لخليل مطران في « فتاة الجبل الأسود »
و « الطفولتان » و « شهيد المروءة » و « عروة وعفراء » لبشارة الخوري (٢)
و « سليم وسلمى » لخليل شيبوب (٣) و « العذراء » لخير الدين الزركلي (٤)
و « خولة بنت الأزور » لشبلي الملاط (٥) و « زينب وخالد » لخير الدين الهنداوي (٦)
و « أسماء » للزهاوي (٧) و « الفقر والسقام » للرصافي (٨) و « عليا وعصام »

(١) أنظر الرافعي - وحي القلم - ج ٣ ص ٣٨٥ .

(٢) ديوان الخليل وديوان الهوى والشباب .

(٣) ديوانه « الفجر الأول » ص ١١٧ .

(٤) البرق ٣٣٧٠ . (٥) ديوانه ص ٢٨٣ .

(٦) الأدب العربي ١ - ١٧٤ .

(٧) ديوانه ج ٣ ص ٦٨ .

(٨) ديوانه ص ١١٣ .

لقيصر المعلوف (١) و « غلواء » لاياس أبي شبكة وغيرها كثير ..
 أما شاعرنا الرافعي فقد كانت له في القصة الشعرية محاولات موفقة ، وإن
 لم يلتزم فيها بما يقتضيه الفن القصصي أحياناً من عناصر السرد القصصي ، .. فهو
 يقتصد أبداً على حيوية نظمه التي يثير فيها الفكر والخيال والعاطفة معاً .
 ومن أبرز هذه القصص الرافية « دموع الصبا » و « على الكوكب
 الهاوي » بخلاف مطارحاته الغزلية التي انبتتها في ديوانه ، وقصته « شبان الجيل »
 في ديوان النظرات .

وسنفصل فيها القول في كتابنا التالي بإذن الله وتوفيقه .
 ولم تقف هذه المحاولات القصصية عند حدود الحوادث التاريخية ،
 والأخبار الاجتماعية وإنما تجاوزتها الى الخيال في تحقيقات إبداعية ، .. كان منها
 « ثورة الجحيم » لجميل صدقي الزهاوي ، و « على بساط الريح » لفوزي المعلوف ،
 و (عبقر) لأخيه شفيق المعلوف ، و (شاطئ الأعراف) للممشري وغيرها .

* * *

ومن بين الفنون التي عاناها الشعر العربي الحديث في انطلاقته ، تلك
 النزعات التي تصدى فيها الشعراء للتاريخ والبطولات ، يستهوي أفئدتهم بها خيال
 ينجح في تلك الأجواء ، حتى كادت بعض القصائد أن تكون ملاحم شعرية
 إفتقدها الشعر العربي منذ آماد ..

ومن ذلك قصيدة أحمد شوقي في النيل :

(١) تذكّار المهاجر ص ١١١ .

من أي عهدٍ في القرن تندفق وبأي كفٍّ في المدائن تغدقُ
 أمن السماء نزلت أم تُفجِّرُ من عُليا الجنان جداولاً تترققُ
 وقد عارض بها قصيدة علم الدين المحيوي التي يصف فيها جزيرة الروضة :
 الروض مقبل الشبية موقُ خضل يكاد غضارة يتدقق
 أما الرافعي فقد أرسل قصيدته « النيل والطبيعة المصرية » على السجية
 نفسها فقال :

النيل أم سرُّ الزمان الجاري يلقي عليه الماء لون نهـار
 وقد كانت ذات أثر خاص ، جعلت من الأستاذ عبد الحميد سالم المحرر
 بالأهرام يحتفل بها ويترجمها لتشر في الصحف الفرنسية عام ١٩٢٨ م (١) .

*

وقد تميّزت هذه النزعة تاريخياً عند حافظ إبراهيم بـ « متن العمرية » التي
 تحدث فيها عن مناقب الامام عمر بن الخطاب (رض) ، وظهرت عند عبد المطلب
 في قصيدته « العلوية » التي مدح بها الامام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -
 وقامت لدى عبد الحليم المصري في « البكرية » التي أرسلها في شمائل خليفة
 رسول الله (ص) ورفيقه أبي بكر الصديق (رض) .

وهم الرافعي أن يجاري الشعر في هذا المضمار ، ويعارض بعض هذه
 القصائد غير مرة (٢) ولا سيما بعد ذبوع قصائد أحمد شوقي النبوية في « نهج
 البردة » و « الهمزية » و « سلوا قلبي » ..

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٣٩ .

(٢) « » ص ٥٣ .

ولسكن أحمد محرم بز* هؤلاء الشعراء جميعاً في صياغته لمطولته الكبرى ،
التي تحدث فيها عن مجد العرب ، وعرفت فيما بعد بـ « الألياذة الاسلامية » (١) .
وقد ارتفع بهذا الفن شاعرياً الاستاذ عمر أبو ريشة وحلّق في مطولته
عن الرسول الكريم ، والأخرى التي أنشأها في خالد بن الوليد (٢) .
ولم تقتصر هذه الطولات على التاريخ القديم ، بل حضرت العصر الحديث
فقد نظم الاستاذ ابراهيم العريض في « أرض الشهداء » مصوراً لفلسطين المأساة
والمحنة ، .. وبأحى البدرى « بمعجزة العروبة » في ثورة العرب الجزائرية ..

* * *

ومن الفنون المستحدثة في الأدب العربي الحديث هذه القصص التمثيلية ،
التي تكتب فيها الجملة الأدبية نثراً أو شعراً على لسان أحد أفراد القصة ، وتدور
مع الآخرين في حوار يحاكي الحياة الأصيل للقصة نفسها ، .. وقد دُعيت
بالمسرحية لالتصاق تمثيلها بالمسرح ، .. كما سميت التمثيلية من أن الأصيل للقصة
في القصص هو ضرب الأمثال للناس .

ولكن أستاذنا الدكتور مصطفى جواد يرى أن تسمى « المحاكاة » لأنها
تحاكي وتشابه الواقع الذي تجري فيه القصص أو تتخيل ! .. مع العلم أن الفن عند
الاغريق بضروبه القولية والتصويرية كان يعتبر محاكاة (٣) .

وقد كان انتقال هذه التمثيليات نقيجة مباشرة لاتصال الغرب بالشرق

(١) أخرجتها « دار العروبة » عام ١٩٦٢ م .

(٢) أبو ريشة في ديوان « مختارات » .

(٣) راجع محمد غنيمي هلال في النقد المقارن - فصل المحاكاة ! ..

وما جاء به من فرقها وأجواقها الموسيقية بعد الغزو الفرنسي لمصر .. وكون هذه
الفنون من مألوف الآداب الافرنجية .

وكان العرب قد فاتهم لسبب أو آخر أن يترجموا عن اليونانية مثل هذه
الفنون أيام عزم الحضاري الذي مارسوا فيه الترجمة عن اللغات القديمة ، .. فما
تركوا فيها من العلوم العقلية أو الطبيعية شيئاً ، وما غادروا للفلسفة مجالا من غير
أخذ واستيعاب .. ولسكنهم قصروا في الفنون الأدبية والشعرية لما يذهب اليه
بعض المفسرين من غلبة الصورة الوثنية والقول بتعدد الآلهة في هذه الفنون
مما لا يأتلف مع الاعتقاد العربي الموحد .. ويضيف آخرون الخشية من هذه الوثنية
أن تعيد الناس الى جاهليتهم الأولى ..

وعندي أن ما امتاز به الفكر العربي آنذاك من النظر في العلوم العقلية ،
والإفتراعات الذهنية التي كادت تزين على التصور في المذهبيات الفلسفية ،
والاتجاهات الاجتهادية في الفقه .. وسوى ذلك .. هو الذي قاعس بهم عن
تذوق هاتيك الفنون بعد أن أصبحوا في شغل شاغل عنها ، وأضحت الآداب
نفسها عندهم لونا من الترف والأناقة ، .. مما لا مجال للتوسع فيه خوفاً في هذا
السبيل .

على أن محاولة الشيخ ناصيف اليازجي في قصته « الرواة والوفاء » التي
نشرها عام ١٨٧٦ م وقد أشبعها بالصور الشعرية والنسج اللطيف .. حتى مثلت
على مسارح بيروت بعد ذلك بأثني عشر عاماً ، تعد أسبق الأعمال الفنية في هذا
المجال .

وكان قد استمد القصة من حادثة تاريخية مشهورة قيل أنها وقعت للنعمان ملك الماذرة في الحيرة يوم (بؤسه) مع أعرابي كان النعمان يحب أن يأتيه الأعرابي يوم نعيمه .. والقصة معروفة بعد .

ولعل من الموافقات الطريفة في حياة الزعيم النابغة مصطفى كامل - رح - أنه تصدى - وهو بعد طالب - في الحقوق لوضع رواية (فتح الاندلس) عام ١٨٩٢ م وقد جمع فيها بين الشعر والنثر المسجوع والآنشيد ..

ثم كان أبو خليل القباني - رائد النهضة المسرحية العربية ، الذي وضع عدة مسرحيات ، منها عنترة ، والأمير محمود ، وناكر الجمل ، والرشيد ، وأنيس الجليس .. وسواها .. وقام بتمثيل معظمها مع فرقة على مسارح الشام ومصر .. كما حاول سليم النقاش في (ظلوم) وعلى أنور في (شهامة العرب) المطبوعة عام ١٩٠٢ م وإبراهيم الطرابلسي في «ابن زيدون وولادة» وأحمد شوقي في «علي بك الكبير» التي عجز عن الاستفادة منها يوماً ، حتى عاد فأخرجها عام ١٩٣٢ م بأقوى منها أسلوباً ، وقد أفاد من تجارب سابقه (١) .

وقد حاول الرافعي في «موعظة الشباب» أن يضع رواية يصوغها بأسلوب شعري ولسكنها لم تر النور (٢) .

(١) راجع عمر الدسوقي - في كتابه - المسرحية ، ومحمد يوسف نجم - المسرحية ، ومحمد المنذور - المسرح ، والمقدسي - الإنتاجات ص ١٧٥ .

(٢) ورد في رسالة سلامة حجازي للرافعي أنه كان في انتظارها ، كما ظهر الاعلان عنها في الجزء الثالث من ديوال الرافعي وعلى الغلاف .. ولا يعرف مكانها الآن ! ولعلها بين مخلفات «سلامة حجازي» ..

كما حاول الشيخ محمد عبد المطلب الاشتراك في تأليف روايات لم يوفق الى سبكها ، ومنها المهمل وامرؤ القيس التي نشرت عام ١٩١١ م .
وبعد ذلك جرت محاولات لكتابة التمثيلية في الترجمة عن اللغات الاخرى ، والوضع بالعربية ثراً وشعراً ، من بينها ترجمة فرح أنطون لرواية « ابن الشعب » و ابراهيم رمزي لمسرحية (قلب المرأة) .

وقد كان للأديب الفنان محمد تيمور المنطلي في هذا السبيل ، حين وضع روايته (العصفور في القفص) عام ١٩١٨ م و (العشرة الطيبة) عام ١٩٢٠ م فقد أجاد في البناء الفني المسرحية ، ودق في الأداء ورق في المحاورة .
ثم ازدحمت أيام العرب - والمصريين بخاصة - بالممثلين والمخرجين والسينمائيين .
وكانت الانطلاقة الأدبية الثانية على يد الأستاذ توفيق الحكيم الذي ظهر في أعقاب الثورة المصرية في (المرأة الجديدة) وعودة الروح و (أهل الكهف) وغيرها .. حتى ظهرت له مسرحية (محمد) عام ١٩٢٦ م (١) فلحقه الكثيرون .

ولقد تأثر أحمد شوقي بأعلام الادب الأوربي الذين ينزعون الى التاريخ ، فمال الى إحياء التاريخ المصري فرعونياً كان أم عربياً ، وكان في شعره بعد ذلك اتجاه قومي رائع في الموضوع (٢) .

ولما كان الجمهور ميالاً الى الغناء أكثر من المحاورة ، وإيمانه بالخلافة الاسلامية يملأ عليه آفاقه .. فقد اهتم بها فرصة ليضع فيها روايته (الست هدى)

(١) راجع اسماعيل أدهم في كتابه « توفيق الحكيم الفنان الخائر » .

(٢) عمر الدسوقي - المسرحية ص ٥٣ .

ملهاة شعرية تنقل من الاجتماع قضية خطيرة يتهاافت فيها الرجال زحاما على النساء الثريات .. ١

وأحمد شوقي هو أول من وضع مسرحية جيدة السبك ، رائعة البيان ، .. وكان له في شكبير قدوة في هذا الموضوع ، .. وما عيب عليه سوى إطالة الحوار لشاعريته المتفتحة على المعاني ، .. فهو أقوى من ملك ناصية البيان العربي في الشعر الحديث (١) وكان من السهل عليه أن يدير هواه حول نواة الغزل ، ويتخذ من (مجنون ليلى) و (عنترة) مجال التعبير عن حبه وأيامه .. ١ (٢)

وقد تابعه في اتجاهه الشعري التاريخي هذا كثير من شعراء العربية ، منهم محمد حسن علاء الدين في (امرئ القيس) وعمر أبو ريشة في (سمير اميس) وعزيز اباظة في (الناصر) وأحمد زكي ابو شادي في (الممالك) .

وانتقل بالاتجاه هذا الى العصر الحديث بدر الدين حامد في (ميسلون) وعبد الحميد الرازي في (ثورة العراق) وعلي أحمد باكثير في (همام) .. وبرهان الدين العبوشي في (شبح الاندلس) التي عرض فيها لمأساة العروبة في فلسطين .. ١

* *

ولا بد لنا قبل أن نختتم هذا الفصل من أن نشير الى ظاهرة الرمنية التي نشأت معاكسة الابتداعية الأصولية ، متهمة إياها بالجلود ، .. كما كانت رد فعل لميوعة الابتداعية ، وابتذال العاطفية .. والتي وافق - على ما يقدر عاشقوها -

(١) عمر الدسوقي - المسرحية ص ٦٢ - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٣٠٤ .

(٢) « « « من ٢٦ - ٨١ ثم انظر في نقد - له لرأية

مجنون ليلى ص ٤٢٥ .

في « جهاز من الألفاظ المشرقة ، تمازج الأحرف فيه يبعث في النفس الموسيقى ، ويوحى اليها عن طريق الايمان - معاني وراء المعاني ،.. فما الشعر إلا أنشودة تخرج بالانسان عن الوعي .. » . والرمزية هذه « نزعة تحرر من الواقع الى آفاق تبحث عن الغامض من العواطف ، والتائه من الخلدات في منعطفات الروح » الخ (١) . ويشترط لها دعائها نسبة من الموصوفات والنعوت ، والاكتفاء بالمعاني القصية ، واللمحات الخفية ، لتحدث نشوة في النفس (٢) .

وقد نجد نماذج للرافعي في شعره ونثره فيها بعض هذه الشروط ، ولها غير النشوة والهزة التي تحدثها في النفس - معاني من الايمان والطمأنينة والساحة ، لم يطاوله أحد في الاقتراب منها ،..

ويجفل بذلك في « حديث القمر » و « رسائل الأحران » وصفحات من « السحاب الأحمر » ولا سيما في مثل قوله :

يا من على البعد ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوماً وننساك
إن الظلام الذي يجلوك يا قمر له صباح متى تدركه أخفاك ..

.. وقد عيب عليه « الغموض » في هذه المؤلفات الشعرية الإنيشاء .. وأن ألفاظه وتراكيبه تحتاج الى التأمل وكدّ الذهن لإدراك ما وراءها من المعاني واللمحات والاشارات !

على أن « الرمزية » وما اتبعها من « الشعر الحديث » قد أضحت اليوم

(١) نقولا الفياض - الأديب ١ - ج ٨ و كتابه « على المنبر » .

(٢) الأديب ١ - ج ٧ .

كالمقضية المعلقة وما تزال الآراء تدور من حولها ، والدراسات تعمق من أجلها ، والبحوث تتولى جوانبها ، والمناقشات تستخدم فيما يقبل الحوار ومبادلة الفكر .. يقف معها فريق من الأدباء والشعراء ، ويتصدى لهم فرقاء آخرون .. وقد كتب في ذلك الكثير (١) .

* * *

ولا يغيب عن البال .. أن هذه النزعات ، وصور التجديد والعطاء قد أثرت في الشعر العربي بعامة ، وجعلت من انطلاقته الحديثة حياة أدبية وليدة ، حتى ليكاد أن يكون ابتداءياً محتفظاً بالأصالة عند جيل شوقي ، وابتداءياً متأثراً بالحرية الى حد ، .. وفي تفاوت بين الشعراء .. بعد هذا الجيل .

(١) منهم زكي طليمات في المقتطف عام ١٩٤٣م ، والمكشوف ع ١٤٥ ، عباس العقاد ، الكتاب ج ١ م ٣ . وبشر فارس ، والعلايلي ، وإبراهيم العريض وإحسان عباس .. وغيرهم .
وقد تصدى للموضوع صديقنا النابغة محمد فتوح أحمد فأعد فيه رسالة موفقة

الباب الثاني

الأسماء

مصطفى صادق الرافعي

الفصل الأول

١ الرافعي والرافعيون

هو أبو السامي مصطفى صادق بن الشيخ عبد الرزاق الرافعي الفاروقي العمري الطرابلسي (١) شاعر الحسن المجنون (أ) وأديب الشرق المفتون (ب) وناطقة البيان (ج)، وزهرة شعراء العربية (د)، وإمام الأدب وحجة العرب (هـ) (٢) ولد ببهيم (٣) في أول رجب الأصم سنة ١٢٩٨ هـ - الموافق لمنتصف (١) هكذا كانت كنيته - واسم ولده الأكبر - محمود سامي الرافعي ، وقد توفرت لدينا نعوته من تذييله بعض أوراقه الخاصة ، ومن بين رسائله التي كان يبعث بها الى أصدقائه وأصحابه من أهل الصحف والمجلات ، وانظر الجامعة ج ٨ - ١٩٠٢ م - ربيع الأول ١٣٢٠ هـ ، . وما أضافه اليه بلغاء العصر من نعوت . (٢) (أ) سمي بشاعر الحب والجمال - الحسن - لشدة ولعه بالغزل - أنظر ديوانه ج ١ هامش ص ٦٨ ، ج ٢ ص ١٢ . وأحمد محمد عيش - سيرة الرافعي المقتطف ٩١ - ٥٢٩ ، وما قاله عن صفة الجنون يفتاتن الطبيعة وجمال الحسان ، (ب) وفرح أنطون - الجامعة ٧ أيلول - سبتمبر ١٩٠٣ م ، وديوان الرافعي ج ٢ ص ١٣ ، . واحتفاء عبد الحميد الزهراوي ورشيد رضا به . (ج) وكذلك مجلة البيان للبرقوقي ، وجريدة الأخبار لأمين الرافعي . (د) وما نعت به أحمد شوقي ، أمير الشعراء . (هـ) وشكيب أرسلان أمير البيان في رسائلها !.. (٣) بهيم - أحدث قرى محافظة القايونية ، قريبة من مصر - القاهرة ، كانت مهجلة ، وما لبثت يد وزارة الزراعة أن امتدت إليها في بدء إنشائها ، =

كانون الثاني - يناير ١٨٨١ م (١) حيث كانت أمه السيدة أسماء قد آثرت أن تكون ولادتها الثانية في دار أبيها الشيخ أحمد الطوخي - التاجر الحلبي الذي كانت قوافله تسير بالتجارة بين مصر والشام (٢) .

وقد سماه أبوه صادقاً الرافعي ،.. حتى اشتهر بالصدق والأمانة ، فاصطفاه من بين أخوته ، ودعي من ثم « مصطفى صادق الرافعي » (٣) .

= فجعلت منها قرية نموذجية ، ومهداً للتجارب الفنية - الزراعية المختلفة ، حتى غدت اليوم - وقد مدت إليها أبنية مصر الجديدة عن طريق التزهة - من أعرس مدن القطر المصري ، تحفل بالعديد من أصناف الفاكهة وأنواع الخضراوات . ومن عجيب حكمة الله وتوفيقه أن يكون الدكتور محمود سامي الرافعي مديراً عاماً لإدارة شركة (قها) العظيمة ، التي تتولى منتجات حقول القرية الزراعية بالتنمية والتصنيع .

(١) محمد صبري - شعراء العصر ص ٢١٣ ، وسعد ميخائيل - آداب العصر ص ٢٩٣ ، وأحمد عيش - المقتطف السابق وصديق شيبوب - البصير - ٢١ أيار - مايو ١٩٣٧ م ، ومحمد سعيد العريان - حياة لرافعي ص ٢٧ .. الخ . وقد كانت هنالك ورقة بخط الرافعي حسب فيم - ما يقابل يوم ولادته في التاريخ الرومي (الميلادي) رجح بها العريان أنه من مواليد كانون الثاني ١٨٨٠ م - على أن الصواب ما أثبتناه .

(٢) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٢٧ .

(٣) .. وقد ذكر الأستاذ محمد أحمد عيش ، أن الشيخ عبد الرزاق الرافعي سماه « مصطفى » أولاً ، واحتفل به من أول يوم ، ثم أنه لما نشأ اشتهر بالصدق منذ طفولته ، نعته أبوه بالصادق فاستحلى الاسم الجديد حتى صار يعرف به ، ولا سيما حين عرف بالأمانة بين أقرانه من طلبة المدرسة الابتدائية في المنصورة - راجع المقتطف ٩١ - ٥٢٩ .

على ان الرافي نفسه ، كان يكتب في بعض أوراقه اسم صادق منفرداً ،
او يرمز له بحرف (ص) مختصراً - من بين توقيعاته العديدة (١) .

ونظراً لما يحدثه ازدواج الاسم أحياناً من اشتباه ومضاعفة .. فسأمر
على الموضوع بإيجاز حتى أثبت الاسم الصحيح ١ .

في مطلع حياته الأدبية وعقب صدور الجزء الأول من ديوانه ، تلقى
الرافي رسائل عديدة وتقريظات تتضمن اسمه وتنعت صفته ، وتطريه في
توريات جميلة ، منها ما قاله المرحوم محمود ساجي البارودي :

هو « صادق » فيما علمنا كاسمه وكفى بذلك في الوفاء دليلاً
فليبقَ محسود البيان ممتعاً بالفضل حتى يبلغ المأمولا (٢)
وقد برع البارودي في هذه التورية كما رأيت .. وكذلك ذهب الشيخ
حسين مهدي المذهب نفسه في قوله :

.. فلو شعراؤنا سمعوه قبل اليوم ما فاهوا

وهذا « صادق » والصدق أصل في مسماه (٣)

وبذلك حاول ، وفقاً تثبت الأصلة في تسميته بالصادق .

ونجد الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي يتوصل اليه بمثل قوله :

.. والشعر كل الشعر في حكمة يوحى بها للأنفس الخاطر

(١) الرافي - جنود سعد - في هامش رسائل الرافي ص ٧٧ .

(٢) أنظر ديوان الرافي ج ١ ص ١٤٦ .

(٣) « « « « ص ١٥٢ .

والشعر إن لم يك من « صادق » فيه فلا شعر ولا شاعر (١)
 .. وقد ضمّن الحكمة القائلة .. إن « أحسن الشعر أصدق » .
 أما ابن عمه ورفيق صباه المرحوم عمر تقي الدين الرافعي فقد قرظ ديوانه
 الثالث بقوله :

.. ألقى من الحكمة ألواحها فجلّت الحكمة والصانع
 وحسبها « الصادق » فيما أتى مؤيداً إذ كلهم خاضع (٢)
 وحتى الدكتور طه حسين بذكره بالاسم « صادق الرافعي » (٣) .
 وقد وجدت في رسالة للآنسة مي وجهتها إليه في ١٠ آذار - مارس ١٩٢٣ م
 تقول فيها :

« .. وإني لشاكرة لك ما أتحنفتني به من الآيات الصادقة الرافعية » ،
 وفي رسالتها الأخرى المؤرخة في ٢٣ تموز - يوليو ١٩٢٣ م تحببه بقولها :
 « أما قبل .. »

فعلى الرافعي الصادق سلام ، وله بالعيد السعيد تهنئة .. الخ .
 وقد ورد في القسم الثاني من المقالات الظريقة التي عقدها لنابعة القرن
 العشرين - المجنون في مجلة الرسالة عام ١٩٣٥ م قوله على لسان النابعة :
 لا أبتغي في المدح غير أولى النهى أو صادق أو شوقي أو مطران

(١) انظر ديوان الرافعي ج ١ ص ١٥٠ .

(٢) « « « ج ص ١٥٠ .

(٣) طه حسين - حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٥ .

وفسر « صادقاً » في الهامش بأنه استاذ نابغة القرن العشرين (١) .

ومن ناحية أخرى نجد ازدواج اسمه (مصطفى صادق) الذي عرف به واشتهر في دنيا الأدب والتاريخ وفنونهما ، .. شائعاً عنه في سائر ما نشر له من كتب ورسائل ، او فيما نسب إليه وادعاء لنفسه ، .. وهو المعروف والمشهور .

وقد ورد هكذا مزدوجاً في تقرير طه البارودي لديوانه الثاني بقوله :

« لمصطفى صادق » في الشعر منزلة أمسى يعاديه فيها من يضافيه
صاغ القريض بانقار فان تُليت صدوره .. علمت منها قوافيه (٢)
ومن ناحية ثالثة نرى اختصار اسم « مصطفى » معروفاً عنه ايضاً ، .. فقد خاطبه به الشيخ عبد المحسن السكاظمي مطرياً بقوله :

شعرك يا « مصطفى » لصفافية بحوره كل وردها عذب
إن تنتخب من سواك قافية فذي قوافيك كلها نخب (٣)
وكذلك الأديب قيصر ابراهيم العلوف صاحب ديوان « تذكار المهاجر »
ينذهب المذهب نفسه بقوله :

ذهب الوري أن^١ الأوائل لم تدع لبني الزمان من المعاني مبتكر
حتى نشرت عليهم يا « مصطفى » آياتك الغرا .. فكذبت الخبر (٤)

(١) انظر الرافعي - وحي القلم ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) انظر ديوان الرافعي ج ٢ ص ١٥٠ .

(٣) « « « ج « .

(٤) انظر ديوان الرافعي ج ٣ ص ١٤٩ .

ونجد هذا الاختصار عنده أيضاً في بعض رسائله الخاصة (١) .

ويذهب في الاختصار على اسمه (مصطفى) سائر أصدقائه وأغلب خصومه من الأدباء والمسيحيين منهم بخاصة (٢) اذكر منهم الدكتور طه حسين في نقده لآثار الرافعي اعتباراً من تاريخ آداب العرب ، وحديث القمر ٠٠ الى رسالة العتب ورسائل الاحزان ٠٠ الخ (٣) .

والاستاذ عباس محمود العقاد (٤) وسلامة موشي (٥) وعمر فاخوري (٦) وانيس المقدسي (٧) وجميل جبر (٨) وعصبة « الاسبوع العربي » (٩) .

وعلى هذا الاسم أقامت له « مي » مصغرها المرخم « مصيف » الذي خرجت به على قواعد اللغة ، ولسكنه ارتضاه (١٠) ، لأنه يوافق منه صفة كانت تعتبره ضعفاً أيام الصيف .

(١) أنظر رسائل الرافعي ص ٢٣ ، ٥٠ ، ٩١ وما بعدها .

(٢) أنظر جميل جبر - مي في حياتها المضطربة ص ٤٢ .

(٣) راجع طه حسين - حديث الأربعاء - ج ٣ .

(٤) أنظر العقاد - الديوان ج ٢ ، ساعات بين الكتب ص ٢٦ .

(٥) أنظر الهلال - كانون الثاني - يناير ١٩٢٣ م وما عاد يكتبه في أخبار

اليوم تام ١٩٥٣ م .

(٦) راجع منيرفا - ايلول / سبتمبر ١٩٢٦ م ونقد للسحاب الأحمر .

(٧) راجع له الأساليب النثرية والاتجاهات الأدبية .

(٨) أنظر جميل جبر - مي في حياتها المضطربة ص ٤٢ .

(٩) الصادرة في آب ١٩٦٣ م بمقالات عن مي ومآجأها .

(١٠) أنظر سعيد العريان - حياة الرافعي ص ١٠٠ الهامش .

ويظهر أن الصدق سجية رافعية ، لأنها من بعض خلاصهم التي تذهب بهم في الحياة مذاهب الرجولة والضمير والعنصر الكريم ، وقد تنبه لها أحمد شوقي أمير الشعراء في قصيدته « سيف الحق » التي رثى بها أمين الحركة الوطنية في مصر زين الشباب أمين عبد اللطيف الرافعي ، وكانت يد المنون قد تحطفت في زهو شبابه ، وأوج مساعيه النضالية المؤمنة ، وفتتح روحه القومية الصادقة ، .. فقال :

.. أخذ الموت من يد الحق سيفاً خالدي الغرار عضباً صقيلاً
قيل حاله .. قلت : عرق من التبر أراح اليبان والتحليلاً
.. وأرى - الصدق - ديدناً لسليل الرافعيين ، والعقاب سيلاً .. (١)

فاذا كان أمين قد مضى هكذا في السياسة متخذاً الصدق ديدناً ، والعقاب سيلاً ، فان صادقاً هو الآخر كان ماضياً في هذه الصفة وحده ، الى الغاية ، يستهدف فيها صون حياة الامة بكل كرامة هي جذيرة بها ، وحماية عقيدتها ، والحفاظ على تراثها الحضاري ، باقامة روحها الأدبي ، والاشراق ببيانها النفسي .

ولا يقف شوقي - رح - من الرافعيين هذا الموقف فحسب ، وإنما يتعداه الى اتخاذ الرفعة التي ينتسبون إليها تورية ، .. مثلاً أعلى لا يطاوله في البلاغة والقصد بيان ليراع ١٠٠ ولا بلوغ النجم في الارتفاع ..

وقد عبر عن ذلك في مطلع قصيدته التي حيا بها شاعر العروبة وبلبل سورية المرحوم عبد الحميد الرافعي في مهرجانه عام ١٩٢٨ م حيث قال :

(١) راجع ذكرى أمين الرافعي - لصادق عنبر .

أعزني النجم أو هب لي يراعاً يزيد الرافعين ارتفاعاً (١)
ويطري نعت الرافي - وهو لما يزل يافعاً .. حتى ليشير حافظ الى ذلك
بعبطة في قوله :

وحسبك أن مطريك ابن هاني وأنتك قد غدوت له قرينا (٢)
و « ابن هاني » من الكنايات الجميلة التي استحلها لنفسه شوقي رحمه الله ، ..
يجمع فيها إعجابه بالحسن ابن هاني - أبي نواس - وابن هانيء الاندلسي ذي
الحظوة عند الملوك ، .. حتى لقد دعا منزله في الجزيرة بـ « كرامة هاني » .

° * °

ومن الجدير بالذكر والملاحظة ، أن ازدواج الاسماء بالعبودية والتحميد ،
سنة إسلامية ظهرت من بعد اهتمام الأمة بأحياء المولد النبوي الشريف (٣)
وشيوخ الحديث المنسوب الى النبي محمد (ص) والذي يقول فيه « خير الاسماء
ما عُبد وُحُمِّد .. » الحديث .

وقد فسرت العبودية بسبق كلمة « عبد » لأحدى أسماء الله الحسنى ،
التي جمعت في « دلائل الخيرات » (٤) كما فسر التحميد بإحراق أحد أسماء النبي
عليه السلام أو صفاته بالاسم العلم للشخص المراد تحميده .

(١) شوقي - الزهراء - شوال ١٣٤٧ هـ .

(٢) حافظ - الديوان ج ص

(٣) كمال الدين الطائي - تاريخ المولد - الثقافة الإسلامية ٢٤ - ١٩٥٦ م .

(٤) للإمام أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزري وهو من كتب المأثورات

المتداول بها بين الناس .

ومن هنا نلاحظ أن معظم أسماء أبناء الاسرة الرافعية محمّدة ، أو مدينة (١) أو معبّدة ، .. وبذلك يكون اسم إمامنا «مصطفى صادق الرافعي» مزدوجاً هكذا .. أما النعوت والألقاب الباقية الأخرى كالفاروقي والعمرى والطرابلسي .. والنجم .. الخ فإنما هي من الصفات التي كان يتخذها لنفسه في فترات شاعريته ، ونزعات أدبه ونقده .. حتى إذا ما تم له الفوز بأمانة الأدب وأصبح حجة فيه كاد يقتصر على لقب «الرافعي» حسب .

وقد أردنا في تحليل اسمه بهذه الوسيلة ، أن نمسك للدارسين من التثبت في نسبة بعض الآثار الرافعية التي ليست له ، وذلك مما تقع فيه بعض الفهارس ومصالح «البليو غرافيا» من الخطأ والخلط بينه وبين غيره من الرافعيين ، كمصطفى الرافعي صاحب كتاب «طرابلس الفيحاء» والدكتور مصطفى صاحب «حضارة العرب» و «الاسلام إنطلاق لا جمود» وغيرها (٢) . وكذلك أردنا أن نصحح الخطأ الذي يقع فيه بعض السكتاب من نسبة بعض آثاره لغيره من الرافعيين (٣) .

-
- (١) من النسبة الى الدين ، وسيرد في سلسلة نسبه الكريم .
- (٢) الأخير - يعمل مستشاراً للبنان في القاهرة ، وقد نشر عنه وأذيع من خبره مصوراً أنه أحد المنضمين الى محفل «البنايين الأحرار» أو الماسونيين الأشرار على تعبير أدق .. ظناً بالإنطلاق ..
- (٣) ومثال ذلك ما نسبته محمد زغلول في كتابه - القومية العربية في العصر الحديث - قصيدة «بلادي» الواردة في ديوانه الأول الى عبد الحميد الرافعي . ولعل الأخطر من ذلك أن ينسب له أيضاً في بعض المكتبات معجم المصباح المنير للفيومي !! ..

وإمامنا الرافعي بعد هو الولد الثاني للشيخ عبد الرزاق الرافعي - رحمه الله -
الذي كان كبير القضاة الشرعيين في مختلف محافظات القطر المصري ، . .
ومن أفراد الدنيا المودودين في الفقه الاسلامي على مذهب أبي حنيفة (١) .
والشيخ عبد الرزاق هو ابن العارف بالله الشيخ سعيد بن الشيخ أحمد
ابن الامام القطب الكبير عبد القادر الرافعي رأس الأسرة الرافعية ، وأول من
تلقب بهذا اللقب واشتهر بها . . . وأضحى اليه ينسب الرافعيون من يومئذ .
كما سيأتي .

والشيخ عبد القادر الرافعي هو ابن العارف بالله الشيخ عبد اللطيف
البيساري (٢) بن الشيخ عمر البيساري صاحب زاوية العوينات بطرابلس الشام
ابن الشيخ أبي بكر الحوي (٣) الولي المدفون بجماه بن الحاج لطفي بن الشيخ علي
العقبلي الحوي القطب الصوفي المتصل نسبه بالشيخ عقيل العمري المنبجي (٤)
صاحب الطريقة العمرية في التصوف بن الشيخ شهاب الدين أحمد البطاحي -

(١) أنظر الرافعي - أبي - المقتطف - أيلول / سبتمبر ١٩١٩ م ، وكان
المطاف قد اختتم له حياته الحافلة في مدينة السيد البدوي (طنطا) ، فتوفي فيها
ودفن هناك .

(٢) نسبة الى بيسارة من مدن صعيد مصر - محافظة أسيوط .

(٣) نسبة الى حماة - من مدن الديار الشامية .

(٤) منبج - قرية على الفرات في الجزيرة ما بين العراق والشام ، والشيخ
العقبلي هو صاحب الطريقة العمرية ، وما تزال بعض الأسر والعشائر تنسب اليه
في تلك الديار - راجع أبي الهدى الصيادي - مراحل الساكنين ص ٧ . .

الهكاري (١) بن الشيخ عمر بن عبد الله البطائحي بن زين الدين عمر بن الشيخ
المعمر زين الدين عمر المكي (٢) ابن أحد العبادلة الصحابي الجليل عبد الله بن أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه وأرضاه - العدوي القرشي (٣) .

(١) البطائح جمع بطيحة - برقة ، مسيل واسع ، وجمع مياه سائية ،
 والمعروف منها - ١ بطائح مكة : وأول السواد في العراق كانت تسمى بالبطائح
 تشبيهاً لها بهاتيك ، وهي ما بين الصراة وواسط .. وقد أدرکها الجفاف على مر
العصور حتى أصبحت ببداء ، يسمى بعضها بجزيرة الرفاعي ، .. وإلى هـ - هذه
البطائح ينسب الإمام القطب الكبير السيد أحمد الرفاعي ، صاحب الطريقة
المعروفة باسمه ، وما يزال مقامه هناك كعبة القصاد من أصحاب الطرق الصوفية
الى اليوم ، ولعل الشيخ شهاب الدين أحمد البطائحي قد سلك عايمه أولاً ، .. حتى
استقل خلفه الشيخ العقيلي بطريقة العمرية ، والذي كان يقول ، إن الرفاعي حجة
الله على الأولياء .

والهكاري - نسبة الى هكر - موضع جميل أو دير قرب حوران .
أو ربما من النسبة الى هكارية إحدى المناطق العراقية شرقي العمادية ، وهي
تجاوز (وان) في تركة الآن .

(٢) من النسبة الى مكة المكرمة .

(٣) راجع في ذلك محمد رشيد الرفاعي - ترجمة الإمام عبد القادر الرفاعي -
الثاني ، وكذلك قابل النسب على ما ورد في كتاب « يوبيل بلبل سورية » الذي
صدر تعريفاً وتكريماً لشاعر العروبة المرحوم عبد الحميد الرفاعي ، عند بلوغه
السبعين من عمره .

في أوائل القرن الثامن الهجري هاجر من المدينة المنورة أحد فروع
السلالة العمرية الفاروقية ، ذهب بعضهم إلى العراق واستوطنوا الجزيرة في الموصل ، ..
وقد شيد رأس هذا الفرع الحاج قاسم العمري - الجامع العمري الكبير
هناك ، .. وكان بداية تاريخ هذه الأسرة العمرية المعروفة إلى اليوم .

وقد نبغ فيها عدد من العلماء والفقهاء والمتصوفة ، منهم الشاعر الكبير
عبد الباقي الفاروقي العمري الموصل (١) .

وربما سبق هذا الفرع رأس آخر ساح في ديار الشام ما بين هكرب
حوران ومنبج وحماه في سورية ، والبطائح في العراق ، .. ورحل إلى « بيسارة »
من أعمال أسيوط في وادي النيل ..

ثم عاد فعرج على الديار الشامية ثانية ما بين حماه والعيونات بطرابلس
الشام ، حيث أنشأ الشيخ عمر الينساري زاويته المعروفة هناك ، .. وهو جد
الإمام عبد القادر الرفاعي الكبير (٢) .

(١) راجع ترجمة سامي باشا الفاروقي - بطل حوران - الهلال ج ٣ كانون
الأول / ديسمبر ١٩١١ م .

(٢) .. لم أقف على تاريخ مفصل للأسرة يقف إلى جوار - أشجار
النسب ، ولعل الأستاذ سمير الرفاعي تجل الشيخ عبد الحميد الرفاعي أو سواه من
العمرين في العراق يتولى هذا الموضوع بأكثر عناية ودراية .

الرافعيون في التاريخ

إزاء ما قدمنا من أخبار لا بد لنا أن نلّم بتعريف لأشهر الرافعيين في التاريخ العربي بين يدي هذه الدراسة التي نهتم بها أن نحكي ذكرى إمام الأدب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - .

ذلك أن اسم « الرافعي » لم يكن وليدًا في التاريخ الفكري والفقهني للعرب (١) وإنما جاء هذا الانتساب علماً ونعتاً لرجال عديدين من الفقهاء وأهل اللغة والأدب عبر تاريخ الفكر العربي ، والحضارة الإسلامية طيلة قرون من ازدهارها ، . . . وحتى انقضاء الأيام من بين يديها .

وقد زخرت كتب الطبقات ، وتراجم الأعلام ، ومحتويات (فهراس) المؤلفين بأسماء أولئك الرافعيين ، تنعت صفاتهم ، وتعدد الكثير من مصنفاتهم . وإننا لنوجز القول في بعضهم الأشهر تعريفاً ، . . . كي نفرق الإلتباس والخلط والوهم الذي قد يعتري معرفة الناس لهم نسبة ، أو يدور من حولهم لقباً :

* * *

(١) راجع محمد سعيد العربيان - حياة الرافعي ص ٢٦ وما بعدها . .

أولاً - الرافعيون قديماً :

كانت النسبة الى « الرافعي » قديمة كما قدمنا ، وقد اشتهر من هؤلاء

الرافعيين :

أ - اسماعيل بن الحكم الرافعي - هو من ولد رافع مولى رسول الله (ص)
كان قاضياً بمدينة همدان في خلافة الواثق وله كتاب (١) وكان حياً عام ٢٣٢ هـ
ولم يعرف له تاريخ ولادة أو وفاة (٢) .

(ب) - إمام الدين أبو القاسم عبد الكريم بن محمد بن الفضل بن الحسين بن
الحسن الرافعي - الشافعي - القزويني (٣) .

ينتسب نسبته الى الصحابي الجليل رافع بن خديج راوية الحديث عن رسول
الله (ص) كما قال مظفر الدين القزويني الذي أرّخ له .

وهو صاحب الشرح الكبير المسمى « فتح العزيز على كتاب الوجيز »

(١) « أعيان الشيعة ١١ - ٣٨٨ .

(٢) سر كيس - معجم المطبوعات - ٦ - ٢٩٢ .

(٣) المرجع السابق ، وانظر المصنف الحسيني - طبقات الشافعية
ص ٨٢ ، والسبكي - ج ٥ ص ١٢٠ ، وحاجي خليفة - كشف الظنون . وكذلك
محمد فريد وجدي - دائرة معارف القرن الرابع عشر ص ٢٦٥ ، وخير الدين
الزركلي - الأعلام - ج ٤ ، وعمر رضا كحالة - معجم المؤلفين - وفهرس المكتبة
الظاهرية هدمشق .

للإمام الغزالي ، في سنة عشر مجلداً ، لم يصنف مثله في مذهب الإمام الشافعي .
وقد شرح « المحرر » وسماه الوضوح ، وكلاهما في فروع فقه السادة
الشافعية ، كما أنه شرح مسند الإمام الشافعي في الحديث الشريف .

كان إماماً في الفقه والتفسير والحديث ، طاهر اللسان في التصنيف ، كثير
الأدب ، شديد التثبت والاحتراز من النقل ومرااتب الترجيح ..
نعمته الأسفرائي بأوحد عصره في العلوم أصولاً وفروعاً .

وقال عنه الامام محيي الدين النووي ، - إنه إمام الدين ، وعده من
الصالحين المتمكنين .. كما عدّه له كرامات ظاهرة .. وقد سلك الطريقة الرفاعية
على الشيخ عز الدين الصياد ، وترجم للإمام السيد أحمد الرفاعي في مختصره .

وقال ابن الصلاح : ما أظن أن في بلاد العجم مثله !

توفي في قزوين عام ٦٢٤ هـ وعمره ٦٦ سنة يرّحه الله .

وقد نقل له شعر جيد ، منه قوله :

أقياً على باب الرحيم أقياً ولا تنياً من ذكره فتمياً

هو الربُّ من يقرع على الصدق بابهُ يجده رؤوفاً بالعباد رحماً ..

قلت : هو الذي عناه الرفاعي بتشبيهه الامام عبد القادر الرفاعي به ، .. فنقله

المرحوم سعيد العريان باسم محمود الرفاعي (١) سهواً .

ج - الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي ثم الحوي (الرافعي) .

(١) راجع سعيد العريان - حياة الرفاعي ص ٢٧ .

الولود عام ٦٢٣ هـ والمتوفى سنة ٧٢٠ هـ (١) .

اغوي كبير اشتهر بكتابه « المصباح المنير » في غريب الشرح الكبير ،
الذي جمع فيه مفردات شرح الوجيز للامام عبد الكريم الرافي ، وأضاف اليه
زيادات من لغة غيره :

دوّن الألفاظ المشتبهات ، وقسم كل حرف منه باعتبار اللفظ الى مكسور
الأول ومفتوحه ومضمومه ، والى أفعال بحسب أوزانها ، ٠٠ ثم اختصره على
النحو المعروف ليسهل تناوله ، وقيد ما يحتاج تقييده بألفاظ مشهورة ولم يلتزم
ذكر ما وقع في الشرح ، ٠٠ وقد جمع أصوله من نحو سبعين مصنفًا ومختصرًا ،
فصار ترتيبه كتركيب المغرب للحنفية ، ٠٠ وقد لحقه نعت « الرافي » بسبب
المصباح ١ .

وله أيضاً كتاب « نثر الجمل في تراجم الأعيان » وما يزال من بين
المخطوطات النادرة .

ولد في الفيوم ، ورحل الى حماه في الديار الشامية ففطنها ، ولما بنى الملك
المؤيد اسماعيل جامع « الدهشة » قرره في خطابه ٠٠

د - محمد بن علي بن محمد بن أحمد الرافي النطواني المتوفى عام ١٠٤٠ هـ ، وقد
وضع كتاب « المحارج المربعة في الرحلة المشرقية » (٢) .

(١) حاجي خليفة - كشف الظنون ١٧١٠ - خير الدين الزركلي ١ - ٢١٦ ،

٤ - ١٣٢ .

سر كيس - معجم المبطوعات ٦ - ٢٩٢ ، ١١ - ٤٧٠ .

(٢) سر كيس - معجم المبطوعات ١١ - ٤٧٠ .

هـ - أبو عبد الله الرافعي -؛ الأندلسي المتوفى عام ١١٠٨ هـ .
وله ديوان شعر مطبوع (١) .

*

وهؤلاء الأعلام - وإن لم يكونوا عمريين نسباً ، ولاتمت الأسرة
الرافعية الى أحد منهم بسبب قريب أو بعيد ، . . . فقد أردنا تبين ذلك لمعرفة
من انتسب هذا الانتساب في التاريخ قديماً ، . . . لنخلص من ثم الى الرافعيين
المحدثين .

(١) المرجع السابق .

ثانياً - الرافعيون في التاريخ الحديث :

أ - الامام عبد القادر الرافعي - هو رأس الأسرة الرافعية الحديثة ، وإليه تنقصب بفضائلها ، ..

وكان من أمره أن أستاذه الشيخ محمود الكردي الخلوتي ، شيخ الطريقة المنسوبة إليه الآن ، .. حين رأى فيه من مخايل التجابة ، ومظاهر الفطنة وكرم الشامل ما رأى أثناء زيارته له في مصر قال له :

« أنت من رافعي لواء العلم » فلقب من ثم بالرافعي تشبيهاً له بالامام عبد الكريم الرافعي المتقدم ذكره (١) .

وقد ذكر المرحوم محمد سعيد العريان - استناداً الى رواية الرافعي نفسه : أن الشيخ الخلوتي لقب جده الشيخ عبد القادر بهذا اللقب إلحاقاً له بالإمام عبد الكريم الرافعي صاحب الرأي المشهور عند الشافعية (٢) بعد أن عرف له من الفضل وسعة العلم والاجتهاد وبعد النظر ما أفرطه في الإعجاب به .

والشيخ عبد القادر الرافعي بعد أديب صوفي ناظم نائر ، كان قد توفي في

(١) محب الدين الخطيب - الزهراء - الربيعان ١٣٤٦ هـ ص ٤١ .

(٢) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٧ ، وأحسب أن العريان - رح -

لم يثبت من الإسم فأورده على أنه محمود الرافعي عم الشيخ عبد الغني الرافعي والد الشاعر عبد الحميد الرافعي . وكانت شهرته بالتقي والورع والإحتساب على الطريقة لرفاعية ، .. والصواب ما ذكرت .

طرابلس الشام عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) (١) ، ومن آثاره التي أوردتها الشيخ
عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه :

- ١ - إحياء القلوب - في شرح حكم شيخه القطب محمود الكردي .
- ٢ - الزهر النضير في مدح طه البشير النذير .
- ٣ - مقامة في المناظرة بين حمص وحماه .
- ٤ - شفاء الغليل في مدح طه الجليل - تشطير البردة (٢) .
- ٥ - نيل المراد في تشطير الحمزية وبانت سعاد .. الخ هذه المصنفات وكلها
في التصوف وفي آداب السلوك (٣) وكان مصطفى أغا يقول فيه : لا أراه إلا أسداً (٤) .
وما زالت هذه الأسرة من لدن ذلك الامام الجليل الى اليوم تقدم
للأمة خيرة الأعلام من أبنائها البررة ممن « أوتوا حظاً من العلم ، ورزقوا النهى ،
منهم العلماء بالشريعة ، والقضاة والأدباء والشعراء .. ومنهم الفلاسفة وحماة
الدين ، .. »

وكان لهم لدى الخلفاء والسلاطين من بني عثمان الخطوة والشأن الرفيع ،

- (١) راجع محمد رشيد الرافعي - ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي - الثاني
وكذلك ترجمة علماء طرابلس ص ٤١ .
- (٢) طبع سنة ١٣١٢ هـ .
- (٣) راجع عبد الرحمن الجبرتي - عجائب الآثار في تراجم الاخبار -
ترجمة الخلوقي ، وكذلك محمد زكي مجاهد - الأعلام الشرقية في المئة الرابعة عشرة
الهجرية ج ٤ - ١٢٠ ص ١٤٢ .
- (٣) راجع ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي - الثاني :

وقد أسندوا لهم أرقى المناصب وأسمهاها ، وخصوصاً في القضاء والادارة ، عرفاناً
بفضلهم (١) وقد ولي كثير منهم القضاء في القدس الشريف ، وفي الشام وفي الحرمين
الشريفيين بأم القرى والمدينة المنورة (٢) . وكذلك في صنعاء وبلاد اليمن (٣) ومصر .

* * *

وأول وافد منهم الى مصر هو :

ب - الشيخ محمد الطاهر الرافعي ، حفيد الامام عبد القادر الرافعي الكبير .

قدمها في سنة ١٢٤٣ هـ (١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الأحناف ، .

وكان كالرائد الطريق من جديد لهذه الأسرة ، . حتى توافد أخوته
وأبناء عمومته من ثم ، يتولون القضاء ، ويعلمون الناس مذهب أبي حنيفة (٤) .

وقد تنبه اللورد كرومر - معتمد الاحتلال البريطاني في مصر - الى ذلك ،
فأضاف الى تقريره السنوي لعام ١٩٠٥ م ذكر هذه الأسرة الفاضلة ، وعدّد
القضاة الرافعيين في القطر المصري - وقد تجاوزوا يومها الأربعين قاضياً ، . حتى

(١) مصطفى أبو طالب - من رسالة له بعث بها الى الأستاذ مصطفى

محمّد الرافعي مصنف كتاب « طرابلس الفيحاء » .

(٢) راجع قصيدة الرافعي في عمه الشيخ عبد الحميد الرافعي قاضي المدينة

المنورة - ديوانه ج ١ ص ٤٤ .

(٣) أبو طالب - تراجم علماء طرابلس ص ٤١ ، وكذلك مقدمة

« يوبيل بلبل سورية » .

(٤) أحمد محمد عيش - سيرة الرافعي - المقنطف ٩١ - ٥٢٩ ، وسعيد

العريان - حياة الرافعي ص ٢٤ .

كاد الإفتاء أن يكون لهم ، ولا سيما بعد إسناد منصب الإفتاء في تلك السنة الى الشيخ عبد القادر الرافعي ، . . فلم يكن « كرومر » مخاوفه ، ولا اختصر ملاحظته حين قال :

« يكاد القضاء في مصر يكون وفقاً على الرافعيين ، . . وأوشكت وظائف القضاء والفتوى (تأمل) أن تكون مقصورة على آل الرافعي » (١) أولئك الذين يقفون وراء « الخلافة » عنوان الوحدة القومية للأمة - بإيمان وجهاد . . وكانت هذه إشارة انجليزية بارعة ، والتفاتة الى خطورة مكانة الأسرة .
ج - الشيخ عبد القادر الرافعي - الحفيد :

كان من رجال الفقه المعدودين ، وقد صنف فيه الأستاذ محمد رشيد الرافعي كتاباً ، . . وكانت وفاته في رمضان ١٣٢٣ هـ من الكرامات المشهودة ، . . فقد ذكر صاحب « المنار » أنه « لما توفي الشيخ محمد عبده ، دعا الخديو عباس الثاني إليه الشيخ عبد القادر الرافعي ليتولى منصب الافتاء ، . . وكان الشيخ - رح - زاهداً في الدنيا ورعاً ، لم يجد في نفسه هوى الى قبول الوظيفة ، تخرجاً من فتنة الحكم ، . . وغلبة الهوى في شأن يتصل بحقوق العباد ..

وعلى ذلك ذهب الى الخديو - وفي نفسه هم ، وهو يدعو الله أن لا يؤول اليه هذا الأمر - ضناً بمرءته ودينه . . وهو سرٌ جده الإمام عبد القادر الرافعي الكبير .

وتمت مراسيم التولية ، ثم نزل الشيخ علي عربته عائداً بها الى داره ،

(١) راجع مصطفى محمود الرافعي - طرابلس الفيحاء - ترجمة عبد القادر الرافعي - الثاني .

وهو يتمم بدعاء . ، فلما بلغ الدار نزل الحوذي ليفتح له باب العربية ويساعده على النزول فإذا هو قد فارق الحياة ! قبل أن يجلس مرة واحدة يقضي في شؤون الناس (١) .

.. وكانت وفاته على هذه الصورة التي تمت بها ، مثاراً لأضخم احتفاء وتأبين لرجل عظيم ، عُدَّت فيه مآثره ، ومُنُوّه بفضل أسرته ، .. حتى عُدَّت « المؤبد » أن مثل هذا الاحتفال سنة حميدة يسنها الشيخ الشربيني .. جديرة بالافتداء (٢) .

* * *

د - شاعر العروبة الشيخ عبد الحميد الرافعي :

هو من أشهر الرافعيين في هذا العصر ، تقي الدين عبد الحميد بن الشيخ عبد الغني الرافعي بن الشيخ أحمد الرافعي - الرقاعي ، ..

لقب بلبل سورية ، واقترن اسمه وشعره مع الثورة العربية الكبرى .
ولد في الخامس من شعبان ١٢٧٥ هـ (١٨٥٩ م) بطرابلس الشام موطن الأسرة (٢) وتعلم في الأزهر الشريف ، ومكث مدة بمدرسة الحقوق بالقسطنطينية .

(١) أنظر المنار - شوال ١٣٢٣ هـ - تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٠٥ م ، وكذلك سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٢٤ .

(٢) راجع محمد رشيد الرافعي - ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي - الحفيد .

(٣) لا يرى مصطفى أبو طالب أن موطن الأسرة طرابلس الشام ولبنان فقط ، ولا دمشق وسورية وحدهما ، إنما وطن الأسرة هو الشرق العربي بأجمعه - من رسالته المشار إليها ، وانظر الرافعي - الديوان ج ٢ ص ١٤ .

وقد تقلد عبد الحميد رفيع المناصب في العهد العثماني - الحميدي - وكان قائم مقام الناصرة في آخر عهده بالوظائف ..

ولما حدث الانقلاب الاتحادي المشؤوم ، واستولى جماعة الترقى (الماسون) على الحكم بعد مجزرة الاستانة في ١٣ نيسان ١٩٠٩ م ، ضيق من قبل الطورانية التي مارسوها « تركية الفتاة » .. وما لبثت به السلطات حتى نفتته الى مدينة الرسول المنورة في أوائل الحرب الأولى .. وهكذا انضم الى الثورة العربية التي اندلعت من الحجاز بقيادة الشريف حسين بن علي .

والشيخ عبد الحميد الرافعي هو ابن العلامة الفقيه المحدث الشيخ عبد الغني الرافعي مفتي طرابلس الشام ، المولود بها عام ١٢٣٠ هـ والمتوفى في عام ١٣٠٨ هـ بمكة المكرمة ..

كان قد درس على الامام الباجوري صاحب الحاشية ، وأجاب على الأسئلة النحوية التي وضعها الشيخ محمود نشابة ، كما هذب الجواهر المكية للأدريسي ، في التصوف .. حتى دعي بشيخ الشيوخ (١) .

وقد امتد العمر بشاعرنا عبد الحميد الرافعي ، وأحتفلت العروبة ببلوغه السبعين ، وعقدت له يوبيلاً فخماً أطرى نعته فيه أمير الشعراء أحمد شوقي فقال :
أعزني النجم أو هب لي يراعاً يزيد الرافعيين ارتفاعاً
تأمل شمسهم وهدي ضحاها تجدد في كل ناحية شعاعاً

(١) راجع عنه أحمد الجندي - أعلام الأدب والفن - ، وعمر رضا كحالة - فهرس المؤلفين ، والزركلي - الأعلام ، وفهرس المكتبة الظاهرية بدمشق « يوبيل بابل سورية » .

إذا أسد الشرى شبت ففقت رأيت شبابهم عفو جياعا
فلم تر مصر أصدق من « أمين » ولا أوفى - إذا ربعت - دفعا .. (١)
وقال فيه آخرون من أدباء مصر وسورية والعراق .
ولما توفاه الله عام ١٩٣٢م بكاه أدينا الرافعي ، وراثه بقصيدة بليغة (٢)
مطلعيها :

سلو الطير نواحاً على الشجرات ليبكي غنى شاعر الزفرات
وكانت له صلة صداقة متينة مع أبي الهدي الصيادي شيخ الاسلام، ويقال
أنه نحل الصيادي هذا الكثير من شعره (٣) وسلك معه على الطريقة الرفاعية .
وقد خلف عبد الحميد الرافعي من بين آثاره أربعة دواوين فخمة هي :
١ - الأفلاذ الزرجدية في مدح العترة الطاهرة الأحمدية .
٢ - المنهل الأصفي في خواطر المنفى .
٣ - الفرائد الرفاعية في مدائح الحضرة الرفاعية .
٤ - ديوانه - ولم يطبع بعد .. وهو يضم قصائده الوجدانية وشعره
القومي .

وعسى الله أن يفتح علينا بدراسة آثاره ، فقد كان شاعراً غزير المادة ،

-
- (١) أحمد شوقي - الزهراء - شوال ١٣٤٧ هـ .
(٢) أحمد عبيد - شعراء العصر الحاضر ٢٤٨ ، زكي محمد مجاهد - اعلام
القرن الرابع عشر ج ٤ .

(٣) سامي الكيالي - أبو الهدي الصيادي . من اعلام النهضة الحديثة -

الكتاب ١٠ - ٤ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٩ م .

عالج الأساليب القديمة والحديثة ، والتزم العروبة بأوسع معانيها القومية والحضارية ، . . ومن ذلك قوله مفتخراً :

شرف بذكر مفاخر العربان	سمعي وأنش خاطري وجناني
فحديث آباء الفتي ينشي به	عزماً كنفح الروح في الوجدان
أهل الشجاعة والبراعة والوفا	والصدق والإيثار والاحسان
ولرب آثار لهم تذكرها	يهب الضمائر قوة الإيمان .. (١)

ويقول في الشريف فيصل الأول بن الحسين - رفيق صباه ودراسته في الاستانة وقائد الثورة العربية التي اندلعت من الحجاز في ٩ شعبان ١٣٢١ هـ (١٠ حزيران ١٩١٦ م) :

عشقته يعربي الخيم معصوماً	أطل من غاب آساد الفلاريماً
كسته أم المعاني من جلاتها	مهابةً كان منها البدر محروماً
أميرنا فيصل الأشراف من فصلت	عنا عزائم الولايات والشوما
يفارُ للعرب أن يغتال حقهم	أو أن يضام فتي منهم كما ضيا

ومنها في ذم الاتحاديين المتقلبين في الدولة العثمانية :

عاديتم لغة القرآن عن سفه	وهي الأزاهر فتقن الأكيميا
لولا اختلاسكم منها الكثير لما	رأى لسانكم المعوج تقويماً .. (٢)

.. وهكذا في مثل هذه الأبيات القومية الثائرة ، والمعاني الشعرية الدافقة

والأخيلة الزاخرة ، يعضي الى غايته ..

(١) و (٢) راجع القصيدة في مختارات اليوبيل .

ولا بدّ لنا من وقفة تأمل معه في مثل هذه الأبيات التي ينشدها من فوق
منبر الفخر قائلاً :

بنو الرافعي أولام الله رفعة سناها على أوج المفاخر ساطع
تباهي بهم مصر العريزة فطرها ومجد طرابلس بهم لا ينزع
تساموا بأخلاق حسنة كأنها عرائس حلاها التقى والتواضع
وقاموا بآثار لهم عمرية (١) توارثها منهم مسنّ ويافع
.. فمنهم وحيد الدين قطب زمانه ومن ذكره بالفضل كالمسك ضائع
فنى الدين عبد القادر المرشد الذي تباهي بعلياه النجوم الطوالع
ومنيهم أبو الأنوار محمود ذو الشنا إمام لأسرار الحقيقة جامع (٢)
ومرشد بر الشام من عتقت على تفرد في العارفين الأصابع (٣)
الى أن يقول مضمناً :

« أولئك آبائي فخّتي بمثلهم إذا جمعنا يا « فلان » المجمع »

* * *

- () لا يعدل اعتداد الرافعيين بعمرتهم فخر ، وما تزال الصرامة العمرية ظاهرة عليهم ، وإن حاول الرافعي - متواضعاً ، أن يحسبها قد استحالته عنده يوماً الى « حماقة » أنظر العريان - حياة الرافعي ١٧ .
- (٢) هو أحد أبناء الإمام عبد القادر الرافعي ، اشتهر بالزهد والتصوف ، ولم تثبت لي شافعيته ، ولعله هو الذي وهم سعيد العريان في نسبة صفات الإمام عبد الكريم الرافعي اليه كما مر .
- (٣) يريد به أياه الشيخ عبد الغني الرافعي .

هـ - أمين عبد اللطيف الراجحي :

هو زين الشباب ، الرجل الحر الضمير ، والكبير النفس ، الذي كان عجباً في الأخلاق والفضائل ، .. والذي اختطفته يد المنون في زهو شبابه .

ولد في الزقازيق عام ١٨٨٦ م وتعلم بها وبالإسكندرية ، ثم تخرج بمدرسة الحقوق في القاهرة .

إنضم الى حركة الحزب الوطني التي قام بها الزعيم مصطفى كامل ، وأنشأ جريدة الشعب ثم الأخبار للجهاد في سبيل الله والمسألة الوطنية ، وكان من أثبت الساسة على أخلاقه ومبادئه القومية ..

وقد فضح في جريدة « الأخبار » الكثير من التواءات الساسة للمصريين تجاه المفاوضات مع الانجليز ، ولا سيما أولئك الذين تنازلوا عن مبدأ « الجلاء » الذي اتخذته (الأساس) في المسألة الوطنية ، مما تسبب له في اعتداء « جنود سعد » عليه عام ١٩٢١ م (١) .

وقد كتب الراجحي في ذلك كله بالعنوان طارت فيما بعد أحاديث بين الناس ، حيث انتصف فيها لابن عمه أمين من جنود سعد زغلول ، الذين شبههم بالمثل العربي في المصطلح « الجراد الذي لا يبق ولا يذر » .. بأسلوب فيه من التهمك والسخرية اللاذعة ما لا يطاق وسعد يومها في أوج عظمتها الوطنية (٢) . ونشيد الراجحي « اسلمي يا مصر » الذي وضعه على لسان سعد في الثورة المصرية ما يزال يملأ حناجر الجماهير بالنداء والعتاف ..

وقد توفي أمين الراجحي أواخر عام ١٩٢٧ م وهو في ريعان شبابه وانضج

(١) من حديث المرحوم عبد الرحمن الراجحي بالحرف .

(٢) راجع رسائل الراجحي ص ٧٧ .

رجولته إثر مرض عضال لم يمهله (١)، وقد بكاه الناس في سائر أقطار الأمة العربية وقيل فيه من الخطب والمقالات والتقائيد ما اجتمع بعضها في مصنف « ذكرى فقيد الوطن - أمين الرافعي » الذي أخرجه محمد صادق عنبر .
وبكاه أمير الشعراء أحمد شوقي بقصيدته البليغة ، التي عرض فيها برفاقه في الجهاد والساسة الذين تفرقوا عنه لثباته على المبدأ ، وتصلبه الاعتقادي أمام الانجليز ، وكونه كان كالعنوان للائتلاف الوطني كلما حزب الأمة أمر من تفرق أوضاع حيث قال :

مال أصحابه خليلاً خليلاً وتولى اللدات إلا قليلاً
نصّلوا أمس من غبار الليالي ومضى وحده يمحى الرحيل

*

.. قيل غالٍ في الرأي قلت هبوةً قد يكون الغلو رأياً أصيلاً
وقديماً بنى الغلو نفوساً وقديماً بنى الغلو عقولاً
وكم استنهض الشيوخ وأذكى في الشباب الطامح والتأملاً
عاش لم يغيب الرجال ولم يجعل شؤون النفوس قالا وقبلاً
قد فقدنا به بقية رهط أبقظوا النيل وادياً ونزلاً
يا أمين الحقوق أدبت حتى لم تمنح مصر في الحقوق فتلاً .. (٢)

(١) راجع محمد صادق عنبر - ذكرى أمين الرافعي ص ٥٢ .

(٢) راجع محمد صادق عنبر - ذكرى أمين الرافعي ص ٢١٧ .

وأرسل الرافعي عبرته في مقالة بيانية ، وخطاب فيها مصر يقول :

« ويحك يا مصر .. ! »

أمن عظمتك أنك تنشئين النبي من أنبياء الوطنية ليؤدي رسالته ثم تصلبيته؟ .

أمن عجائبك أن يعرف خصومك وأنصارك الذين هم كخصومك .. رجلا

مثل « أمين » إلا أن يرغمهم هو على الاقرار ، حتى يجعله الموت جزءاً من ضميرهم
الإنساني ؟

يا إلهي كان الباطل يرى في ذلك الرجل حقاً لا يقبل أبداً .

كان الأذل يرى فيه عزة لا تتحول أبداً .

كان الواجب يرى فيه عاملاً لا يتملأ أبداً .

كان رجلاً من الأبد قامت بينه وبين مخازي الدنيا كلمتان : أبداً أبداً

ثم يقول « أيها المصري عش في حدود ضميرك لربك ووطنك وإخوانك ،
ولا تكن من قوم يعيشون في حدود أمعائهم » .. الخ (١) .

و - عبد الرحمن الرافعي - مؤرخ الحركة القومية في مصر الحديثة .

ولد في شارع درب الحصر في القاهرة عام ١٨٨٩ م بعد أخيه أمين

بسنتين ، وكان أبوه الشيخ عبد اللطيف الرافعي قدولي القضاء في البصرة فترة
من الزمن قبل نقله الى الديار المصرية (٢) .

أنهى الدراسة الابتدائية والاعدادية في الاسكندرية ، وانتظم بمدرسة

الحقوق في القاهرة من ثم ، .. وظهر له نشاط قوي مبكر في هذه المدرسة عندما انتظم
في نادي الحزب الوطني ، وبكر في ممارسة التعليم في مدارس الشعب التي أنشأها

(١) ذكرى أمين الرافعي ص ٢٢٥ .

(٢) حدثني بذلك الشيخ عبد القادر باش أعيان .

المرحوم مصطفى كامل ، .. وتعلمت عليه سياسياً ، .. وأخذ عنه الشيء الكثير .
مارس المحاماة طيلة حياته ، فقد كانت له هدفاً وغاية في الوقت الذي
كان فيه أخوه أمين ميلا الى ممارسة العمل الصحفي وتوجيه الجمهور ، ..
يعتبر من أوائل المؤلفين في « الجمعيات التعاونية » التي تعتبر من المراحل
الاشتراكية الهامة ، وكان له فيها كتاب ناجح قرطه صادق الراجحي ، ثم أنه في
سبيل الحركة القومية التي ظهرت في مصر أثر أن ينحو نحواً تاريخياً في توثيقها ، ..
وقد حدثني أنه كان يعد لتاريخ حياة أستاذه الزعيم مصطفى كامل -
فرأى أن الموضوع أكبر من أن يوجزه مؤلف في حياة زعيم ، .. فعكف على
أوراق التاريخ ووثائقه ، يقلبها ، ويصنع منها موسوعته التاريخية العظيمة للحركة
الوطنية في مصر متأثراً الى حد ما بالنظرة الأخلاقية للتاريخ (١) كما تحدث عن
نفسه في كتاب « مذكراتي » أفردته للحديث عن نفسه بعد أن تحدث عن التاريخ ،
وأن من حق نفسه أن يكون لها مع التاريخ مكان !

عاصر الحياة السياسية في مصر ولم يخرج على الحزب الوطني وبقي على
وفائه للزعيم مصطفى كامل ، وخلفه محمد فريد ، بالرغم من جميع الهزات السياسية
التي أطاحت بعناصر السياسة المصرية .
ولما ولي وزارة التموين عام ١٩٤٩ م ، كان مثال الوزير الحق في أقوات
أبناء الأمة .

وقد قضى حياته كلها مدافعاً عن الحزب الوطني وآرائه السياسية ،

(٢) حسين فوزي - الفكر المعاصر ٢٤ - ص ٨٤ .

وأفكاره الاجتماعية ، من لدن إيمانه بالجامعة الإسلامية ، وثباته على مبدأ الجلاء ...
حتى قيام الثورة عام ١٩٥٢ م .

وتشهد له المحاماة بالباع الطويل والبراعة ، وقلما أخفق في دعوى التزمها
أمام النقص والابرام .

انتخب غير مرة نائباً عن الشعب وفي مجلس الشيوخ ، ..

وقد هدت الشيخوخة صحته في أواخر أيامه ، .. ولقيته في صيف عام
١٩٦٤ م في الاسكندرية وكان لي معه حديث طويل فتح لي الآفاق على السياسة
المصرية - العربية ، عسى أن أفيه حقه في يوم .

ولقي ربه راضياً مرضياً في كانون الأول - ديسمبر ١٩٦٦ م .
أما مؤلفاته فأهمها :

١ - حقوق الشعب - شرح لمبادئ حقوق الانسان والنظريات
والقواعد الدستورية طبع عام ١٩١٢ م .

٢ - نقابات التعاون الزراعية - وعلاقتها بالنهضة الاجتماعية والاقتصادية
طبع عام ١٩١٤ م .

٣ - الجمعيات التعاونية - تتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات
القومية في طائفة من البلدان طبع ٩٢٢ م .

٤ - تاريخ الحركة القومية - في جزءين كبيرين من عصر المقاومة الأهلية
للعزو الفرنسي حتى ولاية محمد علي .

٥ - عصر محمد علي - وفيه تاريخ مصر الحديثة .

٦ - عصر اسماعيل - في جزءين كبيرين .

- ٧ - الثورة العراقية - وأحمد عرابي .
 - ٨ - مصر والسودان .
 - ٩ - مصطفى كامل - باعث الحركة الوطنية .
 - ١٠ - محمد فريد - رمز الاخلاص والتضحية .
 - ١١ - ثورة ١٩١٩ م .
 - ١٢ - في أعقاب الثورة المصرية - ثلاثة أجزاء .
 - ١٣ - مقدمات ثورة ١٩٥٢ م .
 - ١٤ - ثورة ٢٣ يوليو - تموز ١٩٥٢ م .
 - ١٥ - مذكراتي - طبع عام ١٩٥١ م
 - ١٦ - شعراء الوطنية ١٩٥٤ م .
- وقد طبعت كتيبه غير مرة، وما زالت تثبت أمام محاولات النقد التاريخي
والمنهجى بأصالة وعمق

الرفاعي

سيرة الرفاعي

لقد مرّ بنا أن الشيخ عبد الرزاق الرفاعي كان قد أثر ولده الثاني ، واصطفاه من بين إخوته ، وعُني به عناية خاصة ، كان يغبطه عليها أخوه محمد الكامل الرفاعي .

نشأ إمامنا في كنف ذلك الأب الجليل نشأة عمرّية ، حيث كانت الأسرة الرفاعية قد بلغت يومها ذروة المجد ومنتهى الكمال في تهذيب أبنائها وإعدادهم للحياة الفاضلة .

« ينشأ الطفل منهم فيتناولونه بالتأديب وألوان التهذيب ، التي تطبعه على الطاعة ، وتقديس الدين ، ويغرقونه الى قمة رأسه في الثقافة التقليدية للأُسرة »
بجوانبها التطبيقية والعملية (١) .

وعُلوم القرآن ، والفقه بالشرعية الاسلامية والحرص على العروة في لغتها ودينها وفضائلها ، هي المواد الأولية لأساس تلك التربية ، منذ انحدر أولهم من

(١) أنظر محمد سعيد العربيان - حياة الرفاعي ص ٢٧ ، وأحمد محمد

عيش - المقتطف ٩١ - ٢٩٠ .

صلب أمير المؤمنين الفاروق عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - .
فلم يكذب يتم أديبنا السادسة من عمره في مثل هذه الحياة المدنية للأسرة ،
حتى أخذ بيده أبوه ليختلف على « الكتاب » يتعلم عنده مبادئ القراءة
والكتابة كما كانت عليه الحياة في ذلك العصر ..

وما لحق العاشرة من سنه حتى استظهر القرآن الكريم حفظاً وتجويداً ،
وكان له من معية والده في الاضطراب بين البيت والمسجد حياة كانت هي آخر
ما نحدث عنه - رحمه الله - في « قرآن الفجر » (١) في شيء من الغبطة
بالذكريات ، والاطمئنان الى المصير الذي آل اليه .

ولكن نظراً لانحراف في صحته ولكون التعليم مبعثراً آنذاك ما بين
المدارس « الأميرية » ومدارس التبشير - ومنها « الفرير » .. والكتاتيب ، .. فقد
تأخر دخوله المدرسة الابتدائية في « دمنهور » حيث كان الشيخ عبد الرزاق
الرافعي يشغل فيها منصب كبير القضاة الشرعيين عام ١٣١٨ هـ (١٨٩٣ م) ..
حتى كانت سن أديبنا الرافعي قد تجاوزت الثانية عشرة .

ولما نقل أبوه الى القضاء في مدينة « المنصورة » انتقل معه والتحق
بمدرستها الأميرية ، حيث اختلط بكثير من الطلبة الذين أصبحت لهم مناصب
مرموقة في الدولة والسياسة فيما بعد .. (٢)

(١) الرافعي - قرآن الفجر - الرسالة ١٨٣ - ١٩٣٧ م . ووحى القلم
ج ٣ ص ٣١ .

(٢) منهم توفيق نسيم الذي أصبح رئيساً للوزراء ، والابراشي الذي صار
رئيساً لديوان الملك .. وسواهم ممن كانت له معهم أكثر من معنية !! .. كما
سيمر بنا .

في هذه المدرسة حظي الرافعي بشهادة الدراسة الابتدائية بتفوق وامتيار،..
وهي كل حظه من الشهادات الرسمية ١٠٠٠ وسنه يومئذ بضعة عشر عاماً ١٠٠٠.

وقد أظهر الرافعي أثناء دراسته الابتدائية نبوغاً في اللغة العربية وعلومها،
أدهش مدرسيه ولا سيما أستاذه الربيع الكبير مهدي خليل - رح - ولكنه من
الناحية الأخرى كان في هذا النبوغ والتوفيق يوغر صدور بعض زملاء الدرس.
وكان مثال الطالب المجد في المدرسة ، لا يسمح لنفسه بالهزل ، ولا اللعب
غير المباح ، ونظراً لما كان في لسانه من اللهجة الشامية ، ، فإنه أثر الفصحى
في كلامه ومخاطبته ، وجهر في الدعوة إليها توحيداً للسان العربي المبين .

وكثيراً ما كان يستنكر على رفاق درسه رضوخ ألسنتهم لرمطانة العامية
المرذولة ، التي تذوب فيها الحروف بين ألفاظ السادة والعبيد ، حتى تخسر
حلاوة النطق الفصيح ، والتعبير الصحيح ، مما كان أثر الحكم الترك والشراسة
وبقية الأورام فيه فاشياً ، ، يورث اللهجة المصرية الكثير من أمراض النطق
والتعبير معاً ! .

وكان الشيخ عبد الرزاق الرافعي - وقد رأى هذا الميل في ولده - قد
عمد الى تنميته ، ووفر له من الدروس الخاصة ما يستوعب فيه العلوم العربية ليل
نهار ، والصادق ما يفتأ يلزم أباه الشيخ يستمع اليه في التثبت من حفظ القرآن
وتفسيره ، ، ويعي عنه أخبار السلف من علماء اللغة وفقهاء الاسلام ، ، ويبصر
عنده الفقه والنحو والبلاغة والبيان ، ، حتى انطبع على ذلك الأسلوب الفريد
الذي تميز به من ثم ، وانفرد بين ادباء جيله ، ، بعد ما ارتسمت على مخيلته صورة

العربية الأولى عن أولئك الأفاضل، .. حتى أعدده القد. من ثم يكتب بنقائها ورونقها «أسرار الأعجاز» فيما بعد ٠٠١.

ولعل ذلك الكلف المبكر بالعربية وفنونها، هو الذي أدى به الى أن يعتزم مرة أن يضع كتاباً فيها، يجعل شواهد النحو والصرف كلها من نظمه (١) ويمضي في ذلك أشواطاً ٠٠١ وهو الذي أنساه الفرنسية من ثم، وكان قد تعلمها في الابتدائية باعتبارها اللغة الأجنبية قبل أن يتمكن الاحتلال من مزاحمتها بالانجليزية وإبداله ١.

ذلك أن عدم اهتمامه بها أو مواصلته الدراسة النظامية، .. ولقلة انتفاعه بما حصل عليه منها، والذي لم يكن يتعدى فك الخط ببعض المقروءات المدرسية (٢). وربما كان يستخف بها، ولا سيما حين يرى المراضخين للعامة، .. ممن يغلبهم العي عن التعبير بالفصحى، يلجأون الى لغة المستعمر يستعينون بها على قصدهم في القول ٠٠١ ولو عن طريق مثل هذه العجمة الرومية، التي يتعثرون بها في هذرهم وتخبط ألسنتهم ٠٠١ (٣)

وفي سنوات التلقي هاتيك كان مثال التلميذ الحريص على أداء واجبه من استذكار دروسه، واستيفاء المعلومات حفظاً وفهماً، ..

يقول أخوه النبوي الرافعي فيما رواه لأبناء أخيه وسواهم من تلامذته ومحبيه، أن صادقاً كان يقوم كل ليلة كالمذخور، - وهو في سن العاشرة -

(١) محمد صبري - شعراء العصر ص ٢١٣ .

(٢) سحينة العريان - حياة الرافعي .

(٣) أحمد عيش - المصدر السابق .

ليحفظ الواجب الذي عليه من القرآن الكريم ، وليستظهر بعض النصوص !..
وفي سنوات طفولته هاتيك ، بدأت بواكير تأملاته في رحاب الكون ،
يذهب كل يوم جمعة مع أخوته للنزهة في المدينة ، ويممم وجهه شطر
الحقول ، يجتلي من رُقى السحر في الطبيعة ، وينعم بمجالي الحسن وآيات الجمال ،
وينصت بجميع حواسه للجلال في كل ناحية ٠٠١

وهناك عبر المغازات القرية من ريف « دمنهور » الوديع وشطآن
المنصورة الغناء ، كان يظل هائماً طول اليوم بين الجداول الرقراقة ، والمزروعات
الضاحكة بنضارها ، وتحت الظلال الوارفة ، حيث الأشجار الحاملة ، والطيور
المفردة ، والطبيعة الباسمة ، . كأنه يخشع لله في محاريب آلائه البديعة .. وكثيراً
ما كان يفرد دون إخوته ، ليفرق في الاستجلاء والتأمل ، حتى ليكاد ينسى
نفسه أحياناً ، -

وكانت هذه الحال تلهمه معاني لا يستطيع لها تفسيراً ، كأنه أحد المتبتلين
من القديسين والرسل ، ٠٠ ينتظرون موعدهم مع الإلهام ١.
كما كانت تؤذيه أحياناً ، ولا سيما حين « بقاسي من الوحشة » ٠٠ التي
تجعله يتلهى عنها بوحشة أخرى من هذا الابتعاد والاغراق ، ٠٠ منطوياً على
عشق بعض الصور الحسنة « (١) .

ولم يكن أبوه الشيخ وحده يهيء له مثل هذه الحياة الملائنة بالدرس
والتأمل ، ٠٠ وإنما كانت أمه الزكية السيدة أسماء بنت الشيخ أحمد الطوخي ،
هي الأخرى تخصه برعايتها ، وتؤثره بالمزيد من عطفها وحنانها ١١.

(١) الرافعي — الرسائل ص ٤٤ .

وكان هو يطعمها ويبر بها « وقد ظل إلى آخر أيامه إذا ذكرها اغرقت عيناه كأنه فقداه بالألمس » (١) .. وإليها كان يسند الفضل الأول فيما آل إليه أمره من الدرس والمطالعة ، والأخذ والاستيعاب .. ثم الامامة في الادب ، حيث غدا حجة العرب في لغتهم والعلم بأيامهم وشعرهم ، ومأثورهم حتى ليقول فيها :

أنا منك بين العالمين كأنتي أشكك في الدنيا فما هي منها
أراها خلاء منك إلا محامداً وآثار فضل حجة وترحما .. (٢)

ولعل حياة المتابعة والدرس هذه هي التي أنعبت جسمه الضاوي ، وأنحلت جسمه ، مما مهد لإصابته بالحمى الثقيلة (التيفوئيد) في مرض مشف أثبتته في الفراش أشهراً ، ما كاد ينجو من وطأته إلا وقد ترك في أعصابه أثراً ، ومس منه أكثر من موضع في جوارحه ، ونال منه وآذاه بحبسة في صوته ، وقر إحدى أذنيه ، وهزال يعتريه أياماً في السنة ، فلا يكاد يذهب عنه في شفاء ، حتى يعود من غير عافية !.. مما أدى إلى انقطاعه عن الدراسة المنتظمة في المدارس (٣) .

والتمس العلاج لنفسه عند كل طبيب ، وفي كل مستشفى فما كان يجديه بغير شيء من الشفاء لا يبلغ به إلى العافية ولا الصحة الموفورة !..

وكاد الداء أن يمتد إلى صدره ، فعقد حبال الصوت عنده ، بما كاد

(١) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٢٢ ، وكانت قد توفيت عام

١٩٠٩ م ودفنت في أسيرط ، ثم نقل رفاتها إلى مقابر الأسرة في طنطا .

(٢) الرافعي - والدتي - المقتطف نموز / يوليو ١٩٠٩ م .

(٣) سعيد العريان — حياة الرافعي ص ٣٠ .

يذهب بقدرته على النطق، .. ولكن القدر كان أشفق عليه أن يفقد الكلام
إمام البيان ٠٠١

وكانت هذه الحال قد جعلته كثير الحساسية ، لا تقوى أعصابه على
إحتمال الأنواء فهو يكره الحر الشديد ، .. لما يعتريه به من الضعف عند
الصيف (١) ، فكان يتخفف من أثيابه ويذهب الى « الدهليز » مباشرة وينام
هناك دون غطاء على صدره يتقي به لدغات البرد في مثل هذه الحال ١. (٢)

على أن هذه الحال المرضية ، وما أورثته إياه من بوادر الصمم ، هي التي
جعلته يختار لنفسه مدرسة جامعة يعد منهاجها بنفسه ، ويقوم شيوخ مصنفاتها
ومؤلفو كتبها على تعليمه ، .. فكان المعلم والتلميذ معاً .

وكان يسعى بما أوتيته من الفطنة والنبوغ المبكر وذلاقة اللسان والفصاحة ،
وقوة الأخذ والاستيعاب ، واستعمال الحجة في العقل والمنطق .. أن يستكمل
ما ينقصه من الدراسة النظامية ، حتى تفلسف بعلوماته وشاخ ببعض العلوم
العربية منذ أول شبابه .

وحين عرف الشيخ عبد الرزاق الرافعي في ولده الصادق ذلك الاتجاه
تجاه ، وهياً له من أسبابه ما مضى به الى الغاية مبتدراً اليها خير الوسيلة ، .. حتى
لقد ردّد عليه - جبراً لحاطره - أنه يجاهد في سبيل الله !. (٣)

(١) راجع ما سبق ، وموافقة اسم « مصيف » المرخم .

(٢) أحمد محمد عيش - سيرة الرافعي - عن رواية النبوي الرافعي -

المقتطف ٩١ - ٥٢٩ .

(٣) المصدر نفسه .

وكان لهذه الإشارة في نفس أديبنا العظيم أن صادفت منه هوى ،
ومست من قلبه مكاناً خالياً بالبت والنجوى ، .. وكادت تملأ فؤاده بالطمأنينة
بعد أن كاد يفرغ من شدة القلق والاضطراب ، .. وهكذا اندفع به الايمان
الثابت حتى أضحي « الجهاد » له هدفاً ، لا يرى غير السبيل اليه ، حتى لا يخيب
في نفسه ظن أبيه .

وكان من أثر هذا المرض أيضاً ، وقبل أن يتم تمامه ويكون أهلاً
لغشيان المجالس وأن يتحدث الى الناس ويستمع الى أحاديثهم - أن أصبح
حظه من الهمجة المصرية قليلاً ، .. حتى ليضطرب أحياناً أن يسأل بعض خاصته عن
عباراتها أحياناً الى آخر أيامه ! .. وربما مضح مع صفيه محمد سعيد العريان (رح)
بمثل قوله : لتكن انت لي قاموس العلمية ، ..

ولما كان أبوه وأمه قريبي شهد بسورية منبتهما . ولم يسمع في طفولته عن
غيرها فقد بقيت لهجته في الحديث أكثر شامية ، .. وكأنه لم يقدم من سورية إلا
من عهد قريب (١) . وذلك ان الأصوات ما لبثت تتضاهل في مسمعيه عاماً بعد عام ،
كأنها صادرة عن مكان يتعد عنه ، او كأن صوت محدثه كان يتخافت .. حتى
فقدت إحدى أذنيه السمع ثم تبعها الاخرى .. فلم يكده يتم الثلاثين من عمره ،
حتى انقطع عن سماعه كل صوت ، ولم يعد يسمع قصص المدافع (٢) .

على أن كثيراً من خاصته وأبنائه كانوا يتحدثونه من غير كتابة فيهم من
حركة شفاههم ما يغنيه عن الصوت ، .. حتى ليخيل لمحدثه أحياناً ان عاوده السمع ! (٣) .

(١) و (٢) سعيد العريان - حياة الراحل ص ٣٢ .

(٣) من رواية ابنته الحاجة زينب الراجعي .

ولما انتهى الطاف بالشيخ عبد الرزاق الرافعي الى مدينة السيد احمد
البدوي - طنطا - أثرها على غيرها أثرها على سواها من مدن القطر المصري ..
حتى غدت من ثم موطناً جديداً للأسرة ..
في الوظيفة :

وإزاء الحالة الخاصة التي أصبح عليها أديبنا من اضطرار الى ترك الدراسة
في المدارس وفناء الأيام من بين يديه حيث يقول :

ما لأيام ذا الصبا تنفاني وقديماً عهداً تتواني
ذهبت بالصبا سلام عليها من فؤاد يحبها ملائنا (١)
فقد أثر أن يجد له عملاً يتكفل به ، ويملاً عليه وحشة أيامه ، .. واهتبل
فرصة نال فيها أخوه « الكامل » وظيفة قائم مقام « مأمور مركز » ، . فاستدار
من حول أبيه الشيخ يطلب اليه هو الآخر أن يظفر بوظيفة ، ..
وعندما تهيأت له وظيفة كاتب بمحكمة طلمخا الشرعية براتب أربعة دنانير
(جنهات) شهرياً ابتدر يحاور أباه بقوله :

- يا أبت كيف أعين كاتباً بسيطاً ؟ وأخي الكامل يأمر وينهى ، ويحكم و ..
- إسمع يا ولدي .. أنسيت أنك أنت الذي اخترت التفرغ للدراسة
القرآن وآدابه ، والفقه بالشرعية وأحكامها ، تسعى بما أوتيت من ذكاء
والمعية لاستكمال ما نقص منك في « الشهادة » والدراسة ، .. وأن في أذنك ؟ !
- ولكن يا أبت !

(١) الرافعي الداويان ج ١ ص ١١ .

- ولكن .. ولكنك أنت خلقت لتجاهد في سبيل الله ، .. وما هذه الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (١) .

.. وهكذا كانت الوظيفة لديه من ثم .. « متاع الغرور » وهي سهمه من الدنيا ، حتى ليراها أحياناً « ضريبة على الحكومة تؤديها له ديناً عليها ، وسداداً لما كانت أسرته قد قدمته لها من الرأي والدالة ، .. ثم لمكانة أبيه منها ، .. ولمكانته بعد ذلك » .

وبهذا « نشأ في الوظيفة نشأة الدلال أيضاً ، لا يهتم إن بكر إليها صباحاً ، أو تركها لبعض شأنه عند الضحى » (٢) مع التزامه بجميع مسؤولياتها عنده ، وعند الآخرين من رفاق مكتبه ، ..

ومن هذه النشأة في « الوظيفة » عادي يرى فيها « مكاناً للأديب ليس أحسن منه في حياتنا الحاضرة » (٣) ..

وعلى هذه الحقيقة أصبح الرافعي موظفاً .

ولما كانت إقامته في « طلخا » على الجانب الآخر من النهر مقابل المنصورة متعذرة عليه يومها عام ١٨٩٩ م ، .. فقد كان يحضر إليها كل يوم في قطارات ذلك العهد .. فكان الرافعي يرى بين مدينة السيد البدوي يغدو ، وإليها كان رواحه ، .. وفي يده كتاب ، أو ملازم من سفر يقرأ ويستظهر ليقطع الوقت ويستفيد ..

(١) راجع هذه المحاور في سيرة الرافعي ٩١ - ٥٢٩ - المقتطف .

(٢) العربيان - حياة الرافعي ص ٣٤ .

(٣) الرافعي - مجلة كل شيء - كانون الثاني يناير - ١٩٣٤ م .

وقد تنقل في سنوات وظيفته الأولى ما بين محاكم إيتاي البارود الشرعية ،
وكفر الزيات ، وشين الكوم ، ..

ولكنه كان يلحظ في الطلب انقله الى طنطا ،.. وقد تم له ما أراد ، بالوسيلة
التي أظفرت له بالوظيفة نفسها ،.. حيث انتهى به المطاف الى المحكمة الشرعية فيها ،..
ثم الأهلية بعد ذلك بسنين ، حيث وجد استقراره الأول في بيت أبيه ، وبين
إخوته وأصدقائه وذويه .

ومن ذلك نرى أن محاولة نقله الى أسيوط عام ١٩٢١ م بدسيسة سياسية
لم تخلُ من دناءة^١ . همّا من الهم ! .. سعى بعض الأصدقاء بمروءته ليجعل
النقل الى المنصورة ، تخفيفاً !! . (١)

ومع ذلك فإنه سعى لابتدال هذا النقل الأخير أيضاً لأنه لم يكن
« يستطيع نقل البيت والأولاد في مدارسهم وقد دفع لهم الأقساط المدرسية ،
فضلاً عن أن مصالحه كلها هنا في طنطا » (٢) .

ولسكنه بعد هذا التاريخ ، وبسبب من أولاده أنفسهم ، وموضوع
دراساتهم العليا في الجامعة ، حاول الانتقال الى ديوان وزارة العدل - الحقانية -
والتمس الى ذلك غير سبيله هو في شهرته بالوظيفة ، وما رافقه من التوفيق في
الرأي والاجتهاد بكثير من القضايا الشرعية والقانونية ،. التي كانت تفيد منها

(١) : بما كان النقل بسبب مقالته « جعفر سعود » التي تصدى فيها للوفد

وحرسه في الأخيار عام ١٩٢١ م

(٢) أنظر رسائل الراغبى - ص ٢١٨ .

الوزارة ، وتبعث بها منشورات وتعليمات لبقية المحاكم والقضاة ، - .

حيث توسط بعض أصدقائه المقربين من الحكام ، .. فقدم بذلك أكثر من طلب ، ورافق الطلبات أحمد فتحي زغلول تارة ، وأحمد لطفي السيد أخرى ، .. ومحمد نجيب (باشا) ثالثة ، .. ولكن ما استطاع واحد أن يبر بوعده ، او يحالفه التوفيق في مسعاه (١) .

* * *

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن الأستاذ منصور جاب الله ، كان قد قرر حقيقة أخرى في هذا الناحية ، عرفها من فم الرافعي ، يوم لقيه في الاسكندرية يصطاف عام ١٩٣٥ م ودار بينهما حديث طويل ، جاء فيه سؤال الأستاذ جاب الله للرافعي :

- لماذا لا تغادر طنطا ؟! - وقد ظهر اسمك لامعاً بين أشهر أدباء العرب

في العالم ! ..

حيث رد عليه الرافعي بجواب فيه صوت المستنكر ، الذي كاد يشبه الصياح :

- كيف تريدني أن أترك المدينة التي تضم رفات أبي وأمي ؟! أنا لا

أغادر طنطا ولو وضعوا بين يدي مال قارون » (٢) .

.. وماذا يمكن ان يقول غير هذا الجواب ؟! في مثل هذا التاريخ بعد

(١) عن رسائلهم حتى عام ١٩٢٧ م

(٢) جريدة السفير - طنطا - كانون الثاني - يناير ١٩٦٣ م ، وانظر

العيان - حياة الرافعي ص ٣٧ .

بضع وثلاثين سنة في الوظيفة ، . كانت الحيلة قد اعينته في الانتقال ، او تبديل عنوانها على الأقل ١ .

وحياة الرافعي في الوظيفة تبعث على التأمل ، وقد تثير الأسف والاشفاق .
١- إذ هو لم يكن « موظفاً » بالمعنى المفهوم للوظائف اليوم ١ . « فما كان هنالك احد يستطيع ان يلفت نظره الى ضرورة التبكير ان جاء في الضحى ، .
او يسأله الانتظار إذا دنا موعد القطار ولم يفرغ من عمله » (١) .
وكثيراً ما انقطع من الوظيفة ملتصقاً احد الأسباب الى مسألة علمية بين مظانها من المصادر والمراجع ، . او متناولاً غرضاً من الأغراض بالدرس والتمحيص ! .

وهي - الوظيفة - وإن لم تكن ترضيه منها الأنظمة التي تغله في مكان العمل ، . وتفوت عليه الوقت ، . إلا انه من الناحية الجوهرية في الموضوع كان « شديد الحرص على تأدية حقها في دقة تبلغ الغاية ، فلا يكاد يفوته شيء مما يسند اليه ، . حتى غدا المرجع الاداري لكتاب المحكة جميعاً ، يستفتونه الرأي فيما يشكل عليها من أمور تقديرية ، ثم أصبح كذلك للوزارة نفسها ، التي تجعل من فتواه ورأيه منشوراً عاماً الى جميع مخاكم القطر ١ .

ولسكن سأمه منها كان مبكراً ، . وكان يجد فيها معوقاً له عن اهدافه ، . ومضيقاً له ولوقته . حتى ليمتنى في إحدى رسائله ويقول « ليت الزمن يهيء لي من اسباب الكتابة والتفرغ للشعر ما يغنيني عن « التكسب » من الوظيفة التي انا فيها » .

(١) العرياد - حياة الرافعي ص ٣٤ .

ويبلغ به الضيق أحياناً درجة التدمير حين ينفجر بمثل قوله « .. ماذا اصعب والأمة خاملة كما ترون ، فلا تكاد تقوم بعيش اديب واحد .. ليخدمها مدة عمره » (١) . فباللهذا العرض من بيع سماح ١١ .

ومع ذلك وكثير من الصور سواء ، فقد كان يرى في تركه الوظيفة ، وإحالاته على التقاعد - المعاش - ضرراً كبيراً ، .. وقد قضى أكثر من ربع قرن بعد ذلك ينتظر تشريع قانون يجعل الفرق بين مراتب الوظيفة والمعاش خمسة دنانير لا عشرة ، .. و « إن كان في نفسه فرق كبير » فتأمل ١١ .

وهكذا بقي يتعمّل ، وتعتبره حالات من التناؤل نجعله أكثر إشراقاً الى المستقبل حتى ليقول في رسالة « .. وقد أصبحت اعتقد أن الأحوال ستيسر إن شاء الله ، .. واستطيع الخروج من الحكومة ، .. وإلا فكيف تؤدي الرسالة ؟ أرسول وموظف حكومة ؟! » (٢)

وبالرغم من كل هذا فقد همّ غير مرة أن يطلب الإحالة على « المعاش » ليتفرغ لأدبه وفنه ورسالاته ، . فما كان يمنع من المضي في طلبه إلا رجاء موظفي المحكمة ، وإلحاحهم عليه أن يبقى لئلا يخلو مكانه ! (٣) .

لقد عانى اديبنا من الوظيفة وإغلاها الضنك والحرمان أربعين سنة ١١ . وكانت كثرة الولد تزيد منهاهما على همّ ، فتضييق عليه أيامه في عسر ، يضاعف عليه تكاليف الحياة .. وإن بقي في حالة من الرفاه يتمتع فيها بستر الحال ١ .

(١) الرافعي - الرسائل ص ٣٤ ، ص ١٠١ .

(٣) العريان - حياة الرافعي ص ٣٧ .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ١٠١ .

فلو اشتغل بالتجارة كأخوته وابنه عمومته ، لدبرت عليه الوفرة بما يسخر به حقاً من « أرامل الحكومة » الموظفين (١) .

وكم كانت تلك الوظيفة نعمة الطالع عليه ، فقد أعاقته عن كثير مما كان يصبو اليه من المجاهدة في سبيل الحياة ، والسمو بها اعتقاداً وحباً وكرامة .. يرتقي فيها الناس الى مطالع أخرى غير التي كانوا يألفون ! .

وقد انسحب نجسها على أولاده من ثم ، فلم يكد يلقى الله سبحانه وتعالى ، حتى وقفت وزارة الخزانة (المالية) منه موقفها المشين ! .

وكان وزير المالية يومها « مكرم عبيد » ، الذي أبت « كرامته » الرذولة أن يعترف لأبنائه بحق في مرتب أبئهم ، لا مكافأة ، ولا تقاعداً (معاشاً) ! . وبالرغم من هذا الاجحاف الجائر بجرمان الأبناء من صفة في الحياة ، .. فإن هذا الحرمان نفسه قد خلصهم من « نكد » تلك الوظيفة ، وفتح عليهم أبواب العيش الفاره الكريم ، .. وجاءتهم النعمة واليسار يسعيان اليهم في علم وعمل وكرامة ! .

فإنه سبحانه « أكرم » بهم من مروءة حكومة الأحزاب « التي يلعن بعضها بعضاً لعناً مقدساً » وأبر بهم من مكافأة الدولة لموظف قضى عمره في خدمتها !! (٢) .

(١) من مصطلحات الرافعي الفكهة .

(٢) أنظر سعيد العريان - خل عنك يا وزير المالية .. فأنه أكرم الرسالة

٢٥٣ . وقد أيدت الحاجة زينب الرافعي ذلك ، كما حدثني عنه العريان - رح - حتى تساءلت أين « الثورة » من إنصافها للرجل !؟ .

على أن هناك قصصاً ومعارقات حدثت له في الوظيفة جديدة بالوقوف على نماذج منها ، تقف بنا على صورة واقعية لممارسته الحياة آنذاك .

وأولى هذه المفارقات ما رواه الأستاذ أحمد محمد عيش عن أخيه النبوي الراجعي (١) : كان الراجعي شاباً ضاوي الجسد نحيلاً أيام شبابه الأولى ، .. يختلف على وظيفة في طلحاً كل يوم في القطار ، .. وحدث ذات يوم - وهو بهم أن يصعد الى القطار العائد به الى طنطا - ان رأى صبيّاً ضعيفاً بين يدي رجل فظ غليظ القلب من أعيان البلد . وقد تناوله ركلاً وضرباً دون شفقة او رحمة ، .. والناس تنظر اليه من حوله بشيء من اللق وغير قليل من النفاق وقلة الحياء وتسويغ مثل هذا البطش الجائر .

فما كان من الراجعي إلا ان اهوى بعصاه على رأس ذلك (العين) حث طرحه ارضاً ، والقي به أهزوءة بين المتملقين له منذ ساعة ، والمنافقين انفسهم ، .. ثم تناول سلم القطار وهو يلوح بعصاه .

وكاد ذلك « العين » المتنفذ ان يقف له برهط من اعوانه في اليوم التالي ، ليقصص منه ، لو لا ان تدارك الأمر بعض ذوي الجاه من المعارف .

والثانية صلته بالموظفين ، وقد كانت من الود والصدقة فوق ما يعرف من الصلات بين الموظفين ، . وكان المرحوم محمد محب (ياشا) اقدر محافظ (مدير) عرفته طنطا في ذلك العهد .. اقرب قرابة الى الراجعي من ذويه وخاصة ، .. واذني اليه من تلامذته واهليه ، وكذلك كانت صلة الراجعي بالمحافظ ، وما هي بصلة موظف صغير برئيس كبير .

(١) أحمد عيش - المقتطف ٩١ - ٥٢٩ .

وحدث مرة - والرافعي في صدر شبابه - ان جاء المحكمة رئيس شديد
الحول والطول، فلما صعد اليه الموظفون للتهنئة بمنصبه الجديد، فتش عن
الرافعي بينهم فلم يجده، فاستشاط غضباً لا يغضاه الرافعي عنه، وكتب الى وزارة
العدل - الحقانية، يطلب اليها إقالته من الخدمة، ويسبب لطلبه حيثيات من
عاهة الرافعي، واستطالته على الأنظمة، وما يتبعها من عادات النفاق المسماة على
« المجاملة » في الأصول ١.

وجاء الشاعر الظريف حفي ناصف ليحقق في الموضوع، فاستمع الأديب
لحجة الشاعر الأريب وطوى أوراقه التحقيقية عائداً الى الوزارة في تقرير يقول
فيه « إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تجري عليهم مثل هاتيك الأنظمة
والتقاليد المتعارف عليها، وإن للرافعي حقاً على الأمة وفيه قناعة ورضا، ..
وما كان هذا مكانه، ولا موضعه لو لم يسكن اليه !! » .

.. وإلا فاكفلوا له عيشه الكريم في غير هذا المكان » (١) .

وأما الثالثة، .. فقد كانت بسبب قطعة أرض اشتراها الرافعي يوماً ما،
فأراد البائع أن يتحججها بعد العقد، فدرس عليه مفتشاً ثميماً يلزمه ثلاثة أشهر
او أكثر من عام ١٩٣٤ م يستجوبه عن خطأ في تقدير الرسوم، بلغ النقص فيه
بضعة وتسعين جنيهاً ١.

على حين لم يكن عليه في هذه التقديرات خطأ واحد ! وإنما هي من

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٨ وما بعدها .

أخطاء زملائه في المكتب ، حملها عنهم حتى لا يتعرضوا لشر هو أقدر منهم على التخلص منه (١) .

والمحاولة التفسيرية الأولى لأمثال هذه الممارسة للوظيفة تقف بنا أمام إنسان قد يبدو لأول وهلة غريب الأطوار ، .. ولكنه في الحقيقة كلن طبعاً خاصاً من الموظفين .

فهو من ناحية يعتد بنفسه ، ويرتفع بالحفاظ على كرامته ، حتى لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه ، أو تدنى مكانه أن يحدد منزلة الرافعي الاجتماعية والمالية ، .. أو أن يستعمل سلطانه للنيل من كبريائه ، .. وقد يلوح في ذلك شيء من الغلو والإسراف ، يدعوا الى الشك في حسن تصرفه أو توضع له ولبافته ! (٢) .

ومن الناحية الأخرى يبدو وكأنه يسرف على نفسه ، ويحتملها فوق الطاقة إلزاماً بقيم مثالية في الزمالة والصدافة ، والاجتماع الانساني بعامه ! ..

* * *

في ينته :

لقد بينا سبق الرافعي المبكر الى استكمال أسباب استقلاله الشخصي ، ونحمل مسؤوليته الانسانية في الوجود الحيوي له ، ..

وبالروح التي سعى بها يلتمس « الوظيفة » ليضمن استقرار المورد ، ..

(١) الرافعي - الرسائل ص ٢٧٥ ، والعريان - حياة الرافعي ص ٢٧١ .

(١) العريان - المصدر نفسه .

راح يفتش عن نصفه الآخر ، ويتحرى عن الإنسان التي تشركه رحلة العمر .
وفي وقت مبكر جداً لوحظ على الرافعي حسن تخير الأصدقاء وانتخابهم
من بين رفاق الدراسة وزملاء العمل ، وأصدقاء العشرة ، وإخوة الأذواق
والمشارب ، وصحبة الوفاق في المبادي . والأفكار ..

وكان من بين أصفائه العديدين شاب دنت منزلته عند الإمام محمد
عبد ، وكان ثاني إثنين قربهما الإمام منه ، وفوض لهما من السعي والجهاد الكريم
ما طبعهما على غراره في الاستهداف القيمي ، والتطلع العلمي ، والارشاد والتقويم .
أما أحدهما فهو الشيخ محمد رشيد رضا صاحب الدعوة لإقامة « الخلافة
العربية » .. بجمعيته ومجلته « المنار » المار ذكرها .

وأما الثاني فهو الشيخ محمد عبد الرحمن البرقوقي ذواقة الأدب ، والمعروف
بين أدباء الجيل الماضي باللقب الظريف « الشيخ شرف الديباجة » لشدة ولوعه
بالصيغة البيانية للآثار الأدبية .

وقد جمع الأدب والشعر والرأي فيهما بين الرافعي والبرقوقي !.. فما تعارف
معه حتى تصافيا ، واتصل بينهما الود بأسبابه .. فأصبحا كالأخوين يختلف
أحدهما على الآخر كل حين .

وقد حدث الرافعي أن رأى فتاة أحلامه في بيت ذلك الصديق ، وكانت
سنه يومها أربعة وعشرين عاماً ، وكانت نفسه في الزواج ، .. فلما جلسا يتجاذبان
أطراف الحديث ، تحرّك خاطر أديبنا ينتقل في الكلام من شجون الى
شجون ، .. حتى استقر على ذاته وراح يصف لصفيه الصديق صورة افتاة أحلامه
كما يتخيلها 11 .

وما كاد ينتهي من حديثه ونعته حتى مدّ صفيته الأديب يده إليه ، يهنّؤه
بأنها أخته ، التي يسعدّه ان يقدمها له ، فما برحاً مكانها حتى قرأ الفاتحة .
وهكذا بنى الرافعي بأهله ، وعاشا هنا ما يكون زوج وزوجه ثلث قون
او يزيد وكأنهما في شهر غسل مستديم !.. انبتها الله خلالهما صفوة من الرافعيين
بنات وبنين ٠٠١

.. حتى ليرجع كثير من النقاد الى السيدة نفيسة اليرقوقي بكثيراً من
الفضل الذي عاد بالخير على الرافعي الأديب ، والذي ارتقى فيه من الشاعرية
الوجدانية ، حتى بلغ الإمامة في العربية والحجة عليها ..

وذهب الأستاذ سعيد العريان بحسب ان قوله الرافعي « إذا رأيت رجلاً
موفقاً فيما يحاوله ، مسدد الخطى الى الهدف الذي يرمي اليه ، فاعلم ان وراءه امرأة
يحبها ، وتحميه » تنطبق عليه بالذات ، حين عقب عليها بقوله : « انني لا اعرف
- فيمن اعرف - احداً تنطبق عليه هذه الحكمة مثلاً تنطبق على حياة الرافعي » (١) .
وكان الملاحظ على اسرة الرافعي انها كثيرة الولد ، وقد احصى العريان
ابناء الشيخ عبد الرزاق الرافعي واحفاده في مصر عام ١٩٣٩ م فعرف منهم
بضعة وسبعين ولداً وبناتاً (٢) .

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٥٩ .

(٢) سعيد العريان - حياة الرافعي - ص ٢٤ ، .. ولكن هذه السنة لم تطرّد
في اولاده .. فالدكتور محمود سامي الرافعي لم يرزق بغير ولد وبنين ، وكذلك
الدكتور محمد ، وعائشة .. كما أن الحاجة زينب لم تنجب ، وابراهيم لم يتزوج .
وكانما سلبهم الرافعي هذه القوة الطبيعية ، فحوّلها من قبله الى مواليد أخرى من
الأدب والعلم والفن !.. وهي حالة تستحق النظر والدراسة ..

وقد ولد للرافعي من زوجه السيدة نفيسة البرقوقي - رحمها الله - (١)
بضعة بنين وبنات .. كانت الموالودة المبكر ، أتت القى عليها اسم « وهيبة »
أخت صديقه الأديب جورج حنا وقد كان ينظر الى جمالها (٢) .
وسمع مناغاة « وهيبة » واستبشر بها خيراً ، وارسل ابياتاً شعرية في مولدها ،
حتى تغنى لها بلغتها وهي تناديه « باي يا بابا » وصنع لها نشيداً منها ..
ثم ولد له « محمود سامي الرافعي » (٣) الذي غلب اسمه في كنية الرافعي :
بأبي السامي ، وكان في تسميته إحياء لذكر فارس الشعر العربي محمود سامي
البارودي ، وكان الرافعي ينظر اليه في صدر أيامه ..

وقد هز الرافعي « أرجوحة سامي » بأرجوزة غنائية أخرى (٤) .
وولد له بعد ذلك (محمد) الذي ساهره في مرضه ، وخديجة ، وإبراهيم
الذي اتعبه كثيراً حتى ثار بوجه الامتحانات العامة من أجله ، وزينب
التي ارسل فيها اغنية « ندى الورد » وكانت ذات استعداد عظيم وذكاء مفرط
قهرت به كلية الآداب فيما بعد .. بالمسابقة والامتحان ، وعبد الرحمن الذي
كان يدعوه بالشيخ ويؤمل فيه الخير للأمة (٥) ، ثم عائشة وسعدية ، التي تركها

(١) توفيت عام ١٩٤٩ م (٢) يوسف حنا - السياسة (الكويتية) عدد ٢٨ .

(٣) هو اليوم المدير العام للمؤسسة العامة للأغذية - قها ..

(٤) سيرد ذلك مفصلاً عند التعريف بأغاريد الرافعي .

(٥) .. تخرج عبد الرحمن في الثانوية ، والتحق بالكلية الحربية ، وتخرج
فيها ضابطاً وعمل في سلاح المدفعية ثم انضم الى « الضباط الأحرار » وقاد الكتائب
في منطقة شرق القاهرة ابان العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ م ولكن خلافاً لما وقع له
مع أحدهم .. فابتعد عن المسؤولية ... وفقه الله ونفع الأمة به ..

تلتغ بالراء ولما يستقم لها النطق والكلام !.

وهم اليوم مع اولادهم وبناتهم من احفاده ، من المتضمنين بطيب ذكراه ، وإن جرت عليهم الحياة في غير مجالي الأدب والفقه والتاريخ ، تلك العلوم التقليدية للأسرة الرافعية .

ويتهياً كل منهم أن يحفل بالرافعي ، ويحيي ذكراه ، .. ولكن الأيام تتبدل بهم وتنتزع من بين أيديهم فضلها في طلب العيش الكريم مخاطرة وعناء ! .
فتح الله عليهم جميعاً بما يبعث فيهم الإمام الرافعي حياً ! .

* * *

وحياة الرافعي في بيته كانت مثلاً للرجولة والأبوة والمسؤولية ، فهو يكدُّ أول النهار في الوظيفة ، .. ويكتب ويؤلف طوقاً من النهار والليل ، ويهيئ لذلك البيت الجليل اسباب الرفاء وستر الحال ! .

وكثيراً ما كان يشرك زوجه وأبناءه في شؤونه الخاصة ، ويلتمس عندهم الرأي والمشورة ، وإن كان « سيد بيته » بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معانٍ .
وما أمر « قلبه » وما عاناه من هوى برّح به وألهمه آيات من الفن الأدبي الرفيع ، وموقف السيدة الفاضلة زوجه منه إلا المثل الرائع للحياة الفضلى التي وهبها الله سبحانه إياه . وقد هيأت له من مكتبته في بيته مكاناً يهبط عليه الإلهام فيه .

ولكنه كثيراً ما كان يترك هذا المكان ليساهر أبناءه وهم أطفال ، .. ويلطفهم ويمتعهم بمباهج الحياة حين يحبون أن يمرحوا ويسرحوا كما كان يهوى هو في صدر أيامه .

وحينما أشير عليه بممارسة الألعاب الرياضية لكسب الصحة لجسمه النحيل ،
جعل من هؤلاء الأولاد (ثقلاً) يرفعه من بين التمرينات العديدة التي يمارسها ،
او يعلمهم السباحة في سيدي بشر بالاسكندرية .

وقد يترك محراب فنه أحياناً ، ليعكف على تدريسهم ساعات من الليل ،
يمكنهم فيها من أداء واجباتهم المدرسية ، ليمتازوا في النجاح عند الامتحان .
وكل واحد من أبنائه يحمل من هذه الذكريات ما لو دونها في صفحات
سكان فيها بعض الوفاء الذي يكشف المدارس عن جوانب نفسية أخرى غير
التي تنهيا له من آثاره الأدبية والنقدية .

ولا سيما أن الرافعي لم يُعَنِّ بتدوين سيرته الذاتية ، ولا هو روى لنا في
مذكرات خاصة اطرافاً من حوادث طفولته ، او صوراً من أيامه في يفاعته ، وصباه
وشبابه ، التي يمكن أن تكون ذات أثر فيما آل من ثم في زعامة الأدب الاعتقادي .
ولربما تكون أيضاً مادة غنية أخرى في تفسير بعض نواحيه الخلقية والنفسية
ومزاجه العقلي ، الذي مال به الى التصوف أحياناً ١ .

ولم يبق لنا من ذلك كله غير ذكريات من روايات لأحداث سمعت
عنه ، او أخذت من بعض إخوته ، كالنبوي الرافعي ، ولكنه هو الآخر
لم يعن بتدوينها ١ .

وكان احد أبناء عمومة الرافعي قد أحسَّ بفقدان هذا الجانب الخطير
من حياته فراح « يستميله كتباً ورسائل في معان مختلفة ، حتى اجتمع له بعد
ذلك جملة صالحة ، فأراد يُطبعها » ولكن الرافعي نهاه عن ذلك ، و « اعلمه أنه
يرأ منها إذا هو نشرها » .

ولكن ابن العم هناك قد غفل عنها بعد وفاته، فما قدمها للأمة في طبعة خاصة، وإن كانت « هناك أشياء أخرى لم يرد الرافعي أن يبوح بها » (١). ولا يدري أين مكان تلك « الجملة الصالحة من المعاني المختلفة » الآن. وقد حدثنا الشيخ محمود أبو رية أنه أكثر من الإلحاف عليه بالطلب في شيء يشبه ذلك، وكان عذره بعدم اتساع وقته.

ورأيت إحدى حبايبه تكتب له مثل قولها « .. كم أتمنى أن تدوّن رشتك الساحرة بعض مذكرات خاصة، تصبح مجموعة بعد زمن، تخرج الى العالم مكان النفس الحاسة .. بهذا هذه الأمنية » (٢).

وأنحسبه قد هم في استجابة ما لمثل هذا الطلب المتمنى الحبيب .. ولكنه لم يتيسر له أن يتمه .. وربما لم يبق ما شرع به أيضاً. بعد المأساة التي انتهت اليها مكتبته، على الأساس الذي تنتقل فيه الى دار الكتب لتكون جنب مكتبة أحمد زكي باشا وأحمد تيمور باشا وعبد الله فكري وسواهم ولكنها أضيفت.

* * *

(١) الرافعي - الرسائل ص ٢٤، .. ولعله الشيخ محمد سعيد الرافعي وكم يكون جميلاً لو أن « المكتبة الأزهرية » قد وقفت على هذا الأثر النفيس فقدّمته منشوراً خدمة للتاريخ والعلم والأدب ! ..

(٢) ماري نبي - من رسالتها المؤرخة في ٩ آذار - مارس ١٩٢٦ م.

حياته الأدبية

لقد مر بنا أن كلمة خرجت من فم الشيخ عبد الرزاق الرافعي تجبر خاطر ابنه ، وتبعث فيه العزيمة الماضية للجهاد في سبيل الله .. وكيف وافقت من ادبنا اليافع هوى في نفسه ، وكان لها وقع الإلهام عليه ، وآية الوحي لديه .
ومن الدروس العلمية الأولى التي تلقاها على يد أبيه الشيخ ، .. الى ولعه بالعربية وفنونها ، الذي أظهره في المدرسة الابتدائية في المنصورة ، والذي كاد فيه أن يضع شواهد للنحو والصرف جديدة من نظمه ، غير التي تناقلها علماء اللغة والرواية ..!

ثم إن حياته في العصر الذي يتنفس فيه العقل الأدبي للأمة ، وبنهض فيها شعراء لسن وكتاب ذوو فكر ، ودعاة عقيدة وسياسة ، ومذاهب إجتماعية تضرب في جوانب الحياة ، .. وسوى هذا وذاك ، وما كان له من استعداد لدي ، وإرادة تنحدر في دمه ميراثاً لعزيمة آباءه وأجداده ، .. وقد هيأ له أن يسلك سبيله في حياة أدبية حافلة ، .. حتى ليصدق فيه إجماع النقاد من معاصريه « أن حياته ممثلة في أدبه » (١) .

وقد قامت حياة الرافعي الأدبية بين متوازيين - الوظيفة والبيت - فكان لها كالحُدود الطبيعية والجغرافية والسياسية للدولة وكأنه قد عنى ذلك بمثل قوله :
أنا المقيّد في نفسي وفي خلقي كأنني قيدٌ حرٌّ قيده القسم ! ..
شتان بين امريء في نفسه حرٌّ قدس وبين امريء في نفسه ضمٌّ
والعود أوتاره ان لم تشدَّ به شدَّ المقيد لم يصدق لها نعم (٢)

(١) راجع أنور الجندي في مصنفاته - مادة الرافعي .

(٢) الرافعي - أنا ونفسي - المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩٢٧ م .

.. ففي وقت سابق جداً من أيام صبوته وبقاعته كان يشعر وكأن
« روحاً رفاقة كانت تطيف به ، فتزعه عن وجوده الذي يعيش فيه لتحليق
في أجواء أخرى بعيدة ، وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ، ولم يعرف
مكانها ،.. فتوحي اليه الشعور بالقلق ، والاحساس بالوحدة ولذعات الحرمان ،..
حتى يضطرب فلا يجد متنفساً يتنفس به عن نفسه غير الشعر ، يقرؤه ويتمثل
به ، وينسج على منواله ،.. وكان ذلك في أول عهده ، فما كانت أمنيته إلا أن
يكون شاعراً وحسب » (٢) .

ومن يتأمل في حديثه عن « الشعر العربي » (٣) آنذاك ، وقصيدته في
« ذم الهوى » (٤) يدرك مثلاً قائماً للاضطراب الذي كان يعانيه في تلك الأيام ،
وهو يهم أن يولد في حياته الأدبية .

ففي الحديث أطال الكلام ، وقدح في القديم ،.. ولفت الأنظار الى
« ما يقوله الشعرون » . وإكفنه في « ذم الهوى » تكلف حالة من الوعظ
لم يوفق فيها ..!

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٥ .

(٢) الرافعي - الشعر العربي - المنار ١٥ - ٣ تموز - يوليو ١٩٠٠ ص ٢٦٤ .

(٣) « ذم الهوى - المنار ٤٦ ، رمضان ١٣١٧ هـ - كانون الثاني

يناير ١٩٠٠ م ص ٧٣٤ .

ومن ذلك نفهم لماذا قاسى الوحشة في المنصورة في تلك الأيام ، مع أنه
« كان منطوياً على عشق لبعض الصور الحسنة » فكان هذا يخفف عنه .. حتى
« ليلجأ الى شاطئ النيل وراء النهر الصغير ليجد في تلك البقعة وحشة تعالج
وحشته » (١) .

وكانت أوصاف حسان هذه المدينة الحلوة قد طارت يومها في الآفاق ،
تتناول عناوين الغزل من أفواه المحبين ، وتستأثر بأرق النسيب للشعراء ، ويهم
فتيانها بأبلغ التشبيه ١١ .

ولكنه بما كان فيه « من الاستعداد الأدبي الكبير .. وبما في أعصابه
من دقة الحس وسرعة الاستجابة لما يفعل به .. تنبأ ليكون كما أراد ، وأن
يبلغ بنفسه هذا المكان - بين أدباء العربية » (٢) .

فما كاد يلح فئاته الأولى على جسر « كفر الزيات » ، ويرى فيها
صورة مما كان يمنح إليه خاطره ، وتهفو له نفسه .. حتى مال إليها بقلبه ، وغلبته
على هواه ، حين « عصرها » وعمره يومئذ إحدى وعشرون سنة ١١ .

ومن وحي هذا الحب كانت معظم قصائده الغزلية في « عصفورة »
الديوان ، ولوعه من ثم بشاعرية الحسن (٣) وما ابتدر القول ، وأنشأ الأبيات ،
وسار في هذا السبيل حتى راح يبحث عن مكانه بين أدباء الجيل .

(١) الرافعي - الرسائل ص ٦٤ ، - ومع ذلك فقد كان يحلوه أن
يذبل بعض ما يبعث به للصحف آنذاك بعنوانه على المنصورة .

(٢) العريان - حياة الرافعي - ص ٢٧ .

(٣) الرافعي - الديوان ج ١ ، هامش ص ٦٨ .

فسعى ليؤكد صلاته بشيخ الشعراء العائد محمود ساجي البارودي - رح -
يطري نعمته ، ويقرأ له ويأتمس عنده البركة والتشجيع (١) .
وعقد الآصرة بينه وبين الإمام محمد عبده - وقد كان كالتابع الأدبي
للعصر كله .. فهو يقول له مستأذناً :

ببابك العالي ذوو حاجة لولا التقي قلت ادخلوا سجدوا
فاذن لعل القوم مثل الذي قادته تلك النار نحو الهدى (٢)
ومضى يغشى المجالس هنا وهناك يتحدث ، وينشر في الصحف ويذيع
اسمه بين الناس ..

ثم انتهز نهضة يستطيل بها في « شاعرية الحسن » ، ويسبق صديقه محمد
حافظ ابراهيم الشاعر الذي ذاع صيته بين الناس .. وهو لا يقول في الغزل (٣)
وهذا نقصه ، .. وكأنا تمام هذا النقص عند الرافعي الذي أكثر من النظم
في هذا الفن الفنائني الجبل .

وحدث أن جاء الى مصر في تلك الايام شاعر عراقي كبير نشرت له
« المؤيد » غرة من قصائده فكانت كالاعلان عن مكانته ومقدمه .
ومضى الرافعي أكثر مما ينبغي حين ترك الوظيفة وسعى للقاء الشيخ عبد المحسن

(١) أنظر الرافعي - الديوان ج ١ ص ٤٠ .

(٢) « » » ج ٢ ص ١١١ ، وأنظر ج ١ ص ٤٢ ،
وج ٢ ص ٧٢ .

(٣) أ . نجم (الرافعي) - شعراء العصر - الثريا - كانون الثاني
- يناير ١٩٠٥ م .

الكاظمي ، ولكن سرعان ما اصطدم به حين لم يستقبله بما يليق نفسه ، فراح يكتب في ذمه والزراية به ، وينعته بما يغيظ ... حتى ألجأه الى الاتصال به ، وتسوية ما حدث عن غير قصد في التجني ، ثم صفا ما بينهما الى الصورة المثالية التي جاءت في كتاب الكاظمي له وهو يغادر الى الأندلس : « .. ثق إني أسافر وأنت بقيت في مصر » (١) .

ثم إنه نفّس على أحمد شوقي شاعريته . وآذاه بالغمز تارة واللمز أخرى ، في الوقت الذي كان فيه شوقي يطري نعته ويتوسم فيه الشاعرية الجديدة .

كما نفّس حافظ ابراهيم ، فلا يكاد يقول حافظ في معنى ، او يرسل قافية إلا والرافعي يلاحقه في المعنى نفسه ، والقافية إياها كأنما يستبق معه على رهان ! . (٢)

مع ما بينه وبين الاثنين - شوقي وحافظ - من فوارق السن وتجارب الحياة ! ..

فما كاد حافظ يخرج ديوانه الأول ، ويقدم له بمقدمة بليغة ، ويترك لمحمد هلال ابراهيم المجال في شرحه ! .. حتى نرى الرافعي يسارع فيخرج هو الآخر ديوانه الأول ويقدم له بمقدمة كادت تنسي الأدباء والنقاد مقدمة ديوان حافظ ، ووضع اسم أخيه « محمد كامل الرافعي » على الشرح الذي وفي به الديوان حقه ! ..

ولما أصدر حافظ الجزء الثاني من ديوانه ، أردف الرافعي ديوانه بالجزء الثاني أيضاً ، ثم أتبعه بالجزء الثالث ، وقد حشد فيها من الشعر والقصائد والمقطعات والأبيات ما جعلت حافظاً ينعته بـ « المكشّر » ردّاً على كلمته الرافعي عنه وصفه

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي .

(٢) سنعرض لذلك عند المقارنة .

فيها بأنه (مقل) في النظم ١. على ما سوف نستفيض فيه دراسة في كتابنا التالي .
ولكننا في الموضوعات الاجتماعية والقومية نجده كثيراً ما خالف حافظاً ،
وشوقي ولم يسلم كلاهما من غمزه وتحديه ..١

وفي حياة الرافعي الأدبية ظهرت بعض ميوله الوطنية والعمومية ، ذلك
أن الزعيم مصطفى كامل كان قد استأثر بنا بفتين اثنين من بني عمومته المحامين ،
أما أحدهما فهو زين الشهاب الرحوم أمين الرافعي ، الذي كان بحق قلم الحركة
الوطنية الحر ، والثاني أخوه عبد الرحمن الرافعي - رح - الذي أرخ للحركة
القومية في مصر بعد ذلك ..١

ومن ذلك نجد الرافعي كالاستجيب لدعوة مصطفى كامل ، ولا سيما بعد
احتفائه به والتعريف بديوانه ، والتأميل له بالمستقبل الحكيم والبيان الجميل ، .. -
فقد سارع لوضع « نشيد وطني » (١) لمصر مع ما عرف عنه من ولاء لادولة
الخلافة ، فلم يجد غضاضة ولا فرقاً بين دعوة الجامعة الإسلامية ، والحركة
الوطنية في مصر .

ومن هنا كانت تنفسح صحف الحزب الوطني للرافعي وأصدقائه من
الكتاب والشعراء ، .. ويحيي اهتمام الرافعي من ثم بدعوة مصطفى كامل الى
إنشاء الجامعة الأهلية في « فكرة وطنية انشق لها مكانها في الحوادث ، وبذات
فيها الأمة ، وشتمت لها وجداً بها الجد » (٢) ٠٠ فلم يلبث أن كتب حول
موضوعات دروسها في اللغة العربية وآداب العرب ، حتى مكّن لهذا العلم الفريد

(١) الرافعي - ديوان النظوات ص ١٥ .

(٢) الرافعي - المعركة ص ٦٩ .

أن تكون له أصوله ومناهجه فيها ، ويتسابق العلماء والفضلاء من الأُدباء في وضع دراسات قيّمة من أجل ثبات هذا الفرع في الدراسة الجامعية ١ .

وحياة الرافي الأُديبة هي التي ميزته عن محيطه من الناس بعامة والموظفين بخاصة ، وعرفت به في أوساط أخرى ، ومنتديات اجتماعية وسياسية كبيرة . وكذلك سعت به للاختلاف على ديار الشام ، والتمتع بالاجازات السنوية بين أهليه وذويه بطرابلس الشام ، ومغاني الجبل في بحدون ووديان الهوى ، .. وأغراس الفتنة الطبيعية والجمال الأسر ١٠٠!

وكم أنشد من وحي تلك السفرات من أشعار ، وأرسل القصائد ، وكتب الرسائل ، .. وكانت آية هذه جميعاً تلك المقالة التي صرف فيها وجه الحديث الى القمر ، ناجى فيها « ليلاد » هناك ، وحاورها في شؤون الحياة والاعتقاد والفكر ومذاهب الاجتماع ١٠١!

ثم لما أراد نشر المقالة ، زعم أنها كتبت بأسلوب خاص ، يمنح من يُمن قراءته وتأمله « ملكة الإِشاء » ذلك الموضوع الذي جعله عنوان الكتاب الذي كان يعقد النية على إخراجه ١٠٢!

وكانت بوادر الاستقرار على خط الادب الماضي به الى الإمامة من ثم قد لاحت له بالرغم من تجاهل « الجامعة » المنشأة حديثاً لشأنه ، .. فقد تلقفها كما أسلفنا فتنة (ذوي المصالح الخاصة) من (المعتدلين) أتباع الحزب الذي سمي نفسه على الأُمة ، .. وبالع في نعت أوصافه ١٠٣ حتى يبعد عنها (المتطرفين) في الحركة الوطنية ، والحزب الوطني ، الذين آثروا الثبات على المبدأ ، والالتزام بالأهداف القومية الأُمة .

وإزاء ذلك الموقف كان الراجعي سر أبيه ، الذي تقدم لامتحان (العالمية) عقب مشادة جدلية ، فأثبت فيها وجوده العلمي ، ودرجة تفوقه الفقهي ، وضلّاعته بكل^١ . فقد تقدم هو الآخر بمصنفه الفريد في (تاريخ آداب العرب) وقد اقترح له منهاجاً مغايراً لما كان عليه المستشرقون في تقسيم ذلك التاريخ بحسب الظروف السياسية التي مرت بالامة ، وتحري أن يكون بدءاً من الدراسات العلمية .

تناول في الجزء الأول منه اللغة والرواية ، أثبت فيه من الدقة وتحري الحقائق في المعلومات ما أكبره عند (المقتطف) المجلة العلمية الرصينة - حتى عده كتاب السنة !.. وعكف عليه الامير شكيب أرسلان ، وإن أوغر صدور بعض الكتّاب والأدباء كطه حسين وجورج زيدان - حسداً له على توفيقه فيه .. كما سيرد .. وقد أتبعه من ثم بالجزء الثاني الذي درس فيه القرآن والحديث في صورة من الكشف عن أسرار الأعجاز والبيان نذر أن يقف عليها سابق في الاستيعاب . وحدث له أن اهتبل الفرصة فغشي الحياة الصحفية يوم استبد الرأي بصفيه وصهره الشيخ عبد الرحمن البرقوقي لإخراج مجلة « البيان » لتسلّك سبيلها مع « المنار » مجلة الشيخ محمد رشيد رضا زميله في التلمذة على الإمام محمد عبده (رح) ، وبقيّة الصحف والمجلات الأخرى ١ .

وما تزال للقالّة الافتتاحية الأولى التي عقدها للمجلة تعتبر وثيقة قومية خطيرة يشير إليها معظم الذين تصدوا لدراسة العصر في شؤون الأدبية والاعتقادية ، ويجمع بينهم نسبتها خطأ للشيخ البرقوقي (١) .

(١) يحتفظ الشيخ محمد أبو ربة بمسودة هذه المقالة بخط الراجعي نفسه =

ولما كانت هناك بعض المذهبيات الحديثة ، تحاول أن تغشى الحياة الاجتماعية بنظريات في الاشتراكية ، وأفكار في تحرير الفرد من ربطة الأيام ، وآراء في تمكين المرأة من الاستقلال الذاتي ، .. فقد راح الرافعي يحاضر في جمعية « الاحسان » السورية - المصرية عن هذه الموضوعات ، ليجتمع له من ثم « كتاب المساكين » الذي يعدل عندي ثورة اجتماعية ، وإن أنهم يومها بغموض العبارة ، وانبهام القصد ، .. فقد تحرى فيه المقارنة الحديثة ، والصورة الواقعية للفقر والفقراء ، وطبقات الناس ، .. ولم تحده المتخيلات النظرية ، ولا الموائد الخيالية ١ .

وبوم أعلنت سلطات الاحتلال الحماية البريطانية على مصر ووزال صفة السيادة العثمانية عنها ، .. وفتحت السجون أبوابها لتتلقى عناصر الحركة الوطنية ، وفي مقدمتهم أبناء عمومته أمين وعبد الرحمن النجدة الرافعي - وكان موظفاً في الحكومة - كالذي يؤثر السلامة ، ويميل ناحية الاجتماع ، فيتحدث عن المشردين والاطفال ، ويخاطب النساء المتبرجات ، والشبان الخثثين .. الى آخر ذلك من الموضوعات التي لم يكن يطرأها الأدب العربي فيما مضى ، وقبلما تصدى لها معاصروه ١ . ولكن بلغت به الحيلة حداً تقاعس فيه من رثاء محمد فريد الذي توفاه الله وهو في المنفى بأوربة . وكانت سنوات الحرب ذات وطأة عليه وأذى ، واشتد عليه فيها المرض ، ومضى يلتمس له العلاج في كل مكان ، ومن كل مصدر ، حتى انتظر الخوارق والكرامات ، وجأ بالشكوى الى الله أن يمن عليه بالشفاء ، والتمس الدعاء عند كل صديق يسأله له في ذلك .

.. وبالقلم الرصاص ! - وكذلك قصة رواندا لي العريان رحمه الله ، وانتظر ، قناعات منجولة « في كتابه (حياة الرافعي) ! .

وا-كن ما كادت الحرب تنتهي بالهدنة ، وتندلع الثورة الوطنية في آذار - مارس ١٩١٩م ، وتمتد لتكون نهضة جديدة ، حتى ترى الرافعي يضحى فيها نشيد الوطنية والقومية ، - يعالج بعض موضوعاتها خفية على صفحات « الأخبار » جريدة أمين الرافعي (١) ، ويرسل فيها نشيده « الى العلا » ويعود فيلقى على لسان الرجل الذي اختارته الاقدار رائداً لها نشيده الثائر « إسلامي يا مصر .. إني الفدا » الذي ما يزال من مرددات أبناء الأمة عند كل تطلع قومي من حركة وطنية أو ثورة ! مما جعله بأسف على نفسه أن يفوته زمن الشعر ، وهو في غلّ « الوظيفة » ، ويدرك أن فرصاً فيه قد فاتته لو قال فيها شعراً كما ينبغي لأحرم منكيب سعد (باشا) في شهرته (٢) .

ولما تمكنت دول الاستعمار من الديار العربية عقب انتهاء الحرب ، وقسمتها في الاقليميات الانفصالية القائمة والتي ما زالت تعاني من الانشقاق والانحطاط الى اليوم ، .. كثرت الرسائل التبشيرية ، والمحافل الماسونية ، والمنتديات العلمية والثقافية التي كانت تمدّها وتغذيها تلك الدول عن أنبيائها ، وكشفت عن بعض المستور من حقائقها وغاياتها ، فسلطت العديدين من وارداتها على العرب ومقدراتهم ، وعلى الاسلام وجوانبه الاعتقادية ، في حركة تزعم العلم والتجديد فيه ، والأخذ بأساليب الفرضيات المنهجية التي تنتهي بالأحكام المسبقة في موضوعات لم تعرض فيها الحيثيات كما ينبغي !..

وسعت العادات الوافدة ، والتقاليد الجديدة تصور للناس « دين المحبة »

(١) أنظر رسائل الرافعي ص ٦٧ .

(٢) « « « ص ٨١٣ .

في صورة من بغض العرب ، والاستخفاف بدينهم ومعتقداتهم ! . وتسفيه الكثير من تقاليدهم وأعرافهم ، .. وقد جلى الرافي في هذا المسلك الخطير بناحيتين ، وانتظم مضارين ، .. وسابق في ميدانين ..!

كان الأول منها إنتقاؤه لموضوعات الحب وفلسفة الجمال ، .. يكتب فيها « لفتاة الشرق » ليبيّة هاشم فصلا ، ويرسل في « حي » بضعة رسائل يسميها على الأحران ويضمنها مقارنات حديثة ، وموضوعات جدلية يتسامى فيها مع عقيدته القومية ودينه الاسلامي الخفيف ، بما يجعل التوفيق حليفه في الأسلوب والمضمون ، او بعبارة أدق في البيان الجديد وماله من حلة البلاغة وإشراق العبارة ، وإرادة الاعتقاد التي تستبد بالتكوين العقلي في غلبة وتسليم ..!

ومن أجل هذه الحقيقة تصدى له شائثوه من واردات أوربة المستعمرين من أفكارهم ، .. فحاولوا معه نقل المعركة الى قشرة الأسلوب ، إبعاداً للناس عن معانيه البيانية الوضيئة ، ولكن هيهات أن يطاولوه ..!

وكان الميدان الثاني في حمله لراية القرآن مجاهداً في سبيل الله بمعارك فكرية رهيبة ، كانت مجالاتها في الأدب والتاريخ والنقد ذات خطورة بالغة ..! وإن حوربت بتجاهلها من قبل بعض الدارسين الأغبياء ..!

وقد سار في المضمار الأول بقطع الأشواط في « السحاب الأحمر » وجمع اليه رسائل من أوراق الورد ، يتم بها خامسينه الانشائية الفريدة ، التي ضمنها دعوة العرب الاعتقادية في الحب والحياة الكريمة الفاضلة (١) ، يقتصد أن تكون

(١) راجع العريان - في ذكرى الرافي - الرسالة ٣٥٤ ص ٨٣٤ ، .. وقد كاد أن يصل هذه الحقيقة ، حتى غبطني رحمه الله على ما وصلت اليه من تأمل ..! وقال : سوف نتكشف لك أشياء أخرى ، وربما حان الوقت لإذاعتها ونشرها .

مادة ذلك من حبيباته المسيحية بخاصة ..! كما سبرد في فصل خاص .
ومضى في الثاني على سجيته يترك منازل به أشلاء بين « الشعر الجاهلي »
و « على السفود » ويلقيهم على الصحافة السياسية « صعاليك » الأحزاب ..!
وقد أعجز بذلك مناوئيه من دعاة التجديد أن يطاولوه في مجارة ،
أو يستبقوا معه في مباراة بالرغم مما آذوه به من الملاحاة والمهاترات ..!
وخيل إليه أن تهدأ روحه الثائرة ، وأن يخاطب الأمة من شرفة يقف
فيها « شاعر الملك » ليقول ما كان يريد أن يقوله فلا يتهمها له ..! ولكن جواد
الشعر كبا به .. وأحس أنه جاء متأخراً ، فلم يلتفت الى « فؤدياته » في تجميع
أو إعادة نظر فكان كالذي سلك غير سبيله ..!

ولكنه حين استقبل غرسه في بنيه ، وأوشك أن يشمر احدهم ، ٠٠ راح
يستجمع قواه التي أنهكتها الثورة الحانقة ، وأتعبها النقد القاسي ، وصقلتها الأيام
ليكتب تلك الفصول الرائعة التي اجتمع بعضها في « وحي القلم » عنواناً للمقالة
البيانية في العصر الحديث ، والتي ضمت اليها كل طريف ، ورائع من أحاديث
الأدب الاعتقادي العامر، وسير التاريخ القومي وجوانب تتناول الحياة الاجتماعية
للأمة من أطرافها العملية جميعاً ..!

والوحي ما يزال منبعاً ثراً ، وكرماً معطاء لآراء الرافعي ، واجتهاداته
وأفكاره ، فكأنه كان الخلاصة الرائعة لحياته الممثلة بأدبه ..!

على أن ما يؤخذ على الرافعي في حياته الأدبية أنه كان يعتزل الناس
أكثر مما ينبغي ، - ولعل مرد ذلك الى عاهة الصمم التي أطبقت عليه حين تجاوز
الثلاثين من عمره ، ولذلك جاءت بعض ثماره الأدبية ، والشعرية بخاصة مما

يحتاج الى المراجعة والتعديل لتقوى الى جانب مآثره الأدبية الاخرى التي خلّق فيها جواداً سابقاً ١.

ويؤخذ عليه كذلك أن قصده في البلاغة يفرط به حيناً الى توخي الإيجاز بالحدف ، واعتساف الجملة بالاختصار ،.. حتى لتجتاح الى تأمل وإشفاق لادراك معانيها قصداً وهدفاً ١١.

والقصود في البلاغة نفسه ، قد فرط فيه أيضاً الى المبالغة والتهويل ، ولا سيما حين يجهز على خصومه نقداً وإيذاء .

ولعل ذلك أيضاً ما حدا به - وهو يسابق أحمد شوقي وحافظ والمطران في مدح سعد زغلول والملك فؤاد - الى ركوب متن المبالغة في التقدير ، فجاءت أمداحه - على ما فيها من قيم واعتبارات ليست منها في مدائح معاصريه - وقد غالى فيها مغالاة مكنت مناوئيه من التصدي له وشتمه بعد موته ١١.

والتأمل في تلك القصائد والأشعار يدرك حقيقة ما هدف اليه فيها من مخاطبة أبناء الأمة لتحري المثال ، ولكنه يقف على صورة المبالغة التي كان الرافعي يخيل فيها لنفسه أكثر مما ينبغي ، ولعله كان تحت وطأة من المفارقة والايهام ،.. لينتج في المديح ما عفا عنه دحراً ١١.

* * *

وقف الرافعي في آخرة أيامه يتأمل عصره ، ويستبطن ذاته ، ويستجمع أدااته ، وأراد أن يتحول الى « الناقد الذي يملأ فراغ العصر » وقد أعياه التفتيش عنه بين معاصريه ثلث قرن أو يزيد (١) و « أن يستعد لحملة التطهير

(١) راجع الرافعي في كلمات عن حافظ .

التي تهدم العصر من أركانه الضعيفة ، لتعيد بناءه على أسس من المتانة والقوة « (١)
تحفظ له إرادة التغيير .. ولكن حكم القضاء كان ماضياً ، .. فقد وافته المنية فأسلم
الروح في سكونة قلبية سقط بعدها في الحمام. عقب اغتساله في فجر يوم الاثنين
التاسع والعشرين من صفر عام ١٣٥٦هـ الموافق للعاشر من أيار - مايو ١٩٣٧م ،
وكأنها كانت تستجيب لدعائه المتصل أن لا يرى الكبر والهرم الذي قد برده
إلى أرذل العمر! .. وهكذا لقي ربه راضياً مرضياً ..!

ومنذ ذلك اليوم ، والأمة لا تملك غير الترحم عليه ، ويتنادى بعض
محببيه لإحياء ذكره فتحول السياسات العجاف دون هذه « المجاملة » ..! ويطلب
القراء بعث أدبه ، فلا يجدون غير طبعات رديئة لبعض جليل أعماله ، وتضيق
الجامعات بدراسات تتناول جوانب من فنه وحياته أو آثاره ..!

فأله أسأل التوفيق والسداد فيما أنا بسبيله من هذه الدراسة المخاطرة
في جوانب من حياته ، أن تكون محاولة جدية على المستوى الاعتقادي الذي تقوم
به الأمم . أعظمها ، من ذوي الفكر والأدب والشعر والبيان إنه سميع مجيب مكرم

(١) أنظر أحمد حسن الزيات - الرسالة ٢٠٢ - ٥ - المتضمنة رسالة الرافعي
المؤرخة في ٩ أيار - مايو ١٩٣٧ م . وراجع كذلك الرافعي - الرسائل
ص ١٨٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ .

الفصل الثاني

الرافعي والخب

« إن النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا
إذا أحب وعشق » (*)

الرافعي .

لقد نسب الرواة الى قيس بن الملوّح العامري (١) - سيد عشاق العرب
ومثلهم الفريد - قصيدة يدفع بها عن نفسه تهمة الخبل والاختلاط ، ويصف فيها
ما بلغ به الهوى من برحاء المواجد والآلام ، مما لم يحتمله سواء من المحبين فيقول :
.. لعمرك ما لاقى جميل بن معمر كوجدني بليلي ، .. لا ولم يلق مسلم
ولم يلق قابوس وقيس وعروة ولم يلقه قبلي فصيح وأعجم (٢)

(*) الرافعي .. سر النبوغ في الأدب - المقتطف ، كانون الثاني - يناير
١٩٣٣ م وحى القلم ج ٣ ص ٢٦٨ .

(١) يزعم بعض المؤرخين لأدب العرب من المستشرقين وزبولهم بخاصة ،
بخيالية قصته ، ولسنا من مذهبهم .. وإنما نحن نقول مع الأستاذ زكي مبارك - رح -
من المنقصة للتاريخ الوجد في للعرب أن يكون وحده « المجنون » بليلا بينهم .
(٢) .. هم عشاق العرب الذين أفاضت كتب الفنون والآمال في استجماع
أخبارهم وآثارهم .

ثم يعرض لحقيقة الحب في الحياة ، وكونه أول ما في الانسان من الانسانية ، ويمثل لذلك بقوله :

صبا يوسف واستشعر الحب قلبه وما كاد أيوب من الحب يسلم ..
ولم يخل منه المصطفى سيد الورى أبو القاسم الزاكي النبي المكرم
فإذا كان حال أنبياء الله وهداة خلقه في هذه الحقيقة كذلك .. فليس
ثمة ملامة على مثل مجنون بني عامر ! ..

وإذا كان سيد الورى ، وأكل خلقه ، ذو الخلق العظيم محمد (ص)
لم يخل من الحب ، وكان له فيه مع أم المؤمنين خديجة الصديقة (رض) حياة
لها سيرة ، لم ترتفع إليها « الحميراء » (١) بصباها ولادها .. فهل في الحب عار
أو مذمة ؟ (٢) .

* * *

وإن نحن انقلبنا الى حيوات الأبطال ، وسير المفكرين منهم بخاصة ، ..
لوقفنا على حقائق ودقائق من أيامهم ، فيها من أخبار الحب ، ومواقف الغزل ،
ومواجد العشق والصباية ، ولوعات الفراق والحرمان ، ولذعات المراتر .. ما يثير
في النفس الانسانية العواطف والتأملات ، ويبعث على الرحمة والاشفاق أبدأ ..
وإذا كانت هذه القصص والأخبار قد اقتصرت عند العرب على بعض

(١) « الحميراء » هي سيدتنا عائشة الصديقة بنت أبي بكر الصديق . .

زوج النبي . وفي الحديث « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » وسميت
كذلك للزهرة التي كانت تفيض على جمالها .

(٢) راجع الثعريدي - حياة الرافعي ص ٦٦

عشاقهم ، وصفوة من شعرائهم ، وقلة من نبغائهم ، .. فان آداب الأمم الأخرى قد حفلت بهذه الناحية من الحياة الانسانية ، .. وزخرت تراجم عظمائهم وسير أدبائهم ، وحياة مفكريهم بروايات فيها أخبار عزائمهم ، وحوادث عشقهم ، .. ووافقات تنمت قصص حبهم ، وتطري ذلك بغير قليل من المبالغة واستهداف التسويغ في كون هذه العاطفة الانسانية الرفيعة مصدر الالهام لهؤلاء ، ومنطلق الطاقات الوجدانية عندهم ، .. ومثار الاحتفاء بالحياة لديهم . . .

وكان العصر قد أحضر من مترجمات تلك الآداب ما فاض في هذا الموضوع من قصص وروايات وسير وتراجم ، .. وإن اختلط فيها من الأخبار والوقائع ما يحل ويحرم في العرف القومي للعرب . . .

وأحسب أن الرافعي قد وقف على جملة ذلك ، .. حتى انراه يقول ، في سبب ذلك : « أن أمثال هؤلاء وأولئك من المفكرين والأدباء ، قد طغت فيهم الحياة طغيانها العصبي الشديد ، .. يريدون المرأة المغلقة ، كأنها من الفن الحي تغل عليهم من ثمراتها » . . .

« ومن فسوق الكتاب والسكثرة من العباقرة ، .. وهؤلاء بركة على الفن ، ولكنهم بلاء على الدين والفضيلة ، ومن سخرية الحياة بهم أن يكون العبقري فيهم هو من ناحية أخرى .. الحيوان العظيم » (١) .

ولعل في إلحاق الشيخ العروية أحمد زكي (باشا) - رح - للرافعي بشكسبير الانجليز ، وتولستوي الروس وجوته عظيم الأدب الألماني ، .. قد

(١) الرافعي - حديث عن الزواج - الرسالة ٤٢٠ ، محمد فريد جندبي

- أزمنة الزواج ورأي الرافعي ص ١٩٤ .

إستطال به الى أن يكون « رافعي العرب » (١) ، وربما خلقت به هذه الحياة تلك الروح التي جعلته « على كل أحواله إنما ينظر الى الجمال كما يستنشي العطر يكون متزوعاً في الهواء » .. أن يقول :

« .. ثم لا يدفعني اليه إلا فطرة الشعر والاحساس الروحاني دون فطرة الشر الحيوانية » .. « ومتى أحسست جمال المرأة أحسست بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها .. غير أنه منها » (٢) .

وهكذا جعلته هذه « الرافعية » في الحب يتميز بها عن سواه من المحبين العرب ، .. أو نبغاء الفرسان والأدباء في الغرب .

لقد اتخذ الحب فطرة الله التي فطر الناس عليها ، بما ينطوي عليه الحب من قيم وأعراف ، .. وتوسل به الى أشرف الغايات ، وأعرس الأهداف فيما نوثقه من عزيمة المضاء ، ومخاطرة الايمان ، وصبر الجهاد .. واستهدف فيه ما يشرق اليه من حيوات الضمير والوجدان وجللاء البلاغة وصفو البيان .. حتى لم يعد في حياة الرافعي غير قصة حبه (٣) عليها عاش في أدبه وشعره ، وبها تمكن من حفظ توازنه ومصابرته الأيام ، ومنها استمد عناصر القوة التي قهر بها خصومه ومناوئيه ، .. وفيها سكب ذوب روحه ، وعمر ضميره ، وأخلد وجدانه ، حيث حلا له أن ينظم ، وراق له أن يقول ، وشاقه أن يؤلف ويصنّف .. ومن هذه النواحي مجتمعة انبهرت على معاصريه فصول من هذه الحياة

(١) راجع كلمة زكي (باشا) في مقدمة المساكين .

(٢) الرافعي - الجمال البائس - وحي القلم ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) العريان - في ذكرى الرافعي - الرسالة ٣٥٤ ص ٨٣٤ .

الفريدة التي عاناها في الحب ١. فوقعت بين برائن الدحض والافتراء ، لقصور في فهم مراسمها ، أو إدراك أبعادها وغاياتها ٠٠١

ولو تنهياً لنا أن نتأمل فيها بخلاص نية وحضور قلب وبقظة وجدان أمام فرائد أخرى للحب عرفت لأفلوطين ،.. وغدت من ثم مذهباً ، وأغرق في بعضها عشاق العرب من بني عذرة ، حتى انتسب الحب اليهم ،.. ومحاولات وجد فيها المتصوفة المسلمون عرفاناً ، ونوادير فاز بأخبارها فرسان العصور الوسطى بأوربة ، وأمثلة اسوى هؤلاء وأولئك عند أصحاب الأذواق والمواجد والديانات في الشرق والغرب ، لوقفنا بأزاء مثال آخر للحب قد يحق لنا أن نسميه « الحب الرافعي » على ما يجمع اليه من صفات هاتيك الأمثال .

وعلى هذه الصورة في التسامي لا بد أن نعرض لقصة الحب في حياة الرافعي ، بما يتهيأ لنا من حيثياتها الواقعية ، وحقائقها التاريخية مهما كانت الأبعاد ١.

~ ~ ~

لقد كان لنشأة الرافعي في أسرة معروفة بعراقة التربية ، والمحافظة على تقاليد السلف الصالح ، وإعداد أبنائها للحياة السامية أثر كبير فيما آل اليه من بعد . حيث تغلغلت آداب تلك التنشئة في عروقه ، وملكت عليه جوانب حسه ووجدانه ، وانطبعت صورها في ذهنه لتظهر من ثم أصداء يقظة في نفسه وشعره وأدبه ، ولتنظم بعد ذلك كله في كلمته وفلسفته .

يحدثنا رحمه الله عن صفحة من طفولته هاتيك فيقول في « قرآن الفجر » :
« كنت في العاشرة من سني ، وقد جمعت القرآن كله حفظاً ، وجوّدته بأحكام القراءة ،.. ولا أنسى أبداً تلك الساعة ، وقد انبعث في جو المسجد صوت

غردٌ رخيم ، يشقُّ صدفة الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي ، وهو يرتل آيات من آخر سورة النحل : « ادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتتي هي أحسن ، إن ربك أعلَمُ بمن ضلَّ عن سبيله ، وهو أَعلمُ بالمبتدئين » الآية (١) .

ثم يصف لنا تأمل هذه الآية في جوِّ ذلك المسجد حيث يقول القرآن عند الفجر .. وكان من أمره في هذه السن المبكرة ، التأمل والاغراق في رحاب الكون ، وحب السفر والتجوال و « الرحلة الى أقصى حقول دمنهور الضاحكة ، وأشجار البساتين الحاملة ، والطيور الباسمة » (٢) كأنه يقرأ في كتاب آلاء الله .

وقد « يترك أخوته في نزهتهم ولهوهم يوم الجمعة ، فيمهم شطر هذه الجمالي .. فيظل هائماً طول اليوم ، حيث السماء الصافية الطبيعة الحاملة ، خاشعاً أمام الجمال الانهائي .. كالأنبياء القدماء » (٣) .

كل ذلك كان يملك عليه مشاعره ، ويجعله كلفاً بجمال الريف الخالص ، بعيداً عن زيف المدنية وصحبتها ، .. منطلقاً الى غير المحدود من مفاتن السحر ، ومغاني الطبيعة ، وصور الجمال وما يجتليه منها في تأملاته وأخيلته ..

وليته عني بتدوين حوادث طفولته هاتيك ، وكيف كانوا يسمونه « المحزون » (٤) ولماذا كان يحتفي بالحياة الطبيعية ومجاليها ، وكيف كان يتفرد

(١) الرافعي - قرآن الفجر - الرسالة ١٨٧ - شباط - فبراير ١٩٣٧ م .

(٢) أحمد محمد عيش - سيرة الرافعي - المقتطف ٩١ - ٥٢٩ .

(٣) و (٤) المرجع نفسه .

بنفسه بعيداً عن عبث رفاق طفولته ، وأذى أترابه لمناظر من هاتيك الحياة ..
ولما لم يكن له من همٍّ يومئذ غير الدرس والحفظ ، .. فقد كانت تنازعه
هذه التأملات في آفاق الفضاء ورحاب الأرض والسماء بعض وقته وواجباته ..
حتى إذا ما ألقى « عبقر » على لسانه لغة الشعر ، نازعته صورة فيها الى
« ذم الهوى » بلون من الوعظ - يجاري فيه الفقيه الحنبلي ابن تيمية في العنوان -
وإن لم يوفق فيه :

.. رويدك ما الهوى إلا هوانٌ وهل يرضى العنا إلا اللثام ؟ ..
ومن خبر الغواني فالغواني ضياءٌ في بواطنه ظلام
ألنَّ لك الحديثَ فلينتَ قلباً وعهدي ما يخادعك الكلام
وكيف تذود نفسك عن حياض وقد وردت ؟ ! - فما هذا المقام ؟ !
وقد أخذه من قول الشاعر :

وتجتنب الأسود ورود ماءٍ إذا كان الكلاب ولعن فيه ..
ثم ينتقل الى حالة يراها على الواقع فيقول :

تمرُّ على المساجد غير بالكِ وتبكيك المنازل والحيام ..
ويذكرك الحمام إذا تغنى ولا ذكرى إذا غنى الحمام
.. فديتك ليس هذا عصر ايلي .. الخ (٢)

ولعل إهماله لهذه القصيدة بالذات من أن يحتويها أحد دواوينه ، وأطرحها

(١) أحمد عيش - المصدر السابق .

(٢) الرافعي - ذم الهوى - المزار ، رمضان ١٣١٧ هـ - كانون الثاني -

يناير ١٩٠٠ م .

مع ما أطرحة من أشعار أخرى .. يعود الى حرصه على « شاعرية الحسن » التي تطلع اليها أولاً ، .. ولكي لا يبدو متناقضاً - لأول وهلة - عند قارئه الذي يراه يفرق بحبه ، ويهيم في وديان هواه ، .. بعد ذلك !..

على أن القصيدة نفسها قد تكون سابقة على نظمه في الحب ، وشعوره بالجمال ، .. وهي تعطينا صورة طفلة مراهقة لمفهوم التدين الذي ينشأ عليه أبناء الأسر الكريمة ، التي تعتمد بالفقه منهاجاً وعلماً ، .. وترى في الوعظ وقاية ، وبعث عزائم !.

وعندي أن وجود مثل هذه القصيدة للرافعي ، كان يجب أن تولد في ذهنه آنذاك ، كالضرورة التي يشفُّ بها عن روحه ، ويكشف فيها عن مكنون سريره ، .. ويدفع عن نفسه - وإن خلا منها الديوان - لتفسر لنا من ثم قوله السائرة في السحاب الأحمر (١) :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه
وثمة حادثة أخرى تعطينا الدليل على ما لقيه من معاناة الحب فيما بعد ..
ذلك أنه همٌّ بتأليف جماعة من الشباب تدعو الى نوع من الإصلاح الديني ، وقد اتخذوا من مسجد البهي في طنطا ملتقى لاجتماعهم في « جمعية السُّنة الاسلامية »
وكتب هو في ذلك الى الشيخ محمد رشيد علي رضا لاعتمادها فرعاً لجمعية « شمس الاسلام » التي انتشرت فروعها في القطر آنذاك .

ولكن الرافعي لقي عداء طلبة الجامع الأحدي ، وعلماؤه يومها ، .. حتى

(١) الرافعي - السحاب الأحمر ص ١٦ ، وراجع الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢٨٩ ، ورأيه في هذه القصيدة .

لقد هموا به وبأصحابه ، ودبروا لهم كيداً ، لولا أن تداركه جاء أبوه ومنزلة أسرته .

.. وهكذا انحلَّت الجمعية الرافعية الصغيرة (١) بعد أن أظهرت الرافعي الشاب داعية التحرر الديني والقومي !.

ويفسر لنا اعتراضه على كلمة « شمس » ومحاولة إبدالها بالسنة .. كراهيته للوثنية المتعلقة بها ، والتي قد تنسب الى فارس المجوس ، كما تكشف لنا عن مقدار تمسكه بعرويته دينياً واصطلاحاً !.

ولعل ردَّ الفعل في هذه الحادثة أيضاً هو الذي مكَّن للجمال من أن يزيد من جذوته في نفسه ، ويلدع قلبه الشاب في تلك الأيام ..

* * *

كان الرافعي في صدر شبابه مغدًى ومراح على جسر كفر الزيات ، ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه للحب ، وجاشت بمعاني الشعر كما قدمنا .

كانت « عصفورة » أول من فنيح لها قلبه ، فسيطرت عليه وغلبته على نفسه . لقيها ذات يوم على الجسر وسنه إحدى وعشرون سنة ، فهما اليها بقلبه ، وتحرك لها خاطره (٢) .

ومن وحي هذا الحب كان تحول الرافعي الى القول في الفنون الجميلة من

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٣٢٦ ، .. وراجع المنار الصادر

في المحرم ١٣١٨ هـ - أيار - مايو ١٩٠٠ م ص ١٩٠ .

(٢) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٩٧ .

الشعر غزلاً وتشبيهاً ووصفاً ونسيباً ، مما حفل به الجزء الأول وبعض الثاني من ديوانه ، ومنه أيضاً كان ولوعه بلقب « شاعر الحسن » ، وقوله في قصيدة العصفورة :

ساوئي أنبتكم فلم يدرك ما الهوى سواي ، ولا في الناس مثلي من حب
إذا شعراء الصيد عدواً فإنني لشاعر هذا الحسن في المعجم والعرب
ويظهر أن الرافعي هو الذي « عصفرها » على طريقة ابن المنجم ومريضه صاحب « الصفيراء » (١) حين قال في مطلع القصيدة :

عصافير يحسن القلوب من الحب فمن لي بها «عصفورة» لقطت قلبي (٢)
وقد بالغ في الرقة والتشبيب حين خاطب العصافير بمثل قوله :

أياك العصافير والدنيا عليّ أسى أما تروّح عني بعض أحزاني؟
لي فيك فيك عصفورة لو أنها انطلقت رأيت كيف يعاد أبيت القاني (٣)
.. ولقد كاد يفصح عن اسمها بالرغم من محاولته التكتّم عليه بالعصفرة ..
ولا سيما عندما امتد في المحاورة وكاد ينسى نفسه على سجيتها حيث قص لنا الحكاية :

.. وبني من إذا شاءت وصفت جمالها فوالله لا يبقى فؤاد بلا حب
عرضت لها بين التذلل والرضا وقد وقفت بين التذلل والعتب
وأبصرت أمثال الادمي يكتنفها فقلت: أهذي الشهب أم شبه الشهب؟

(٢) راجع هامش ٢ ص ٦٧ . ديوان الرافعي ج ١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الرافعي ديوان ج ٢ ص ٩٧ .

فما زال يهدي ناظري نور وجهها كما نظر الملاح في نجمة القطب
وقالت: تجلّد.. قلت: يا «حي» سائلي عن الحزن يعقوباً، ويوسف في الحب (١)
وهذا البيت يفسر لنا أيضاً ذلك «الشوق العائد» عليه والذي برّح به
في تورية الاسم من ثم وكأنا عاد به الى أيام صباه هاتيك .. كما سيأتي عند
حسم القول في علاقته بما ري زيادة «حي» الأدبية .

ويقول العريان : « إن الرافعي قد أنجب من بنات أفكاره في حب
«عصفورة» ثمرته الشمرية الأولى في الجزء الأول من الديوان » وربما كلّف
بحسب أن يقع في يدها فتقرأه ، .. فتعرف مكانها عنده .
« وعلى مثال هذا الحب كانت له حبيبات ، .. وكم أنجب فيهن من
ثمرات .. » (٢) .

فتلك (هند) التي أفلقت عليه الجزء الثاني من الديوان ، وحرمتها القرار ،
وكادت له بدنها ومفارقاتها حتى اضطرته الى القول :

.. ولا عجب أن تراني على (تقلب) هندٍ عدمت القرار
و (هند) على ما بنا لا تبالي وحبك يا هند ليس اختياراً
لماذا تجافين يا هند عني؟! هيني ظلاً وراءك سارا
هيني أخساً ، وهيني طفلاً هيني فتى وهيني «جاراً»
متى قلت يا «ليطني» مرة لأمرٍ توجعت منها مراراً (٣)

(١) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٦٩ .

(٢) العريان - حياة الرافعي ص ٩٧ .

(٣) الرافعي - الديوان ج ٢ ص ٨١ .

وهكذا المراهقة في أول الصُّبَا،.. وهكذا ابنة الجيران معها دائماً في دلال وتمتع ، بيعث الألم والالوعة ، ويزيد من الأسى والحسرة والمرارة .

وهانيك « ماري » ودينها « المحبة » حنت عليه ، كما كانت تواسيه من جراحات هند ومفارقاتها،.. فهو يطعم منها بكرامة تكون من سر معجزة السيد المسيح عليه السلام ، فتجحي قلبه :

يا « مري » زيدني هوى فهاك نور لم أزل أسري على مشكاته...
أحيي فؤادي ليس مثلك من يدي عزّ القتل ،.. فأهوني بدياته
ها أنت « مريم » والهوى عيسى وعيسى كان ردّ الروح من آياته
قولي لكاهنك الذي قدسته قولاً .. وعودي فاستمعي لصلاته
فلسوف يزعم أنها في آية نزلت من الانجيل أو توراته (١)
ويلوح لي أن هذا الصبا قد كاد يعود عليه في مثل هاتين الحببتين (٢)
بعد عشرين حجة ٠٠١ وفي البيت الأخير الثقاتة رائحة الى كون « التوراة »
تمتد بأحوالها الشخصية ومعاملاتها الأخرى الى أتباع السيد المسيح وقراء الانجيل !.
وهكذا أضحت تنازعه روح الغزل ، ويتلذذ بالآلام الحب ، وموجعات
الهوى ، ويرى في حرمانه هند ، وإشفاق « وهيبة » وحنان « ماري » ..
حياة أخرى من الحياة نفسها ، له فيها وطر ، وبها عنده مقاني في آلاء الحسن ،

(١) الرافعي — الديوان ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) الرافعي . الرسائل ص ٨٦ - ٩١ ، ٩٩ . انج . ونظر يوسف

حنّا — الرافعي . السياسة الكويتية عدد ٢٨ .

ونعم الجمال، .. حتى ليقول :

أحب ولا أدري، وأدري ولا أعي وإن أع لا أسألو.. ولست أطيعه (١)
ذلك أن مبلغه من الحب جملة أن يضيء قلبه ، ويرقق روحه ، ليصفو خاطره ،
ويقوم وجدانه .. وتنظم عواطفه ، حتى ليحسبه « نعيم النفس » حين يقول :
يا نعيم النفس ما أبغي سوى أن أضيء القلب من ذاك الرّواء (٢)
وحين يصل هذه الغاية الطبيعية في الحب ، نراه يعتزم جاداً أن تكون
وراءه امرأة تحبه ويحبها .. تضيء له قلبه من رواء نعيم النفس ! .

وهنا نلتقي الفكرة بالتوفيق . ويسر له فيها ما يسر على أمثاله من الشباب ..
فما كاد يلمح اخت صفيه البرقوقي ، حتى تحرك خاطره .. وامتدت بسد الصفي
تبارك له وتقرأ الفاتحة على ما بيناه سابقاً ..!

وأدركت هذه السيدة الفاضلة من أول يوم منزلتها التي لا تنازعها فيها
إمرأة .. ولكنها عرفت أيضاً أنها (رواء) نفس متعطشة ، يذهب بها الجمال
مذاهب من الفتنة والتأمل والإغراق .. وإنها ضياء قلب قد أظلم عليه الأيام
أحياناً ، وأنها بعد زوج لشاعر شاب يتطلع الى مكانته التي يطمع اليها في دنيا
الأدب والبلاغة ..!

ومن هنا أوجبت على نفسها ما لا توجبه زوجة ، وقد لا ترضى به أخت
أحياناً .. وربما امتعضت منه أم ، واستنكرته بنت .. ولكنها الزوج التي يسكن
اليها الرافي ، وقد جعل الله بينهما مودة ورحمة ..!

(١) الرافي - الديوان ج ٣ ص ٨٦ .

(٢) « « ج ٣ ص ٩٣ .

فلم تكن ترى ثريباً عليه إن هو سار نحو الجبال بقدميه يطلبه ويتعشقه ،
ويهم بالآلئه ومجاليه ، . . ولا تجد غضاضة إن هو قد تغزل بأخرى ، . أو تذكر
لواعج هواه ، ونسب بهذه وهاتيك ، . . أو شيب بإحداهن . . !

وفي أيامه الأولى من زواجه بهذه الانسانة الصالحة ، ما فني يرسل
قوافيه ، ولا يكتم شيئاً مما كان يعتلج في صدره حتى ليقول :

وما أنس يوم البين من « هند » أنه تطاير منها بانفجار الهوى فلي (١)
إذ يظهر أنها ندمت على ما كان منها معه قبل الآن . . !
ويخطبها بقوله :

بربك يا « هند » اجمعي بين مهجتي وبين شهود من جفواك واحكمي . . (٢)
وقد حاول « السلوان » مرة ، . . ولكن ما كادت تبسم له في لقاء حتى
لجَّ به لاعج الشوق :

.. الى أن تلاقينا .. فلما تبسَّمت رأيت في قد خان عهدي وسلمها
فما يصنع « المجنون » والكون كله لدى حسن (ليلي) لم يقاوم تبسماً !
وبالرغم من امتلاء بئته (بوهيه) وقد أصبح منها روضاً فيه تغرد :
لا يصبح البيت روضاً للذين به ما لم يكن فيه هذا (الطائر الغرد) (٣)
فقد وافته الفرصة عام ١٩٠٧ م فسافر الى الديار الشامية ، حيث نزل
عند اهليه بطرابلس مصطافاً ، وما كاد يحس بما حو اليه من رُقى السحر وآيات

(١) لرافعي - الديوان ج ٣ ص ١١١ .

(٢) « « « ص ١١٨ .

(٣) الغرد الذي اسمه الطفل - الرافعي - الديوان ج ٣ ص ٦١ .

الطبيعة الحسنة حتى تحركت نفسه وجاش خاطره وأنشأ يقول ، وقد وجد فيها
صورة أخرى من (ليلي) :

.. فيا طرابلس حيثك التي بلدآ بي من هوى الحسن فيك فوق ما أصف
أحس بين ضلوعي كلما خطرت ذكراك أن اليك القلب ينمطف (١)
.. فاذا ما عاد الى مصر ، برّح به الهوى هناك فشكا البعاد وأرسل الأنباء :
يا نسيم الفجر يا طفل الربى لاهياً فوق أراجيح الشجر
خذ لمن أهوى على البعد نبا إن جهد الشوق في البعد خبر (٢)
ويبلغ به الوجد غاية يفزع الى القول :

ويح هذا البعد - لا خلّ لديّ
يحمل الأشواق مني أو إلي
أترى لم يبق فوق الأرض حي ؟
أم ترى لم يبق غيري مغرمآ أم أنا بعد هواها لا أعى ؟!

يا حى (ليلي) ويا (ليل الحمى) هل لشمس غربت من مطلع ؟! (٣)

* * *

وما كانت مسؤولية الأسرة ، ولا تبعة الرجولة لتعيقه عن هذه الحياة
الملهمة ..!

(١) الرافعي . النظرات ج ١ ص ٦١ .

(٢) « « « ص ٣١ .

(٣) « « « ص ٦٦ .

ولما أراد أن يريح نفسه من عناء الدرس والمراجعة والتأليف في
(تاريخ آداب العرب) الذي انقطع له ما بين عامي ١٩٠٩ م - ١٩١٢ م .
فيتردد على مغاني لبنان في بجمدون و (المنظر الجميل) حتى يدرك حقيقة في نفسه
كأنما يكتشفها لأول مرة :

آفة الحر أن يكون محباً وكذا الحب يتبع الأحراراً ..
.. ويطيف به خيال (المليحة) التي أسهرته الليل ، وألقت به على شرفة الفندق
في مناجاة عند السحر يقول فيها :

سحر فيه رقة وإتسام بعثته حور السما للعذارى
كل حسناء حيثما تنفض النوم تراه بثغرها أنوارا
.. وتنسمته لا بدع منه في صفات (المليحة) الأشعارا (١)
ويطوِّح به الغرام في إحدى الربوات من الجبل الأشم ، بعد رحلة اليه
في صيف عام ١٩١٢ م ، فيلقيه معرفةً عند شاعرة من شوارع لبنان ، ويكون
بينهما حديث طويل ، يصفو فيه القلب أمام القلب ، وتناجي الروح إلها ، وتسر
النفس للنفس بعض ما يحيش بها من معاني اللقاء .. فلا يكاد يتعد عائداً حتى
يجد نفسه بحاجة الى ان يقول ، فيرسل لها على صفحات الزهور (عبرات البين)
يذكر فيها ما أضره من ألم الفراق ، ويصف لها من حاله :

من دونك البين يا (ليلي) ومن دوني وبعض ما كان قبل البين يكفيني !

حتى يقول لها كيف أنه انتهى الى حياة هو فيها :

مُلقي لدى الناس - لو أبصرت حالته في الناس - أبصرت حياً غير مدفون (٢)

(١) الرافعي - أحلام بجمدون - الهلال - تشرين الثاني - نوفمبر ١٩١٠ م .

(١) الرافعي - عبرات البين - الزهور ٣ - ٣ أيار - مايو ١٩١٢ م .

وكان الأستاذ حبيب ثابت رسوله اليها ، بعد ما كان عرف الهوى
في اللقاء .. فما كان منه إلا أن حمل القصيدة اليها ، ونقل اليه عواطفها بقصيدة
يقول فيها على لسانها بالوزن والروي :

ليلي تحييك من اعلى (بمحمدون) والبين فاعلم كما يشجيك .. يشجيني
إن كنت قد مُتُّ قبل البين من شجن (فبعض ما كان قبل البين) يحيني
و (الصادق) الحب يبق في مودته إن كان من دونه بين ومن دوني
.. وتزيد في اللطف والمودة .. فتسرسل في المحاطبة حتى تدعوه لزيارتها
.. إني لأذكر مصرآ - لا ابهجتها !! لكن لمن هو في مصر يحيني
واذكر الحر - والحر الشديد بها كشار قلبي ، لا تمنو لتسكين
إلا إذا (صادق) وائى وأدركني محومة - فهو من بأسو فيشغيني (١)
وقد حاول الجليل ان يمازحه ، فبساؤل عن نسبتها ، أهى (خيالية) أم
أخيالية ؟ (٢) .

على ان عمر الحب لم يطل بينهما ، فقد اضطربت الأحوال في تلك
السنين ، وانقطع ما بين مصر وسورية من سبيل ، حرمت الرافعي من
زيارة لبنان والديار الشامية ، واهليه ومحبيه هناك .. وإن كان هذا
الحب قد اثمر غير هذه القصيدة ، (حديث القمر) في مقالة صرف فيها
وجه الحديث الى (القمر) ، وقال فيه (تورية) (٣) وانه هو الذي

(١) المصدر السابق .

(٢) حبيب ثابت - في الرافعي - الزهور ٥ - ٣ آب - أغسطس ١٩١٢ م .

(٣) الرافعي - حديث القمر ، وانظر الرافعي ص ٧٠ .

مماها (القمر) لفرط جمالها ، .. ومن ذلك جاءت المقابلة بأسلوب فيه رمز وشاعرية
وقد حفل بالعبارة البيانية بحججها في نسق جميل تلد فيه البلاغة العربية عهداً جديداً
في الكتابة والأدب وإن اتهم - لكثرة احتفائه باشتقاق المعاني ، وتركيب الأخيلة -
بالانبهاج والغموض عند بعض الأدباء ..

ثم كانت الحرب ، وظهرت حدود الأقطار الإقليمية ، .. التي ما لبثت
أن أصبحت من ثم وكأن لها سلطان الجنسية والعداء بين البلدان العربية ، .. فلم
يعد يتبها له أن يرى أهليه في ديار الشام بمثل تلك الحالة التي كانت ، .. وهكذا
حرم المتعة في مغاني الجبل ، والإجازة في ربوات الطبيعة الفتانة ، .. والاسترواح
من عبير الحسن ونعم الجمال .. 1

ولكنه بقي كثير الحنين الى تلك الديار ، شديد الشوق الى مثل ما كان
عليه من اختلاف ولقاء وزيادة واحتفاء ..

وكان يرسل بتحياته في خطبه السنوية بمهرجان جمعية (الاحسان)
السورية - المصرية بطنطا ، .. ومنها في قصيدته التي أقيمت بمهرجان عام ١٩٢١ م
وفيها يقول :

يا نسمة النبل مرري بالسلام على نسيم وادي الهوى من أرض لبنان
قلبي يرف رفيف الطير يلين كما كأنما أنما فيه جناحان (١)

* * *

في سنوات الحرب كان الرافعي يعاني من الضيق والاضطراب ، .. ذلك
أن سلطات الاحتلال قد تمكنت من إعلان الحماية البريطانية على مصر ، وزوال

(١) الرافعي - مصر والشام - الهلال - حزيران - يونيو ١٩٢١ م .

صفة السيادة العثمانية كما مرّ .

وانقطعت كثير من أسباب الاتصال بالعالم الخارجي ، ، وقلّ الغذاء
وندر الدواء ، ، وذوّر الخوف بقرنه يعلّاء القلوب خشية ، ، مما ستؤول اليه
الأيام من مصائر الأحداث . . .

وفي الوقت الذي استضافت السجون أبناء عمومته ، ، ألحّ عليه هــو
المرض ، ، وراح يصيب كل موضع من جسمه . . .

وأمام هذه الحالة التي أركست فيها البلاد من المجاعة والتشرد ، ، نرى
الرافعي الواجد العاني ، ينصرف بكليته الى الساكنين يسمح عن عيونهم يمد
الحب عبرات الأيام . . . ويحاول أن يستر عليهم عريهم بمِرْقعة جديدة . . .

وكما تنتهي كلّ حرب وتختلف وراءها من الأضرار والمفاسد الخلقية
والاجتماعية ، كذلك انتهت الحرب العالمية الأولى في الوطن العربي .

وكان من بين الموضوعات التي انفتح لها في الفكر العربي ميدان المساجلة
والنقاش ، المرأة وحقوقها في الحياة والحب والحرية . . .

وإزاء ما يتخلل ذلك من غزو ثقافي ، يحجب عن الناس فقههم بدينهم ،
وإمامهم بأصول حضارتهم وعلومهم ، ، أحسّ الرافعي أن عليه واجباً كبيراً
قد لا يدرك تبعته بعض معاصريه ، وأن ذلك الواجب قد يكون مذهباً في تجديد
الفكر العربي بالعطاء العقلي ، ، وبالأسايب والأسلحة الغزوية نفسها ، ، .

وفي رسائله التي كان يبعث بها الى الشيخ محمود أبي رية ، ، ما يشف عن
حالة من الاضطراب النفسي - قد تصل به حدّ الهوس أحياناً - كانت تهتريه
في تلك الأيام . . .

على أنه كان له من مذهب « الحب الرافعي » الذي تفرّد فيه خير سبيل
الى ما يهدف اليه من المباراة في الميدان ، .. والمطاولة في الحلبة بالتحدي والمقارنة ،
ثم إعجاز هؤلاء وأولئك من واردات أوربة ، وأنقاض الحرب ، ومخلفات الرقابة
والاحتلال ، من تراجمة الفكر الأوربي ، . ومقلديه عميان البصيرة .. ١

وما كادت تلقاه « فتاة الشرق » السيدة لبنية هاشم ، حتي استكثبت
في معنى من المعاني التي تدور حول المرأة ، .. (١) وما كاد يراه منشوراً حتى
عزم على أن يكون أساس كتاب صغير (٢) .

وهو وإن كان وقته في علم الله ، إلا أن الحوادث المتتابعة الأخرى قد
صرفته عنه .. ١

وكانت بعض الآلام النفسية ، والمرضية تعاوده بين الفينة والأخرى ،
وتجعل منه كالسؤال الحائر الذي لا يجد جوابه أحياناً .

وتدور في وعيته الباطنة معانٍ جليلة ، وأفكار سامية ، وتحدث بينه وبين
نفسه الآراء باختلاف نارة ، واضطراب أخرى ، ولا تكاد تستقر على شاطئ
في الحكمة المرسلة التي فيها فصل الخطاب . وكأنما كان يحس بنداء بعيد يدعوه
بتخافت أحياناً كألهمس غير المسموع ، ويختلط بالأصداه أحياناً أخرى فلا يكاد
يبين أو يظهر بشيء من الفهم والوضوح .. ١

ويخيل إليّ أن تلك الحالة ومعاناتها هي التي ألجأته الى إعادة طبع
« حديث القمر » لعله يصرف عن نفسه منها ما يستطيع ، ولكن هاتيك المعاني

(١) الرافعي .. فتاة الشرق - ٦ - ١٩١٩ م ص ٢٧١ .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ٥٨ .

والأخيلة تشبثت به هنا أيضاً، فعدل بعض العبارات ، وشرح بعض المفردات .. ثم وجد أن الحديث « يحتاج الى زيادة بسط ، وربما الى كتابة جديدة في بعض جهاته » .. ولما لم يجد متسعاً لذلك ، ولا أعانته حالته هاتيك عليها « أدخر ذلك للطبعة الثالثة منى هداً الزمن ١ » (١) .

ومضى يلتبس في المترجمات لعله يظفر بصورة مما يأمل ، .. وتأمل في « أحزان فرتر » وكان أسعد وداغر قد قام بترجمة ما لها ، .. ولكنه لم يخرج منها بطائل (٢) .

وافعل معركة النشيد الوطني - المصري - ولدع أحمد شوقي بالجر نقداً وتجيحاً ، ونال من اللجنة ، والوزير جعفر والي ، الذي التمس من أمين الرافعي أن تهدأ ثائرة الرافعي (٣) ، ولكنه ما كاد ينتهي منها حتى وجد نفسه ثانية في الدوامة يريد أن يتفرغ « لتأليف جديد يكون قصة شقاء وحزن وبؤس وعذاب ، ولهفة وهوس » (٤) تلك الحياة النفسية التي تعترك في روعة ، وتضطرع بين جنبيه ، والتي أراد بها معارضة آلام فرتر مرة (٥) ونازل بها « النفاق » الاجتماعي أخرى (٦) وتصدى للوفد و « جنود سعد » ثالثة (٧) ولم يتورع - وهو

(١) الرافعي - الرسائل ص ٦٧ .

(٢) و (٥) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٣) الرافعي - النشيد الوطني المصري - طبع ديسمبر عام ١٩٢٠ م ،

وانظر الرسائل ص ٧٠ .

(٤) الرافعي - الرسائل ص ٧٤ .

(٦) الرافعي - مجلة البيان ٩٢١ م . (٧) الرافعي - الرسائل ص ٧٦ .

موظف - أن يقول رأيه في « الحالة السياسية التي أفسدها أهلها. » (١) بعدما أدرك أن « لا حياة لأمة يلعن بعضها بعضاً لعناً مقدساً. » (٢) ٠٠ حتى لم يعد يبالى بأدب هذا الزمن (٣) .

وقد عرف أثناء ذلك أنه قد فوّت على نفسه فرصاً في حمل لواء الشعر ، ما لو كتب فيها أو انتهم بعضها ونظم لراحم منكب سعد في شهرته (٤) .
بينما كان الرافعي يحيا هذه الحياة ، تختلط عليه فيها الرؤى والأحلام ، وتعيش أفكاره في نفسه بمثل هذه الدوامه والأوهام ، هبط عليه خطاب من مصر ، وكأنه كان على موعد وإياه مع القدر .. وعلى غلافه بخط جميل :

« حضرة الشاعر النائر العربي الغد مصطفى صادق الرافعي المحترم ..
ويدعوه في بطاقة الأستاذ إلياس زيادة صاحب « المحروسة » . لتناول الشاي ، حيث يجتمع فريق من الفضلاء في منزله بشارع المغربي رقم ٢٨ بالقاهرة ١ .
وقد صحبه في هذه الزيارة صديقه الأستاذ جورج ابراهيم حنا ،
« وشهد ما كان من تأثره وانفعاله وجذبه » (٥) لماري زيادة ابنة صاحب الدعوة ،
والتي ذاع اسمها « مي » كاتبة عربية ، واحتضنها (المقتطف) شيخ المجالات العربية بمثل ما احتفى فيه بالرافعي منذ أول أيامه ..

(١) و (٢) وردت الإشارة الى ذلك .. في غير هذا المكان ، وانظر

الرسائل ص ٧٦ ، ٧٨ .

(٣) الرافعي - الرسائل ص ٨٢ .

(٤) « « ص ٨٤ .

(٥) راجع العريان - حياة الرافعي ص ١٢٢ .

ذلك أنه لم يكن يذهب الى مجلسها يوم الثلاثاء تزجية للفراغ ، يلقي النكتة ويحتفل بالنادرة ، ويلقي فلاناً وفلاناً من الأدباء والشعراء الذين يزدهجون على بابها ، ولكنه « سعى اليها سعي الخلي الى الغزل ، يلتمس في مجلسها مادة الشعر ، وجلاء الحاطر ، وصقال النفس » ، فما أن جلس اليها وتحدثت اليه ، حتى لمسه الحب لمسة ساحر ، جعلت في لسانه حديثاً ولعينية حديثاً ، وأطالت انفرادها به عن ضيوفها ، فما تركته إلا لتعتذر اليهم .. ثم تعود اليه ، ثم قامت تودعه الى الباب حين انصرافه وهي تقول له : متى تكون الزيارة الثانية ؟ وهكذا وقع من نفسها كما وقعت من نفسه ، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد « (١) » .

« لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح ، وقد خيّل اليه أنه وجدها ، ولكن في نفسه ، لا في لسانه وقلعه ، وأحس وشعر ، وتنورت نفسه الآفاق البعيدة » « (٢) » .

فثارت في نفسه العواصف ، وغلى دمه ، واصطرعت عواطفه تبحث عن البيان الذي يكشف فيه عن خواطره ..

ونهى النفس عن الهوى ، ولكنها بحثت في صورتها من ماضيه كل ما كان من ايامه ، وكل من عرف ، لتلأل هي نفسه بروعتها التي لمحها عند « عصفورة » ودلالها الذي افترقه عند « ماري » وسحرها الذي لم يشرق بمثله « حديث القمر » .

وحدث بعد ذلك بأسابيع أن أقيم مهرجان لتأبين طيب الذكر

(١) العريان - حياة الرافعي ص ١٠٠ .

(٢) « « « ص ١٠١ .

فرح أنطون ، صاحب مجلة (الجامعة) التي احتفت بالرافعي شاعراً ، وبشّرت بميلاده في دنيا الأدب والفكر العربي الحديث ، وكان فرح أنطون نابغة في الأدباء ، و مترجماً فذاً ، وله على الأدباء والشعراء من أبناء سورية بخاصة يد برة رحيمة ، أخذت بأيديهم في مدارج القول والعرفان ، ولكنه انتهى من دنياه بمأساة كمعظم العباقرة الذين يموتون في أوربة .. (١)

ووقف الرافعي في الحفل يرثيه بقصيدة بليغة ، ووقفت بي خطيبة تطري نعمته ، .. ولم يتورع الرافعي يومها وهما ينصرفان من أن يناديها الى جانبه ، .. ويطلب اليها الوضوح في العلاقة وكان يصحبه جورج ابراهيم حنا ، .. وينصت اليهم أسعد حسني (٢) .

« وهكذا تمحبا ، وتراءيا قلباً لقلب ، وتكاشفا نفساً لنفس ، .. ومضى الحب على سنته ونظر الرافعي اليها والى نفسه وراح يحلم .. »
وهنا « خيال اليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما لو أنها .. لو أنها كانت زوجته .. فراح يستدرجها للرضا به زوجاً (٣) .

وبعث اليها مجموعة مؤلفاته تزفها اليها رسالة حب معطرة باثناء ، فكتبت اليه في ١٠ آذار - مارس ١٩٢٣ م تقول :

(١) راجع عنه مجلة المجلة - ١٢٣ .

(٢) حدثني بذلك أسعد حسني في حضرة الأستاذ قاسم الخطاط بالجامعة العربية في ٢١ آب ١٩٦٦ م .

(٣) العريان - حياة الرافعي ص ١٠١ .

سيدي (١) ٠٠

رسالتك التي كانت هي الأخرى قصيدة من قصائدك ، جاءت في الواقع

« أما قبل » (٢) تبشر بـ « أما بعد » ٠٠

جاءت ديباجة حسناء شغلت مني نهراً بتمامه ، محدثة عن مجموعة مؤلفاتك

التي أقبلت في اليوم التالي .

وإني حيل هذه المجموعة المتنوعة ، وكلمات الإهداء المرسلة على صفحاتها

الأولى .. بدقة زهرات آذار وبهاؤها ، لأشعر تارة بآني عند روض من الفضل

والشعر ناضر ، وطوراً أمام بيم من نوعه زاخر ، وسأكون طائف الربيع يتجول

بين اعطاف الرياض ، مستوحياً ما فيها من وشي وعبر ، ثم أكون الغواص يهبط

الأغوار ليغلبها ولو على بعض ما حوت من درر وجوهر ..

وإني لشاكرة لك ما أنحفني به من الآيات الصادقة الرافعية ، .. راجية

أن تقبل شعائري (*) إن تعذر علي تجميلها بالتشطير والتخميس ، فحسبي أن منشورها

ضمن دلائل الإعجاب والاكرام .

(مي)

(١) أنظر الرافعي - القلب المسكين الأعظم - انتصار الحب - وحي

القلم ج ٣ ص ١٧٩ ، وقرله « لب » يأمر الحب أمره بأبلغ ولا أرق من كلمة

العبودية اللطيفة هذه - سيدي - حين تنطق بها المرأة في صوت قلبها وغريزتها .

(٢) من موضوعات الرافعي في العربية ، أنظر - أوراق الورد ص ١٤٩

والتحقيق التاريخي لكلمة (أما بعد) في الصفحة التالية لها .

(٥) يظهر أنها نسيت المضاف إليه فلم تكتبه على الورقة ، وتركته صديراً

لمعنى يرن في قلبه ! .

وهكذا خيل اليها هي ايضاً فيه « الرجل الذي تتمثل فيه قوة الأبطال
ومصارعة الصناديد » ولم تجد فيمن حولها ممن يحيطون بها أمسية الثلاثاء إنساناً
تلوذ به غيره (١).

وقد استطاع الراجعي أن ينتزعها من أيامها « فما بقي لها من اصحابها
وصواحبها غير « مُصيف » مشغلة ليل نهار » (٢).

وبدا له أن يمتحن صاحبه في مدى تعلقها به .. فكتب اليها كالعائب
الذي يُرزي عليها وقد استبطأها الكتابة عن نشيد سعد - اسلمي يا مصر ..
إني الغدا فردت عليه في دلال المحبة ، وغنج الوائقة تقول :

سيدي :

.. وكذلك يغضب اهل البحور والأوزان (٣).

أما أني أبطأت في إسداء الشكر على « نشيد السعد » فذلك لأن الشكر
انواع ولا في اخترت أن يكون شكري هذه المرة نشيداً متردداً .. فأشدت
النشيد السعيد على توقيع البيانو كلما وجدت لذلك متسعاً من الوقت .
ثم إنها هي تبعت اليه بأبيات لاسماعيل صبري كان قد ارسلها فيها
وتقول له :

« لست لأُضِن بها عليك » .. وتطيب خاطره من الغيرة بقولها في رقة :

(١) أنور الجندي - نساء في حياة الأدباء ص ٤٦ ، ٤٨ .

(٢) العريان - حياة الراجعي ص ١٠٠ - وانظر ما سبق في كلمة « مصيف »

(٣) هكذا دلالة - وكأنها تخفي وراءها جملة من مفهوم المخالفة -

ولا يغضب الملهمون ! ..

« . رغم اعتقادي ان الشعراء لا يعنون دوماً ما تضمنته منظوماتهم ،
ولله الحمد » حتى تختتمها بقولها :

« عسى أن تشفق هذه الأبيات في تصويري ، وعلى كل فلست لأخشى
غضب أرباب القوافي والقريض ، . إذ كثيراً ما يكون الغضب لهم وحياً ، .
والوحي في الدنيا هو كل ما ينشدون » ..

« مي »

وهكذا أدركت مهمتها الإنسانية معه ، فهي إن لم تظهر به زوجاً ، . فلا
أقل من أن تحرك خاطره ، وتجيش في نفسه بواذر الإلهام التي ينفث فيها الشعراء .
وكان قد شاع بين خاصة من الأدباء بأن « الزواج كاد يتم بينهما » (١)
فما الذي صرفه عنها ؟ (٢)

لقد كان هنالك شيء يقف في وجه هذه الفكرة عرض له العريان بقوله
« أن مي المسيحية اللبنانية الأصل على هذه الصورة التي ترضاهما لحياتها ، وصالونها
لا يمكن أن تكون لرجل واحد . . وهو المسلم المتخرج بطبعه الحساس الذي يريد
أن تكون المرأة له وحده ، فقد كانت مثل هذه الفكرة أبعد عنه في عرف الحياة
مما يأمل » .

وكانت زوجته السيدة نفيسة البرقوقي تدرك ذلك كله وتعرف خبره ،
وتطلع على رسائلها ، (٣) وما وقفت في سبيله حتى فيما التجأ اليه من « تيمة » كتبها

(١) عبد السميع المصري - في موكب الخالدين ص ١٢٦ .

(٢) العريان - حياة الرافعي - هامش ص ١٠٢ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٦٣ .

« فعلمها في خيط وربطها في سارية بأعلى الدار فتلاعب بها الريح » ، « ولكن
أموراً عجيبية مفزعة وقعت له ولأهله واسكان الدار جميعاً ، وجعلته يسارع فيفيض
خاتمها لتعود الحياة الى الرفق والأناة وتهدأ نفسه من هذه الناحية (١) .

.. ولكنه ندم على ما أقدم عليه ، وأبصر حقيقة ، ورأى يرهان ربه
فأطرق من حياء ، وقد خلف وراءه نيفاً وأربعين سنة حافلة بأيام الهناء مشرقة
بذكريات الهوى والأحلام (٢) وهكذا كانت خطرة عابرة من خطرات
الهوى ، أطافت به لحظة ، وما عادت ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها
بعين العاشق ا. (٣)

ثم بدا قلقه النفسي الحاد يوقظ فيه الحقيقة شيئاً فشيئاً ، .. فما كادت القصة
تبلغ غاية ما ، حتى انتفضت به كبرياؤه تخطئ لها خاتمة مأساوية عنيفة ا.

يقول العريان : « .. راح الرافي الى مياعده يوماً ، .. وكان في مجلسها
شاعر (٤) جلست اليه تحدّثه ويحدّثها ، ودخل الرافي فوقفت له حتى جلس ،

(١) العريان - حياة الرافي ص ٣٣٣ .

(٢) د (٣) المصدر السابق ص ٩٩ ، ١٠٢ .

(٤) حسب العريان - رح - أنه اسماعيل صبري (باشا) وكان قد وفاه

الله في ٢١ آذار - مارس ١٩٢٣ م ، وربما تداعى اليه ذلك من قول الرافي
في قصيدة :

« متى يتمي هذا الجفا وقد انتهى لما يعلم العلام من زمن صبري
الذي عدله بقوله

..... ومن أول لايام فيه انتهى صبري

= وكأنه يؤرخ لبداية الحب في نهاية صبري ا.

ثم عادت الى شاعرها لتتم حديثاً كانت بدأت به ، . . . وجلس الرافعي مستريحاً ينظر ،
وأبْطأت به الوحدة - على غير عادتها معه في الإقبال عليه والانشغال معه
في الكتابة والحديث عن سواء (١) - وقد ثقل عليه أن تكون لغيره أحوج
ما يكون اليها . . .

ونظر الى نفسه وإلى صاحبتيه ، وقالت له نفسه : « ما أنت هنا وهي
لا توليك من عنايتها بعض ما تولي الضيف ؟ » .

.. فاجهر وجهه ، وغلى دمه ، ورمى اليها بنظرة او نظرتين ، ثم وقف
واخذ طريقه إلى الباب ، . . . واستمهلته فما تلبث وكتب اليها كتاب القطيعة (٢) .
وكأنما كان يريد أن يقع ذلك ، فالتخذ موقفها الطبيعي هناك حجة للوقوع .
وعاد البريد اليه برسالتها تغتدر ، وتعتب وتجدد الحب في أسطر ثلاثة (٣) ،

= ولا تدل رسائلها قبل هذا التاريخ أو بعده على أنه هو « صبري » ، وهذه
رسالتها المؤرخة في ٢٣ تموز - يوليو ١٩٢٣ م تقول فيها :

أما قبل . . فعلى الرافعي الصادق سلام ، وله بالعيد السعيد تهنئة .
وأما بعد . . فإن لي أمر أبدي . . . فهل لك يا صبري أن تكون رسولي
الى لجنة نايبين صبري ، ولا أظنني مفتحة أو متطفلة . . ولا إخال فضلك إلا
مليئاً طلبياً . . الخ » .

(١) كان محدث الرافعي يكتب له . . .

(٢) العريان ص ١٠٢ .

(٣) ما تزال بعض هذه الرسائل بين آثار العريان - رح - .

ولكن الرافي حين وجد كبرياهه .. نسي حبه ، وكان الفراق ٠٠١
ومع أن هذه القطيعة التي اتخذها العريان خاتمة القصة في كانون الثاني - يناير
عام ١٩٢٤ م ، فقد بقيت الرسائل بينهما طائفة تحفل بآيات الإعجاب والولاء ..
وإن لم تكن تتعدى مقاطعة ندوتها كل ثلاثاء .. الى ذلك يشير الرافي بقوله
مخاطباً أبا ربة :

«ذلك الحادث الذي تعلمه .. لا يزال يرمني بي هنا وهناك وهناك وهناك» (١).
وقد جاء في قصيدته «رفقة روحى» قوله :

يَا وَاصِلاً بالمعاني وهاجرني في الكلام (٢)
 بما يفسر لنا هذه الحقيقة بطريقة أقرب الى الصواب من الذهاب
 بالقطيعة الى ما يخيل للمرء أنها كانت على التحديد الذي ذكره العريان.
 وقد نشر الاستاذ طاهر الطناحي أطباقاً من حياة مي ، ذكر فيها أن
 الرافعي « بعث اليها بعد القطيعة رسالة مؤرخة في أول كانون الثاني يناير ١٩٢٤م
 تقول فيها شعراً يعاطفة مكمونة :

هنيئاً لك الأعياد تأتي وتنقضي
يعزُّ علينا أن نكون بموسم
ولا ينقضي أن يستجد لك السعدا
ولا نلتقي فيه سلاماً ولا ردا
فإن كان هذا الغصن أنبت شوكه
فما ذاك إلا أنه أنبت الوردا (٣)

(١) الرفاعي - الرسائل ص ٩١ .

(٢) الرافعي - أوراق الود ص ٤٦ .

(٣) راجع طاهر الطناحي - أطيفاف من حياة مي - أيلول - سبتمبر

١٩٤٧م، وكذلك « « « « « الرافعي « «

1907

ولكننا نجد « ميكا » تسارع في الرد بعاطفة أقوى ، وأبعث حرارة ،
تحتفظ فيها له بالود والاعجاب ، . وإن كان ذلك الأمل الذي راودها فيه ما كاد
يأتلق حتى غاب ، في مثل هذا البريق الخلاب . فتقول وقد تغيرت لهجتها :
سيدي الأستاذ الكريم . . .

لئن قصرت في تسيير الشكر على أبيات خوت غصنا عليه ورد ، وعليه
شوك ، فإنني لم أقصر دون الشعور بذلك الشكر على تفضلك بازجاء التهئة إلي ،
والتمني . . . في مثل هذا الموسم من العام ، بتلك الصيغة الشعرية الأنيقة .
ونقول له بنوع من العتاب المستطاب والاعتذار الأديب ، . . . الذي
لم تجد ضرورة ما في اللجوء اليه : « . . . ولكنني أبادر بالرد علي خطابك الأخير
لأن فيه ما يدل على الألم ، ويسوؤني أن أكون سبباً في هذا الألم الوهمي ، . . .
ولا سيما أنك بارع في ابتكار موضوعات الألم ، والجد في شعبها ومناحيها » . . .
« وهي البراعة التي ألهمتكم في العام الماضي أني عنيتك خلال بحثي عن التيمورية » .
ثم هي تختتمها بقولها : « .. أشرك كل الشكر على حسن ظنك بي ، . . .
والسلام عليك أيها الأستاذ فنحن نقدرك أدبياً كبيراً ، ورافعياً نبيلاً » . (مي)
ولا تكاذ تستنح لها الفرصة بعد ذلك ، . . . حتى تبادره بكل أدب
وإخلاص ، . . . في طاقات من جر الكلمات تصمخ بها إحدى رسائلها المؤرخة
في ٤ أيار - مايو ١٩٢٤ م تقول فيها :

« أيلزم أستاذنا الكريم سماه الشعرية السحيقة في هذه الأيام ؟ أم هو
يفادرها حيناً . يتفقد شؤون الحياة الأرضية ، ويتلقى تهاني أصدقائه ؟
قلبتقبل - إذا كان على الأرض - طاقة أهديتها اليه من خالص التهاني

(مي)

وحار التمنيات

والكننا نجد الزافعي كالذي يخشى أن يتراجع عما ارتكبه بحقها خطأ أو عناداً ،
بالرغم من كل ما كان يعانيه من برحاء ذلك الهوى ، . . . ولعل في رسالته اليها
بعد ذلك ما يشف فيها عن روح واجدة ، ونفس غير مطمئنة الى ما اختار من
سبيل ، . . . ولسكنها الكبرياء ، . . . التي تقتل أول ما تقتل في الانسان عاطفة الهوى
حتى لتجهز عليه .

والنظر معي اليه كيف يقول لها في هاجرة . من تموز - يوليو ١٩٢٤ م .
يا نسمة في ضفاف النيل سارية مسرى التتحية من ناء الى ناء
يا ليت رباك مسّت قلب هاجوتي فتشعريه بمعنى رقة الماء
ليست تحب سوى أن لا تحب فما أغصى الدواء على من حبه دائي
« . . هذا وإن النفس لتنازعني اليك . . . ولكن لم أنطلق على أحد
من قبلك ، . . . ولن أنطلق عليك مرتين » ١ .

فأين إمامنا من عمر بن الفارض سلطان العاشقين ؟ وقوله :

ومن أجلها طاب افتضاجي ولذ لي أطراحي وذلي بعد عز مقامي ١ .

ويخيل إلي أن الزافعي لم يكن قد خلق لمثل هذا الحب الذي قد أتصوره
غير متكافي ، ولكنه أحب على طريقته هو ١ .

« والحب عند الناس هو حيلة الخيانة لا إيجاد النوع ، ولكنه عند الزافعي
هو حيلة النفس الى السموي والاشراق ، تطل منه البشرية الى غاياتها العليا ،
وآملها في الأهداف السلمية ، وتنفخ فيه الروح على عالم غير منظور تنوّر فيه

الأفق المثير في جانب من النفس الإنسانية..

الحب عنده نبوة على قدر أنبيائها، فيها الوجي والالهام، وفيها الأسراء إلى الملاء الأعلى على جناحي ملك جميل، وهو مادة الشعر وجلالة الخاطر وينبوع الرحمة وأداة البيان» (١).

ومن ذلك يتضح لنا أن الراجعي حين سعى بتقديمه إلى الحب أدرك الصراع بين عقله وقلبه فأراد صنع الألم كما تصنع الحجر ورمى به صاحبه.. وإلا فما بال رسائلها متطارحة هكذا بعد هذه «القطيعة» ١٩٠١. بأكثر من سنتين؟ أليكون هناك موضع آخر لم يسجل في أوراقها وما باح أحدهما لصاحبه أو خاصته بخبره ولم ينزل أحدهما للآخر فيفضي له بما في ذات صدره؟ ولا أشك بأن القصة ما تزال تحتاج إلى المتابعة، بالرغم من جميع الحثييات التي تصدق الوقائع، وإجل في رسائل الراجعي إليها، والتي حظي ببعضها الطناحي، وإطلع على البعض الآخر عباس العقاد كما نرى في مقالته «رجال حول مي»، ورأى فؤاد صروف القسم الأخطر، وفيه رسائلها بثلاث إليها في مطلع عام ١٩٣٤ م (٢).

وإلا فما بال السيدة السورية تحمله تبعه ما جرى لها من ثم؟ وتطالب إليه أن يبادر بعمل ما تقترحه عليه، لينقذها من الحالة الالئمية التي كادت تنتهي إليها عقب

(١) العريان .. حياة الراجعي ص ٩٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣

الأميرة الدينية التي دبرها لها بمض ذوبها، فأقامت في منسحة المصفورية بلبنان (١).
وقد هفت نفسه اليها من جديد في لوزن من الحنين المأود، وغير قليل من
النديم (٢) فكان يكتب الي صديقه السيدة الدمشقية لتزورها وتكتب اليه
بخبها... وكأنه أدرك بعد قوات الأوان عظم الخطاة التي اجتهد فيها لقطيعتها.
وبقي الرافي حتى وفاته لا يفتأ يذكرها، ويذكر أيامها معه، وما تبحر
خاطره لحظة (٣).

وحين علمت هي بوفاته - رح - قالت في حسرة باكية :
« لقد مات - وفي نفسي منه ألم ، وبقلي عليه لوعة ١ » (٤).

لقد أحب الرافي ميا من أعماقه ، ولكن الحوائل حالت دون ما يبتغيه
إنساناها... وبقيما يتجرعان كؤوس الألم والحمران ، وتلجأ بهما الكبرياء...
ولا أقول الغناد... حتى وسائلها في المراسلة ما لبثت أن انتقلت الى موضوعاتها
العامة التي يكتبان بها في صحف ذلك العهد... ويوم هم الرافي أن يكتب
« أوراق الورد » ، ويجمع رسائله ورسائلها... سابقته هي الى إخراج كتابها

- (١) راجع طاهر الطناحي - الساعات الأخيرة في حياتهم ص ٩٢ .
ويذهب كل من أنور الجندي وعبد السميع المصري الى أن أهايا خشوا
عابها العودة الى الرافي ، والزواج المسلم... فافتعلوا قصة جنونها وسجنوها
في لبنان حتى مات الرافي... راجع كتابهما...
(٢) و (٣) راجع العريان - حياة الرافي - فصل الرافي العاشق .
(٤) من حديث السيدة السورية نفسها .

« ظلمات وأشعة » وجعلت إحدى رسائلها فيه ٠٠١ حيث بادر هـو بنقلها الى مصنفه الفريد (١) وفيها تقول :

« سادعوك أبي وأمي ، منهيةً فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ..
سادعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين .
وسادعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق .. (تأمل) .
وسأطلعك على ضعفي واحتياجي الى المعونة ، أنا التي تتخيل فيك قوة
الأبطال ومناعة الصناديد » (٢) .

وتقول أيضاً :

سأستعيد ذكرك في خلوتي ، فأسمع منك حكاية غمومك وآلامك ،
وأطاحك وآمالك ، . حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد ..

من أنت ؟ وماذا كنت ؟

لقد كنتَ حياً من فيض شاعريتي المكتضة ، وكنت طيفاً من أطياف
شوقي وعذابي ، وأنت حقيقة محسوسة ، مرت في أفق حياتي مرور السفن في البحر
الى الشواطئ النائية .

يا مهذبتي .. (٣)

ومن وحي هذا الحب كانت محاولة الرافعي بحث فكرة « أغاني الشعب »

(١) ، (٢) ، (٣) أنظر مي - ظلمات وأشعة ص ٧٣ ، والرافعي - أوراق الورود
ص ١٥٦ .. وتأمل لماذا لم تعترض مي على ذلك ؟ : وكذلك مي مختارات
الهلل - الأمنية ، وراجع العريان - حياة الرافعي - ورسائلها في المراسل ص ١٤١ .

من جديد (١) فقد خيل اليه أن يشارك الأمة في عواطفه ونوازع وجدانه ،
ويتسامى بهذا الحب الى صبوة فريدة ، لا يبقى فيها هنالك حرج من أن يحب
صاحب الإعجاز ، ويصبر ويتدأه . . في وقت كانت فيه الكتابة عن الحب
لا تعدو قصصاً تلتصق بدعاوى التبشير والاستعمار ، أو تعلق فيها ما لا تقبله
نوااميس العرب في العرض والمروءة والتقوى . . وإن جهدت بعض النحل
آنذاك أن تنقطع في تسويةها . .

ومن وحي هذا الحب أيضاً وجد الرافعي الألم الذي هو ينبوع الشعر ،
ذلك الذي كان يحوم حوله ويفتش عنه في تلك الأيام ، . . حتى ألفت به
الأقذار أمامه . .

ومن إلهام هذا الهوى عاد الى معاني « فتاة الشرق » والمقالة التي جعلها
أساس كتاب صغير ، يحولها الى « رسائل الأحرار » ويتحدث فيها عن نفسه
بأسلوب التجريد ، . . ويستفيض ببيان منطقي عالٍ في مناقشة الكثير من موضوعات
الاعتقاد المقارنة ، . . التي ينتصر فيها للعقل العربي المؤمن ، من غير أن يثير جدلاً
مذهبياً ، أو صراعاً دينياً ، كما كان يحاول أن يجره اليه مناوئوه . .

ومن نتيجة هذا الغرام ظلل على نفسه بالسحاب الأحمر ، فأكل ما كان
بدأه في الرسائل وأتم الحديث في تلك الموضوعات التي أثارها الحياة الجديدة ،
وفصل بعض الذي أوجز هناك ، . . وإن قسا في جوانب من أحكامه . . وانهم
في بعض عبارته وغمض عند فصوله . .

ومن آثار هذه الحياة الفريدة في الحب وعشق الجمال كانت « أوراق الورد »

(١) سيأتي بيان ذلك عند التعريف بأغاريد الرافعي .

تلك الرسائل التي اعتبرت معجزة لدعاة التجديد والمجددين عن أن يجاروها
أو تلد أفكارهم بعض رسائلها ٠٠١

وكان الهلال قد نشر منها « رسم الحبيبة » في جزء كانون الثاني - يناير
١٩٣١ م ورسم لها الفنان صورة رائعة ، فيها شبه كبير من صورة « مي » نفسها ،
وحسبت عند اطلاعي عليها أن افتضاحاً للموضوع كان فيها ، .. ولكن العريان
والطناحي - رحمهما الله - أجابا عن استفساري بمعنى واحد يقول :
« وهل كان حب الرافي من الأسرار ١٢ » (١) .

وقد أحدثت هذه الحركة الأدبية البارة للرافي صدىً عميقاً في النفوس ،
كان الأديب الرفيع ، من قبلها ندر أن يتدنى الى موضوعات « الهوى »
والحب ، .. وكانت حصّة هذا الجانب العظيم من العواطف الانسانية . كاد
تقتصر على بعض المستهلات الغزلية التقليدية لبعض قصائد الوصف والمديح ٠٠١
وقصائد الغزل المعدودة ، وما تحدث تاريخ الأدب العربي بغير نتف لمحاولات (٢) .
ولكن المعجزة حدثت على يد الرافي ، .. فقد افتحم هذا الميدان ،
وركب له متن الخطر ، وألقى يقبله في عذاب الحب ، فألهب عواطفه ، وأحرق
دمه وآذى أعصابه ، وصارع نفسه وعقله بقوة دينه ، وإشراق روحه .
وهكذا شتم عن ساعد الجد في الموضوع وراح يقطع الأشواط في مذهبه
القيم الذي يبعث الحياة في الحب الانساني ، .. ويعود به الى السمو بالعذرية ، ..
ويشرق على الاجتماع الحضاري الوليد بروح عربية مؤمنة ٠٠١

(١) العريان - حياة الرافي ص ٩٥ .

(٢) أنظر الرافي - في مقدمته لأوراق الورد .

حتى جراه الرحوم محمد صادق عنبر في الرسائل التي كتبها على لسان
المجنون وليلاه ، والسيد زيادة في « حب الشاعر » .. والدكتور زكي مبارك
في رسائل (مجنون سعاد) و خليل الحشالي في (رسائل قلب) ١.

* * *

ولقد أثير سجال أدبي حول الرافعي ومي وقصة الحب التي لم تكتمل
بينهما غير مرة ، .. ولا أعرف مرضوعاً استغرقت فيه المناقشة من الأيام
ما استغرقت هذه القصة ١ ، .. وهي تطلع كل حين على صفحات المجلات العربية
والصحف الأخرى في جميع الأقطار ١.

يثبت أدب فيما يراه ، أو وقف منه على خبر ، ويحاول به آخر رأياً يتفلسف
به ، في تحليل لما بعد الوقوع قد لا يوفق فيه .

وينفيه آخر البتة ، ويلتمس التعلات لهذا النفي ، ويحجيء سواه من ثم ليجتهد
بتفسير لا يثبت ولا ينفي ، وقد يقصره على القول في الحب من طرف واحد ١ .
ثم تحجيء طائفة غير هؤلاء وأولئك ، والاشفاق يملأ عليها أفق الموضوع
من ناحيته الواقعية والعاطفية ، فتحاول أن تجد له مسوعاً خاصاً مما يزعمه المجنون
لها في شيء من الجمالة ، وغير قليل من الوهم ، والضلال ١ . حتى تنعكس بهم
المحاولة نفسها ١ .

وربما كانت أصول هذه الحالة المساوية في البحث منذ أيامهما الأولى ،
وحيث كان الرافعي ومي ما يزالان أحياء ١ . وقد أفصح عن ذلك لطفي جمعة
بحسابه ذلك خيالاً لا يمكن أن يكون في الواقع (١) .

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٩٦ .

وقد حدثني الأستاذ كامل أمين أنه حضر وخاله الزحوم كامل كيلافي مجلساً للرافعي في بيته عام ١٩٣٤ م وكان هناك سؤال عن ماهية هذا الحب يدور بين الجلوس ، والرافعي يلباقته المعروفة يؤمل حضوره باليوم الذي تكتب فيه .
القصة كاملة (١) .

ولكنها انطلقت - مكابرة - عقب كتابة العريان فصل «الرافعي العاشق من كتابه (حياة الرافعي) الذي كان ينشره منجماً في الرسالة منذ عام ١٩٣٨ م ١ .
فتلاحقها بالتعقيب (٢) غير أديب ١ .

وعادت بعد ظهور الكتاب في طبعته الأولى عام ١٩٣٩ م ، والثانية ١٩٤٦ م .. وكانت تتخذ من مجلة الرسالة ميدانها الأول ، ثم تنتقل الى صحف الدنيا العربية كالمكشوف في الشام والملاحل في بصر والنفيض في العراق ..
والإحسان بدمشق ١ .

ولما أخرج الشيخ محمود أبو رية (رسائل الرافعي) التي وجهها اليه الرافعي في حياته .. تصدى لها العباس خضر في محاولة الشك في القصة ،
والتجاوز بالظعن في شخصية الرافعي (٣) ، وإرسال الرأي في أدبه (٤) ..

(١) الرافعي - الرسائل ص ٨٧ .

(٢) راجع العريان - حياة الرافعي ص ١٢٢ .

(٣) الرسالة ٧٩٥ - ١٩٤٨ م وما بعدها ، وكذلك الرسالة

٩٢٢ - ١٩٥١ م .

وقد رأيت هذا «الأديب» العباس ١ في القاهرة عام ١٩٦٥ م فلا والله
ما رأيت «بليداً» في الأدباء كمثلته .. وكنت أقرأ له وأحسب له خطراً !! ..

(٤) الواقعية في الأدب ص ١٩١ .

ويوم كتب الأستاذ حسنين مخلوف فصولاً عن (مجلس الرافعي) لمجلة الإحسان، السورية وذهب في بعضها مذهباً من التفسير قدمناه في اصطناع الرافعي للحب ليكتب ويبدع ١١. وعاد عباس خضر فتلقف ذلك وتساءل في (الرسالة) ليجر العريان الى القول، والايضاح (١) فكتب حسن حمدان، وقال كامل محمود حبيب، وتكلم الشيخ محمود أبورية بما جعل الشك في الموضوع غير وارد أصلاً،.. وأن انتحال أسلوب من أساليب المغالطة المنطقية لا يجوز على مثل هذه القصة ثباتة الحثييات (٢).

فقد علق العريان يومها بقوله :

« أما أن الرافعي قد أحب ميّاً صدرأ من كهولته وإلى آخر عمره فشيء لا أنكره ولا أشك فيه،.. ولكن شك « الفضلاء » في « ماهية هذا الحب » - وهذه قضية سيكولوجية يحتاج بحثها والفصل فيها الى مقدمات، وإلى دراسة نفسية معقدة تستند الى أسانيد « الرواية » وإلى خبرة عملية في الحب .. » حتى يقول : « أصر على أن الرافعي أحب (مي) » وأنها أحبته ذات يوم حباً ما،.. وبمباراة أدبية بارعة يستأنف .. ولكن حبها قد انتهى قبل أن ينتهي حبه - أعني قبل أن ينتهي عمره » . (٣)

وقد حدث أيضاً أن شجر ما بين الأدباء عقب الثورة المصرية عام ١٩٥٢م، وحين حظي بعض الأدباء الموثورين، الذين يحسبون أنفسهم على « اليسار » والاشتراكية، من واردات أوربة وتلامذة مكاتب الارشاد الحليفة ونوادي إخوان

(١) و (٢) راجع الرسالة ٧٩٧، ٧٩٨ - ١٩٤٧ م .

(٣) العريان - الرسالة ٧٩٨ .

الحرية في الحرب العالمية الثانية - بغير قليل من « الحرية » ويوم فصح لهم المجال كبيراً للنشر وإذاعة آرائهم وأفكارهم ، سواء منها ما يسرقونه ترجمة بالمقص ، أو ما توحىه اليهم وكالات الاستخبارات الأجنبية ومؤسساتها الثقافية ذات الطابع الغزوي الذي قدمنا ذكره في الباب الأول .

فكتب سلامة موشي في صحف أخبار اليوم ، . . وتابعه فتحي غانم بـ « قلة أدب » في آخر ساعة ، . وتنطع أنور المعداوي (رح) في مجلة الآداب يدرس علاقة مي ١١ (١)

حتى لقد بدا دفاع العرياف خافتاً ، . . ومحااجة « رضوان ابراهيم » المنطقية وكأنها لا أداة لها ٠٠١ ورد صدر الدين متهماً ، . وكلام محمد عبد الغني حسن ضائعاً .

فقد غشيت الصحافة موجة من التهريج الشيوعي ، والانتهازية اللا أخلاقية ما شغل الناس عن متابعة موضوعات الاعتقاد القومي بعامة ، . مما لا تزال آثاره قائمة الى اليوم ١ .

وما كادت الثورة تثبت على قواعدها الشعبية ، وأسسها العربية ، . حتى كان زمام المبادرة في الدراسات القومية والمنهجية يأخذ طريقه الى الجامعات ، . . ليرسي قواعد البحث العلمي ، بعيداً عن أضاليل الصحافة ، وأباطيل الترجمة المهووسين ١ .

وقد بدا أن هناك « مغالطة » يحاول بها الأدباء المسيحيون بخاصة ،

(١) راجع « الآداب » البيروتية لعام ١٩٥٣ - ج ٤ م ١ ص ٣ ، وج ٥

م ١ ص ٧٧ وما بعدها . . وجريدة الأخبار ومجلة آخر ساعة لعام ١٩٥٣ م .

رفض القصة جملة وتفضيلاً، ..

فقد حسب جورج ابراهيم حنا أن الحب ربما كان من طرف واحد (١) .
وتردد قواد صروف بين الاثبات والنفي (٢) . وسخر جميل جبر في كتابه
« مي في حياتها المضطربة » من حقيقة العلاقة ،،، وتهرب من وقائعها وحيثياتها
ورسائلها (٣) بعد ما لجّ سلامة موشي بذلك (٤) ، ولهج بالافتراء سواء .
وتبعه من أبناء ملتته أو من بلوذ بهم (تأدياً) كتّاب آخرون . حتى
تولت مجلة (الأسبوع) اللبنانية عام ١٩٦٣ م إثارة الموضوع مجدداً ،،، وجندت
له قسيساً ربما كان بعض آلامها من الذين تأمروا عليها بتلك الدناءة المعروفة (٥) .
وقد حاول هذا أيضاً نفي علاقة مي بالرافعي في طائفة صليبية لا تخلو
من قلة ذوق إن خلت من قلة الأدب . (٦)

على أن الشاعرة جميلة العلايلي كانت أول من تنبه الى ذلك حين ذكرت
أن لبعض ذويها يدٌ فيما أصابها ،،، ولا سيما بعد وفاة والدها إلياس زيادة ،،،
فقد كان لهم مطمع فيها (٧) وسعوا الى تزويجها قسرياً لثلاث تقع في يد الرافعي
ثانية فتكون من ثم زوجة فاضلة .

-
- (١) و (٢) راجع العريان - الرسالة ٢٨٨ و حياة الرافعي ص ١٢٢ .
(٣) راجع جميل جبر في كتابه المذكور ص ٤٢ .
(٤) « سلامة موشي - الكاتيب المصري أيلول - سبتمبر ١٩٤٦ م .
(٥) « طاهر الطناحي - على فراش الموت ص ٩٢ .
(٦) « مجلة الأسبوع العربي - أيلول - سبتمبر ١٩٦٣ م .
(٧) « أنور الجندي فيما كتبه عن مي ! أضواء على حياة الأدباء
ص ١٧ ، و نساء في حياة الأدباء ص ٤٧ .

وربما تشبث هؤلاء الغرقى بقشة ٠٠١ ذلك أن أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات كثيراً ما يحلو له أن يكتب بأسلوب يردف فيه الكلمات والعبارات بسجعات تتناغم مع صوته الأدب ، ٠٠

ومن ذلك أنه كتب في أربعين «حي» عام ١٩٤١ م يقول :
« كان لمي آثار وسمات ، ألهمت صبري ، وأوهمت الرافي ، وألهمت
جبران ثم أخرجت من سواد المداد صوراً مختلفة الألوان ، متنوعة الألفان
أضافت الى ذخائر الفكر الانساني ثروة » (١) حيث صف كلمات الالهام
والايهام والالهاب ٠٠ مع النغم في جرس يطبع به أدبه ، ويتفنن في المقالة
البيانية بواسطته ٠٠
وهكذا تشبث « بالوهم » من يوهم نفسه ٠٠١

على أن ما قدمت الآن من إيجاز سريع ، وما أحضرته من أدوات
القصة نفسها ورسائلها الحقيقية غير القابلة للتردد في الرأي ، لأنها تدحض
الاستئناف ، ولا تقبل التمييز من غير إبرام في الحكم بواقعية القصة ٠٠٠
وربما كان فيها غناء عن الإطالة ، ٠٠٠ وعسى أن ينهيا للدارسين من ثم
بقايا من هذه الحثيات في آثار مي نفسها ومخلفاتها ، ٠٠٠ وفي رسائل الرافي
الأخرى التي كتبها لبعض معاصريه من الكتاب والأدباء ، ٠٠٠ فيجعل منها
مادة دراسية في رسالة خاصة تجميئة تمة لهذا كله ١

* * *

(١) لزيات - الرسالة ٤٤٠ - ١٩٤٤ م .

وكان من نعم الله ورحمته للرافعي أن يكلاؤه بعنايته ، ويرعاه بالتوفيق والتيسير لما خلق له ، .. والحالة التي عايناهما من الحب ما بين « هند » ودلّها و « ماري » وحنانها في مطلع صباه ، .. كادت تعود عليه في شبابه وعنفوان رجولته .. ١ .

وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير بقوله :

« .. وما أسعد الناس وأهنأهم في سعادته إلا ذلك الذي يجمع قلبه وعقله أن لا يصدر أحدهما عن الآخر إلا راضياً مرضياً .. فتري في آثار عقله طهارة القلب وإيمانه ، وفي آثار قلبه إجادة القلب وإحسانه ، .. ولو كشف لك عن بواطن الأنبياء لتجلت لعينيك هذه الحقيقة ماثلة » (١) .

وما تصدق مثل هذه العبارة على أديب كما تصدق على الرافعي نفسه وفي أدبه الجمالي بالذات .. ولو أدرك بعض هذه الحقيقة شائثوه والمعتضون عليه في قصة قلبه هذه ، .. أو تجلت عليهم بعض آياتها ، لما أركسوا أنفسهم في حمأة الاتهام ، أو أداروا أفلانهم في ضلال الأوهام .

ففي الوقت الذي كان يغالب فيه أشوقه ومواجهه ، إبان العاصفة الهوجاء من حب « مي » وهو كما عبر عن نفسه بقوله :

مقيّد في وثاق من خلّاقه فما له لذة إلا لها ألم .. ١ .
يناشد الملأ الأعلى وفيه إلى ال أدنى مجاذبة ما دام فيه دم (٢)

(١) حديث القمر ص ٦٧ .

(٢) الرافعي - أنا ونفسي - المقتطف - كانون الثاني - يناير ١٩٢٧ م .

وكأنما يكشف عن نفسه في هذا البيت ، وأن « الحب الرافي » الذي أراد ، - كادت العاطفة الانسانية أن تتغلب عليه .

وهنا ينبعث فيه صوت من واعيته الباطنية كنداء الأذان في الفجر .. بقوله :
يا مُتَمَنِّي العمر في التفتيش عن حلم لو كان يدرك ما كان اسمه الحُلُم ..
.. فيعود به الى نفسه يحاورها ، ويداور معها الحديث في شجونه !!

وبينا هو كذلك هبطت عليه رسالة من سورية ، وفيها « مرض آخر » (١)
ربما أحس فيه لأول وهلة علاجاً ، إن لم يكن فيه برؤء وشفاؤه ، فلا أقُل من
الدواء بالتي هي الداء !!

وهكذا كانت « ماري » من ثم معه ، تمدد بأحوج ما يحتاج اليه آنذاك وهو
في دوامة القلق النفسي ، والاضطراب العاطفي ، « فيستمد » من أيتها وسماحتها (٢)

(١) الرافي - الرسائل ص ٨٦ .

(٢) يستبعد الأستاذ محمود أبو ربة أن تكون ماري ابنتي صاحبة الرافي
في « حديث القمر » ... وما بين يدي من رسائلها اليه لا يثبت ما ذهب اليه
العربان من أنها هي ... وفي رسالتها المؤرخة في ٢٨ أيار - مايو ١٩٢٤م وافى قولها :
« .. وإني لأحمل منك - وانت لا تدري - تأمل !! ذخيرة غالية م ... »

آيات الإبداع ؛ زودتني إياها « أحاديثك للقمر » منذ رمتها الأقدار بين يدي
(لاحظ !) فكانت خير ما حملت ، ترافقني في وحدتي ؛ فتحدثني بألف صوت
وصوت ، وتسير معي الى البرية ، فتحدثني ألف أغنية بألف نغمة ... وكان
« حديث القمر » قد طبع ثانية قبل التاريخ بأربع سنوات - أنظر رسائل
الرافي ص ٦٦ - .

وذكرياتها السعيدة « معاني الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة » (١).

فما كانت « صاحبة مجلة منيرفا السكتبة الأدبية ذات الشأن » ماري يني تعزيةً وساميةً فحسب حتى يتأوه الشيخ أبو رية بحسرة ويقول « آه لو كانت حيّ قد جاذبته جُلُّ المراسلة » (٢)، ٠٠، وإنما كانت « ملهمة » بأروع ما تغنيه هذه الكلمة ١..

وإذا لم تكن لها تلك الأصداء التي ترددت من حول (حي) ٠٠، وأنها كانت « أنني تستجيب لنداء العاطفة الانسانية .. فقد استطاعت أن تمزج قلمها بقلمه ، وتستحث نشاطه الذهني في الكتابة والقول ٠٠، وتستنجزه الوعود ، وتلحف عليه بطلباتها العديدة ٠٠، وتفتح له قلبها الكبير ١.

وتأمل كيف يخاطبه بتواضع جم وأدب عالٍ فتقول في رسالة :

« .. أحقاً أنك تقول عن اعتقاد ثابت في إمكان مزج هذا القلم الضعيف ، بقلمك الكبير النشيط ١؟ .. ولا أخالك هازئاً فما بيننا هذا .. » .
وترد في القول بالرسالة نفسها تستحبه « .. إذن - وقد عرفت درجة العجز التي أنوء بها - أراك ساعياً الى إنهاء الجزء الثالث من كتابك تاريخ آداب العرب أقول هذا مع رغبتني الشديدة في إصدار الكتاب الثاني » (٣) .
وتختتمها بقولها « أهديك من عاطفة إعجابي ما لا يستحقه سواك » .

ماري يني

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ١٤١، وتصدير أوراق الورد ص ٦ .

(٢) أبو رية - رسائل الرافعي - هامش ص ١٧٥ .

(٣) تريد به « السحاب الأحمر » .

وتقول له في رسالة أخرى : « .. أنساك ؟! .. قد أتسامح للذاكرة أن تستبد بي ما شاءت ، . ولكنني لا أجزئ لها أن تتعدى هذا الحد المقدس ، في جعل نفسها حازماً بيني وبين صديق أفاخر به سرّاً وجهرّاً ، وأغار من نفسي في نصيب منه قد يسطو على العبث به فكري أو فكر سواي .

هذه مكانتك من نفسي ، وهي مع سعتها قليلة في نظري الى جانب ما تستحق .. الخ .. وتختتمها بقولها : « .. شكري لمقامك الجليل أحس به إحساساً ، وأعجز عنه تعبيراً ، فهلا كنت رسول نفسك لنفسك ، وقبلت مني كل شعور الإعجاب والاحترام ؟! » .

ماري

وكان الرافي - رح - قد أحس بالفرق العظيم بينها وبين هذه الثقيلة « مي » ، .. ولكنه كان قلقاً أيضاً بشأنها ، وقد تخوف من أن تكون كسـميتها (ماري إيليس زيادة) فتؤلمه هي كما ألمته تلك ! ..

والكنها كانت عليه فيضاً من السـمحة ، .. حتى لنقول له مؤكدة « .. أما وقد شئت أن تجعلني على ثقة - كرمًا ولطفًا - في أن رسائي اليك تجلب السرور لنفسك ، فأنا أشكر لك هذه النفس الطيبة ، التي ترى في الظلمة نوراً .. وأعدك بأنني لن أنسى .. وكفى » (١) .

وتدلُّ عليه بمثل قولها : (.. الله منك ! . تجعل من نفس الشيخ علي (٢) قوة مفكرة تفوق قوانا ومقدرتنا ؟! .

(١) من رسالتها المؤرخة في ٦ حزيران - يونيه ١٩٢٤ م .

(٢) هو صاحب الرافي في كتاب المساكين .

ثم إذا أتيتك بفتاة نابغة ساحرة (١) تقول (.. قد يكون بها بعض ما لدى الشيخ علي الأمي الجاهل) ..١

ولكن هذه الفاضلة حقيقة بأن يكون في رأسها عقل رجل ، أنظن أنك قد رفعت منزلتها في هذا التعبير ١؟ (٢) .

وقد قطعت معه أشواطاً بعيدة في المراسلة والحوار والأمنيات العذابات ، حتى لقد أدركت شيئاً مهماً حين كتبت إليه تقول :

(.. ألا نجد أن محادثتي إياك هي نوع من الجريمة التي لا تغفرها شريعة ولا دين ١؟ .. وأن فيها خروجاً من حد اللياقة التي تقتضيها حقوق (المرأة) (٣) . ولكنها تنسى ذلك ونفسها بسرعة فتقول لي :

(تكلم وأطل .. في شوق الى سماعك مهما أطلت .. إن مقامك هولاك ، فلن يناعك فيه منازع ا) (٤) ونقول : (أنا لا أمل قط سماعك .. فهل أنت مثلي) (٥) .

(١) تريد بها « عي » .

(٢) من رسائلها المؤرخة في كانون الأول - ديسمبر ١٩٢٤ م .

(٣) كان الرافعي قد جاوز الأربعين من عمره ، وهو متزوج وأبو أولاد بنين وبنات ، وليس بينه وبين زوجته غير شهر عسل دائم - راجع العريان - حياة الرافعي ص ٥٩ !

(٤) من رسائلها المؤرخة في ٢٠ شباط - فبراير ١٩٢٥ م .

(٥) « « « ١٧ أيلول - سبتمبر ١٩٢٥ م .

وتقول له أيضاً (.. لا وحقك إن لك عندي غير صفحات منيرفا مسكناً) (١).
وتذكر له في وخزة « هنيئاً لهذه الفتاة - فتانك - لأنها قدرت أن
تجرحك هذا الجرح الدامي فتخرج للإنسانية منك هذه العصاراة الطيبة في
« رسائل الأحزان » (٢) .

وتكتب في مجلتها بعض ردود عليه ،.. تلحقها بقولها « عسي أن تكون
جارحة حتى أرى ثورة هذا الدم العربي » (٣) فكأنها كانت تريد أن تفجر
فيه روح الكتابة والشعر ..

ولم نزل رسائلها تنجي . فترى على « أديب القطرين » و « أمير البيان العربي »
و « صديقي الغالي » و « الحبيب المستبد » .. حتى تطلب صورته ، فيبعث بها
إليها ويكتب لها تحتها :

ارسموا شخص الوفا.. ثم انظروا من بعد رسمي

لو يُسمى في الأنام الحبُّ ما اختار سوى إسمي

فتسارع في نشرها مع البيتين أمام موضوعه (المرأة والسماء) من رسالة الجاذبية (٤)
.. وتكتب مذكرات يومية ، فتدعوه أن يشرِكها في مثلها :

« .. كم أتمنى أن تدوّن ريشتك الساحرة بعض مذكرات خاصة ، تصبح

مجموعة ، تخرج بعد زمن إلى العالم مكان النفس الحساسة العميقة .. حينها هذه
الأمنية » (٥) .

(١) و (٢) و (٣) من رسائلها المؤرخة في ٢٠ شباط - فبراير ١٩٢٥ م .

(٤) راجع الراجعي - منيرفا ج ٤ ، ٥ ١٩٤٤ م .

(٥) من رسائلها المؤرخة في ٩ آذار - مارس ١٩٢٤ م .

ولكن ما تكاد ظروف فتاته هذه تستولي عليها ، .. ولم تكن تخلو من
لحمة القسيس ، . بل كادت تقذف بها عبر البحار الى بلاد المهجر مع رفيق لا بأس
به ، لولا رفضها بدون ندم (١) حتى تعودها رسالة الرافي فتدخل الى السكينة
تأمل ذاتها ، فتحلم وتكتب له تقول :

« .. ففي أواخر أيار (مايو) أحلم برآك ، وزيارتك مع رفيق جديد
سيحملني الى المهجر ولعله الرجل الذي قدفت به الأقدار ليجعل في حياتي تطوراً
جديداً لم أكن أحلم به .. »

وترتبك في قولها « .. أنا مندفعة الى الرضا اليوم بحكم الواجب والعقل ،
أما العاطفة فأرجو أن يكون لها عمل في وقت قريب .. » .

وتختتمها بقولها « .. أنت لا تزال صديقي الغالي . فثق بمرکزك الذي
لا تزغعه تطورات الحياة ، .. تحيتي اليك تزداد إخلاصاً ونقاءً » (٢) .

ثم تنشر منبرفاً في صدر صفحتها الأولى صورة لقران ماري عبده بني
وابراهيم عطا الله ، وبظهر فيها جمال ماري الرائع ، وبسمتها التي لم تكن موجودة
في بعض صورها السابقة بمجلة السيدات والرجال ! .

وكانت الخطوة الأولى لها وهي تغادر بيروت على الباخرة كندا الى
عاصمة الشيلي ، أن تهبط مصر ، وتستضيف عند الرافي في طنطا ، ثم تغادر
الأسكندرية الى أوروبا فأمریکا ! .

(١) من رسالتها المؤرخة في ٢٧ كانون الأول - ديسمبر ١٩٢٥ م .

(٢) « « « « ١ نيسان - ابريل ١٩٢٦ م .

وكم كان الراجعي يومها حليماً،.. حيث استقبلها الاستقبال الحسن
وودعها الوداع الجميل .

ولما عاودت ماري بني الكتابة اليه من سانت ياغوا .. كتب اليها كالذي يلفت
نظرها الى منطق العقل والواجب يقول - إنك إن أبيت النسيان بسرعة ..
فلا بد أن تنسي ببطء » ولكن هذه الكلمة تقع عندها كالصاعقة ، فتقطع
عليها سلسلة أحلامها الجميلة ، وتصدمها بالواقع ، مهما حاولت الفرار منه .. ومن
بين مغالبتها لدموعها تكتب له قائلة :

« .. أأكون ظالماً في تقديرك المرأة حتى بين أحضان الصداقة ؟ إذا
أنت تسامحت مع نفسك فأنا لا أغفر لك هذه الهفوة ، وأضيفها الى عديد ظنونك
نحو هذه المخلوقة ، التي لا ذنب لها سوى طيبة في نفسها هي أصل بلائها » (١)
ثم تأتي كلماتها تنتحب في هذه الرسالة ،.. والتي بعدها ، فيعمدها رحمه الله
تطبيب خاطرها بمعاودة الكتابة اليها عام ١٩٣٠ م ..

وتعثر في بعض أجزاء المقتطف على « رسالة الغضبى » وسواها من أوراق
الورد التي « تطرب وتشجى » فتعجب عليه ، لم لا يذكرها بنسخة من هذه الآيات
وتكتب اليه قائلة بثقة وحزم :

« أريد نسخة برجوع البريد ، وأريدها مزينة بآية من يدك ،.. ولا
إخلاك إلا مليئاً نداء هذه الصديقة التي تحمل من فضلك ما يجعلها مدينة لك أبداً ،
كما أنت مدبّن لي بأرجحية إخلاصي .. أننكر ؟

هات البرهان (١) ماري

(١) من رسالتها المؤرخة في ١٧ أيلول - ديسمبر ١٩٢٦ م .

(٢) من رسالتها المؤرخة في ٧ تشرين الأول ١٩٢٩ م .

أقول .. وعند مقابلي هذه الرسائل وسواها مما لم أشر إليها ، مع ما جاء
بالرسائل التي نسبها الى صاحبتها في « أوراق الورد » ظهر لي أثرها في الكتاب
أكبر بكثير من أثر مي .

ولو تهيات لنا رسائله الأصلية إليها ، .. لكان بين أيدينا مادة غنية جداً
في دراسة خماسية الرافعي الانشائية في الحب وفلسفة الجمال ، .. قد تكون
موضوعاً قائماً بذاته .

وهكذا عاد الرافعي من ثم « كلما أحس حاجة الى الحب راح يفتش عن
واحدة يقول لها : تعالي نتحاب لأن في نفسي شعراً أريد أن أنظمه ، .. أو رسالة
في الحب أريد أن أكتبها » (٢) .

وكان للرافعي سلطان على النساء ، ولهن عليه سحر وفتنة ، وإحساس
عجيب في مجالسهن ، وهو فكه ظريف مداعب لا تملك السيدة الرزان في مجلسه
إلا أن تخرج عن وقارها ، .. وكانت هذه أداته في استمالتهم حين يلتمس الوحي
أو يجد الحاجة الى أن يقول .

وقد سمعه العريان يقول لإحداهن ، وسمع إحداهن مرة تقول له :

(١) العريان — حياة الرافعي ص ٩٧ .

متى أراني في مجلسك لتكتب عني رسالة في « ورقة ورد » ١٢ (١)
إذ لم يكذب يخرج هذا الكتاب ، حتى « جاء الشيطان فعرض عليه (عينات)
جديدة كأنه - أخزاه الله - كئني يعيش من بيع هذه الكتب ٠٠١ (٢)

* *

وقد حدث له أكثر من واقعة كاد فيها الإعجاب به أديباً ورجلاً أن
يتحول الى لون من الحب ، فهذه « فاطمة .. » تحسب أن « أوراق الورد »
من وحيها هي ، .. ولا ترضي أن تشر كما فيها سواها ، .. فلا تكفي بادعائها
هائيك ، وإنما تبعث إليه بقصيدة تقول فيها :

يا حياتي وخذائي	وصباحي و - مساء - كذا
من يضحني في سبيلي	كلّ غال لي يراه
وإذا ضاقت حياتي	وسعتني راحتاه

.. الخ ٠٠ (٣)

.. والأخرى (فتحية) كان أبوها أديباً محباً للرافعي ، وقد توفاه الله
قبله ، وتكرّم لها ولأخوتها الزمن والأصدقاء ، فهي تسعى إليه تعرض الحال ، ..
وبدافع من إنسانيته العالية وبره بأصدقائه يعطف عليها ويرعاها ، ويتوسط لحفظ
حقوق الأبناء في مراتب أبيهم ، فتحسب أن ذلك « حباً » منه لها . فلا تلبث
أن تلقاه في الاسكندرية كلما أمّها للاصطياف ٠٠١ (٤)

(١) المرجع السابق .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ١٩٩ .

(٣) و (٤) عن رسائلهن العديدة إليه ٠٠١

وثمة أدبية أسكندرية أيضاً هي « سعاد .. » تتجلى له بروحها الشعرية ،
وتحفل بمحبته وتبعث له بأبيات تقول فيها : (١)

فيضٌ من الرحمن شعٌ بروحه كالشمس فاض على الحياة سناها
سر مصطفى ، فالله جلّ جلاله مع روحك المعطار إذ أنشأها
أما الأدبية السورية (فلك طرزي) فقد ملأ عليها أفق حياتها إعجاباً ..
وتمنت عليه أن يكون لها أثر في كتاب آخر من هذه المجموعة ..

وكانت بينهن أيضاً « فكرية زكي » التي كان للرافعي يد في حصولها
على وظيفة في التعليم ، وقد أحبته نوعاً آخر من الحب نادر المثال ، فهي
تصرح أن لا أمل لها معه أن تشركه الحياة ، .. ولكنها تفيض عليه بترجمات عن
اللغة الانجليزية فيها شيء من شعر « شبلي » وبراوننج وسواهما من شعراء العاطفة ..
واقدم كانت هذه الحياة المتصلة به مع الناس ، ولا سيما أمثال هذه النسوة
الأدبيات ذات أثر بالغ على أدبه وفنه .. صورت له من الاعجاب والاكبار عالماً
قائماً من الحب والصدقة .

وعلى ما كان عليه رحمه الله من الخلق الثابت والقوى ، .. فإنه كان
يفشى المجالس والمتنزعات والنوادي ، وربما اختلف على دور اللهو والسيما التي
يرحل فيها الى « عالم خارجي » كما كان يصطلح لها .

وقد حدث له قصة « في اللهب ولا تحترق » الشهورة (٢) وكيف أغري
بالذهاب الى فرقته الراقصة .

(١) عن رسائلهن العديدة اليه .

(٢) راجع العربان - حياة الرافعي - كيف كان يكتب .

كما حدث أيضاً في صيف عام ١٩٣٥ م ان التقى في مصيفه بسيدتي بشر بحسنة إيطالية ، وكان لقاءه بها من ثم مادة مقالاته عن « الجمال البائس » .
والتي تحول بها رحمه الله الى « اللب المسكين » تلك المشكلة التي تركها تنتظر الحل . . . وعندما أخرج الأستاذ خليل جرجيس خليل ديوانه (أغاريد الصيدح »
وضمنه رأيه في الحكم بقضية ذلك القلب . . . ! كما كانت هنالك خلول لآخرين
لم يكشف عنها حتى اليوم . . .

.. وفي عام ١٩٣٣ م لقي ملكة الجمال (كريمان خالص) في حفلة تكرمها
التي أمته له جريدة (السياسة) فكتب فيها (رسالة صغيرة) قال فيها :
(أني رغماً عن تقمّي على سفور المرأة المسلمة راضٍ عن سفور هذه
بخصوصها لأنها أشبه بتسبيحة إلهية في شكل نسائي) (١) .

وقال : (سأضم الرسالة لصغيرة هذه الى أوراق الورد في طبعة أخرى) (٢) .
وهكذا كان سلطان الجمال عليه يرحمه الله . . ينظر اليه كما يستنشي العطر
يكون متزوعاً في الهواء ، لا يستطيع أن يمسسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذ
منه . . ثم لا يدفعه اليه إلا فطرة الشعر والاحساس الروحاني (٣) .

وليس الرافعي في أدبه مثل قصة حبه ، وهيامه بالجمال ، بدأ حياته شاعراً
بها ، وتناول جوانب العلم والعرفان من أجلها ، . . وأرخ للغة والأدب فيها ، . .
وأدار فلسفته الخاصة في الحياة والدين والاجتماع من حولها ، حتى جعلها فلسفة
الحب والجمال .

(١) و (٢) الرافعي - الرسائل - ص ٢٥٥ - الهامش .

(٣) الرافعي - الجمال البائس - وحي القلم ج ١ ص ٣٩١ .

على أن خير تفسير لظاهرة « الحب الرافي » هو ما جاء في كلام الرافي
الفنان نفسه وقوله :

« .. وذو لا يفيد من الحب قائده الصريحة إلا إذا جعله تحت عقله ،
فيكون في حبه عاقلاً بجنون لطيف ، ويترك العاصفة تدخل في التفكير ، وتضع
فيه جمالها وثورتها وقوتها ، .. ومن ثم يرى مجاهدة اللذة في الحب هي أسعى لذاته
ويرى بها في نفسه ضرباً إلهياً من السكينة تُؤليه القدرة على أن يقهر الطبيعة
الانسانية ، ويدع فيها عمله الفني العجيب .

والرجل الكامل ، والمفكر المتخيل ، إذا كان زوجاً وعشق ، أو كان
عشيقاً ، وتزوج بغير من يهاها ، . استطاع أن يبتدع لنفسه فناً جميلاً من مسرات
الفكر ، لا يجده العاشق ولا يناله المتزوج ، .. وإنه ليرى زوجته من الحبيبة كالتمثال
جمد على هيئة واحدة .

مثل هذا المفكر العاشق يحتاج الى الزوجة كما يحتاج الى العشيقة ، .. فهو
في قوته يجمع بين لزامه هذه ، وقدسية تلك ، لأن أحدهما توازن الأخرى ،
وتعدها في الطبع ، وتخفف من طغيانها على الغريزة ، وتمسك القلب أن يتبدد
في جوه الخيالي »

الفصل الرابع

صورته الخلقية والنفسية

لم تكن للرافعي صورة تخلق تميزه عن الناس.. حتى ليشك الناظر الى وجهه - لأول وهلة - أن يكون وراء هذه السحنة والملامح مثل ذلك النبوغ الذي اشتهر به ، وتلك العبقرية التي خرق بها بعض النواميس ، وبين يدي خمس صور له مختلفات ، ربما كان لها في مراحل حياته بعض عطاء بوحى للعتأمل فيها نوعاً من المعاني الملهمة ، وكأن بينها اتساقاً يجري من خلاله نور زاهي الظلال.. وتلوح فيها جميعاً صفحة من بقايا آثار تلك الروح رفاقة ، كأنها تنبئ عن قافية ولدت فيها قصيدة عذراء.. فما استطاعت - لينتها - أن تستكمل إشراقها .. وتظهر على كل صورة مسحة من كآبة كأنها تكبح شدة وطأة همّ دفين ..!

ويطل عليّ وجه مصطفى صادق الرافعي - الحفيد ، نجل الدكتور محمد الرافعي - يد تلك الاشرافة بشعاع ضئيل لا يكاد يحس به أهلوه ..! « وجه ممسوح مستطيل أقرب ما يكون الى بياض أهل الشام منه الى

سمره المصريين» (١) أسيل الحدين ، أزهر ، في وجنته احمرار دائم ، لا نجد بعضه في وجهه حفيده . . ولكن شمس النيل قد منحت الرضاء في سمره لمياه تنطبع على شفتيه اللتين تفتقر بهما ابتسامته وقد استحيت أن تولد ، وخفرت في خشية خاشعة ، تتوسل بحجر الدعاء فهو يتمم لها بالمأثورات ، وكأنما ينطبق فيه قبل أن تفلت منه هذه الابتسامة الوديمة خارجة مع الأنواء .

كانت تعاقب الصحة عليه والمرض لم يفلح في إحالتها أو تبديلها ، . . وفوقهما شاربان كثيفان ، اختلط الشيب والصب فيهما بشمط ظاهر فلا تكاد تستبين أيهما . . ولا سيما بعد أن تحتفهما الأيام من طرفيهما فتصاغرا في تواضع وجمال ، بعد استعلاء وكبر .

وله عينان شهلوان ، تشردان هما الأخريان في تفكير أمضيهما وسهاد أخذ منهما حتى جعلهما « كأنما ينظر بهما الى نفسه لا الى الناس » (٢) .

وجبهة تبدأ فوق الحاجبين غائرة قليلا ، لتبسط مقوسة من ثم ، نازعة الى فروة الرأس في طلعة عالية لها رونق وبها بهاء . . .

وأنف طويل يستدق أعلاه ، وتبرز فيه عتبة صغيرة ، ولكنه يتدارك ذلك فينتح من حول الأرنبة نوعاً ، ليصوره بالتناسق المثل .

وأذنان فيهما كبير ، ولكنهما لا تؤديان عملا ، ولا تنقلان اليه معنى ، ولا يبعث الحس والحياة فيهما قصف المدافع . . ومن ذلك كان قليل التلفت

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر - ولم يبق هذا اللون الأشهل في بنيه ولا حقدته . . .

وإنما تناول عيونهم حور مصر ! .

بمجلسه (١)، .. شرود النظرة أحياناً .

لقد بحث بإحدى صوره - وهو يعاني من وطأة الحب ما يعاني - الى رقيقة أدبه الآنسة ماري بني - ولم تكن قد تزوجت بعد، .. ولا تركت مجلته « منيرفا » التي كانت تعتبر الرافي أبا راعياً لها، .. ورأت في تلك الصورة مسحة من تلك الكآبة ، وكأنما شفت عن أسى بين ضلوعه دفين ، .. فلما قرأت تحتها البيتين القائلين هديةً ونداء :

أرسمي شخص الوفا ثم انظري من بعد رسمي
لو يسعى في الأنام الحب ما اختار سوى اسمي
أشفقت عليه من نفسه أن يرح به الألم ، ويمضه الوجد (٢) ..
وبادرت بالقول رسالة :

« .. تكلم .. وأطل ، في شوق الى سماعك مهما أطلت ، .. إن مقامك هو لك .. قلن ينازعك فيه منازع (٣) .

على أن الناظر في البيتين يجدهما يشيران اليه في نفسه ، وكيف صور له الحب بأنه رسالة الانسانية وبقية روحات النعيم الذي غادره آدم ..

° * *

(١) راجع العريان - حياة الرافي .

(٢) أنظر مجلة منيرفا ج ٤ - ٥ السنة الثانية - وكانت ماري بني قد طلبت اليه إهداءها صورة فاعتذر له .. ثم عاد فأرسلها مشفوعة بالبيتين اللذين سارعت الى نشرهما .

(٣) من رسائلها المؤرخة في كانون الأول - ديسمبر ١٩٢٤ م .

وقد كانت للرافعي قامة متناسبة ، بريئة من الفضول ، لا يشينها قصر ولا طول ، ولا ينقص منها سمن أو ترهل ، ولا تؤذيها نحافة ، وإنما هي فراعة رافعية ، تمتد في شموخ وتبدر في استطلاع (١) ..!

أما شبهه القريب فكان بأبيه الشيخ عبد الرزاق الرافعي - رح - كبير القضاة الشرعيين في محافظات القطر المصري حتى عام ١٩١٩م ، يوم فارق الدنيا ليلحق بنداء الرفيق الأعلى (٢) .

فإذا كان كذلك حقاً فإنما نعت صفته سمناً وقيافة يوم رثى ذلك الأب الجليل بمثل قوله :

« تروعك منه هيبة عمرية وحسبك من أمسى له عمر جدا (٣)
فجاء كنصل السيف يهتز مصلتنا يد الله منه وحدها سنت الحدا
كما اعتصرته أنفـس عربية رماحاً وأسيافاً وألسنة لدا (٤)
ومن كان في التاريخ لحدود تجده من التاريخ قد ورد المهدا ..

(١) لعل الفراعة في القامة الرافعية من العلامات المميزة ، فأغلب من رأيت من أفراد الأسرة في الديار الشامية أو مصر كان يلوح لي بها ..!

(٢) هكذا قالت السيدة أم الكامل - وهيبة الرافعي ، كبرى بناته وكذلك حدثني الدكتور مجرد سامي الرافعي وهما من أدرك جدتهما الشيخ في طفولتهما وصباهما .

(٣) أنظر الرافعي في النظرات ج ١ ص ١٠٣ - من فضل الله أسرتنا أن نسبنا يتصل بالإمام العادل عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ورضي الله عنا بهم . (٤) اللدد : الخصومة ، والمراد هنا باللسنة اللد ، التي تغلب في خصومتها أبداً لقوة بيانها وفصاحتها .

وفي الناس أبطال ترى الفرد منهم وحيداً ومن أخلاقه حشد الجندا (١)
على أن من كان قد رآه من الأساندة الفضلاء والأدباء يكاد يصفه
بالسمت الشامي، والزهرة في اللون ويلاحظ شعره الأصهب حتي بعد أن وحط
الشيب فوديه .

كان الرافي حلو الملبس، أنيق المظهر كلفاً بكل ما يتحدث به شكرآ
لنعماء الله . . وقد حمى عن رأسه في شبابه سبقاً في الأخذ المدني، . . حتى فضل
الطربوش (٢) أمام غزو القبعة، حليق اللحية، دقيق الحاجبين، سابغها من غير
قرن، عريض المنكبين، غليظ العنق نوعاً ما، قوي الكف والساعد مفتول
العضل مما يعالج من تمرينات الرياضة، التي يكافح بها آثار المرض (٣) .
وكان له صوت، دقيق الأداء، رفيع النبرات عال، يجتس أحياناً، حلو
النغم، يكاد يشبه صراخ الأطفال له عذوبة، وفيه رقة وتطريب، . . ونعمة
الفرح والحزن عنده سواء (٤) .

ومع ذلك كله فلم يكن يحفل بمظهره هذا بالرغم من دلالاته عليه أثراً
وموجدة، وإنما كان يدعو الى التغافل في دراسة الشخصية، وخفاياها .

(١) الرافي - أبي - المقتطف - أيلول - سبتمبر ١٩١٩ م .
(٢) الرافي - الطربوش والقبعة - الحلال - ١٩٢٩ م - وقد أدهشت
صورته بعض فضلاء الأدباء في الشام فكتب بذلك يسأل عن « الشيخ الرافي »
الذي كان يحسبه أحد الأزهرين ! .

(٣) نعمات أحمد فؤاد - دراسة في أدب الرافي ص ١٦ وما بعدها .

(٤) العريان - حياة الرافي ص ٢٣ .

وأول ما يتداعى في دراسة صورته النفسية ، تلك الحياة العاصفة التي عاشها ،
والتي لم تكن تخلق به الى مصاف طموحه ، وإن لم تكن لتهافت به أيضاً ، - وإن
أقلقته بعض جوانبها ، واضطربت به كثير من أحداثها ، .. وهمت أن تضايقه
بعض منقصاتها ، .. « وهو لا يرحم نفسه إلا اذا حملها على شيء (١) » .
لقد كان ثابتاً أمام زعازع تلك الحياة ، .. يقف به على قدميه أمام
أهوالها وعواصفها إيمان عظيم ، ونزعة نفسية تتواجد صوفياً مع الألم ، .. وروح
تصفو به حتى لتتصل بشيء من أسرار الحقيقة عند سبيل من السلوك عال ، ..
واستعداد للتلقى فريد ..!

وقد استبطن ذاته يوماً فكتب في تحليل شخصية صديقه الزعوم الذي
تلقي عنه رسائل الأحران فقال : « .. يحسُّ منذ الصغر أنه رجل هرم ، أو كما
يقول الفلاسفة في تحليل ذكاه الأذكياه ، أنهم يتذكرون ما يرونه ، ولا يتعلمونه ،
لأن فيهم نفوساً خرجت من الدنيا كاملة ثم رجعت لتزداد كلاً (٢) » .
وكانت حياته « ليلاً طويلاً انبسط على فنن من الظلام كأنه موزق
بالسحب والغمام السود ، لا ينقشع بعضها عن بعض ، .. حتى كأن صباحه كان
يموت فيه أربعين سنة ، .. ثم انبعث آخرآ في وجه فتاة أحبها فأشرق له من غرتها
واستضاء علي وجهها ..! » (٣)

(١) الرافعي - الرسائل ص ٤٨ .

(٢) و (٣) الرافعي - رسائل الأحران ص ٢٣ .

ونكاد نلح مثل هذه الصورة النفسية العاصفة في مثل قوله :

ومن تكن نفسه بجرأ تخرج به أمواجه ، لم يزل يدوي ويلتطم
ومن يكن طامي البركان منفجراً فواره .. طاش منه الجر والحمل
وكأنما نفسه ذاتها كانت تضيق بأعنائه لها : فهو يصرف هواها ، ويحاذر
أن يوليه ، ليدكرها بشأنه ، ويقف بها على مجلى من حقيقته في زهو وخيلاء ،
وعصامية عالية تسمو به الى طموح عمري مهيب :

يا نفس ويحك أرضي الجدمثك فتى ماضي العزيمة وثاب .. ففتحم
لا تعرضي لي لذات الهوى أبداً ما للهوى في لساني «لا» ولا «نعم» (١)
مالذي أنا إلا أن أكون فتى كما يرفرف في أعلى الندى علم
حتى إذا ما حاول الفخر .. ولا عجب - عقد المقارنة بينه وبين خصمه
- الحقيقي أو الوهمي - في آية ليس منها أدب سواء :

أنا «المقيّد» في نفسي وفي خلقي كأنني قيدٌ حرّ قيده القسم
شتان بين امرئ في نفسه حرم قدس ، وبين امرئ في نفسه صنم (٢)
فإن اعتداده بما أوتي من قوة الإيمان ، وتوفره على أسبابه ليبدل
في تقريره طلب الحكم له من نفسه .

(١) راجع الراجعي - لا ونعم - منيرفا ج ١٢ - آذار - مارس ١٩٢٥ م .

(٢) الراجعي - أنا ونفسي - المقتطف - يناير - كانون الثاني ١٩٢٧ م -

إبان معارك السفافيد مع العقاد ، وفي البيت مقارنة فيها غمز للعقاد الذي

« يعبد نفسه » ! ..

ولكن مهما اعتدَّ الرافعي بنفسه لم يبلغ الدرجة الحدية التي تطوَّح بصاحبها
في ذهان خاص ١ اسمعه يقول :

« .. أنا رجل ليس فيَّ أكثر مما فيَّ ١ .. كالنجم يستحيل أن يكون
فيه مستنقع ١ .. فما أعرف من طبعي موضعاً للنفاق تتحول فيه البصلة الى تفاحة ،
ولا مكاناً من الخوف تنقلب فيه التفاحة الى بصلة » (١) وإنما اتصفت طبيعته
بالانصاف مع الحق الذي لا يتهاون فيه حتى عاد « حاد المزاج حلو الصداقة ،
مرّ العداوة ، يعتدُّ بنفسه ، ويصونها عن المهانة والابتذال ، . ورهن نفسه للدفاع
عن العربية والدين (٢) في تواضع ومقدرة كما عبر عن ذلك الأمير شكيب أرسلان :
لا غرو أن يرقى شخايب الذرى من كان من ذاك النجار تحمداً
هي عترة أبقى أبو حفص لها مجداً ، يتيه على الزمان ومفخراً
الرافعيون الأولى فرعوا العلى وتديروا في كل فن عبقر (٣)
ولعله كان يجد في نفسه ذلك الفضل الذي يسمو به ، ويفرده بين الناس :
سما بك أصل طبق الأفق ذكره وسارت به الأمثال في الأرض تضرب
وقوم هم الغر الكواكب كلما تغيب منهم كوكب لاح كوكب
ومم معشر الفاروق من كل أغلب نناه الى ليث العرينة أغلب (٤)

(١) الرافعي - صعا ليك الصحافة - الرسالة ١٨٣ - .

(٢) بدوي طبانة - تاريخ الأدب العربي الحديث ص ٤٣ .

(٣) شكيب أرسلان - رثاء جاحظ العصر - الرافعي - الشباب -

٩ حزيران - يونيه ١٩٣٧ م . وانظر أيضاً الشيخ أحمد الشرباصي - منير الشرق
٣ مايو - أيار ١٩٥٥ م - والجزء الثاني من كتابه في الأمير شكيب أرسلان .

(٤) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٤٦ .

وليس هو أفضل فحسب ، وإنما هو فضل ، ناله كبراً عن كابر :
 أنا الذي أرسل ذكر الهوى في الناس مثل المثل السائر
 من معشر نالوا العلى كابرًا تُعزى له العلياء عن كابر
 حلّو ذرى المجد وما غيرهم يسمو الى الذروة من فاخر (١)

«عاش غريباً ، ومات غريباً يرجه الله » ..

هذه العبارة زفرة حرى لا تكاد تبلغ هدفاً عند الدارس ، وتكاد تسمعها
 من معظم الذين عرفوا الرافعي من قريب أو بعيد ، .. وربما سمعتها من
 خصومه ايضاً (٢) .

وقد نحاول السؤال عن وجه الغرابة عنده ، وهل هناك حلقة مفقودة بينه
 وبين الناس ؟ .. تقرب به هذا الاغراب ، أو الاعتراب ، أو التغرب
 أو ما في مادتها ١؟ .

لقد حاول بعض المفسرين إرجاع الغرابة هذه الى عاهة الصمم الذي ابتلي
 به في مطلع شبابه (٣) ولكننا نجد الرافعي نفسه يشير اليها من ناحية أخرى فيقول :
 وحى الفضائل في زمان أهله - فيهم فضائل دينهم - غرباء (٤)

(١) الرافعي - الديوان ج ١ ص ١٠ .

(٢) أنظر المقاد - الديوان ج ٢ - ما هذا يا أبا عمرو - وكذلك محمد

خليفة التونسي - النقد عند العقاد هامش ص ١٩٣ .

(٣) شوقي ضيف - الشعر المعاصر ص ٢٢٥ - أخذ من طيب الذكر

الأستاذ صديق شيبوب - البصير ٤ - ٦ ١٩٣٧ .

(٤) الرافعي - الشعب - ٢٣ نيسان - ابريل ١٩٣١ م .

وربما كان يحاول التحليلية النفسية في مثل قوله :

.. لا يخذعك منا ظاهر حفل بالابتسام وغفلت في خوافينا
فإن عييت - بنا ، فانظر ضمائرنا فما ضمائرنا إلا مرائينا (١)
وقد يجيب عند كل سؤال يطرد في الموضوع على لسان اليتيمة بقوله :
كأنتي است إنساناً يشابههم ولا أعد ولا بين « المرائينا » ١١
.. فيبين لنا أن الصراحة ، والحياة الواحدة ، التي ليس لها ظاهر
يفرقها ، ولا باطن يخفيها هي التي جعلت منه « غريباً » . وتلك السيرة التي تطيع
السلوك العام بنوازع الوجدان وقصد الضمير ، .. فلا مجال لازدواج الشخصية
عنده ، أو للحجالة فيها مراآة ، .. أو لانتهازية فيها دجل وزيف ونفاق ، أو تخاذل
يظهر في لون ، ويختفي بآخر ١.

ولما كان قد بدأ حياته شاعراً ، فقد خيّل اليه يوماً أنه بسبيله الى المثل
الأعلى للإنسان حتى لم يعد « يحسب الشاعر إنساناً ، إلا إذا قال الحق ، وأودع
نظمه الصدق ، .. ولو مات من الجوع » ١ فالشاعر خلق حراً في أفكاره ، وليس
في طاقته أن يقيد نفسه أو يذلها .

واعتبر أن « طباع الشعراء ثابتة لا تتغير ، ولا تقبل ، وأفكارهم شديدة
الرسوخ لا تحيد ولا تتحول ، . فإذا خطر لهم شيء قالوه أو كتبوه .. ولو كان
فيه قطع أعناقهم وإزهاق أرواحهم » . ويعرب أكثر حين يحسب في ذلك أن
الشعراء « صنف من المخلوقات غريب الأطوار والمزايا ، قائم بذاته ، لا يحسب
من الناس ولا من الملائكة ولا من الشياطين » ...

() الرافعي - المقنطف - حزيران - يونيو ١٩١٣ م .

ويمتد أبعد في هذه الصورة المثالية المتخيلة فيقول « .. وقد بحث بعض العلماء الطبيعيين في كيفية خلق الشاعر وتركيبه ، فوجد أنه مركّب من خليط من الوهم ، والخيال ، والحقيقة ، ومن الذكاء والنباهة والجهل ، والغباوة والفقر والغنى ، والسعادة والشقاء وغير ذلك من الصفات » فالشاعر عنده « حائز على مزايَا المخلوقات بأسرها ، قابض على ناحية الأخلاق كلها (١) » .

وكان يرى شعراء العرب وقد « ملأوا بقاع الأذهان حكمة ، وغرسوا في الأفكار فسيلة الخيال ، .. فإذا هي شجرة طيبة أصلها ثابت في الجنان ، وقرصها في اللسان ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها (٢) » .

فلا بدع أن يتسامى ..، ويفرب في هذا التسامي ، .. ويحاول أن يضع على عاتق شعرائنا مهمة المسؤولية الفكرية والاعتقادية أمام حقيقة يضيء فيها الغرب ويظلم الشرق :

بني الشرق ، ليس الذي يلتنا وبين رجال العلى من نسب ..
لقد غابت الشمس عن أرضكم الى حيث لو شئتم لم تغب .. (٣)

(١) شاعر صغير - الثريا ج ٨ - ١٩٠٤ م .

رجعنا أن الكلمة له لمشايتها كلامه في الكلّيات ، واعتماده صياغة النظريات العلمية بأسلوبه ، وقد لاحظ عليه المفتطف ذلك - في ديسمبر ١٩١٢ م - عند نقده لكتاب تاريخ العرب - وانظر فصل العرب والعروبة ص ٣١ .

(٢) الرافعي - الشعر العربي - المنار ١٥ - ٣ غرة ربيع الآخر ١٣١٨ هـ

- تموز ١٩٠٠ م .

(٣) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٣٨ .

فهو ثائر من أول يوم ، يريد أن يلحق الأمة بركب الحضارة والحياة الجديدة ،
في إرادة التغيير وقوة المشيئة . . .

« .. فما لنا وللجزع اليائس ، وهذا الأولو والمرجان ، وما لنا ولحصباء
العقيق ، وهذا العقيق والعقيان ؟ وما لنا ولماء الغدران ، وهذه سحب الغيم
غاديات رائحات ، وأمام العين ما يذكر بالجنان ويعلم الانسان كيف يكون
الشعر في الشعراء » .

ويعجب أن ينخدع بعض الشعراء بخلب ذلك البرق الذي لا يخرج
بالفكر الى معنى جديد و « أمامهم الغور الذي لا يدرك والبحر الذي لا يخاض ،
وفي بلادهم ما يأخذ بمعاهد البيان ، ويغنيهم عن جرء الحمى (١) » فهو يحمل نفسه
رسالة الشعر الجديد من أول بادرة فيقول :

أداري بهند كلما أصف الهوى وبني غيرها .. لكن تدأري الهوى هند
وأذكر نجدآ . أين نجد وأهله وفي مصر حسن ما رأى مثله نجد
يسيل بروح النيل ريان كالندي وفي شاطئيه ينبت الظرف والود
فلا غرو أن يغدو « فتى عمره الهموم جميعاً » وليس ذلك بمعجزة ولا خارقة .
وإنما هو انبعث بالفضل يرسي المدنية على أسس من القيم الفضيلة :
مضى زمن كانت به حاجة الورى لبعث نبي في يديه الرسائل
وذا زمن مسّت به حاجة الورى ليعث في هذا التمدن فاضل (٢)

(١) الرفاعي - الشعر العربي - المنار السابق .

(٢) ه - الأهرام - ص ٥ ، ٢٠ مارس - آذار ١٩٢٣ م .

ومن هنا كان قوي الإيمان بمجدواه ، عامر القلب بدينه ، مخلص الضمير في دعوته ، صادق النية مع عزمته وجهاده (١) كبير الثقة بنفسه وحمل رسالته (٢) او كما يقول :

« أنا لا أعبا بالمظاهر التي يأتي بها يوم ، وينسخها يوم آخر . والقبلة التي اتجه اليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية (*) في دينها وفضائلها . فلا أكتب إلا ما يبعثها حياة ، ويزيد في حياتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة .. ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا (٣) » .
« ثم أنه ليخيل إلي دائماً أنني رسول بعث للدفاع عن القرآن واعتقه »

(١) العقاد - ساعات بين الكتب ص ٤٦ .

(٢) محمود ابراهيم - تاريخ الأدب العربي ص ٤٣ .

(٣) في قوله « النفس الشرقية » ملء للفراغ الذي قد يتركه مثل مصطلح النفس العربية أو الإسلامية و (Orientism) من المصطلحات الأوربية التي تجمع الشرق بحضاراته وروحانياته وطوايع فنونه واعتباراته أمام الغرب في ذلك بعمامة في مقارنة وصراع .

وقد بقي هذا المصطلح في النصف الأول من القرن الرابع عشر الحالي عنواناً للوحدة الوطنية ، والتسامي فوق الطائفية والإقليمية . حتى صـددع بالترادفات شاعر العروبة الأستاذ محمود غنيم في وقفته على الطلل وقوله :

هي العروبة لفظ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه
فدل بالاختصار على الشمول ، آتياً على القلق الذي يتركه انفراد أحد هذه اللفظات الثلاث ، وانظر الرسالة ٩٣ - وديوانه « صرخة في واد » .

(٣) يوسف حنا - فلسفة القصة عند الراجعي - الرسالة ١٩٣٤ م .

وبيانه (١) « كما أتى في روع يوسف حنا وهو ينقل عنه بعض رأيه في القصة والأدب .

.. ومن أجل ذلك الهدف الاعتقادي الرفيع صرف حياته لفن رسالته ، وسلك أخطر السبل غير مبال بصحة أو مرض ، ولا بمجاراته إنساناً ، يعيش في مثل هذا العصر العصيب .

* * *

« .. على أن الجليس اليه ليشعر بما يشف عن الفناعة والرضا ، .. ذلك أن الرافعي كان مثال الزهد ، يكتفي بما يحفظ كرامته ، ويرعى حرمة ، .. ولا أدل على فناعته من تواريه عن الأكترية ، واقتصاره على نفر من الأصدقاء الخالص ، الذين كانوا يدركون نفسيته ، ويدرك نفسياتهم (٢) ومع ذلك .. كان كثير المرح ، حلو الدعابة حاضر النكتة ، يميل الى الجدل والانشراح ، ويودع أحاديثه الكثير من الطرائف (٣) .

« وكان له في مجالس النساء إحساس عجيب ، وكان لمن عليه سلطان ، وله عليهن سحر وفتنة ، وهو في هذه المجالس فكاهة مداعب رائق النكتة ، لا تملك السيدة الزان إلا أن تخرج عن وقارها » (٤) .

(١) أنظر الرافعي - الرسائل ص ١٩١ وكيف دهش أن تجري هذه العبارة على قلم حنا ، .. حتى عدها لإنباء من الغيب ! ..

(٢) الهلال - حزيران - يونيو ١٩٣٧ م .

(٣) أنظر الرافعي - كلمات عن حافظ - وحي القلم ج ٣ ص ٣٢٣ .

(٤) العربيان - حياة الرافعي ص ٩٨ .

وترجع السيدة زينب الرافعي كرمته ذلك السمو ، وتلك الغرابة والانفراد في أدبه الى كونه « سيد بيته » بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ١ .

أو كما قال هو : إذا رأيت رجلاً موفقاً فيما يحاوله مسدد الخطى الى الهدف الذي يرعى اليه ، فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتحبه » كما مر في الفصل السابق .

ولم يكن للرافعي باطن وظاهر ، أو ما يعبر عنه في نظريات علم النفس بالشخصية وازدواجها وأمراضها التي تبدع في الفن ١ . « فما كان له سر يستطيع أن يطويه بين جوانحه » (١) بعد أن ملكت عليه الصراحة والرسالة بحياته كلها ، . حتى وإن حاول إخفاء اسمه الصريح أو كناه أو نحل غيره آراءه ، . فقد كان أسلوبه ينفذ عنه ، أو يتحدث به هو لخاصته من غير ما سؤال ١ .

لقد استطل الى شاعرية الحسن في وقت كان الغزل فيه والشعر بهامة مما يزري بالعلماء ، وأبوه وأعمامه شيوخ الفقه وكبار القضاة الشرعيين :

ما عابني أن قيل ذو صبوة أو قيل مجنون بني عامر (٢)
والحب أهدي لفؤاد الفتى من حاجة النفس الى الخاطر
أوحى الي المعجزات التي .. ليس لها غيري من شاعر

(١) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٢٥ وانظر أيضاً الزيات - الرسالة ٢٥٣ السنة الخامسة .

(٢) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٦٨ وقد خففت عامر فأصبح « عمر » وهنا تورية بعيدة تشير الى نسبه الكريم الذي يتصل بالإمام عمر بن الخطاب كما مر ، ص ٦٨ .

ولذلك يقرر في السحاب الأحمر بعد ربع قرن من ذلك التاريخ :

قلبي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

وكانما يسوِّغ لنفسه انجاءه المبكر هذا .

وقد يبلغ به الادعاء العريض الذي نجده عند الامام عمر بن الفارض

- سلطان العاشقين - المتصوفة فيقول :

سلوني أنبئكم فلم يدر ما الهوى سواي - وهل في الناس مثلي من صب؟!

إذا شعراء الصيد عدوا فإتني لشاعر هذا الحسن في العجم والعرب (١)

أو يقول :-

وأقل الغرام عندي أني بين قومي على الغرام دليل ..

* * *

ولسكن الرافعي من الناحية الأخرى يبدو إنساناً ، يضجر ويتألم ، ويتأفف ،

وقد يضيق بالحياة كلها وكانما تنفرط منه هذه الزفرات مع حرصه الشديد أن

لا يبوح بها (٢) كذلك الأشياء التي كتب بها الى أحد أبناء عمومته ، وكان

قد استدرجه للكتابة حتى توفر له قدر منها وهم أن يطبعه فتمناه عن ذلك ،

وهده أن يبرأ منها إذا ما حاول نشرها ..

فهو يقول مخاطباً طيور الرياض :

.. باتت تناعي لا تحاذر فاجعاً مما تكابد في الزمان الأنكد

(١) الرافعي - الديوان ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ٢٤ . وليت ذلك القريب نشر تلك

الأشياء !!

يا طير ما في العيش إلا حسرة إن خلتها نقصت قليلا تزد
تأبى على الأحرار إلا ذلة ولو أنهم صدوا مدار الفرق (١)
أو تظهر في شكاة ولوعة، تثير الشفاق :

أنا يا دهر لم أسيء لك يوماً فلماذا أسأتني أنت دهرأ ؟
وقد بفرع الى الله سبحانه فيقول :

فيا رب حسبي ما مضى إنما الدنا عذاب وهذي روح عبدك يا رب (٢)
ولكنه يستسلم - أحياناً - طواعية للقضاء والقدر في ما يسمونه
الحظ :

.. وأرى الحظوظ الفن كل مرقه ونأت بجانبها عن البؤساء
سبحانك اللهم تعطي ذا الغنى .. وتقتّر الأرزاق للفقراء !؟ (٣)
ويقول فيوهم بالشك واختلال التوازن :
هيئات يغشى الأرض ظل سعادة ما دام من جهة السما التدبير (٤)

* * *

ومن أخلاقه النفسية الفريدة أنه كان « عجيباً في إيمانه بالغيب ، وتناحي
الموتى والأحياء .. وكثيراً ما كان يسمع عنه محدثه مثل قوله « حدثني نفسي ،
التي الي ، هتفت بي هائف .. الخ (٥) .

(١) الرافعي - الديوان ج ١ ص ٥١ .

(٢) « » ج ٢ ص ٩٣ .

(٣) « » ج ٣ ص ٣٠ .

(٤) « » ج ٣ ص ٣٩ .

(٥) سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٣٢١ .

والتأمل في بعض أدبه يجد مسحة من الصوفية الرائعة ، .. وعلى أن ثبت نسبه يشير الى مبدأ السلوك العام في أسرته ، واتصاهم بالطريقة الرفاعية (١) فإنه لم يتهماً له مثل ما تهياً لهم بحكم العصر أو حياة الوظيفة التي عاشها ، .. فهو يقول :

« .. وأما التصوف فقد اجمع أهله على أنه لا يمكن أن يفلح فيه من لا واسطة له ، .. وأنا التجيء دائماً الى الاستمداد من رسول الله (ص) فإنه واسطة الجميع » .

ويتواضع فيقول أيضاً « ولا أدري إن كان في اسمعداد للتلقي عن هذه الغاية البعيدة أم لا ؟ لا غير اني لما عدت الواسطة (الشيخ) لم أربداً من الالتجاء الى حضرته صلى الله عليه وسلم (٢) قبلت او لم تقبل ، فإنه اصل كل فتوح ، ولا تطفل على مائدة الكريم .. فكيف بكرمه عليه الصلاة والسلام » .

ومن ذلك توسلاته بصاحب الشفاعة العظمى في مطلع حياته :
رعاك الله هل مثلي محب وقد امسى محمد لي حبيباً
شفيعي يوم لا يجدي شفيع وطبي يوم لا اجد الطيباً
وغوثي حين يخذلني نصيري وغيثي إن غدا ربعي جديبا (٣)
وهذه الصوفية العالية ، تترجم لنا في ذلك العهد من حياته صورة من

(١) يوبيل بلبل سورية الشاعر المرحوم عبد الحميد الرفاعي ، وربما كان الإمام عبد القادر الرفاعي قد سلك على الخلوقي محمود .

(٢) الرفاعي - الرسائل ص ٥٢ .

(٣) الرفاعي الديوان ج ١ ص ١٨ .

الآلام النفسية الحادة ، التي كان يعانيها بسبب وطأة المرض ، الذي كان يطبق عليه :

.. متى تخضر أياي وتزهو ويصبح عود آمالي رطيباً؟
فقد ضاقت بي الدنيا وهبت فجائهما على قلبي هبوباً.. الخ
.. وقد مضى في ذلك أشواطاً ، يدرس فيها جوانب من حياة الرسول عليه السلام ، ويطبع بها أفكاره ودعوته (١) .

وكان من أثر هذا الاستمداد والتلقي أن ألهم ما أملى عليه من ثم « البلاغة النبوية » والصفحات المؤمنة التي حاول بها كتابة السيرة العطرة .
ومما يلحق هذا الوجدان أيضاً ما ذكره العريان عن الصلاة الروحية بين الرافعي - رح - والسيد أحمد البدوي - قدس سره - الولي المدفون بطنطا ، وقد اعتبرها كالعلاقة التي ترتفع عن الجدل ، .. فقال :

« كان الرافعي إذا أم الحرم البدوي للصلاة ، اتخذ مجلسه تحت القبلة ، فلا يمل الجلوس ساعات ، يقرأ ويدعو ، وعينه مسبلتان .. وإذا فرغ من دعائه رفع رأسه ومسح بيده على صدره » (٢) .

وأشار الى مدائح وتوسلات شعرية للرافعي في السيد البدوي ، .. وقفت على واحدة منها كان قد أشار اليها الشيخ محمود أبو رية مرة في الرسالة (٣) .

(١) سنفصل ذلك في مقدمة « الكتاب النبوي » الذي نعدده للنشر بإذن

الله ، وانظر الرسائل ص ٢٧٢ .

(٢) العريان - حياة الرافعي ص ٢٦ .

(٣) أبو رية - هامش رسائل الرافعي ص ٤٧ .

وهي القصيدة التي أحجم الرافعي عن نشرها مخافة الفتنة التي خالها
 الشيخ أبو رية تحدث بين المسلمين إن هي عرفت عنه ، . . . والتي يقول فيها :
 لقد ضاق بي في محنتي كل ملجأ وضقتُ فُلا النفس استقرت ولا القلب
 مرضت فيممت الطيب وبعده طيب وكل في صناعته ندب
 فها أنا أمددني بسرُّك إتي ضعيف مُعنى لم يزل دهره يكبو
 ومته رزاياه بميدان عيشه ومن حوله طارت بفرسانها الحرب



وكان يؤمن بالأحلام والهواتف ، ويجد في طلب تأويلها ، وفلسفتها ، . . .
 وحين لا يجد ما يوافق رأيه فيها يقول « متأكد أن صدق الأحلام - إن لم يكن
 كلها فبعضها - وإن لم يظهر صدقها في الحال ، . . . ففي الاستقبال » (١) .

وقد حدث حين حضرت الوفاة والده الشيخ عبد الرزاق الرافعي - أن
 وقع لأخته في الجيزة أنها سمعت هاتفاً يقول لها أن أباك مات !.. فصكتب الى
 المقتطف يلتمس التفسير العلمي لمثل هذه الظاهرة ويحتز من أن « بعض ما نقرأ
 عنه من هذه الهواتف يرجع - إن صححت الرواية - الى خطأ في الحس ، أو خطأ
 في الهم ، أو المبالغة ، التي أشار اليها في تاريخ آداب العرب .. » ولكن ما تقولون
 فيما نحن بصدده وهو واقع لا ريب فيه » (٢) .

فلما أجاب المقتطف بما لا يشفي الغليل ، عقب عليه بجواب ضمنه التفسير
 الصواب - يقول في آخره :

(١) الرافعي - الثريا ج ٢ آذار - مارس ١٩٠٣ م .

(٢) « - المقتطف - أنباء الهواتف - آب أغسطس ١٩١٩ م .

« إنما يقع مثل هذا الهاتف في الندوة ، والغلبة لأمر من الله »
« وما تنزل إلا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما كان ربك نسياً » صدق
الله العظيم ، .. وما تشير إليه هذه الآية الكريمة هو رأي هذا الضعيف (١) .
.. ثم عاود الموضوع يوم وقع لأخيه الأصغر في ٢٠ آذار - مارس
١٩٢٠ م . وقد رأى أباه رحمه الله في ثياب من ثيابه التي كان يلبسها في حياته ،
ولم ينكر منه شيئاً » (٢) ثم يطلب الرأي في هذه المكاشفة وكان يرى قصوراً
في التفسير العلمي الحديث لمثل هذه الحالات

.. وهذه الى كثير من أمثالها لم يعن بتدوينها ، ولكن أهليه من أولاده
وأصدقائه يروون عنه بعضاً مما تسعف به الذاكرة .

ويظهر أنه رحمه الله - كان يفرق أحياناً في الإيمان بالعرفاة ، والتميمة ،
والحجاب ، .. وما إليها مما لا يزال شائعاً بين ظهرانينا ، ..

ولما وقع له حب (فلانة) ونال منه الوجد بها لجأ الى مثل ذلك (٣) .
وهو يؤمن بحسد العين وأصابته « ولعل نظرات الناس قد أصابتنا بعد
ظهور كتاب الحركة » (٤) .

ويطوِّح به الضعف الانساني الى ما يكاد فيه لا يحتفظ بتوازنه من الهواجس
والأحاسيس في مثل اشارته : « قابل عبد الرحمن (الرافعي المؤرخ) وقل له

(١) الرافعي - حقيقة الهاتف - أيلول - سبتمبر ١٩١٩ م .

(٢) الرافعي - المكاشفة - أيار - مايو ١٩٢٠ م .

(٣) راجع العريان - حياة الرافعي ص ٣٢٣ .

(٤) الرافعي - الرسائل ص ١٢٨ ، وانظر ص ٢٢٧ أيضاً .

إن (مي) قد أرسلت إليه تعزية ، وهو كلفني بنسخها ، وإرسال صورتها إليه ،...
هذه التعزية لا بد فيها إشارة ١١ « (١) .

* *

هذه لمحات من صورته النفسية ، قد يضاف إليها ذلك الشعور الذي كان
يخالج الرافعي بين الفينة والأخرى - وهو يكأته ولا يريد أن يبوح به - من
أنه مغموط الحق ، غير معروف المكانة ،... وقد استوى يومه في الغبن .. وأن
مكانه ليس هذه الوظيفة التي تعله إليها صدر النهار ،... وهو الانسان الذي تضيء
له الجملة القرآنية (٢) ويخيل الى يوسف حنا « انه المختار لحراسة لغة القرآن »
فيحسبها إنباء من الغيب ، ويعتقدها .. ثم يتساءل - في استفهام إنكاري - :
أرسول وموظف حكومة !؟ (٣)

ويرى الرأي لا يصيبه علماء الاجتماع في أوربة ،... ويحلل الآلة في الحضارة
بما يأت به برجسون نفسه في هذا الشأن ثم لا يجد من الانصاف « شيئاً من
البرجسة ولا راحتها » (٤) .

ويؤلف في تاريخ آداب العرب - مصنفه الفخيم الذي أدهش صاحب
المقتطف نفسه ، فلا يجد مكانه اللائق في الجامعة ، التي كانت تستعين بالمستشرقين
وسواءهم من تلامذتهم الماسون ممن يتخطون علمياً في آثار الآداب العربية ١٠١ .

(١) الرسائل ص ١٨٥ .

(٢) الرافعي - الزهراء ١٣٤٥ هـ ج ٤ - المعركة ص ٢٤ .

(٣) الرسائل ص ١٩٢ .

(٤) الرافعي - الرسائل ص ١٥٤ . وانظر مقدمة كتاب المساكين ١ .

لقد حاول الأستاذ عباس خضر أن يستخرج من رسائل الرافعي التي وجهها الى الشيخ محمود ابي رية نوعاً من الحكم عليه « بالاعتزاز الذي يبلغ درجة الغرور .. ومحبته السافرة للتقريظ والثناء » (١) .

كما حاولت نعمات أحمد فؤاد أن تدرس حالات المرض ، التي شككت منها رسائل الرافعي لتزعم من ثم أن أدب الرافعي مما يجب اطراحه من المكتبة العربية لأنه صادر عن إنسان عاش مريضاً غير معافى .. وهكذا تهافتت فكشفت بذلك عن نفس وراءها مريضة (٢) .

.. ولكن المتأمل لهذه الصورة النفسية ، التي تبدو أحياناً عاصفة مع الحياة التي تلتف من حولها في دواوة ، فيها من القلق والاضطراب ما يثير الطموح ، ويتهاوى مع التهافت .. وفيها من الضيق والحسد من الانطلاق ما يقف أمام السمو النليل .. حتى التسامح والكبرياء والفضل كانت تكلف صاحبها ما لا يطيق ..!

يضاف الى ذلك انحراف دائم في صحته العامة ، وعوز مادي لا يستمر حاله رفاهاً .. غير الصمم الذي يطبق عليه الدنيا ، فيتركه يستبطن أكثر مما

(١) العباس الأخضر - الأدب في أسبوع - الرسالة ٩١٩ - ١٢ فبراير - شباط ١٩٥١ م . وانظر أيضاً كلام طه حسين في « أضواء على حياة الآباء » لأنور الجندي ص ١٢٧ .

(٢) نقل اليينا أن العقاد - عفا الله عنه - كان وراء هذه المحاولة في دراسة (أدب الرافعي) بعد موقف خصاص له مع أحمد تلامذة الرافعي - على ان « المؤلف » قد أعادت طبع المحاولة غداة وفاة العقاد ... متسترة على موضوعها !

يتلقى الأصدقاء، .. فيثب به الخيال الجامح، .. والتطلع الفريد ..
كل أولئك وسواه جعل من الرافي صورة نفسية متواجدة ، تصفو
أحياناً حتى تنصل بالحقيقة ، وتلهم ، وتتلقى عن الغيب في سبيل متصوف
عال (١) .

وقد تنفرط به أحياناً حتى تضع عليه أعز الأصدقاء وأقرب الأحبة (٢) .
وقد تشكك فيه حيناً بمرارة من لوعة العتاب (٣) فتضطر الى الحكم عليه
بأنه « لم يكن رجلاً اجتماعياً يلتزم بما تفرض عليه الجماعة من تقاليد ، ويتخذ أسلوب
الناس فيما يليق ومالا يليق فهو لا يعتبر إلا رأيه او حاجته او مصلحته » (٤) .
ولكننا من ناحية أخرى نجد المرحوم اسماعيل مظهر يفسر ذلك بقوله :
« كنت أشعر بأنني الى جانب الرافي في رحابة صديق خالص الود ،
ذكي القلب ، نقي السريرة بعيد عن أن يستغل الصداقة إلا للصداقة ، فإن غضب
وإن عتب وخشى إن قطع .. فللصداقة » (٥) .
ولا تكاد تصفو هذه الصورة النفسية في تساميتها ، حتى تكاد تنفرد فتلوذ
بالخوارق ، وتلتمس الكرامات كما مر .

-
- (١) العريان — حياة الرافي ص ٢٣١ ، ٢٧٤ .
(٢) المرجع السابق- الهامش ص ١٥ ، أبو رية - رسائل الرافي ص ٢٧٩ .
(٣) عن ماري بني - من رسالتها المؤرخة في ٢٩ أكتوبر ١٩٢٩ م .
(٤) سعيد العريان — حياة الرافي ص ٢٧٥ .
(٥) اسماعيل مظهر — ارتحال الصديق — المقتطفات ٩١ - تموز — يولية
عام ١٩٣٧ م .

على أن أستاذنا العادل الفضبان لا يرضى مثل ذلك الحكم على الرافعي
 « ذي الروح السامية في كل ما تصدر له من فنون الشعر والأدب ..
 فهو شاعر الحسن ، وأديب التسامي في الحب ، ودليل الصبابة الى الجنال ،
 وراعي المساكين وداعية الاحسان الاجتماعي ، للحد من غلواء الفقر ، وصاحب
 الاعجاز ، ونشيد القومية ، وغرّيد الشرق ، و كاتب الوحي .. »

وقد يكون لعاهته - الصمم - السبب في انفراديته ، ومن ثم الانطوائية - التقريبية -
 التي ابتعدت به عن غشيان المجالس مما يجعل حيثيات ذلك الحكم عليه قاصرة .
 وإن كان أحد من تلامذته (١١) قد أثر مثل الحكم عليه ، وقد يزيد
 من (عنده) فيتهمه بالأنانية ، او ما يقرب من ذلك (١) ، أو يذهب الى أن
 « السخط » كان ظاهراً عليه بحيث يستهلك أعصابه ويطلق على بعض فنون
 أدبه ، ولا سيما النقد بصورتيه الفنية والاجتماعية (٢) .

وتفسر لنا قصيدته « أنا ونفسي » ذلك كله أصدق تفسير ، .. وقوله فيها :
 أعنت نفسي حتي مضها السأم وكدها عمر في الجدد ينصرم
 قالت تحاورني : يارب قلبك من قلب بني ما بناه وهو ينهدم
 مقيّد في وثاق من خلائقه فما له لذة إلا لها ألم ..
 يناشد الملاء الأعلى وفيه الى الابد أدنى مجاذبة ما دام فيه دم (٣)

(١) أذكر في هذا الصدد الأستاذ الجليل محمود محمد شاكر - رعاه الله - وقد
 كان للرافعي عليه يد ..! وانتظر دراستنا في « عيال الرافعي » !

(٢) العريان - حديث خاص .

(٣) أنظر المقتطف كانون الثاني - يناير ١٩٢٧ م .

وهذه حياة لا تستدعي مثل ذلك الأغراب في التأويل والتفسير والتعليل ،
إنما هي حالة من يلتزم بقيم عليا ، ومثل ، يسير بها الى الهدف الذي يرنو اليه في
الحياة على هدى من الايمان بشرعه له منهاجاً ، ووحى من الفطرة ، يسلك به
سجية وطبعاً .

ومثل هذا الالتزام قد ينقلب شذوذاً في بعض الأحيان إذا ما تجاوز
في حد ذاته ، او عند قصور التفسير في تمييز خصائص الاستقلال في الشخصية
والانفراد بالرأي الذي يباعد بين صاحبه وبين جماعات الناس !
ولا بدع أن يخرج هذا الالتزام - في حالة عدم الوضوح - سخطاً على
الشمين العام ، وربما دفع بصاحبه الى مهاوٍ أقلها الورطة والانزلاق (٢) .

* * *

وهناك خصيصة في الرافي أشار اليها غير واحد ممن تصدى له في دراسة
أو نحوها ، هي مبلغ اعتداده بنفسه ، واستطالته على الأنواء والأحكام النقدية .
ويوردون في ذلك الإشارة الى مقالته في الثريا ، التي وضع نفسه فيها آخر الطبقة
الأولى من الشعراء ، . . وكذلك يشيرون الى موقفه من الجامعة ، . . ثم يتهيمون
وبشككون أمام معاركة الأدبية التي طارت أخبارها في الآفاق منذ وقف للماسون
ودعوتهم الى العامية على لسان اسطونهم الكبير لطفي السيد (الذي اسمه أحمد)

(١) سعيد العربيان - حياة الرافي ص ١٧٧ ، وانظر أيضاً عباس محمود
العقاد - ما هذا يا أبا عمرو في الجزء الثاني من (الديوان) .

يناصبهم العداء .. ثم مواقفه من واردات أوربة .. ودفاعه عن التراث العربي ،
والقيم القومية في الأدب والدين والعلم والحياة (١) .

ولكننا لو تأملنا قليلا مع طيب الذكر الأستاذ فرح أنطون صاحب مجلة
الجامعة التي صدرت في الاسكندرية والمهجر أكثر من ربع قرن ، وقوله في
قصيدة الرافعي « اللغة العربية والشرق » :

« يحق للقاريء أن يقول معنا بعد تلاوة هذه القصيدة الغراء : هذا هو
الشعر العربي المبين ! وكل من يعرف شباب الناظم لا يشك أنه سيكون له في هذا
الفن أرفع مقام » (٢) وهو في أول حياته الأدبية ، لأدركنا الكثير مما يجب على
الدارس أن يقف عنده ٠٠١

ثم إن الرافعي نفسه كان السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها
في الجامعة ، وما كان من وضع مؤلفات في فنونها من ثم (٣) .

ولما علم أنهم سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه قال باعتداد وتحد :
« .. فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون اليه بالتدريس !؟ » (٤) .
فهو يجرد في نفسه الكفاءة والمقدرة ، ولكن لا سبيل الى المكانة التي يتطلع

(١) راجع في ذلك - المعارك الأدبية لأنور الجندي ، ومادة الرافعي في
موسوعته الكبرى ! وكذلك بدوي طبانة في « أسس النقد الحديث » وغيرها .

(٢) فرح أنطون - الجامعة ج ٦ ، ٧ - أيلول - سبتمبر ١٩٠٣ م .

(٣) الرافعي - المعركة ص ٦٩ - وانظر الدسوقي - في الأدب الحديث ،

الجزء الثاني - التأليف .

(٤) الرافعي - المعركة ص ٧٩ .

إليها ١٠١. وأمامه الماسون من أعضاء حزب الأمة الانفصاليين وأساتذة الجامعة
الاقطاعيين ١٠١.

ويضع في الجديد خماسيته الانشائية الرائعة ، يتحدث فيها الى القمر ،
ويدرس أحوال المساكين وأخطاء الناس ، ١٠٠. ويهدي أوراق الورد . ولا يجد
لها ذلك الصدى الذي يرن في أروبة وسواها بتفاهات ١٠١.

ويقف بنفسه وحيداً في معارك رهيبة ، فكرية وعلمية وأدبية ، لا يستطيع
منازلته فيها أديب ولا قليل أدب (١) لقوة حجته ووفرة علمه ، وفصاحته .
ويكتب صفحات من البيان العربي ، لم يتبهاً لأدب اللغة في صدر أيامها ،
وعنفوان صورتها البلاغية ، .. فلا يجد غير الجحود والكفران ١٠١. وضيق العيش ،
وهو إنسان قبل أن يلتزم بمثالية ، أو يتسأى بقيم رفيعة ١٠١. فكيف لا تتحول
بعض أخلاقه في ساعات ؟ وكيف لا يضيق ويضجر في أحيان ١٢ وكيف لا يسخط
ويبلج في النفور ١٢.

ومع ذلك كله فلم يكن يتولد عنده نوع من الخور في العزيمة ، يكفه
عن المضي في سبيله التي ارتضاها لنفسه مؤمناً بأهدافه ، ١٠٠. راعياً للمباديء العليا
التي وثق بها ، .. حسب من خصومه وناقديه أن يؤمنوا بصحة ما يأخذون ،
لا زيف ما يترجمون ، ولا انتحال أساليب ما يكتبون به ولا إخفاء الدوافع
التي تلي عليهم (٢) .

(١) أنظر طه حسين - حديث الأربعاء ج ٣ ص ١٤٤ - ل ترى مبلغ
الأدب والنقد والحجة في ذلك العهد (الجديد) !!

(٢) اسماعيل مظهر - المقتطف تموز - يوليو ١٩٣٧ م ، وصديق شديوب
- البصير ٣١/٥/١٩٣٧ م .

وهذا وحده كان يسمو به على سائر أدباء العصر ، بروح عالية وأدب
جم ، ومثالية قلما ظفر بها من تصدوا له في منازلة او مدرسة .
ومن اجل ذلك فقد ثقف نفسه بما وصلت اليه يده من نتاج العصر ،
ومطبوع التراث موضوعاً و مترجماً ، دل به على حسن التناول وحلو
الاستيعاب .. حتى ليكاد يقرأ كل شيء ، ولا يفوته بعض ما يكتب او ينشر
من العلوم والمعارف (١) :

- واضيء حياتك بالمعارف إنما هي في ظلام العمر كالنبراس
واجعل اساس العمر حب الله إذ لا خير في حب بلا اساس (٢)
وعلى هذا الأساس جعل طموحه ، فانخذ الحكمة وسيلة الى غايته ، والاعداد
سبيله الى الهدف والتربية قوامه في الحياة ، الذي يحفظ له قيمه ويمكنه من السداد .
فهو حينئذ كان يبصر بالسر في ضياع البلاد وأهلها :

إنما ضييع البلاد وأهلها قديماً نساؤنا الضعفاء (٣)
ويرى أن تربية المرأة ، وإعداد الأم ، المنطلق الذي يبدأ الحياة
في الشرق العربي :

ربوا لذي الشرق يا قومي ممرضة تحنو عليه يا حساس ووجدان
ربوا له الأم يا قومي - فلو وجدت في الشرق .. ما طاح في ذل وإهوان (٤)
(١) عمر الدسوقي - في الأدب الحديث ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها ،
وكذلك مذكراته في مناهج البحث الأدبي .

(٢) و (٣) الراجعي - الديوان ج ١ ص ١٨ ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٤) الشرق المريض - المقتطف - كانون الأول - ديسمبر ١٩١٣ م ، حديث

القمر ص ١٢١ .

وهو لا ينظر الى الاجتماع بعين الشاعر الذي يكتفي باللمحة المصورة
فحسب،.. لا ، بل يتأمل جوانب ذلك الاجتماع ببصيرة نفاذة ، وعقل متدبر
حكيم لا يحار في تناقص صور الحياة :

حنانيك يا رباه .. كم بات سيد يمدُّ يديه يسأل الناس مطعماً
وكم من اشم الأنف ارغم انفه وما كان يوماً يطرق الرأس مرغماً
إذا هم بالتسأل امسك بعدها حياءً ، فلم يفتح بمسألة فها (١)
ويكاد ينغلق في استغفام استنكاري لا نجده عند دعاة الاشتراكية انفسهم :
أليس من النفاق - وهو ظلم - جزاء السعي يكتب للقعود (٢)
ويتساءل كأنه يرى خلل الرماد :

.. فهل أرى رجلاً فينا أو امرأة بعد الخمود وطول الذل يتقد ؟ (٣)
وينظر بعيداً في سخرية لاذعة :

وقد أراني في قوم اولي كسل كأنما انتفضوا من تحت ارماس (٤)
ويتعالى على المفهوم العامي او ما يسمى شعارات « الجماهير » :
.. ومما يزيد الهم هفأً وحمرة تصايح فتيان لنا ان تقدموا ..
يريدون ان يجزي الى مرتقى العلى رجال ضعاف ان جروا يتحطموا (٥)
فكأنه يريد وسائل القوة التي تضمن ثبات التقدم الحضاري :

(١) الرافعي - حريق ميت خمر - الديوان ج ١ ص ٦٥ .

(٢) و (٣) « - الديوان ج ٢ ص ٢٠ ، ج ٢ ص ٤٥ .

(٤) و (٥) « - « ج ١ ص ١٣١ ، ج ٣ ص ٩٦ .

يا قوم ما نفع الضعيف شكاته كلا ولا شفع البكاء أباك
كذلك الضعيف مع القوي طبيعة إلا اذا ساواه في الادراك (١)

* * *

ويقول في السياسة وضلالاتها :

من شر ما عاب السياسة أنها وجدت... ومن يرضونها لم يوجدوا
الناس ما طلبوا الضلال وإنما ضلوا لأن هدايتهم لم يهتدوا (٢)
ويخاطب الملك فؤاد بمثل قوله :

لن يشبع الجوع من علم ومن حجب إن البراهين عند الجوع رغبان ..
ري الشعوب كري الارض أخضله صوبان بأثنيهما الريان ريان
ولو رأيت شعوب الارض يحكمها خيارها .. ما طغى في الارض طغيان (٣)
وقد رأينا كيف انه لم يكن يحفل بالزمان الذي غدا فيه غريباً في التاريخ :
زمن غرب الكرام فأمسوا كنيين ما لهم من دعاة (٤)
ومن يتأمل في مثل قوله :

إذا ما دعاك الحق للظلم مرة وقد كنت ذا حلم فلانك ذا حلم
فإن من الاشفاق - إن زاغت النهى عن الحق - ميل المشفقين الى الظلم (٥)

(١) الرافعي - الديوان ج ٣ ص ٢٠ .

(٢) « - وياسون - المقتطف شباط - فبراير ١٩١٩ م .

(٣) « - الأخبار - مايو ١٩٢٧ م .

(٤) « « - شباط - فبراير ١٩٢٧ م .

(٥) « - الديوان - ج ١ ص ٢١ .

لا يشك أن الرافي كان من دعاة « البضع » في إرادة التغيير ، وتطوير
الاجتماع وربما كان مؤمناً أيضاً بنظرية المستبد العادل ..!

ومما يضاف هنا موقفه من محاولة « الوفد » جره الى الكتابة في صحيفته
يومياً بعد عام المعاهدة ١٩٣٦ م ، وخروج العقاد على خلفه سعد .. وكيف دفعه
إبائه الى رفض مئة وعشرين ديناراً .. جنيتها .. شهرياً على قبول مثل هذا العرض
الزائل ..!

ولكن هذا الرفض ايضاً دفع وزير المال - الى الانتقام منه بعد وفاته (١)
بحمافة تدل على حقيقة « الروح السياسية » الشريرة التي كانت آنذاك ، والتي
طوّحت بها أنانية مكرم عبيد الى حرمان ابنائه حقهم في مراتب ابيهم ذلك
المرتب الذي تأخر في الوظيفة عن المعاش (التقاعد) من اجله لهم .. فلم يحصلوا
عليه حتى اليوم ..

فأين بضعة عشر عاماً من الثورة في الإنصاف ؟! ورد الحقوق
والاعتبارات ؟!



(١) سعيد العريان - الرسالة ٢٥٣ السنة الخامسة . نخل عنك يا وزير
المالية .. فاقه أكرم .

القول القائل

ثقافة الرافعي وروافدها

إن حظ الرافعي من الدراسة النظامية لم يكن يتعدى الكتاب والمدرسة الابتدائية ، التي ظفر بشهادتها وعمره بضعة عشر عاماً (١) كما قدمنا . .
وفي السنة التي نال بها هذه الشهادة بتفوق ، أصابه مرض مشف ، أثبتته في فراشة أشهراً ، فأنجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثراً (٢) بقيت منه صحته العامة الى آخر أيامه غير منتظمة ، فلا يكاد يرى العافية بضعة أشهر من السنة يعاود فيها نشاطه ، حتى ينتكس بمرض آخر (٣) .
ولم يكن هم المرض قاصراً على ما يسمعه ، بل مس من جسمه أكثر من موضع ، فعاش حياته كلها معتلاً ، ليس بالسليم المعافى (٤) .

(١) أحمد محمد عيش - سيرة الرافعي - المقتطف ٩١ - ص ٥٢٩ - ١٩٣٧ م .

(٢) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي - ص ٢٩ .

(٣) أنظر الرافعي - في الرسائل التي أخرجها محمود أبو ربة .

(٤) نعمات أحمد فؤاد - دراسة في أدب الرافعي ص ١٦ .

وكانت علة الصمم التي أصابت أذنيه ، فتركتهما لا يؤديان عملاً ولا
ينقلان معنى (١) هي التي قطعت عن التعليم في المدارس ، لينقطع بعصامية وطموح
لمدرسته الخاصة التي أنشأها لنفسه . .

على أن نبوغه في العربية وعلومها أدهش مدرسيه وزملاءه في الابتدائية ،
ولا سيما حين هم أن يضع شواهد للنحو من نظمه . . (٢) .

. . وذلك لتوفره على الدراسة ليل نهار ، وملازمته لأبيه ، يصحبه ويأخذ
عنه علوم البلاغة ، والتفسير والحديث والمأثور في تلك المدرسة التقليدية الراقعية
التي لا ينشأ الناشئ منهم حتى يتناولوه فيها بألوان التهذيب والثقافة التي تطبعه
بطابع الأسرة وقيمها العمرية .

« وكان لهذه التربية في بيت أبيه مكتبة حافلة ، تمدّها بأشتات من
نوادير كتب الفقه ، والعربية ، فأكب عليها حتى استوعبها وراح يطلب المزيد » (٣) .
وكانت علمته من هذه الناحية خيراً عليه وبركة ، فسرعان ما غدت هذه
المكتبة جامعته . . « يقيم الكتب نفسها مقام العرب والرواة الذين كانوا أصل
دولة البلاغة (٤) وعلماؤها رواته ، وأدباؤها سمّاره ، يأخذ عنها العلم كما كان

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٢١ .

(٢) « ص ٢٨ عن أستاذه المرحوم مهدي خليل ، وانظر مح - د

صبري - شعراء العصر ٢٣١ ، سعيد ميخائيل - آداب العصر ص ٢٩٣ .

(٣) العريان - حياة الرافعي ص ٣٠ .

(٤) الرافعي - الهلال - مستقبل اللغة العربية - الهلال - شباط (فبراير)

سنة ١٩٢٠ - ص ٤٠٠ .

يأخذه المتقدمون من علماء هذه الأمة فما لفهم « (١) .. فنشأ بذلك نشأة السلف يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم وتراعى له أحلامهم ومنامهم .

وقد ظل على هذا الدأب من القراءة والاطلاع الى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثماني ساعات متواصلة ، لا يمل ولا ينفد الوحدة لجسده ، وأعصابه ، كأنه من التعليم في أوله ، (٢) متوسعا في المحفوظ ، ومتثبتا من النقل ، وبالغا الغاية في الأخذ والاستيعاب (٣) .

وهكذا عرف العلم سبيله الى رأس هذا الفتى الضاوي الجسد ، الذي هيأته القدرة بأسبابها ، والعجز بوسائله ، فساعده على اتساع خياله ، ودقة تفكيره وإرهاق حسه ، منذ أن ضربت على أذنيه بذلك الستار حائلة بينه وبين شبابه .

ولكنها مكنته من أن يعيش منطويا على نفسه لا تزججه أصوات هذا العالم الذي يكاد يختبل من ضجيجيه وصخبه .

« وهو يذكرنا من هذه الناحية - ومن ناحية سلامة اللغة بالكتاب الفرنسي الكبير شارل موراس زعيم الحزب المللكي ، ومدير صحيفة (الاكسيون فرانسيز) .. فإنه مثل الرافعي ، أنزل الله على أذنيه صمما جعله يعيش في نفسه

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الرافعي - تاريخ آداب العرب ص ٧٣ ، الرواية والرواة

المقتطف - أيار - مايو ١٩٠٥ م .

حياة كلها رؤى وأفكار» (١).

وكانت أول امتحانات هذه الجامعة ، في ذلك الالمام الواسع الذي تدلنا عليه مقالاته الأولى ، وهو لم يتعد العشرين من عمره .

ففي رسالته المؤرخة في ١٨ محرم ١٣١٨ هـ - التي أشار فيها الى تأسيس « جمعية السنة الاسلامية » لتكون من شعاع « شمس الاسلام » (٢) يظهر لنا أثر دراساته تلك واضحاً ، بما لم يكن يتهيأ لخريجي الدراسات العليا في أيامنا هذه ، من البصيرة والرأي ، والاستشهاد ، والأخذ والتضمين لمذاهب القول ، وفنون الحكمة ، ورقيق الشعر ، وعذب الحديث ، واعجاز الآي الكريم .

كل أولئك يجري بأسلوب الداعية المتفائل ، والبشير الغنيم .

وما يلبث في تلك الأيام نفسها - وقد بدأ قرض الشعر ، وراح يطاول الشعراء ، حتى راح يعقد « للشعر العربي » (٣) محاضرة ، ينتقل فيها من التاريخ

(١) صديق شديوب - البصير في ٦/٤/ ١٩٣٧ - وقد حدثني شديوب نفسه والشيخ أبو رية أن الرافعي (رح) كان يسأل من يعرف الفرنسية لينقل له بعض ما يكتبه ورأس !! ..

(٢) لرافعي - المنار - الأحد ٢١ محرم ١٣١٨ هـ - مايو (أيار) ١٩٠٠ م ص ١٩٠ ، وفي تطلقه بالتسمية اعترض ضمني على اسم جمعية شمس الاسلام ، التي اضطلع بها السيد محمد رشيد رضا (رح) ، لاختلاط الشمس بالشعارات الوثنية (شمس المجوس) .

(٣) الرافعي - الشعر العربي - المنار - غرة ربيع الأول ١٣١٨ هـ - تموز سنة ١٩٠٠ م - ص ٣٦٤ .

وملحه وطرائفه ، الى النقد وأساليبه ونماذجه ، فيأتي علي صفات الشاعر ، ووثاب
أداته، وموادفنه ، وآيات انفراده، وفيض قريحته ، فيقرر حالاً ويقارن بأخرى .
ثم يعرج علي الآراء يلاحقها ، فيقطع شوطاً مع الخليل ، وآخر مع
ابن رشيق، وثالثاً مع ابن أبي الاصبع العدواني ، ويستتطرد بنماذج للشعر والشعراء
من الملك الفضليل الى الخطيئة .. والى جرير ، وابن المعتز ويحيى بن هذيل ،
وأبي العتاهية ، حتى يصل الى زجل الشيخ علاء الدين بن مقاتل الحموي ..
كل ذلك وكثير غيره يهيه في مقال واحد ، ينقض به على
« شعرائنا اليوم » وهم بين من لا يخرج بمعنى جديد كالأخرس ، وبين من
يتعصب للغرب من أبناء الشرق ، و « هم بمعزل عما يقوله الشعاعرون » ..
حتى يرى الرأي ..

وقد أخذ عليه « المنار » الغلو في قدح القديم ومدح الجديد .. ثم اتفق
معه على « أن حالة العصر تقتضي أن تكون « الأدبيات » موافقة للشؤون
الاجتماعية ، التي تجذب وجدان الأمة الى الفضائل التي ترتقي بها » (١) .

* * *

أما أولى شهاداته فكانت في مقدمة ديوانه الأول ، والتي نشرتها المؤبد
في صدر صفحتها وفتت الشيخ ابراهيم اليازجي ، وناهيك به انفراداً بالنقد
والبلاغة في ذلك العصر ، حتى قضى ثلاثة أسابيع يبحث فيما عنده من المظان
لعله يعثر بها مسروقة من بعض الكتب (٢) .

(١) المنار السابق . (٢) الرافعي - الرسائل ٢٣٠ ، وسعيد

العريان - حياة الرافعي ٤٨ ، وكلاهما عن طيب الذكر جورج ابراهيم الشاعر .

والشهادة الثانية كانت في نقده اشعر البارودي (١) ومحاولاته البحث في « الرواية والرواة » في ذلك الفصل الكبير الذي عقده للمقتطف (٢) والذي أضحي من ثم بعض مادة كتابه الخالد في تاريخ آداب العرب .

يضاف إليهما المقدمتان الأخريان لجزئي الديوان الباقيين .

وعلى أن الرافعي ، قد جعل للصياغة الشعرية ، والصورة البيانية في هذه المقدمات تحقيقاته ، إلا أنه دل بها على ما كان له من واسع الاطلاع ، ووافر الأخذ والعرفه .

« وبقي الرافعي في مدرسته الجامعة هذه التي أنشأها لنفسه ، يدرس ، ويطالع ، لا يرى أن انتهى من العلم الى غاية ، ليتزوّد لاشعر زاده ، وليبلغ من العلم مبلغاً يعينه على أن يقول وينشيء » (٣) .

ومضت سنتان على إنشاء الجامعة الأهلية في عام ١٩٠٧ ، أخرج خلالها الجزء الأول من ديوان النظرات ، ومقدمته في نوع من نقد الشعر ، دلت كسابقتها على علمه وفضله ، ولم يجد فيها استحدث في الجامعة من دراسات في الأدب ما يفتقر اليه ، وما تحدث أساتذتها حديثاً لا يعرفه الرافعي (٤) .

حتى أقدم على الكتابة في « الجريدة » ورئيس تحريرها يومئذ أحمد لطفي السيد ، المهيم على الجامعة ، .. حاملاً على الجامعة وأساتذتها ، ناعياً عليهم مناهج الأدب فيها ، حتى رن مقاله رنينه وأحدث أثره ، وكان السبب في التأليف

(١) الرافعي - شعر البارودي - المقتطف - مارس (آذار) ١٩٠٥ م .

(٢) الرافعي - الرواية والرواة - المقتطف - مايو (أيار) ١٩٠٥ م .

(٣) و (٤) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٦٥ .

في تاريخ الأدب العربي (١) .

وحين أقدم على التأليف في « تاريخ آداب العرب » سنة ١٩٠٩ م ، فكأنما تقدم لنيل شهادة (العالمية) - الدكتوراه - من جامعته هو... أمام « الجامعة الأهلية » مستكلاً سره من أبيه ، ومذكراً إبراهيمه في جداله بعض العلماء (٢) .

وقد أدهش العلماء تأليفه - ولم يكن قد تعدى الثلاثين من عمره ، على وضع وسائل البحث آنذاك ، وتنكيه مناهج المستشرقين ، واقتراعه مناهجاً يفرد به - ويصونه (٣) حتى عجب القوم « أين ومتى اجتمع له هذا القدر من المعارف في شئون العرب والعربية ، فألف بينها في كتاب » (٤) .

وهكذا .. حتى غدا إماماً في الأدب ، وحجة في الشعر العربي ، وأوسع أهل العربية اطلاعاً وعلماً (٥) .

وحسبنا أن نوجز القول فيما أشار به على طلابه ، وما أفاضت به رسائله من السلوك في الدراسات والاطلاع ، والأخذ ومناهجه العلمية في ذلك ، لنذكر أي مدى قطع الرافعي في اشواطه العلمية والثقافية ، بما جعله بحق يأخذ على عاتقه

(١) الرافعي - تحت راية القرآن ص ١٦ - الرسائل ص ٣٩ ،
والعربان - حياة الرافعي ص ٦٧ .

(٢) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي - ص ٢٠ وما بعدها .

(٣) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث .

(٤) العربان - مقدمة الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب للرافعي .

(٥) زكي محمد مجاهد - الأعلام الشرقية - ج ٤ - ص ٤٣ ، وشكيب

أرسلان بمقدمة رسائل الرافعي .

مهمة الارتفاع بالمستوى البياني للأسلوب العربي ، ليقف به أمام العصر بجدارة واستعداد ٠٠١

ففي الرسالة الأولى المؤرخة في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٢ م ،
التي وجهها الى الشيخ أبي رية ولم يكن بينهما سابق معرفة « ٠٠ يشق على أن
أدلك على غرضك من كتب النحو ، لأنني لست على بينة من قوتك في فهم كتب
القوم والبصر بها ٠٠

غير أنك لو سألتني عن أنفع وأمتع كتاب طبع في النحو ، لددلتك على
« شرح الكافية للرضي » وهو كتاب ضخم ، ليس في كتب العربية ما يساويه
بحثاً وفلسفة » (١) .

وهذا قول يشف به الرافعي عن نفسه ، وقد أتى على كتب النحو جميعاً
دراسة ونقداً ، ومن ينظر في نقده اشعر أحمد شوقي (٢) ، والردود التي طارت
حوله في المقتطف وأبولو والرسالة ، ولا سيما رده على العقاد (٣) ، يدرك مبلغ علم
الرافعي في النحو ، فقد يذهب أحياناً الى القول :

« إن مذاهب العرب واسعة ، ولنا ما لهم من التصرف في الاستعمال إذا
لم نخرج من قاعدتهم ، وأعتقد أن مذاهب العرب ليست بالضيق الذي
يتصورونه » (٤) .

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٢ .

(٢) الرافعي - شوقي - المقتطف - تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٣٢ م -

وحي القلم ج ٣ ص ٣٤٤ .

(٣) الرافعي - نقد ورده - المقتطف - شباط - فبراير ١٩٣٣ م ، وانظر

مجلة أبولو - مجلد عام ١٩٣٣ م . (٤) الرافعي - الرسائل ص ٦٧ .

ويرسم في رسالة أخرى طريق امتلاك « ناصية الأدب » . . ينبغي أن تكون لك مواهب وراثية تؤديك الى هذه الغاية ، وهي ما لا يعرف إلا بعد أن تشتغل بالتحصيل زمناً ، فإن ظهر عليك أثرها ، وإلا كنت كسائر الذين يستعوضون عن الموهبة بقوة الكسب والاجتهاد » (١) .

وهذه نظرة تشبه الى حد رأيي بكوني في أن « المقدرة الطبيعية كالنبات تحتاج تشديداً بالدراسة » (٢) وكذلك في محصلة اليزابث درو :

« والشعر ينبع من مصدرين ، من جبرية غامضة تكمن في اللاوعي ، ومن تنظيم صناعي تام الوعي ، فهو عملية تختلط فيها الحياة باللغة ، ويلعب فيها كل من التنقيح والطبع » (٣) .

ولو تأملنا في الخلاصة التالية لجوابه على استفتاء الهلال عام ١٩٢٦ م عن الكتب النافعة والتأليف المفيد (٤) ، فقد أجاب بما يدل به على حملة رسالة التعليم والرأي في التربية والثقافة والأمة . .

« .. في أيام التحصيل كنت أقرأ كل ما أصابته يدي ، وكنت أكثر من الملاحظة وأدقق فيها ، فلا أعرف كتاباً أنا منه أكثر مما أنا من غيره . . . ولكن إن يكن ، فلعله كتاب في الحديث اسمه « الجامع الصغير » كنت أحضر به درس أبي - رحمه الله - .

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٥ .

(٢) اليزابث درو - الشعر كيف تفهمه وتمذوقه - ترجمة محمد ابراهيم

الشوش ص ٩ . (٣) نفس المصدر ص ٢٥ .

(٤) الرافعي - الهلال - كانون الأول - يناير ١٩٢٧ م ص ٢٧٥ .

ثم قرأت بعد ذلك للأفغاني ، والشيخ محمد عبده ، وكتاب « سر النجاح »
الذي ترجمه يعقوب صروف ، ثم كتب غوستاف لوبون ، .. ثم الكتب كلها ١ .

فلم تكن أوربة عن روح الشرق ، ولا يغني الشرق عن فكر من أوربة .
ويقول بعد ذلك : « أنصح بقراءة كتب الأديان قبل سواها ،
فإذا استوفى الشاب منها قانون ، ضميره فهو أبصر بعد بحاجاته ، وليكن عربياً
مشرقياً ، ثم ليقرأ ما يشاء ، فالصحة تجعل كل غداء صحة » .

ويرى أيضاً ضرورة « تهذيب المكتبة العربية تهذيباً فلسفياً (١) » ، وبيان
أسرار حضارة الشرق في أديانه وآدابه ، ونقل اسمي ما في الأدب الاوربي .
أما منتهى سعادته وآماله فتبلغ في قوله :

« ولو أحياني الله حتى أرى لقومي مجمعة » انسكلوبيديا « عربية كبرى
تبلغ من السعة والوضع وحسن الترتيب وشدة التبيين ، وقوة الاستيعاب ما بلغته
المجموعة الفرنسية ، لكنني سعيداً حق سعيد ...

فإن لم تكن اهل هذا العمل الجليل ، فلنحرص على أن تساعد اهل بوضع
ما يعد من مواده وأجزائه » (٢) .

* *

ثم إنني يصف اقرب الطرق الى الحظوة في دراسة الأدب
« .. فاجتهد أن تكون مفكراً ناقداً ، وعليك بقراءة كتب المعاني قبل كتب

(١) راجع نعمات أحمد فؤاد - دراسة في أدب الرافعي - المقدمة ص ٣ !

وتأمل المقارنة !!

(٢) الرافعي - الهلال - يناير ١٩٢٧ م - ص ٢٧٥ .

الألفاظ ، وادرس ما اتصل اليه يدك من كتب الاجتماع والفلسفة الأدبية في لغة
أوربية ، او فيما عُرِّبَ منها ٠٠١

واصرف همك من كتب الأدب الى كلية ودمنة ، والأغاني ،
ورسائل الجاحظ ، وكتاب الحيوان والبيان والتبيين ، ٠٠ ، وتفقه في البلاغة بكتاب
المثل السائر .

وهذا الكتاب واحده يكفل الملكة الحسنة في الانتقاد الأدبي ، وقد كنت
شديد الولوع به - (١) .

وبعد أن يرى حفظ ألفاظ نجمة الرائد لليازجي ، والألفاظ الكتابية
للهمداني ، يدعو الى مطالعة يتيمة الدهر للشعالي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ،
وزهر الآداب للحصري ، ٠٠ ، و « لا تنسَ شرح الحماسة ، ونهج البلاغة
فاحفظ منهما » (٢) .

ولا ينسى أن يشير « بمجلتين يعنى بقراءتهما كل العناية - المقتطف
والبيان (الشهرية) ، ثم الصاعقة (الاسبوعية) ، وأخيراً الجريدة (اليومية) (٣) .
ويختتم الرسالة بقوله :

« ورأس هذا الأمر بل سر النجاح فيه أن تكون صبوراً ، وبعبارة
صريحة أن ما يستطيعه الرجل لا يستطيعه الطفل إلا اذا صار رجلاً » (٤) .

(١) و (٢) الرافعي - الرسائل ص ١٥ ، ١٦ .

(٣) المقتطف لصروف ونمر ، والبيان كان يصدرها الشيخ عبد الرحمن
البرقوقي ، ويشرف عليها الرافعي نفسه ، والجريدة للطفي السيد ، والصاعقة لأحمد
فؤاد . (٤) الرافعي - الرسائل ص ٢٢ ، ٢٣ .

وفي الرسالة المؤرخة في ١٠ يناير (كانون الثاني) ١٩١٦ م ، يورد أسماء بعض كتب الاجتماع والفلسفة الادبية ، كتأريخ التمدن لكيزو ، وسر تقدم الانجيز ، وتطور الأمم ، والتربية الحديثة ، والواجب تعريب طه حسين ، والسلطة والحرية لتولستري ، وكتاب (الفلسفة النظرية) وفيه وحده الكفاية .. وهو من تأليف قوم من أعلم الناس بفنون الفلسفة والاجتماع وعلم النفس والتربية والأخلاق (١) .

ولا ينسى في آخر الرسالة أن يعيد قوله « إقرأ كل ما تصل اليه يدك ، فهي طريقة شيخنا الجاحظ ، وليكن غرضك من القراءة : إكتساب قريحة مستقلة ، وفكر واسع ، وملسكة تقوى على الابتكار .. فكل كتاب يرجي الى إحدى هذه الثلاث .. فاقرأه » (٢) .

٠٠ وفي رسائل أخرى ، يستفيض ويتوسع في الايضاح كأنه يكشف عن سره وطريقته في تناول المعلومات والدروس والحفظ ، والاطلاع والاستيعاب (٣) . وحسبنا أن نتأمل في مثل قوله :

« .. أعتقد أن طريقتي في التفكير المستمر قبل الإقدام على العمل أفضل وأنفع » (٤) ، فلماذا التفكير والتفكير المستمر ؟

ذلك أن الرجل من إحاطته وعلمه ، يتحرى الفضل فيما يصنع ، بحيث لا يندم على عمل فيه مشابهة لآثار من سبقه ، وإلا فما هو بالتأليف !..

(١) و (٢) الرافعي - الرسائل ص ٢٢ : ٢٣

(٣) الرافعي - الرسائل ص ٤٠ ، ٤٢ ، ١٢٢ ، ١٩٦ ، ١٩٨ . الخ .

(٤) الرافعي - الرسائل ص ٢٢٤ .

أرأيت من أدباء جيله من دعاة التجديد من له مثل هذا التفكير ؟ وهل
هناك معنى للتجديد أرفع من هذا ؟.

* * *

ومن يتهمياً له أن يرى الرافعي في روده ، وإيضاحاته لمسائل اللغة ،
والتاريخ (١) والتفسير ، يهوله سعة اطلاع الرجل ، وشدة بصره ، وتبحره
في هاتيك المسائل جميعاً ، ويأخذ العجب من توفره على مادة كل مسألة من
هاتيك في مظانها من أمهات المصادر والمراجع ، وقد استوفى فيها العلم ، وزاد
عليه رأيه ، الذي قلما يخطيء ، وقد يضع فيها وضعاً جديداً ليس منه علم معاصريه .
ومن ذلك مناقشته للأب أنستاس ماري الكرمل (كلدة) او (مستهل)
في الأدب والأديب (٢) وعروبة كلمة قریش (٣) والخلقة .

في أو كلامه (حسب) (٤) والنسبة الى الطبيعة (٥) .

أو مناقشته للدكتور زكتور مبارك حول نشأة فن المقامات (٦) .

أو كلامه في التجديد والمجددين (٧) ، ومستقبل اللغة العربية (٨) ،

(١) الرافعي — الرسائل - ص ٢٢٤ .

(٢) الرافعي - المقتطف - تشرين الثاني ١٩٢٣ م ، كانون الأول ١٩٢٣ م .

(٣) الرافعي - المقتطف - آذار ١٩٢٤ م .

(٤) « — أيار - مايو ١٩٢٤ م .

(٥) « — آب - أغسطس ١٩٢٤ م .

(٦) « — أيار - مايو ١٩٣٠ م .

(٧) و (٨) الرافعي — الهلال - آذار ١٩٢٩ م ، شباط ١٩٢٠ م .

ونهضة الشرق العربي (١) ، الى آخر ما هناك - عدا مقالاته وأبحاثه الأخرى ،
والتي ما يزال الجزء الكبير منها ما بين منحول وغيره ، او مخطوط في أوراقه التي
أسرع اليها البلى ، ومكتبته التي أضاعها « دار الكتب » بعد شرائها ... من أولاده
عام ١٩٤٣ م على أساس أن تكون جنب مكتبة أحمد زكي وتيمور باشا ..

* * *

ولم يكن اطلاع الرافعي مقصوراً على الأدب والحضارة العربية وتاريخها
وعلموها فحسب ، بل جاوز ذلك الى كل ما هو معرفة على طريقة الجاحظ (رح)
- وكما تقدم ذكره ، من قراءته كل ما يصل الى يده ، فبالرغم من عدم إتقانه
الفرنسية التي تعلم مبادئها في الابتدائية ، إلا أنه قرأ كل ما ترجم الى العربية
في زمانه من لغات العالم أجمع (٢) .

وقد كان يدعو لدراسة بعض العلوم في لغة أوربية كما تقدم ، ولا يفتأ
يذكّر كل ما يراه يتقن هذه اللغة الحديثة ، أن ينقل لنا عنها .

ويقول المرحوم اسماعيل مظهر « .. لم أكن ألقاه إلا استعجلني ترجمة
كتاب عن علم من أعلام أوربة ، مختاراً في الاغلب الكتب التي تدعو الى
حرية الفكر ، وإلى نشر المبادئ العلمية الحديثة ، كأنه كان يعتقد أن الإيمان
الصحيح لا ينبغي أن يقف عثرة في سبيل الفكر ، أياً كان مصدره ومصرّاه » (٣) .

(١) الرافعي - الهلال - حزيران ١٩٢٣ م .

(٢) عمر الدسوقي - مذكرات في مناهج البحث الأدبية .

(٣) اسماعيل مظهر - المقتطف - ارتحال الصديق - حزيران

- يونيه ١٩٣٧ م .

.. لقد أطلعني الأستاذ أبو رية على مسودة ترجم فيها العقاد (رح)
كلاماً لبرنارد شو في المرأة - وقد جرى في الترجمة قلم الرافعي الأحمر ، حتى
جعل منها قطعة أدبية رائعة ، وكتب عليها مترجمة بقلم الاستاذ الأديب الفاضل
عباس محمود العقاد (١) .

وفي ورقة أخرى ، يشير عليه بالمعنى في الترجمة (٢) .
ومن يتصفح كتابيه الجليلين « المعركة - تحت راية القرآن »
و « على السفود » يرُعه منه ذلك البصر بآداب اللغات الأوروبية ، كأنما لم يكن
يفوته منها شيء ، بالرغم من اعتماده على الترجمة حسب ، كما قدمنا .
فترى مثلاً أنه يعرف أناطول فرانس ، ونزعته الاشتراكية ، وتقريره
أن القرن السابع عشر هو عصر البلاغة الفرنسية (٣) وقد عدّه بوسيوه المثل
الأعلى للنثر (٤) وأن موريس باريس - السكاثوليكي ، لم يتحفظ حين قال إنه
حفظ اللغة (٥) .

-
- (١) تجدها في مجلة البيان - ١٩١٢ م .
(٢) .. ومن أجل ذلك ، لم يكن الرافعي (رح) ينظر إليه من غير هذه
الناحية - وانظر مقالاته في نقد وحي الأربعين - البلاغ ١٩٣٤ م .
(٣) الرافعي تحت راية القرآن ٣٤٩ ، المقتطف - إبريل (نيسان)
١٩٢٥ م حول السحاب الأحمر .
(٤) الرافعي - تحت راية القرآن - ص ٣٦ .
(٥) المصدر السابق ص ٣٧ .

ويوصي بشراء كتاب أنتول في مبادله ، فهو « فيما عدا أفكار الاتحاد - محصول عقلي مفيد جداً - » (١) .

ويكتب مقدمة المساكين ، فيظهر له أنها « أوسع وأمتن وأرقى من كلام برجسون فيلاسوف فرنسا كلها » (٢) .

ويبصر في الاستشراق ، فيرى مستر جب ومرجليوت وتلفيقهما على الأدب العربي (المسكين اليتيم) (٣) .

* *

ويحتفل بنقد جون لوتر ، و « شعوره النبيل القائم على الفهم والحق ، وعلى القلب والعقل معاً » (٤) .

ويعرف هابتي الشاعر ، ويصوغ لشار الألماني شعراً (٥) (في وليم تيل) :
يقنى البرايا ويأتي الوقت مختلفاً ليخرج الدهر تاريخاً من الرسم
ويستمنجز ترجمة لشيلي (٦) ... ويكشف سرقات أدباء الجليل عن برنارد شو ،
وهيرتشو مدرس التاريخ بكلية الملك بجامعة لندن (٧) .

(١) الرافي - الرسائل ص ١٢٠ .

(٢) الرافي - الرسائل ص ١٥٤ .

(٣) الرافي - الرسائل ص ١٦٨ .

(٤) الرافي - على السفود ص ١١ .

(٥) شكيب أرسلان - مقدمة - حاضر العالم الإسلامي - عجاج نوبهض
ترجمة عن لوثرود ستوارد ص ١ ج ١ .

(٦) من رسالة للأدبية فكرية زكي - المؤرخة في ١١ أيلول - سبتمبر ١٩٣٥ .

(٧) الرافي - على السفود - ص ٢٦ ، ٦٧ .

ويرد أصول الترجمة ، والمصطلحات الى اللغة نفسها ، ويسخر من الترجمة الصحافية بالمقص (١) .

وقد قطع بذلك أشراطاً ، جمعت من صديق شيبوب لا يتردد عن مقابله بشارل موراس زعيم الحزب الملسكي في فرنسا ، ومدير صحيفة « الاكسيون فرانسيس » « ٠٠٠ فإنه مثل الرافعي شاعر وأديب يعيش في نفسه حياة كلها رؤى وأفكار ، وانه شديد الوطأة على مجادليه ، سليم اللغة مرهف الاحساس » (٢) .

* *

ولا بدع أن من يتوفر على بعض هذه الثقافة الواسعة الشاملة ، وتنبأ له من روافدها ما تهتأت للرافعي ، أن يغدو إماماً في عصره ، او يضحى بعد ذلك « أعلم أهل زمانه بالشعر واللغة وتاريخ الأدب » (٣) .

ومن ثم لا تراه يكتب بعد ذلك إلا بلغة الشعر ، فكأنما « كانت الروح الشاعرية عنده ، تلاحقه الى النثر ، لتشيع الكلمة هناك بعباء فذ يخلقها خلقاً جديداً » (٤) .

(١) الرافعي - صمالك الصحابة الرسالة ص ١٨٩ .

(٢) صديق شيبوب - البصير ٤ / ٦ / ١٩٣٧ ، وقد مات موراس حوالي

عام ١٩٥٣ م .

(٣) زكي مجاهد - الأعلام الشرقية - ج ٤ - ص ١٤٣ .

(٤) محمود حسن اسماعيل - في حديث خاص

الرافعي وعصره

يظهر لنا مما تقدم بجلاء أن الرافعي قد تفاعل مع عصره ، بالرغم من جميع المعوقات التي وقفت في سبيله سوى^١ .

فإذا فاتته الفرصة في الصحة والعافية ، لم يفته منهما الفكر والتأمل الواعي والدرس الذي يؤتي أبلغ العبر ، وأسمى آيات الحكمة ، في استبطان الذات والغور في أعماق النفس الانسانية ، والتسامي الى المصاف الاجتماعية العليا للفكر ، والتي لا تقل رفعة عما هي عليه عند الأفاضل العلماء من مفكري الانسانية في أوربة والعالم الجديد (١) .

وإن تحيفه الزمان فأبقاه دون الانتظام بجامعة ، او التخرج على أستاذ بعينه ، لم يكن العصر نفسه ليجزل عليه ، بأطايب العلوم والفنون ، وآيات الفكر الانساني ، في الفلسفة والتاريخ والاجتماع ، الذي نهضت فيه الدنيا العربية بعامة ، وأخذت من أسباب التقدم ومنازع الحرية ما عملت فيه على تحطيم الاغلال وكسر قيود الضياع الذي ران عليها حقبة من القرون .

فقد تيسر له من الثقافة ما عرفنا روافده ، وتوفر لديه من معطيات الحضارة الجديدة ، ما كان سباقاً اليها يلقيها بهم ، ويفار عليها ، فيلتمس ما فاته في اللغات الأخرى عند تراجمها والملمين بها .

(١) بدوي طبانة ، ومحمود ابراهيم - تاريخ الأدب الحديث الرافعي ص ٤٣ .

ولئن ضاقت ذات بده - أحياناً - أن يحوز ما ينتفي من مظان العلم ومصادر البحث ، ومراجع المقارنة والأخذ ، فقد فتحت الصحافة أبوابها وفرشت له دور الكتب ردهاتها ، وناولته المرشدين فيها ما يهفو اليه من علوم ومعارف ، وآداب وفنون ، وآراء وفلسفات ، وقيم ..!

حتى ليكاد الدسوقي يحزم بقرائه كل ما ترجم من كتب النقد والآثار الغربية في عصره ، متأثر آبهما ، وكان أسرع أدباء جيله في مثل هذا التأثير . ومن ناحية ثانية فقد برزت آثار العصر الحضارية في فنه وشعره ، فكان من المستبقيين في نعت الصفات الجديدة من آيات العلم والمدنية ، كالنور الكهربائي والمخترعات الحديثة في القطار والعربات - وسوى ذلك ..! بروز اغتباط وأخذ ، لا سلبية وإحجام ..!

وفي غمرة هذه العصرية الجديدة ، وهو ينتصر لعقيدته وينشد لوطنه ويتغنى لأُمته ، لا ينسى المضاعفات الوليدة التي كانت تعوق الحياة الحرة الكريمة التي يتوخاها .

فهو يغمز الحسك ، ويثور على الخيانة ، وينتصر للضعفاء والمساكين ، ويهتز لزحف الجمهور ، ويسارع في نظم شعارات الوعي القومي على لسانه ، في شعر وأناشيد وأغاريد ..!! يريد بها التربية الاستقلالية قبل الاستقلال ، ليحافظ عليه الجمهور من ثم ..!

وينظر بعيداً في آفاق الحركات الاجتماعية في العالم ، ولا سيما تلك التي أورنتها الحياة السياسية الانقلابية في الثلث الأول من القرن ، ويحاول معها المحاولات التي تقف بعقيدة الأمة شامخة أمام الآراء والمذاهب التي اجتاحت

البشرية قبل الحرب الأولى وبعدها ..

* *

إن الرافي كان صورة صادقة من مرآة عصره ، اضطرب في آفاقها
واختلف عليها ، وحاول معها الجلوة والوضوح الى حد كبير .

وهو بذلك كله كأنما كان يسابق أدباء جيله ، وبياري شعراء العصر ،
ويعارض المتأثرين الآخرين الذين كان الوعي القومي ينقصهم عند الأخذ والنقل
والتأثر والاستيعاب ، .. ثم هو لا يدعهم في مثل ذلك التخبط يضطربون وإنما
يدعوهم الى طريقة الأخذ والتمثيل والهضم قبل التقليد أو التخبط الذي يورث
الزيف والتضليل والانحراف ، أو يرسم لهم المثل ما استطاع ..

ولم يكن وحده في هذا المضمار ، وإنما جاراها الكثيرون ، وسابقه الصفوة
من الأدباء ، .. وبذلك كان معاصراً حقاً ، ومصابراً صادقاً للأيام والحدثان .
فلا يكاد واحد منهم يقول في أمر ما حتى يبادره القول والرأي ولا يتحدث
متحدث منهم حتى يرسل شعره وفنه حكمة في الموضوع ، ومنهجاً في الإصلاح ،
وهدفاً في الحقيقة .

ملحق
آثار المرافقي

آثار الراجعي الشعرية

الراجعي ثروة شعرية عظيمة ، أخرج بعضها في أجزاء ديوانه ، وما يزال القسم الأكبر منها موزعاً في شتيت الصحف والمجلات ، وأوراقه الخاصة ، التي حال لونها ، وأدرك بعضها الإهمال والضياع .
آثاره الشعرية المطبوعة :

١ - (ديوان الراجعي) :

الجزء الأول - طبع في المطبعة العمومية بمصر عام ١٣٢١ هـ - ١٩٠٢ م
كتب عليه : نظمه مصطفى صادق الراجعي ، وشرحه محمد كامل الراجعي (١) .
وقد جاء بخمس وأربعين ومئة صفحة من القطع الكبير ، وتوزعت القصائد فيه بحسب الأبواب التي اختارها لها ، كالترتية والتهذيب ، وما فيها من أمجاد عربية ، وقيم إسلامية ، ومثل رائعة ، ٠٠ ذاعت منها قصيدته القومية « بلادي » :

بلادي هواها في لساني وفي ديي يعججها قلبي ويدعو لها في
وما يزال شعراء العروبة يحومون حول معانيها الى اليوم ٠٠١

(١) الشرح بما فيه من أدب وطرف وفكرة هو للراجعي نجله أخاه
لأمر ما ؛ فكان من أسباب الدعاية لنفسه ، وشهرته .

والمديح ، الذي شَفَّ فيه عن روح عالية تلتزم بالولاء للأمة في صورة
من وحدتها القومية ، المتمثلة بالخلافة ، ورجال العصر من العلماء والفضلاء ،
الذين كانوا من أهل الحل والعقد .

والوصف ، الذي لمس فيه مواطن الجمال بحسٍّ مرهف وشاعرية مبكرة ،
وشباب مفتون وطبيعة تغدق عليه من محاسنها في الأصيل وإقبال الليل ، وتغريد
الطيور وانفراد العنادل ، ما يخطُّ على قلبه من المعاني والعبارات الفنية .
ثم الغزل والنسيب ، وبهما أضحي بحق « شاعر الحسن » كما مرَّ بنا في
حياته والباب نفسه يؤلف أكثر من ثلث الجزء ، وفيه خبر « عصفورة » التي
عرفها على جسر كفر الزيات وقال فيها :

عصافير يحسبن القلوب من الحَسْبُ فمن لي بها عصفورةً لقطتْ قلبي
وفرَّت فلما خافت العين قوتها أدالت لها حَبَّاً من اللؤلؤ الرطب

وهي أول ما غتته « أم كلثوم » من القريض .

وأخيراً باب الأغراض والمقاطع ، وقد حوى الكثير من الخواطر
والحكم المرسلة ، والأبيات التي تجري مجرى الأمثال ..

وعلى أن هذا الجزء باكورة شاعريته ، وأنه نظمها ما بين عامي ١٣١٩ هـ
- ١٣٢٠ هـ ، من غير تفرغ للشعر ، ولما يتخطَّى العقد الثاني من سنيهِ ، فقد
عرف بالرافعي الشاعر الأديب .. ووضعت مقدمته في « الشعر واجتماع أسبابه »
العنوان الكبير أمام أدباء العصر ونقاده ، مما غبطه عليه أئمة البيان كالشيخ
محمد عبده ، والبارودي ، واليازجي ، وشوقي وغيرهم .

* * *

٢ - ديوان الرافعي :

الجزء الثاني : طبع في مطبعة الجامعة بالاسكندرية عام ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٣ م
وقد جاء بعشرين ومئة صفحة من القطع الكبير والورق الصقيل ، وزُيِّن
بصورة فنية للسلطان عبد الحميد - رح - وقصيدة فيها كل ألقابه المشهورة ، ٠٠

قدم له بموضوعة في « سرقة الشعر وتوارد الخواطر » ثبت فيها مكانته
التي ارتقى اليها أدباً بمقدمة الجزء الأول ، ووضع الدرجة الأولى في سلم النقد
الأدبي الحديث مما أذهب الشك عن صدور ناقديه ، والمغتبطين به معاً .

افتتح باب الحكمة والتهذيب فيه بخريدته الرائمة « اللغة العربية والشرق » :

أَمْ يَكِيدُ لَهَا مِنْ نَسْلِيهَا الْعَقَبُ وَلَا تَقِصَّةُ إِلَّا مَا جَنَى النِّسْبُ
كَانَتْ لَهُمْ سَبَبًا فِي كُلِّ مَكْرَمَةٍ وَهُمْ لَنَكْبَتِهَا مِنْ دَهْرٍهَا نَسْبُ
لَا عَيْبَ فِي الْعَرَبِ الْعَرَبَاءُ إِنْ نَطَقُوا بَيْنَ الْأَعَاجِمِ إِلَّا أَنَّهُمْ عَرَبُ
وَقَالَ فِيهَا بِفَخْرٍ وَاعْتِدَادٍ قَوْمِي سَدِيدُ :

إذا اللغات أزدعت يوماً فقد ضمنت للعرب أي فخار بينها الكتب

وهي القصيدة التي عُدَّت من المحلقات في أفق الانبعاث القومي . والتي
منحه بسببها طيب الذكر فرح أنطون لقب « شاعر الشرق » (١) وهو يقدم لها
وينشرها في مجلته « الجامعة » .

وفي هذا الجزء تظاهر على الرافعي بعض الميول الفكرية الحديثة ، كتعريفه
بالاشتراكية ، ونظامه في الحرب والسلام قصيدة ما جاء شاعر يمثل ما جاء به
من دعوة عاقلة :

(١) راجع ما سبق في كلمة « الشرق » والشرقية .

لما الله دهرأ شدء بالقوة الهوى فكل قويا شاء ما شاء يتبع
وهب أن هذا الظلم كان سياسة .. فمن قال : أن الظلم في الظلم يشفع ١؟
وفتح باباً جديداً في النسويات ، ينصر المرأة في طبيعتها الفطرية . وينظر
إليها عند صورتها المثالية التي تظهر له فيها :

بوجه الجمال ، ورأي الذكاء وعين العفاف ، وصدق اللسان
وقلب المحب ، وصدر الصبور ونفس الكمال ، ودم الخنان
ويعيد للوصف روحه بتحليلات شاءية تجدد القول في الطبيعة وآثار
الحياة ، ويعود المديح في بابها ، ثم ينعطف نحو الغزل لبيدع في زحمة معانيه ،
حتى يختتم الجزء بأغراض ومقاطع فيها خواطر أخرى ، وأمثال وحكم .

* *

٣ - ديوان الرافعي :

الجزء الثالث : طبع في مطبعة الأخبار بالفعيلة - مصر عام ١٣٢٤ هـ
١٩٠٦ م وصدر بمخمسين ومئة صفحة من القطع الكبير والورق الصقيل .
قدم له كسابقه بمقالة في « نوع من نقد الشعر » وفق تر فيها بتلخيص
منه . النقدي الأول من بين آثار النقاد العرب وأصحاب الطبقات والتراجم ،
وزاد عليه أن فتح الباب للحديث عن النواحي النفسية للشاعر عند النظم ، وتسلط
الأضواء على عبارته ونحو يدها ، ومادته البيانية ، وثروته من المعاني والألفاظ . الخ
مما يشغل الدراسات النقدية اليوم باستغراق كبير .

وقد افتتح باب التهذيب فيه بقصيدة في حال مصر الاجتماعية عام ١٩٠٥م

قال فيها :

.. وما يتقون البؤس لكنهم متى بعضُ بهم أنيابه يتألموا
ويطرهم عهد الرخاء ، فإن مضى فسهلٌ عليهم بعد : أن يتندموا
يقولون هبوا وانفضوا سنة الكرى .. وما نحن - لكن الليالي تُنوم
وحذر « الترجمان » من خطر « السباح » :

تجيبهم كلما يسألون بما يغض الشرق للسائل

ويعود الى المعاني الاجتماعية الاخرى في الافكار المحدثه ، فيحاول رسم
نظرية الأتمخاس في الاشتراكية ، ويقول في الوجود ، ويتكلم في الفلسفة ، ويرى
في الحياة والطبيعة والناس بما بثقل على شاعريته .

ولكنه في باب « النسائيات » يقارن بين حسان الأرض والسماء ،
ويرقص ابنته وهيبة .. الخ هذه الموضوعات .

ثم يدخل للوصف معاني جديدة يحرك فيها الطبيعة عند الغروب ، ويشرك
معه الربيع ومفاته ، وهو لا تفوته في هذا الصدد آيات المخترعات الحديثة ،
الساطعة بنور الكهرباء في صفحة الليالي ، كالم يفته قطار السلك في الجزء السابق ..
وبلاحظ عليه أن شعر الغزل يقل في هذا الجزء حيث يزدحم باب الاغراض
والمقاطع فيحشر فيه المدائح والتقاريظ ، وشؤون الاجتماع الأخرى .

ولكنه يفتح باباً للمراثي يميكي فيها أستاذة البارودي والشيخ محمد عبده ،
وعمه الشيخ عبد القادر الرافعي .

وكأنما أدرك ارتباك هذا الجزء فقال على لسان أخيه الكامل - الذي

نحله شرح الديوان - « أنه عرضت لشاعرنا أحوال خاصة ، اضطرت به الى الانتقال ، وشغلته عن شعره والعناية به كثرة الاعمال » .

* * *

٤ - ديوان النظرات :

الجزء الاول : طبع في مطبعة الجريدة بمصر عام ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٨ م وجاء في ثمان وعشرين ومئة صفحة من القطع المتوسط .

لقد شاء الرافعي أن يسمي هذا الجزء من الديوان بالنظرات ، وبشّر به في مقدمة شرح الجزء الثالث ،.. وقدم له بحدّث ثمين يبين فيه « حقيقة الشعر » حيث اجتاز به مرحلة أخرى في الاستيعاب الأدب ، حتى حسب شبلي شميل هذا الموضوع مترجماً ٠٠١ .

فقد ميز الشعر بين الفنون الجميلة ، وأشار الى المؤثرات النفسية فيه ، ولاحظ عليه ملاحظات قيمة ، بحيث أحدثت هذه المقدمة دويّ المقدمة الاولى . ولكنه ترك فيه الأبواب السابقة ، وافتتحه بنشيد نظمه لمصر الوطن الصغير ، وقصيدة « نبأ مصر » وحال الاجتماع في تلك الايام :

تباين ما بين الرجال وكلهم على زعمه بالأمر خير كفيل
فيا عصابة الاحزاب ردوا حلومكم وجروا على غير الثرى بذبول
ألمّا تزالوا قاصرين فأمركم ضياع إذا لم يعتصم « بوكيل » ؟
وبالرغم من ازدواج الولاء الوطني والقومي عنده فإنه يلتفت نحو
الخونة يبحث عن « فيعة الذمة » وأصل البلاء في « شبان مصر » .

وينظر في الطبيعة حيث قامت طرابلس الشام في « العراء » :
تلوح في (عين) (راء) نحوها أطلعت كهمزة رفعتها فوقها ألف
ويواصل الذكرى ، ويتذكر « حتى ليلي » بموشحة غنائية فريدة ، ويساهر
ولده المريض ، .. ولا ينسى حق « الحسان » عليه في شعره .
والجزء صغير جداً بالنسبة لأجزاء ديوان الراقعي ، حيث أرجأ بعض
قصائده لجزء آخر من النظرات ينشره فيما بعد ، .. ولكنه لم يتوفر على أسبابه .
وعسى أن نتوفر على إخراجه ضمن الجزء الرابع من ديوان الراقعي .



آثاره الشعرية غير المطبوعة

١- ديوان النظرات :

الجزء الثاني :

اجتمع الرافعي من شعره قصائد شتى ، نظمها على فترات مختلفة ، نشر بعضها في الصحف ، وتوزع الباقي بين أوراقه ، وأبدي أصدقائه ، . وحاول غير مرة أن يجعل من بعضها الجزء الثاني من النظرات ، . وأشار مرة الى أن آخرها القصيدة التي يرثي فيها والده الشيخ عبد الرزاق الرافعي - رح - .
وقد اجتمعت لدينا منها مجموعة ، عسى أن تتمكن من إخراجها مع « النظرات » عند إعادة طبعه .

وهي تضم قصائد ومقطعات فيها تاريخ تلك الفترة من حياته الأدبية ، .
فقد توفي الله السيدة أسماء بنت الشيخ أحمد الطوخي - والدة شاعرنا ، بعيدة عنه في أسبوط فما فني ، يبكيها حتى آخر أيامه ومنذ أن قال :

من الصدع في قلبي غداة تهدّما سعت نظرات الروح خلفك للسما
وبين ضلوعي زفرتان من الأسى تتهان في صدري متى بلغا الفما
وظهر مذهب « هالي » فتطير الناس منه ، والأمة تعاني من الانقلاب

العثماني ومضاعفاته ، فإذا بالرافعي كالذي يرسل الزفرة الحرّى بقوله :

أحقاً ستجمع غلّ القلوب فتفتجر الأرض منك اضطراما
وترحم هذي الشعوب الضعاف ، يقاسون داء الملوك العقاما

ويتمياً له السفر الى ربوع الشام ، فيظل على وادي لبنان من ربي (بحمدون)
ليشهد الجمال الأسر فيقول :

يا «بحمدون» كم شهدنا جمالاً من ربي «المنظر» استناراً
ولكنه عندما يعود الى مصر يرسل «عبرات البين» التي مرّ ذكرها
في فصل الحب ، وينظم لفضليات سيدات «الإحسان» حقيقة في قصة قائلاً :
انقد يبصر المرء السما ونجومها وما في العلى من معجزات خوارق
ولكن متى يبصر بحسنا ينفض ويستشعر الخلول هيبة خالق
ويسارع في رد عدوان الظليان على طرابلس الغرب - بسيف الاسلام
العثماني ، ويتغاضى عن موقفه السابق من الاتحاديين :

من الصواعق .. لا يبقى ولا يذر إذا انتصاه لأهل النعمة القدر
برمي به الله رجماً لا تقوم له هام الشياطين .. إلا ريث ينحدر
سيف الطبيعة بل سيف الفجيعة بل سيف الشريعة : فيه العدل والعبير
ويضطرب الشرق أمام الغرب في اتجاهات سياسية ومذاهب فكرية ،
وآراء وأهواء يعقوزها النضج والحجة ، .. فيرسل قصيدته في «الشرق المريض»
التي مرّ الاستشهاد وبكثير من أبياتها في هذه الحال الاجتماعية .

ويغشى الرافعي الاجتماع بأدب القصة الشعرية في منظومته «دموع الهرم
لدموع الصبا - من الشيخ البائس الى حفيدته» فيقول :

دجا الظلام : أيا ليلى أما فينا روح؟ أم الموت مثل الرزق جافينا؟!
وبقصيدته الأخرى التي تحدث فيها عن مأساة الانسانية في الحرب :
طريدة يؤمس ملّ من يؤسها الصبر وطالت على الغبراء أيامها الغبر

وفيها يقول :

.. وما الحرب إلا غضبة الله لامست مخازي هذا الدهر .. فانفجر الدهر
وما الحرب إلا مطرة دموية إذا دنست روح الورى فهي الطهر
وينظم في « غليوم الثاني » الوجه الشيطاني للحرب وفي « ويلسون »
الذي حسبه روح الجبهة الإلهية ، .. ويتصدى لأغوار تحرير المرأة ، بقصيدة
« التبرج » ويسخر من شبان العصر في أخرى عن « التخنث » ، .. ويعود
الى أطفال الشوارع في رائعته الانسانية :

صبية هم بواذر التنكيد إن صبونا الى زمان سعيد
وفيها تنبأ بالمضاعفات التي تعانها الأمة في كل تغيير من انقلاب أو ثورة ،
من مثل أولئك الصبية 1

هذا الى جانب قصائد أخرى في الغزل المحمس والمقطعات والمرثي

~ * ~

٢ - أغاريد الرافي :

ديوان فريد في الشعر العربي الحديث ، كل من بعض شغفه بالغناء ،
وولاه بالفنون والمرددات القومية .

وقد تم لي جمعه وترتيبه في مجموعات منها القصائد الغنائية المرقصة ، التي
ناغى بها أبناءه ، وساهرهم ، وأرقصهم ، وهزلهم أرجوحاتهم ، .. وأحيا هذا
الفن الرفيع في أدب التربية النفسية ، ودعا الأمهات أن يقبلن على شعر الترفيقص
ويقو من ألسنة أبنائهن به . والثانية ، مجموعة من الأناشيد الوطنية والقومية .
وقد وفق فيها بما لم يوفق اليه شاعر عربي .

وحسبه منها النشيد القومي العربي ، الذي كان آخر ما نظم ، والذي
ما يزال يندلع بحماسة من أفواه الجماهير الهادرة في الأقطار العربية كلها :

حماة الحمى يا حماة الحمى هلموا هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت بالعروق الدما أموت أموت وبجيا الوطن
وكذلك نشيده لكتائب الشبان المسلمين :

يا شباب العالم المحمدي ينقص الكون شباب مهتدي
فأروه دينكم كي يهتدي دين عقل وضمير ويد

والجموعة الثالثة ، تشمل الكثير من الموشحات والنقطوعات التي حاول
أن يتمها غير مرة في ديوان « أغاني الشعب » يضع لكل طائفة أو جماعة أغنية ،
فكان منها « نشيد الفلاح » وما فيه من قيم اجتماعية ونظرات اقتصادية و « نشيد
الفلاحة » و « نشيد الربيع » والشباب وسواها .

والجموعة الأخيرة ، تنتظم أغاني وموشحات نظمها في فترات متباعدة
من حياته ..

وما يزال تتمتع بروح موسيقية عالية ، حبذا لو سعت إليها الألحان بدلاً
من هذه الأغاني المرتضخة للعامية المزدولة ، التي طغت على الاداعات العربية
في السنوات الأخرى .

وقد جهزته للطبع أيضاً (١) .

* * *

(١) راجع البدرى - أغاريد الرافعي - الأقلام - جزء شباط ١٩٦٧ م .

مجموعة قصائد أرسلت بمناسبةاتها من الأيام الملكية وسواها .
فقد انتظم الساسة ورجال الأحزاب في مصر بمحاولة ائتلاف وطني ،
يفتح صفحة جديدة للحياة القومية في البلاد عام ١٩٢٦ م (١) فكانت التفاتة
محمد نجيب (باشا) بارعة في اختيار الرافعي الوظيفة « شاعر الملك » الفخرية ، التي
كان يتطلع اليها حافظ ابراهيم وسواه من الشعراء في مصر .
ولعل في المنافسة الأدبية بين الاثنين ، وليول الرافعي مع الحزب الوطني
صاحب فكرة الائتلاف ، السبب الأول في هذه المبادرة .

لقد ضمن الرافعي قصائده هاتيك الكثير من الأفكار القومية التي كان
ينافح دونها ، ويميزها عن شعر المديح بدعوته الاعتقادية ، وضمنها شيئاً من
أحاديث السياسة ، يضطرب فيها معها بين التسوين والتأييد ، أو البرم والامتعاض ،
على ما سوف نتحدث عنه في كتابنا (الشعر عند الرافعي) .. ذلك أنها جاءت
في ظرف عصفت فيه الأفكار الوافدة عاصفتها ، وتوزعت الآراء بين أفرادها
وأحزابها . ولكن موقف التحدي الرافعي كان يتجلى فيها غالباً بأروع ثبات ، ..
فقد استطاع أن يضمها غير شعر المديح فنوناً أخرى من القول لم تك ترد في المدائح
سابقاً ، وكأنه أراد تجديد حياة الشعر في هذا الفن .

ودهش العريان - رح - ان لم يجد في قصيدة الصحراء ، أو الراية ما يجب
أن يشتمل عليه شعر المدح (٢) .

(١) راجع الحالة السياسية في الباب الأول .

(٢) العريان - حياة الرافعي ص ١٦٨ .

وأضيف هنا أن الرافعي كان ربما أضاف لبعض قصائده ، كـ « النيل والطبيعة المصرية » أبياتاً مадحة يلحقها بها وزناً وقافية ، لتجيب القصيدة (ملكية) . ومن فوق هذا المنبر استطاع أن يقتبس « سياسياً » بما لم يستطعه (موظفاً) (١) ، وقد استشهدنا في الباب الأول بكثير من هذا الشعر . وهي بمجموعها تؤلف ديواناً صغيراً ، جدير بالانفراد والدراسة الخاصة .

* * *

٤ - بقايا الديوان .

لقد حسب العريان أن الرافعي قد تحول من الشعر الى الكتابة ، بعد تصنيفه لتاريخ آداب العرب (٢) .

ولكن الحقيقة أن الرافعي لم يصمت عن قول الشعر مثل بعض معاصريه الذين لم يستطيعوا التحليق في آفاقه ،.. فقد حاول التجديد في عطاء المعاني وبسطها بروح بيانية جديدة ،.. كثيراً ما وجد أوزان الشعر العربي كالتى تحدّها ،.. فكان إذا ما أراد أن ينظم شعراً بموضوع ما واعتصت عليه المعاني أن تقيد بالأعارض في مفردات خاصة ،.. نفر الى النثر يستوعبه أخيلته ومعانيه ، ويؤتقه بالفاظه ومبانيه ،..

وعلى ذلك كانت بعض من موضوعاته الشعرية ، مادة أولى لكثير من أحاديثه المنشورة من ثم (٣) .

(١) راجع الرافعي - لمسات ص ٣٨ .

(٢) راجع للعريان - حياة الرافعي - من الشعر الى الكتابة .

(٣) سنوفي الموضوع حقه في دراستنا التالية .

فقد واصل النظم في فنون الشعر جميعاً الى آخر حياته - يرجمه الله -
ولو وزع ديوانه الكبير فنياً - وهذا ما اتجه اليه الآن - لوقفنا على ذخيرة شعرية
ضخمة ، تؤلف أجزاء خمسة من مثل الشوقيات ، غير ديوان الأغر يد المار
التعريف به .

فهو يعد ديوان النظرات الثاني واصل النظم في أحداث الأمة ، وثورتها
وزعيمها سعد زغلول ، . . . وحاول أن يصنع للشعب أغانيه .
وعاد يتذكر أيام لبنان ، وصرفه هواء الى القول شعراً في مادة أخرى
غير رسائله .

وكانت خلة الوفاء التي عرف بها تدفعه بين الحين والآخر الى رثاء
أصدقائه ومعارفه وأساتذته ، وإطراء نعتهم فيرسل فيهم مرثي فيها من جدة
التعبير وأمر البيان ما يأخذ بمجامع القلوب .

وقد اجتمعت لادي مجموعات أخرى من هذه القصائد تؤلف جزءاً آخر
من بقايا ديوان الرافي عسى أن أخرجها في القريب العاجل .

آثار الرافعي النثرية

هناك حقيقة نفسية دقيقة يظهر فيها الرافعي الأديب أكبر وجدانا من شخصياته الأخرى.. وهذه الخصيصة كانت تلازمه دائما وأبدآ في كل ما يصبو اليه من الالمام بفنون الشعر والكتابة والنقد.

وتتمثل أكثر وبصورة أوضح حين ندركه ذواقة بيان، وعريف معاني، يستدل عليها بما أوتيته من ذكاء يفرط أحيانا، وفهم يستوعب دقائق الامور، ويستبصر بأسرار الإعجاز ويتميز بالانفراد في الموضوعات أحيانا أخرى.

وكذلك تجيء، وصيته الى أحد تلامذته «وأول عهدك أن تستفيد، وآخر عهدك أن تجتهد» (١) فهو ما بين الاستفادة والاجتهاد، أراد طبع أدبه بهذه الخصيصة..

ففيها نظر الى «الشاعر» لاحقه بالحديث عنه، وبسط معانيه وشرح عبارته، وتفسير مفرداته، ومن هنا جاءت شخصية الرافعي الكاتب الأديب، الذي أخرج مؤلفاته النثرية التي عرف بها أكثر مما عرف بفنونه الشعري الجليل. وفي الصفحات الآتية تعريف موجز بها.

* * *

(١) الرافعي - الرسائل ص ٤٤.

آثار الرافعي النثرية المطبوعة

١ - حديث القمر :

صدر في طبعته الأولى عام ١٩١٢ م عن ناشره الشيخ محمد سعيد الرافعي - المكتبة الازهرية في بضعة وسبعين ومئة صفحة، اشتملت على مقدمة وتسعة فصول.

ثم إنه « مرّ عليه وأصلح منه قليلاً مما يستين به بعض معانيه ، مع إضافة قليل من الشرح ليكون في الطبعة الثانية شيء جديد » (١) .

ولكن الكتاب في طبعائه الأخيرة زادت فيه الأخطاء ونقصت منه بعض الشروح والهوامش .

وقد كتبه بأسلوب المقالة البيانية ، والطريقة الشعرية التي يكتب بها نبغاء أدباء الفرنجة ،.. قالت فيه المؤيد : « إنه نثر مطرب ، وشعر مرقص في غير أبيات ، بل قلب راق فسال ، ودق فكأن الخيال ،.. مقالة واحدة صبت فيها عواطف النفس صبا في طراز بديع من الانشاء » .

وقد قال في المقدمة : « أرجو أن أكون قد وضعت اطلبة الانشاء المتطلعين لهذا الأسلوب أمثلة من علم التصور الكتابي الذي توضع أمثلته ولا توضع قواعده » ورب كلمة تلد تاريخ جيل ..١

ثم تكلم عن آلام الانسانية ، يشفق على البائسين ويتوجع للمحرومين ، ويمسح دموع العشاق والمثيمين ، حتى انفجر يصف ضمير الطبيعة في استبداد الطغاة ، وحالها مع الشعب المستضعف ،.. وراح بعدها يفتش عن « الرجل الالهي » الذي يتعرف به الناس معاني الاصطلاحات النفسية كالشهامه والنجدة ، والصدق

(١) الرافعي - الرسائل ص ٦٧ .

والإيثار وما إليها من مفردات معجم الفضيلة » لينصر الله به الأمة (١) .
ويطل على مسألة المسائل في السعادة وكنها ، فيراها « طفولة القلب »
عائداً بالإنسانية الى الفطرة الإلهية التي فطر الناس عليها ، وكيف تذهب عن
الأغنياء بالبخل ، وتصدق عن الفقراء بالجريمة (٢) ص ٤٤ .
ورأى الشعر أول ما في الانسان من الانسانية ، ولكنه لم يجد رجل الكمال
الساوي في شعراء الشرق (٣) ص ٥٢ .
وتصدى لفئة الباغية التي تلحد للعقل الانساني فتصرفه عن حرية الفكر ،
الى انحلالية الكفر ، .. ورأى أسعد الناس « ذلك الذي يجمع قلبه وعقله أن
لا يصدر أحدهما عن الآخر إلا راضياً مرضياً » (٤) ص ٦٧ .
وبعد ذلك التمس العلاج للشرق العربي المريض في صيدلية الانسانية لعل
في قيمها ومثلها ما تشفيه ، .. فوجد أن لا بد من معالجة روحانية تتعهد بها ممرضة رؤوم :
ربوا لذا الشرق يا قومي ممرضة تحنو عليه بأحاساس ووجدان
ربوا له الأم يا قومي فلو وجدت في الشرق ما طاح في ذل وإهوان
.. حتى تنكشف له حقيقة في ميراث الانسانية وهدية التاريخ
« حقيقة الألوهية في والرح ، وحقيقة الانسانية في القلب ، كما يرى الحب في جمال
حواء ، والدين في تقوى آدم » (٥) ص ١٤٢ :
تطيه روحها مما ألم به فإن أقتل داء الشرق روحاني
وكذلك يثبت الأساس الاجتماعي للإنبعاث القومي للأمة ، على هدى
من مثل رفيعه يحفها إيمان عظيم .

والكتاب بعد ما يأخذ بمجامع القلوب ويستهوئها لما فيه من صور البلاغة العالية ، والأخيلة الشعرية والمعاني الفلسفية ، في صفاء اللغة واطراد التعبير البياني البديع .

وقد قيل فيه أنه كتبه في فترة فراغ أراح نفسه فيها من عناء التاريخ ، وقال أنه كتبه لطلبة الانشاء ، وقيل أيضاً أنه عرف القمر - وفيه تورية - في ربوة من لبنان ، وهي شاعرة ، فكان بينهما حديث طويل في الحب (١) .

ولكن ما اشتمل عليه الكتاب من موضوعات هامة وسائل دقيقة ، يدل دلالة واضحة على القصد الاعتقادي الذي هدف اليه الرافعي من الكتاب مـ

* *

٢ - تاريخ آداب العرب :

الجزء الأول - اللغة والرواية :

سفر نفيس خرج في طبعته الأولى عن مطبعة الجريدة في ٤٥٠ صفحة من الغرار الكامل .

وقد حاول طبعه في حياته ، ثانية حتى يكون جديداً ممتلئاً يعوّل عليه في بابه (٢) ولكنه حين أخرجه المكتبة التجارية بعد وفاته بأعوام لم تزد عليه غير ضبط العريان لأصوله .

أما الزيادة والتوسع والمواد الكثيرة الأخرى ، فلم نظفر بها حتى

(١) محمد سعيد العريان - حياة الرافعي ص ٧٢ .

(٢) الرافعي - الرسائل ص ١٦٤ .

في الهوامش ١.. ولم أقف على نسخته الخاصة التي كان يبسط بها ذلك - بعد
مأساة مكتبته ١.

لقد آثر الرافعي أن يجعل الكتاب دائراً « على الأبحاث التي هي معاني الحوادث
لا العصور ، وبذلك يأخذ كل بحث من مبتداه الى منتهاه متقلباً به على كل عصوره »
ضارباً مناهج المستشرقين عرض الحائط ،.. وبه عرف الرافعي بين أدباء العرب .
وكان يؤمل أن يخرج التاريخ في أثني عشر باباً تستغرق خمسة أبواب ضخام ،..
ولكنه لم يكد يخرج جزءين منه حتى شغلته الأيام والأحداث عن المضي بسبيله
التي اختطها بدءاً رغم إلحاح محبيه وتلامذته عليه لتمامه ١..

قدم له بمقدمة نشرتها « الجريدة » أولاً و « البيان » ثانياً ، وقد جال
فيها بين المصنفات وكتب التراجم وكل ما يتصل بهذا الموضوع ، ورأى التأليف
في هذا العلم وضلال منهج « يكون » في تمييز الفن عن الاجتماع والأدب عن
الدين ،.. واختلاط أدبيات اللغة « من صنيع المستشرقين والمستغربين وما فيها
من اجتلاب يفرق في الحشو ، ويتسع من ضيق » (١) .

ولوحظ أنه لم يبالغ في تهذيب العبارة ولم يستكثر من الأمثلة ، وضرب
صفحة عن الروايات الضعيفة ، ولكنه تصفح الآراء وجرح النقلة والرواة مقتصداً
في الثقة .

ثم عقد عصلاً لكلمة « الأدب » فتقلب مع أدوارها اللغوية ، وأبان عن
معناها في الجاهلية وصدر الاسلام من وزن الأخلاق وتقويم الطباع ،.. وكيف
عرفت حدود الأدب في القرن الثاني وبقيت كلمة « الأدباء » خاصة بالمعلمين ،..

(١) الرافعي - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٢ .

فلما فشت أسباب التكسب بينهم وبين الشعراء أدركتهم « حرفة الأدب » التي تعاورها الأدياء ميراثاً دهرياً الى اليوم (١) .

وتكلم عن العرب بفصل خاص ، صاغ فيه الكلام العلمي صياغة بلاغية جميلة ليست منها سائر فصول الكتاب ، وقد أخذ عليه المقتطف ذلك (٢) فقد لاحق علماء الحضارة في هذا الشأن ،.. ومهد بذلك كله للباب الأول في اللغة .

تحدث عن أصل اللغات ، وفرق بين التوقيف والمحاكاة ، ودار مع السلسلة التاريخية وعماد اللغات السامية ، وتهذيب العربية منذ عهد اسماعيل (ع) وانتشار القبائل حتى سيادة قريش وأسواق العرب (٣) .

ثم عقد فصلاً لمناطق العرب والحروف العربية وصفاتها واختلاف اللهجات وحقق معنى اللغات في الاصطلاح ، وعرض لعيوب المنطق العربي ، وبقياء آثار اللغة بمقارنة بدئية (٤) .

وفي فصل كبير تحدث عن نمو العربية ، والوضع والارتجال والاشتقاق والمجاز .. إلخ . وأوجز كلام أعز اللغة في ذلك كله .

وبعد أن كتبت في تلمذ العرب اللغوي انتهى الى أسرار النظام اللغوي (٥) وعلاقة الألفاظ بالمعاني والقراءن الحسية والنفسية .

(١) الرافعي - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٢ .

(٢) المقتطف - شباط - فبراير ١٩١٢ م .

(٣) الرافعي - تاريخ آداب العرب ص ٦٦ - ٨٧ .

(٤) الرافعي - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٦٤ .

(٥) « « « « ج ١ ص ٢١٦ .

ثم تكلم عن العامية واللحن وفساد اللغة في البادية والحاضرة

ص ٢٢٨ - ٢٦١ .

* * *

أما الباب الثاني فقد عقده للرواية والرواة ، وكان في الأصل بحثاً نشره في مقتطف أيار - مايو عام ١٩٠٥ م فتوسع فيه ، وتكلم عن الأصل التاريخي للرواية والرواة ، والرواية في الاسلام ، وتدوين الحديث والاسناد .. ثم اتصال الرواية بالأدب ص ٢٨٩ حتى انتهى الى علم الرواية حيث عرض لأقسامها ووظائف الحفاظ وعقد فصلاً لرواية اللغة وأرخ للفظني اللغة واللغوي والأخذ عن العرب ، والرحلة الى البادية والوضع والصناعة والشواهد والكوفيين والبصريين ١٠٠ الخ .

ثم تكلم عن الرواة الموضوعين للشعر ، واختلاف الروايات ، والتزيد في الأخبار والقصص ص ٣٧٤ - ٣٩٤ .

وبعد أن عقد فصلاً للرواة ، والأخباريين عرض للشعر وكونه عمود الرواية العربية .

وتحدث عن العربية باعتبارها علم النحو ، ثم اللغة ، ومذاهب الطائفتين في الكوفة والبصرة ... الخ .

وقد قال المقتطف في الكتاب إنه « حافل بالفوائد اللغوية والنتائج الفلسفية ،
ولغته في المقام الأول من الفصاحة ، وهو حقيق بأن يدعى كتاب الشهر بل
كتاب السنة ، لأننا لا نذكر أننا رأينا كتاباً عربياً اقتضى جمعه وتبويبه واستنباط
أدلته ما اقتضاه هذا الكتاب » (١) .

وأعجب به أحمد زكي باشا ، وعكف عليه الأمير شكيب أرسلان ونحدث
عنه لطفى السيد في المحافل ، وأشار اليه آخرون .
واحتفلت به الجريدة والبيان وسائر صحف ذلك العهد ، .. وما يزال الى
اليوم يقف في مقدمة الكتب التي وضعت في الموضوع .

* *

٣ - إعجاز القرآن :

أو تاريخ آداب العرب - الجزء الثاني

صدرت الطبعة الأولى عام ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م مشتملة على الباب الثالث
من منهج التاريخ الذي وضعه لآداب العرب ، وقد درس فيه تاريخ القرآن
وإعجازه ، والبلاغة النبوية .

ثم انفرد بعنوانه الجديد في الطبعة الثانية والثالثة التي صدرت عن دار المقتطف
عام ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م ، .. وأعيد طبعه مرات ، كان بعضها جزءاً من التاريخ .
بحث الراجعي تاريخ القرآن آتياً على جميع ما عرف في هذا الشأن ، بإيجاز
بالغ القصد والخطورة من نواحي : جمعه وتدوينه ، وحكمة نزوله مفزقاً ، وترتيبه

(١) المقتطف - شباط - فبراير ١٩١٢ م .

ورسم المصاحف ، ورواية القرآن .. الى آخر هذه المباحث .
وعقد فصلاً للغة القرآن وموسيقاها ، حيث أبان عن إعجاز الفطرة ،
واختلاف القراءات ، والملاءمة بين الألفاظ والمعاني .. كما أوضح التوفيق في
استنباط الأحكام ، ليخلص من ثم الى قراءة القرآن في فصيحها وغربها ،
والعربة منها .

ولعل من أروع فصول الكتاب دراسته القيمة لتأثير القرآن في اللغة ،
بمقارنة علمية ، يستدل بها على حال العرب بالقرآن ، واجتماعهم على لغته ، ثم خلود
لغتهم به واتصالهم بمادة العلم .. لينطلق في فصل خاص يستعرض فيه موضوع
« الجنسية العربية في القرآن » ويمتد به حتى يجعل منه ميثاقاً قومياً لإعادة بناء
الامة ، مهما امتدت بها الأيام ، أو تعاورتهما الحوادث .

وربما كان أول من نبّه الى خطر القرآن الأدبي في العصر الحديث ،
فقد تصدى للانسانية في آدابها عادة وطبيعة ، وفرداً وجماعة ، وحرية وشرعية
بقرن ذلك كله بتاريخ العرب الحضاري .. ايرقى الى أصول الأخلاق الاجتماعية
في القرآن .. أو ما ندعوه اليوم بفلسفة القيم وإرسائها ، عند إقامة الناموس
الأدبي للفكر الإنساني .. وهو ما غفل عنه كثير من دارسي القرآن .. ففقد
استطاع أن يقيم الدليل على أسرار الإعجاز في هذه الناحية ، بين دعائم الثبات ،
ووسائل النهضة ، وآداب الفطرة ، والارادة الاجتماعية للإعتقاد .

ثم يفرد فصلاً للقرآن والعلوم ، يستوعب فيه هذا الموضوع الكبير بموجز
لا يتوفر عليه سواه .. إذ يتناوله بالتاريخ العلمي ابتداءً ، والأديان وتطورها
في عقل البشرية .. ثم نشأة علوم التفسير والفقه والبلاغة والتاريخ .. وما لحق

العامة وأهل النظر من دعاوى المستحدثات العلمية ،.. حتى يقف على مقترق ،
يدل فيه على تطور العلم ، وتطور العقل البشري في فهم القرآن .

ويجول بعد ذلك جولة في أسرار القرآن ، يفسر بعدها آية الخلق وأطوار
النشوء ، وما يؤلف اليوم ما يسمى بعلم الأجنة EMBRYOLOGY الذي
ما يزال يحبو بين افتراضات ونظريات ومختبرات تبحث في أسرار الحياة .

كل أولئك وكثير سواه يجعله كالمقدمة في دراسة « إعجاز القرآن » .
فهو بعد أن حاول حد الإعجاز ، وعرض لآراء السابقين من المتكلمين
والفقهاء ، وناقشها جميعاً ، كد يحكم عليها بالقصور عن إدراك آفاق الإعجاز كلها .
فقد تحدث معهم في حقيقة الإعجاز ، التي حاول إطلاقها على تربية لغوية
جديدة ، ونظر في التحدي والمعارضة ، وما رافقهما من خذلان ،.. ثم أسهب
في دراسة نفسية فريدة لأسلوب القرآن ليست منها سائر الدراسات البلاغية ،
فقد أدرك مرونة ذلك الأسلوب القرآني المعجز ،.. حيث لا يصادم ولا يضاد
الآراء المنقلبة علمياً على اختلاف العصور .

ثم أفاض في الحديث عن نظم القرآن وإعجاز تأليفه في الحروف وأصواتها
والكلمات والجل ، وأوضاعه التركيبية ، التي صيغت بها بلاغته المعجزة ، التي
هي تمام إعجازه .

فالقرآن عنده « معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره
الإنساني ، ومعجز كذلك في حقائقه ، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة
الإنسانية في شيء ، فهي باقية ما بقيت ،.. وإنما مذهبننا بيان إعجازه في نفسه
من حيث هو كلام عربي ، في هذه الجهة من تاريخ الأدب .. دون جهة التأويل

والنفسير » (١) .

تلك الجهة التي كانت وجهاً ظاهراً من وجوه الإعجاز ، وسراً من أسرارها .

* *

البلاغة النبوية :

حين انتهى الرافعي من دراسة تاريخ الأدب القرآني وإعجازه ، انتقل الى دراسة الأدب النبوي ، الذي هو الثمرة الأولى في الغرس الإلهي للأدب العربي بالقرآن المبين .

فقد وفى الرافعي خبر فصاحة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، حقها وراها توفيقية من الله تعالى ، بغير تدريب ولا رواية ..

ثم تحدث عن نشأته اللغوية ، وإقرار العرب بها عرفاً وأدباً ، وأبان عن إحكام منطقته عليه السلام ، وتعبير اللغة والصوت ، واجتماع كلامه وقلته ، وبلاغة الطبع التي أثرت عنه ، وهو يؤتي جوامع الكلم ، وينصر بالعرب .

وبعد أن نفى الشعر عنه تاريخاً وأدباً ، تكلم عن تأثيره في اللغة ، بما أحدثه من التراكم والمصطلحات والأوضاع المفردة ، التي تنامت بها علوم اللغة من ثم . ودرس رسائله وما فيها من بلاغة وقصد أدب ، .. حتى أدرك الفطرة

اللغوية التي كان عليها (صلى الله عليه وسلم) وهي تتميز بالالهام والتوفيق .
أما نسق البلاغة النبوية ، فإن الرافعي قد اعتراها في وجوه البيان ومناقلة الحديث بلاصنعة ، وكرن ذلك النسق من سجاياه عليه السلام . وأشار كذلك الى أثر النفس الانسانية وطامع الوضع الالهي للنفس النبوية ونفس النبي العربي

(١) الرافعي - إعجاز القرآن - ص ٣٦٤ .

الأمين ، . مستوفياً بذلك القصد في إقامة دعائم البلاغة النبوية على أسسها من البيان والحكمة والأدب العالي ، تلك « البلاغة الانسانية التي سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ،.. تعرف الحقيقة فيها كأنها فكر صريح من أفكار الخليفة ، وتجيء بالمجاز الغريب فتري من غرابته أنه مجاز في حقيقة » (١) .

* * *

٤ - كتاب المساكين

صدر في طبعته الأولى بمطبعة المعاهد بمصر عام ١٣٣٥ هـ - ١٩١٧ م عن المكتبة الأزهرية ، وقد جاء في ثمانية فصول و ٢٦٨ صفحة من القطع المتوسط .
قدم له بمقدمة بليغة حاول فيها أن يسكو الفقر بمرقعة جديدة ، .. وأتبعها بمقالة في غرض الكتاب الذي أوجزه في الصبر على الفقر ، والعزاء عنه ، « فقد تكون صاحبة البائس ثروة نافعة لآتيهما في معاملة الزمن » .
ثم عقد الفصل الأول لشخصية الشيخ علي الجناحي - الفيلسوف الصامت ، الذي كان له معه حديث الروح والقلب ، وفلسفة الرضا والقناعة ، . وهو على ما يخيل لي يشبه الى حد شخصية الشيخ طه الفريغ - رحمه الله - المجذوب الذي كان الى سنوات ممن يهبط في قرى سامراء ، وتظهر له الكثير من الكرامات التي يعتقدها الناس .

وكذلك عرف الرافعي الشيخ علي الجناحي - وقد سدت في وجهه منافذ الجهات كلها إلا جهة السماء ، وهو يكاد يخرج الدنيا تلك الحقيقة الالهية التي لا تغدوها مادة الأرض » .

(١) الرافعي - إعجاز القرآن ص ٣٦٤ .

وأضاف للطبعة الثانية مقالته الفلسفية « في وحي الروح » التي صور نفسه فيها تراباً متكلماً أمام تراب أخيه الصامت محمد الكامل الرافعي ، وكانت مادتها من وحي ذلك الروح الأثير عنده ، الذي كثيراً ما نخله أفكاره .

« إن أحزاننا ودموعنا هي كل المحاولة الانسانية العاجزة التي نحاول بها أن نكون في ساعة من الساعات مع أمواتنا الأعزاء » ١

أما الفصل الثالث ،.. فقد كان خطبة اجتماعية ألقاها في جمعية الاحسان بطنطا في نيسان ١٩١٣ م ، تحدث فيها عن أخطاء الناس في فلسفة الاجتماع ،.. وتصدى لبعض الحلول الفاصرة في حل مشكلة الفقر وقد أدرك عصر الاشتراكية العلمية ، تمحق رأس المال ، لتصل معنى إلهياً في بحق الربا ،.. التي وجدها ولكنه وجدها أيضاً تنغابي عن تربية الصدقات ،.. وتتعامى عن نظام الزكوات ، ولو أخذ بهذه الأصول الانسانية العامة للدين الاسلامي العظيم ، لأصلح الفقر والغنى معاً .

« أنظروا في باطن الانسان بالفضيلة التي هي من نور الله ، وبالحقبة التي هي من نور الطبيعة ،.. فإنكم لا ترون حقيقة الغنى تبتعد عن حقيقة الفقر إلا بمقدار شبر واحد : هو ملء هذه المعدة » ١ ، ولكن متى لم يؤمن الغنى .. ككفر الفقـر ١١ »

وكان قد أردف هاتيك الخطبة بقصيدة فيها قصة « دموع الهرم لدموع الصبا : من الشيخ البائس لحفيدته » ،.. ولكنه لم يلحقها بهذا الفصل من الكتاب . وتحدث في الفصل الرابع عن « مسكينة » وصف فيها فتاة بعينها تهبط الى أهل الغنى تلمس الحياة بسد الرمق ١ .

وتحدث عن تفاوت الناس في العيش ومقداره بفصل « لؤم المال ووهم

التعاسة « كما عرض للحياة والسعادة بفصل وجدها فيه » لم تعد في إشباع العواطف ،
وتغذية الشعور ، وليست في موضعها الذي هو بين الضمير والعقل « ذلك أن
السعادة في رأيه « كل ما استشعرت النفس أنها زادت فيه » .

وكان قد كتب للبيان مقالة يصف فيها « البخيل » قدم لها بمحدث الشيخ
علي وأتبعها بقصة مترجمة صاغها بأسلوبه الشعري ، وتصرف بها ، مصوراً مأساة
جميلة ساذجة مع كونت غني بخيل في فصل « سحق اللؤلؤة » .. وقد حول
بعض مشاهد القصة الى صور بيانية هائلة نفذ فيها الى الحب وفروقه بينهما
في الحفلات والمرافص ، والموسيقى وعلى المائدة ، وشهر النحل .. ثم ختمها
بقولتين على لسانيهما .

الفقر خلو من المال ، ولكن أقبح الفقر الخلو من العافية - فكتور .
الغنى أن تملك من الدنيا ، ولكن أحسن الغنى أن تنها في الدنيا - لويز .
ومن امتع فصول الكتاب ما كتبه عن « الخط » تلك الكلمة التي وجدها
« يستوي عندها خطأ الانسان وصوابه » .

ثم تحدث عن الحرب وجهتيها الشيطانية والالهية .. واتبع الفصل بقصيدة
« على الكواكب الهاوية » التي حكى فيها قصة حسناء افقرتها الحرب وكيف
نتلقاها الحقيقة :

وكم قيل إنسانية ومحبة وعلم وتمدين ، وأشباهاها الكثر
فلا تأخذوا الانسان عن نزاعه فما الناس إلا ما أساءوا وما سرّوا
ولا بد من ضدين في كل حالة وبينهما إما النجاة او الأسر ..
ونقل في الطبعة التالية فصلاً في الجمال والحب عن كتابه « السحاب الأحمر »

الذي وضعه لمساكين الحب ، لمناسبته مع هذه الفصول ..

واختتم الكتاب بمقالة « الدين ولادة ثانية » ترك فيها الشيخ علي لينقل عن نفسه باعتباره صاحب المساكين ١٠٠ وقد وصف أفرار دعوة التجديد ، فوجدهم أحد أربعة ، الأول ملحد أديب معني بجمع كل نفيس من الكتب ، ولكنه يزعم أنه نبذ الدين بالخلق .. والثاني متفلسف انقلبت عقيدته الى زينغ فله رأيان في أمور الحياة ، يستمتع بالحرام والحلال ، ثم يرجع الى ضميره فيتألم ١١. والثالث ، يزعم أنه مصلح يركب الناس بمزاعمه وخرافاته وبث أوهامه .. والرابع جعلته الكتب عالماً وقسمت له ما شاء ، ولكن الله لم يقسم له شيئاً ١٠١. ولو مد الله في عمره ، لأضاف الى المساكين مراثاته لسعد زغلول « أكانت مصر في حلم .. وهذه دهشة الحلم » .. ودموعه في « وحي نعش زين الشباب امية الرافي » ومراثاته لمحمد نجيب باشا والملك فؤاد .. الخ .

* * *

٥ - النشيد الوطني المصري :

وضعه نابغة كتاب العربية وزهرة شعرائها ، ونشرته المكتبة الأزهرية بمصر عام ١٩٣٩ هـ - ١٩٢٠ م وصدر في ٩٦ صفحة من القطع المتوسط .

حين نهضت مصر عام ١٩١٩ م تنشد استقلالها ، تلفت القوم يبحثون لهم عن هتاف يكون لسان الثورة والفداء ، وسبق المرحوم جعفر والي بين الشعراء لنظم نشيد وطني ، فتقدم الرافي بنشيده :

الى العلا .. الى العلا : بني الوطن الى العلا .. كل فتاة وفى
الى العلا في كل جيل وزمن فلن يموت مجدنا .. كلاً ولن

وفي مقطع منه يثير الأدباء والفقهاء معاً حيث يصور الوحدة الوطنية :

إيماننا كنيسةً ومسجداً دين اتحاد للبلاد وهدى

وكل ما في العمر يوماً وغداً وكل ما نملك للمجد ثمن

وحدث أن اللجنة حاولت أن يسبق نشيد أحمد شوقي - رح - فما كان من الراجحي وجريدة الأخبار غير الثورة على اللجنة وشوقي نفسه بمحركة أدبية لها مكانها من تاريخ الأدب الحديث .

وقد كتب عن نشيد الراجحي أساطين البيان ، وغول السياسة ، والأدباء فعمد الراجحي الى هذه الكلمات يجمعها كلها - وهي من وحيه وإملائه - فأخرجها في السكتيب هذا .

على أن النشيد هو أحد أغاريد الراجحي القومية الموفقة ، التي كان لها دوي خاص في النهضة المصرية الحديثة .

* * *

٦ - اسلمي يا مصر - نشيد سعد زغلول :

صدر عام ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٣ م ، في بضع وستين صفحة عن المطبعة السلفية .

كان لتوفيق الراجحي في النشيد السابق ، ولظهوره على نشيد أمير الشعراء أحمد شوقي ، .. ولتطور الحركة الوطنية ، وبروز سعد زغلول على أساس من الواقع الفعلي في النهضة ، .. ما حفز الراجحي على المضي في هذه السبيل التي اختطها لفنه الشعري المردد شعارات على ألسنة الجماهير .

ولاسيما أن ملاقاته من إقبال أبناء الأمة ، ورجال نهضتها ، قد بعث فيه الهممة لكي يعود الى موضوعه « أغاني الشعب » التي حاولها غير مرة .

ويوم نالت مصر الحديثة حظاً من الكيان الجديد ، وأضحى لها دستور

أرسل الراجعي نشيده يقول :

إسلمي يا مصر .. إني الفدا ذي يدي إن مدّت الدنيا يدا
أبدأ إن تستكفي أبدأ أتي أرجو مع اليوم غدا
ومعي قلبي وعزمي للجهاد ولقلبي أنت بعد الدين دين
لك يا مصر السلامة وسلاماً يا بلادي
إن رمى الدهر سهامه فأتقيها بفؤادي
واسلمي في كل حين

وقد طبع مراراً ، وأنشد في حفلات وطنية ، تبارى رجال الفن والموسيقى
في أساليب تلحينه ، وبث أنغامه ، وترديده ، فكان من وسائل الدعاية لأدب
الراجعي نفسه بالإضافة الى مكانته في الروح القومية .

وعلى هذا الأساس أخرج الراجعي النشيد في طبعة خاصة ، قدم له فيها الشيخ
محب الدين الخطيب فقال فيها « إذا صاغ الشاعر معنى من معاني القلوب في أبيات
كان ذلك لسان الأفتدة وقيثارة العواطف .. والنشيد بعد فريدة من الفرائد
التي يجب أن تترنم بها الحناجر ، وتشترك في تصويرها أعصاب القلوب وأوتار
الموسيقى حتى تكون أنشودة العاطفة الوطنية من ينبوع النيل الى مصبه » .

وأنحفه شيخ العروبة أحمد زكي (باشا) برسالة تاريخية مسهبة في الموسيقى
والأنشيد وفعلمها في النفوس ، آتياً على صيحات العرب ونحواتهم وما لدى
الفرنجية من أوضاع الشعارات ، مبيّناً أهمية النشيد القومي للأمة .

ولما كان موضوع النهضة ما يزال على أوجه ، .. فقد ألحق به رسائل

أخرى وفصل منشور وصف فيه كيف أن روح العظيم تبث في النفوس من أشعتها فتعظمها .. وقال في سبب عرويته الفصحى :

« نحن نريد إرجاع اللغة الى منزلتها الأولى أو قريباً منها ، إذ القوة والحاسة من استعداد النفس بالتربية الوطنية للتأثر ، والعمل على تربية النشء تربية لغوية .. إذ ليس النشيد لهذه الأيام .. واسكن للشرق كله » (١) .
وهكذا كان - رحمه الله - يتوخى العربية الفصحى في الأغاريذ لتكون اللسان القومي الجامع للأمة في شعاراتها ومردداتها وأسلوب تفكير أبنائها .
على أن خير ما في هذين الكتابين سيجتمع في « أغاريذ الرافعي » بإذن الله وتوفيته م

* * *

٧- رسائل الأحران

مرّة بنا في الفصل الذي تحدثنا فيه عن الحب في حياة الرافعي ، شيء من خبر هذه الرسائل ، حيث كانت تتنازع الأفكار ، وتتناقل عليه المعاني فيحاول معارضة جوته في آلامه ، أو كتابة قصة شقاء وحزن وهوس ..
ثم « حدثت له أمور غريبة قطعت عن كثيرين ، وكانت رسائل الأحران نتيجة لها » (٢) .

زعم أنه تلقى هذه الرسائل عن صديق « إجتمع من تاريخه إنسان بلغ الزمن تحت عينه نيفاً وأربعين سنة ، تلك السنة التي ينقلب فيها الآدمي من

(١) لغوي - المقطم - ٢٦ شباط - فبراير ١٩٢٣ م .

(٢) رسائل الرافعي ص ١٦٨ .

وفرة القوة ليثماً ، ويرجع من قوة الحكمة نبياً ، ويعود من تمام العقل إنساناً» (١) ..
غير أن هذه الأربعين بما تعاورت عليه ، قد هدم فيه بعضها بعضاً ، فجاءت
« هي » تبنيه وتشد منه وترمم بعض نواحيه المتداعية ، وتقيمه بسحرها
بناءً جديداً .

فتحدث عن الذكرى بقايا آلام كأنها أشلاء من فريسة تشير الى تاريخ
من الموت والالأم والتزيق ، تركته يتحدث عن أنه أحب فتاة كأنها قصيدة
غزلية في ديوان ، ..

وفي رسالة قال : « الحب الصحيح إنما هو كالطفولة ، لا تعرف الفنى إلا
شبيهاً بوجه الفتاة ، حالة متشابهة كاخضرار الشجر تبعث عليها الحياة حين لا يجيئ
الحس فيها إلا من جهة القلب » (٢) .

وكانت « حيلة مرآتها » موضوع الرسالة الثالثة في قصيدة من أبرع شعر
الغزل وأصفاه روحاً ، وأجده ديباجة ، وإن التزم فيها ما لا يلزم من القافية :
حسناء خالقها أنتم جلالها سألته معجزة الهوى فأنالها
وبعد أن أفاض في وصفها ونعت حسننها ، عرض لها أمام المرأة ، بعد أن
لم يجد لها مثلاً في غيرها وقد :

نظرت لها حسناً إذا ما احتل في دول النهى سلب النهى استقلالها
فتذكرن شمس الجمال مقيمًا تركته من فرط النحول هلالها
ورأت صفاء المرأة يشبه قلبه مهما تحمّله يكن حمالها

(١) رسائل الأحزان ص ٢١ .

(٢) « » ص ٤٧ .

الى ان يقول :

كادت تقول رضيت عنه فأمسكت ومضت على عجل لتخفي حالها
أواه .. لو مرآتها نجحت ولو فيها تبسّم عند ذاك وقالها
واستعرض الصورة الأدبية في الحب وقد رآها : « تريد أن تجمع الى صفاء
وجهها وإشراق خديها وخلابة سحرها ، صفاء اللفظ وإشراق المعنى وحسن
المعرض وجمال العبارة » وحسب أن الحب عندها كالكلمة التي يكتبها أو المعنى
الذي تتخيله » (١) فكأنه يريد البلاغة بفن جديد ..

وتدركه المقارنة بينها وبين القمر ، فيذكر لبنان وأيامه :

يا نفحة الجنات من تلك الربى كم ذا بطول تلهفي وهيامي
وفي رسالة أخرى تحدث عن فتنها التي خلقت الهوى في امرأة ..
واكتشف في الرسالة الثامنة أن « الرجولة والضمير والدم الكريم - وهي عناصره
هو - اذا اجتمعن في عاشق هلك بثلاث : بتسليط الحبية عليه ، ثم فتنته بها ،
ثم إنقاذها منه - وكل ذلك هلاك - إلا أن شرف الهلاك خير من ندالة الحياة » (٢).
وفي التاسعة تحدث عن القلب الكريم المتألم فكان قلب مجنون ليلي
هو المثال .

وفي العاشرة أراد أن يسمي الجمال بعلم تجديد النفس ، ففيها الفكر والجمال
وفيه الخيال والحب .

والأخرى وجدها تخشى غضبه ولكنها تراه يحمل اليه ملك الوحي الذي

(١) رسائل الأحرار ص ٦٨ .

(٢) « « ص ١٠٣ .

لا ينزل عادة إلا في جو من البرق والرعد .

ونقل من سطورها وحديثه محاوره ، فيها نشوة الحب المفتون بـ « قلت وقالت » .. حتي لمست روحه روحها في الرسالة الأخرى ، حين وجد اللغات تعجز أحياناً فلا تحسن التعبير .

والرابعة عشرة في الورد ولفظها له وقد تضامت شفتاها كأنها تبهم بقبلة ، حسبها تقول له اسمه ، ..

وفي الرسالة الأخيرة قال « كل ما سطرت كان عجاجة ثائرة في حرب الهوى ، ليس تحتها في حومة القاب إلا ألم كضربة سيف أو طعنة رمح أو كيّة برصاصة ملتبهة » (١) ص ١٥٧ .

وقد رأى « أن مس » استقلال دولة من الدول العظمى قد يكون أحياناً أيسر وأهون من مس استقلال نفس من النفوس السكرية ..
ولكن « ساعة من الضعف الإنساني تنشيء للقلب تاريخاً من العذاب » .
فقد كان في « تدبيره والرأي فيه كمن يؤرخ عهداً من شبابه بعد أن رقت سنّه ، وذهب يقينه من الدنيا ولم يبق إلا ظنه ، فهو يكتب والكلام يحن لديه والقلم يئن في يديه » .

قال الغافلون اني انكلف لها خيالاً ورواية ، وقال العاشقون إنها كلام قلوبهم ، وقال الذين يفهمون الكلام : إنه هو في كلامه ! وكنت في ذلك شاعراً ، وحب الشاعر لا يخلو من الوزن .. ووقع القضاء في الحب على القدر » (٢) .

(١) راجع الرافعي - الرسائل ص ١٦٨ .

(٢) الرافعي - السحاب الأحمر ص ١٢ .

والكتاب بعد محاولة قومية في تجديد البلاغة العربية ، وسمو بعاطفة الحب في صورة من التحدي الاعتقادي ، والانتصار البياني والاشراق الروحي ، .. وقد ضمنه الكثير من الحقائق العلمية . ولكن لم يدرك ابعاده الكثيرون . وبالرغم من طبعه غير مرة ، فإن تاريخه لم يكتب (١) .

٨ - تحت راية القرآن

المعركة بين القديم والجديد

كتاب في أربعمئة صفحة من القطع الكبير ، طبع غير مرة . جمع الرافعي فيه مقالات له عن الأدب في الجامعة المصرية وسواها ، وأضاف اليه فصولاً من ملاحظاته الدكتور طه حسين وكتابه « في الشعر الجاهلي » . وقد نبه فيه الى العمل على إسقاط فكرة خطرة ، ونزع في اسلوب الكتاب الى منحى بياني يديره على سياسة من الكلام بعينها .. « ولو كان اصحابنا غير من هم في الأثر والمنزلة لكان اسلوبنا غير ما هو في النمط والعبارة » ص ٣٠ . وقدم له بدعاء ، وقد رأى فئة « المجددين » يأكل الدليل الواحد أدلتها جميعاً ، وأن أستاذ الجامعة إنما يقلد الهدامين من جبابرة العقول في أوربة ، وأنه وأمثاله غلطات إنسانية تخرجها الأقدار لتعارض بها صواباً كاد يهمله الناس . وفي المقالة الأولى - التي كانت رداً على سلامة موشي حين نحلّه زعامة المذهب القديم (٢) - تحدث عن مفهوم القديم والجديد بغير قليل من المقابلة والتحدي ، والإجهاز على دعوة التجديد وطيشها وجهلها ..

(١) الرافعي - الرسائل ص ١٦٨ .

(٢) الهلال - يناير ١٩٢٣ م .

وفي الثانية تحدث عن الميراث العربي ، وكأما امتد بها قومياً ليكمل شيئاً مما فاتهُ قوله للمجددين الجبهة .

وفي الثالثة وضع هدفه في « الجملة القرآنية » وعربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها في تربية الملكة وإرهاق المنطق وصقل الذوق .. فلا يسفّ إلى الرطانة الأنجمية ، فيتبع الترجمة في الجملة الانجليزية ١.. وقد تلقى تعقيماً من الأمير شكيب أرسلان على هذه المقالة المتحدية يكشف فيه عما « وراء الأكمة » .

ثم ينتقل إلى موضوع الفصحى ، فينقل رده على لطفي السيد ودعوته إلى العامية المصرية الذي كان قد نشره افتتاحية للبيان عام ١٩١١ م .

وفي هذا الرد البليغ كان قد قرر « إنا القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية ، فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً حتى يتأذن الله بانقراض الخلق وطي هذا البسيط » ص ٤٧ .

وبثبات قومي هادف يقول « ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس ، وردّهم إليها ، وأوجبها عليهم .. لما اطرد التاريخ الإسلامي ، ولما تماسكت أجزاء الأمة ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية » .

وكان قد أتبع ذلك بمقال آخر في « تمصير اللغة » سخر فيها من دعاة الصلح بين اللغتين : الفصحى والعامية ، « وليس عندنا في وجوه الخطأ اللغوي أكبر ولا أعظم من أن يظن امرؤ أن اللغة بالمفردات لا بالأوضاع والتراكيب » ص ٥٦ حتى صرح بقوله « لن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة .. وإن أصحابنا لا يجهلون أن الأصل في التربية بالمثل على الأخلاق وعلى روح الأمة التي تتميز بها » ص ٦٣ .

وكان قد أجاب جريدة السياسة عن سؤالها ما الجديد وما القديم ١٩ وقد رأى « دثة من الصحفيين ترى في كلمة الجديد معنى بديعاً من معاني » لغة الاعلانات » وهذه لا تبالي ما ينفع مما يضر .. ولشكن ما يروج وما يكسد ، فالجديد عند هؤلاء إنما هو كذلك في تسميته ، أما في معناه فهو جديد « أمريكياني » ! من الخلط والركاكة والتحامل والظعن والغيب .. من أساليب جراميق أمريكا .. الخ .

ثم انتقل الى موضوع الأدب العربي في الجامعة المصرية ، ومهد له تاريخاً ، بما ثبت فيه أنه السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة .

ففي المقال الأول عرض لما نُص في دستور الجامعة على نوعين من الآداب الأجنبية وليس بينها آداب العرب .. ورأى أن الجامعة لن تكون مفلحة في الأدب إذا هي لم تحمي ذلك العهد من الرواية بأنواعها بحثاً وشرحاً وإيراداً وتمحيصاً .. « فإن الأمة لا تحيا إذا ماتت لغتها ، ولن تموت لغة أمة حية .. وما دامت العربية على أصلها فأدبها ما أخرجت لنا السلف ، لا ينقص منه ولكن يزداد عليه بما تمثله الأيام ، وتبدعه الأفهام ، وتستأنفه القرائح ، وتتدبره العقول ويمجّسه التحقيق ، وتبدعه مذاهب النقد .. » ص ٧٥ .

والمقال الثاني كان جواباً على خطاب صديق تحدث فيه عن طريقة التأليف المبتة في « الأدبيات » او التحرير بالمقص .. وكيف يتبأ الكتاب الممتع في الأدب ، الذي يوفي على الغاية ..

ثم نقل مقالة الأستاذ عباس فضل في « الدكتور طه حسين وما يقرره » التي كانت سبباً في إسقاطه ما كان قرره عن الشعر الجاهلي .. بما تستطيع أن

وتقل كذلك مقالة الأمير أرسلان « التاريخ : لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم ». وقد كان احتمال على الدكتور طه حسين محرر الصفحة الأدبية في السياسة بريالة ورطه بنشرها ، وقد سخر منه ، ومن أسلوب تجديده بما يثير الضحك والإشفاق معاً ، بحيث تقع يدك على مكان التمزيق من تلك المرقعة !

ويظهر أن الدكتور طه حسين كان يحمل في صدره ضغينة ما على الرافعي وما قد خشي على نفسه من أن يقرر كتابه « تاريخ آداب العرب » على طلبة الجامعة ، فلا يتيها له استيعابه ، أو الطراد مع أشواطه ، .. فكان منه أن أشهد الله والناس على أنه لا يفهمه ، .. ويوم أخرج الرافعي « رسائل الاحزان » عاد طه الى علة فهمه ، .. فما كان من الرافعي غير الرد بقسوة ، شبهه فيه بدءاً بكيسان مستملي أبي عبيدة الراوية ، الذي كان يكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب ، ويفهم غير ما يقرأ ، .. وعلل ذلك بثلاثة :

« إما طبيعة في النفس مبنية على المكابرة والمراء في اللجاج والسفسطة كما يفعل أهل الجدل في غلبة ثرثرة ، .. وإما طبع مستوخم في الخيال والفكر ، لا يرتفع وإنما يسف ويخبط ، .. وإما عقل لا كالعقول .. » ص ١٠١ .

ثم مضى يناقش نقد طه مناقشة علمية ومنطقية أظهر فيها علمه جميعاً ..

ومن هنا تهيأ الرافعي للملاحقة طه ، وكأنه كان ينتظر ظهور كتاب « في الشعر الجاهلي » فوجه الى الجامعة المصرية خطابين مفتوحين أخرجها فيها بأسلته ، ومقابلين آخرين « وشهد شاهد من أهلها » و « فلسفة كمضغ الماء » كان قد نشرها في « كوكب الشرق » وقد ضايق بها أهل السياسة والجامعة معاً ، .. في حكاية طه وكتابه وعندما تهيأ له يقرأ الكتاب أدرك طه متمثلاً بقوله

بقوله تعالى « قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة » الآية . فقد لاحظ عليه تلاعبه بالنصوص بالحذف والاصلاح ومتابعته لخدعة المستشرقين بالعلل الحقاء .. التي يتجرأون فيها بالكذب على التاريخ ، وزعمهم أن النبي نهى عن رواية شعر النصراني ، واليهود .. الخ ، وكيف ان طه غير أمين في نقله عن ابن سلام والرزباني وسواهما ، وفج له دعواه في التجرد من دينه عند البحث وقد ناقشه بعلمية ومنطق في كثير من موضوعاته وأحكامه .

وعندما لج زبانية طه في طغيانهم استعدي الرافعي مجلس إدارة الجامعة وهيئة كبار العلماء « على أستاذ الآداب ، بسبب من موقفه من القرآن الكريم في كتابه ، وأبرز لهم تخليطاته ووقاحاته ، وما تورط فيه من آراء فكرية ، .. حيث تبين له انه « مجموعة اخلاق مضطربة وأفكار متناقضة ، وطباع زائفة » ص ١٥٦ .

ثم مضى يؤرخ للمعركة في جبهاتها وكيف طارد العلماء الإلحاد ، ورأى لجنة العلماء في الكتاب ، وكتاب طه الى مدير الجامعة نفسه بعد ما أدرك الفرق وحراجة موقف الوزارة والجامعة .. الخ حتى « قد تبين الرشد من الغي » ص ٢١٣ . ومن تحقيقات الرافعي في هذا الشأن ما زعمه من نسخة فريدة من كتاب كليله ودمنة يحتفظ بها ، فأراد أن يتحف القراء بقصول منها ، مبالغة في التهمك والنقد والايذاء ..

وعندي أن لو مد الله في عمر الرافعي لعمد الى هذه الفصول مستخرجاً النقد العلمي الوثيق ، مطرحاً تلك الاستطرادات والعواطف .. إذ لو تجرد الكتاب منها لكان نقداً لا يبقى لطه ولا يذر ، .. ولكن هكذا كان فالدكتور طه حسين

رجل محظوظ حقاً كما يقول الراجعي ،..

وعسى أن تتمكن من توزيع بعض مقالات الكتاب على أبواب (وحي القلم) التي تهتم بها بإذن الله ،.. ليكون كل شيء عند موضوعه

٩ - السحاب الأحمر

بضعة وثلاثون ومئة صفحة من القطع الكبير - وقد طبع عدة مرات قدم له بما شرف فيه عن قصة حبه التي حاول عرضها في « رسائل الاحزان » وأرخ لعهد من شبابه بعد أن رقت سنه ،.. فأعطى الأدب الحديث روحاً من البيان ، ومدته بدفقات من المعاني ولوحات من الصور ، وآيات من الفن .

ثم إنه عاد يستمطر « السحاب الأحمر » معاني أخرى ، يستوفي فيها الكلام عن الحب ، ويستمد الإلهام من أرواح أخرى غير الروح التي أملت عليه الاحزان ،.. فكان في هذه الأرواح الحبيب الحلو ، والبغيض القبيح ، والصديق المؤمن ، والمنافق الأثيم ، والمظلوم والظالم لنفسه ويستمد كذلك ممن عقله وقلبه ، ومن حبه ومنعته ،.. حتى يشهد أنه في بعض فصوله كان يحامي عن الحب أن ينتقص فيدير الكلام على ذلك فيلتوي ،.. ثم يراه لا ينقاد ولا يتابع إلا على خلاف ما يريد .. حتى جأ بالشكوى :

من للمحب ومن يعينه والحب أهنته حزينه
أنا ما عرفت سوى قسا وته ، فقولوا كيف لينه
قلي يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

.. وفي كلمة سبق بها فصول الكتاب اكتشف حقيقة عليا حين يضجر أهل الخيال من الخيال فلا يصلحهم إلا الحب ، لأنه ناموس التطور للقوة المتخيلة ،

فالمرأة تلد الانسان ، ولكن حبها النابغة .

ويعقد الفصل الأول للقمر الطالع، ويستهل به آية النور الكهربائي التي يكتب على ضوءها وقد طارت منه نظرة رأى فيها حسناً ، كأنما تقتاتر ضباباً من بخار الذهب ، .. وراعه أن ينقلب النور متضرباً ثم يعود لجة من « السحاب الأحمر » كالحب المتوهج يملأ فراغ القلب .

ثم إذا بالسحاب الأحمر يطر عليه بالخواطر والكلمات ، فتعود به الذاكرة الى فتاة عرفها في ربوة من لبنان ، كانت روحها عطرة تنفح نفح المسك إذا تشامت الأرواح الغزلة بالحاسة الشعرية » ص ٢٤ .

وقد اتخذ فئاته تلك المثال ، فما نظر الى النساء حولها إلا وجد من الفرق بينها وبينهن ما يتضاعف ، . فهو يعقد المقارنة بينها وبين من أضافته عمراً من الأجزان .. بعد بضعة عشر عاماً ، .. فينازعه الحب في قلبه .

« إن من المرأة ما يجب الى أن يلحق بالإيمان ، .. ومن المرأة ما يكره الى أن يلتحق بالكفر .. » ص ٢٩ .

وفي الفصل التالي تنثال الخواطر عليه فيرسلها - النجمة الهاوية - في طائفة من النساء يدرك بعدها أن « في المرأة حقيقة ، لا تعرفها إلا بفكر رجل ، .. وإلا أساءت الى حقيقتها » ص ٣٣ .

« يا هذه لا أدري ما تقولين ، ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة الى أن يغسل بالماء والصابون .. وهيئات .

وهناك فصل « السجين » الذي يعد من أروع فصول الأدب الانساني الذي يتسامى فكراً بمعالجة مشكلة اجتماعية خطيرة ، وقد عرض لمأساة بعينها ،

وصور فيها السجين وهو يودع ذوبه من وراء شباك الحافلة ، .
« .. أما اهل الرجل فتحال كوا وراء العرب ، فالشباب يخطف عدوه خطفًا
منكرًا ، كأن قربه منها يوصل بعض أنفاس الحرية الى أخيه ، .. والنسوة يهتلكن
في جريهن ، .. وكلما أبعدت الحافلة علامر اخهن ليليلع السجين منهن شيء ما ، ..
أما الطفلان وجدتهما فوقفوا من الضعف كأنما وقفت قلوبهم ، .. أما الرضيع
هذا اليتيم في حياة أبيه ، الذي تملأ في مسامير الفقر واليتم والضياع ، .. فكان
وحده دليلًا على الامل الانساني في رحمة الله . . إذ فتمح عينيه للنور وابتسم . .
ما الفراق إلا أن تشعر الارواح المفارقة أحببتها بمس الغناء ، لأن
أرواحًا أخرى فارقتها » .

وفي فصل يتحدث عن طاعون الزواج في جنس من النساء تكون زوجة
ولا كالزوجة نفسها ، .. فهي البغي - الربيطة - التي بأجر او بعقد مدني او متعة
(زواج عرفي) في بيت رجل . . وقد أجهز فيه على واردات أوربة ونقله رذائل
مدنيتها ، ممن اضافوا لرذائل الشعوبية تاريخًا حضاريًا آخر .

وعقد فصلًا متمعًا حقًا للمناقق فقد حسبته فيه « سياسي الحب والصدقة
يضع المنفعة بين غيبيه ثم تنوزع على جوارحه كل اساليب الكلام والعاطفة » .
ثم يقسم أنه ما رأى كالمناقق رجالاً « إلا ذلك الواقف يدبر وجهه بين
مرائي عن يمينه وشماله ومن ورائه وبين يديه ، فله في كل واحدة وجه ، ويتعدد
الرجل وهو شيء واحد » .

ويخيل إلي أنه كان يصف فيه مجموعة الساسة في تلك الأيام - وهو يستمد
معاني الحب في نفسه ، وكيف تتبدل القيم الانسانية العليا عندهم .

أما الصغيران من أبناء الأديب المدمن ، فقد شغلاه عاطفة ، وانفجر قلبه
آلاماً وسروراً ورحمة لهما في ساعة واحدة ، .. وقد أضحكه منها اصطحابها وأمهها
لأبيهما السكير من سقطته في ساقية المدينة .

ثم تطل عليه روح الشيخ علي الجناحي فيستلهمها فيضاً من الأفكار في الحب
والمرأة ، وشهوات الناس ، وأمرجة الأمم .

أما صفيه الشيخ أحمد الرافعي فكان حزن الرافعي عليه عظيماً ملاً عليه
الفصل الثامن كله « فقد كان دينه غضاً كعهد الدين بأيام الوحي ، لا تزال تحفه
رقة قلب المؤمن ، وفوقه رقة جناح الملك يخالط نوره القلوب » ص ١١٧ .

« آه لو عرف الحق أحد لما عرف كيف ينطق بكلمة تسيء ، ولو عرف
الحب أحد لما عرف كيف يسكت عن كلمة تُسِرُّ ، .. ولا يكون الصديق صديقاً
إلا إذا عرف لك الحق وعرف لك الحب » .

وحين تأق بسحابه على روح الشيخ محمد عبده كان يشعر وكأنه « مرتقي
في صعداء مطلبها طويل بعيد ، .. فلا يخطو خطوة إلا مدافعاً جاذبية الأرض » ص ١٥ .
فقد كان للشيخ الإمام عقل لو وُزن في رجحانه لهُدًى بين العقول من
موازين التاريخ ، وقلب إن يكن في جنبه كالقلوب التي وُضعت على منحدر
المعاني الأرضية فانه كان دون القلوب على مهبط السماوات ..

وهكذا يستلهم هؤلاء جميعاً معاني الحب ، وفكرأ في النساء ، وخواطر
للناس ، وحكمًا وروائع في الحضارة والحياة ، وآراء ونظرات في الاجتماع الانساني
بصورة من البيان ، تدق أحياناً حتى لتستغلق ، وتصفو حتى تنصل باللوح ١ .

وقد عقب على ملاحظات المقتطف بما كشف فيه شيئاً من هدفه القومي
في هذا النحو الممتاز من الفن البياني ، والادب الاعتقادي البار

* * *

١٠ - على السفود

نقد تحليلي - الجزء الاول - دار العصور - كانون الاول - ديسمبر

١٩٣١ م

كانت للرافعي يد على الفتى الأسواني - عباس محمود العقاد (١) ولكنه
ما كاد يشب عن الطوق ، ويتعلق بأذيال السياسة يتشبث بها متسلقاً بالكتابة
والترجمة لصحفها ،.. حتى تنكر لجيل من أدباء العصر ، بصورة من التصدي
والكبرة والانتقاد المؤذي ،.. ونال الرافعي فيمن نالهم قلبه السليط (٢) .
وقد أهمله الرافعي في باديه الامر ، حتى لجَّ في التحرش ، وحاول
الخصومة غير مرة (٣) وكان آخرتها رأيه في الرافعي وكتابه إعجاز القرآن ، التي
كان منها سقطته العلمية التي لم يستطع القيام منها حتى إخراجها « الفلسفة القرآنية »
.. وكانت فرصة اهتبلها الرافعي لينال منه نقداً وإبداءً ، ويجهز عليه من
ثم ،.. فعرض عليه المرحوم اسماعيل مظهر أن ينشر مقالات نقدية فيها تحليل

(١) راجع البدرى - رد على تعقيب الأفلام - الجزء الأول - ١٩٦٧ م .

(٢) أنظر العقاد - الديوان - الجزء الثاني - أبو عمرو .

(٣) حاول مرة أن يدس أنفه بين الرافعي وسلامة موشي عام ١٩٢٣ م ،

وأخرى بينه وبين طه حسين في موضوع « الشعر الجاهل » .

وتدقيق يتناول العقاد وديوانه بمنهاج علمي يعمل فيه على هدمه جملةً وتفصيلاً .

وحين اجتمعت هذه المقالات في « العصور » على دورة العام أخرجها ،
متغافلاً عن مكانة العقاد من حزب الوفد ٠٠١ وقد سماها بصورة شيخ غليظ
القلب ، وضع طفلاً في سفود - سيخ - يقلبه على النار والشواظ كالذي يشويه :
وللسفود نار لو تلتقت بجاحها حديداً طُن شحا
ويشوي الصخر يتركه رماداً فكيف وقد رमितك فيه لحماً ؟
إمام من أئمة الأدب

وبالغ في السخرية والتهمك فيجترىء كلاماً للعقاد نفسه كان قد نشره
في جريدة مصر عام ١٩٢٩ م يتخذ منه كالمقدمة للكتاب ، ليدور بفصوله من
حولها ، حيث يقول العقاد :

« وفي الغرب طائفة من أدعياء الفكر - مثل العقاد - يسمونهم (انتاجنيزيا)
ويعنون بها المتحذلقين والمتفقيهن ، . . . وهذه الطائفة على شيء من بريق الذكاء ،
وقدرة على التلفيق والانتحال ، . . . يغترُّ بها من ينخدع بشقشقة اللسان وسمات
الوقار ، . . . فهي سطحية ، لا تنفذ الى قرار ، ولا تحيط بفكرة ، ولا تفهم شيئاً
على استقامته الطبيعية ، لأن الفهم عمل يشترك فيه الإدراك والذكاء والذوق ،
والفطرة والبصيرة ، . . . وليس عند هذه الطائفة من هذه غير وميض الذكاء
والتلفيق - دون الاستيعاب .

إن أنانية هؤلاء المجرمين عمياء ، لا تدرك أن الإحراق يؤلم ، حتى
تحرقها النار - نار السفود - وترمضها أيما إرماض ، . . الخ » .

وبعد أن يعرض الرافعي لمعنى السفود ، ويسبب استعارته في النقد

« لأن بعض المغرورين من أدباء هذا الزمن لا يصلح فيهم من النقد ، .. إلا ما ينتظمهم ناراً كنار اللحم يشوى عليها ، .. فقد أعينوا من الصفاقة والدعوى والخذاع ولؤم الطبع والعُجب بما لا تدبير فيه إلا حال كنتك » .

ويعرف مظهر بالكتاب فيقول : « أن السبب الذي حدا بنا الى نشر (على السفود) أن نرضي ضمائرنا ، .. بأن نفسح لعلم من أعلام الأدب ، وحجة ثبت من رجات العصر أن يعبر في صراحة عن رأيه في أدب تميز بشيء من الصلف عرف به ، وبقدر من الزهو والاغراب في تقدير الذات » .

إذ « من الأسف أن الطريقة التي اتبعتها الصحف في المدح والذم هي لمجرد النفع المادى ، فسمي النقد تقيظاً ، والاستجداء تقدير آ ، والمسح تقويماً ، .. لهذا أردنا تحرير النقد من عبادة الأشخاص ، ذلك الداء الذى كان سبباً في تأخر الشرق » .

وفي مقدمة هذه المقالات - التي هي عند الرافعي مُثل وعينات تؤول الى حقيقة هذا الأديب من كل نواحيه ، .. يرجو أن تكون قد وجهت النقد فى الأدب العربى ، وأقامته على الطريق السوية ، ..

والرافعي يبدو وكأنه يتوثق منهاجاً علمياً فى النقد كالذى يجده عند (جول لمر) وشعوره النبيل القائم على الفهم ، .. وما يقابله عند العقاد ، .. فيعرض لأخلاق السوق عنده ، ولطبعه الجلف ، وسفاهته ، وكيف يخاطب الأدباء بمحافاته وكلماته .. وكيف أن الرافعي أراد أن يواجهه بلؤمه فى مجلس المقطف ، فكأنما ألقى بحجر فى ماء آسن ، حيث نار العقاد فى وجهه ، وكتب

له بخط يده يحبه بنعوب الوقاحة والبذاءات الاخرى ..

فيذهب الرافي مع (سنت بوف) في تحليل كلماته هذه مع آثاره الادبية مستعيناً بها على أحواله العصبية وما في داخله الذي يصنع ما في خارجه ..

ومع ذلك فإنه يقف قليلاً ليقول : إن العقاد لو رضي أن يقال عنه أنه (مترجم) لأنصف نفسه ، ولكنه يزعم أنه لا عبقري غيره ، وهو من أجل الناس في اللغة العربية وأسرارها ، في علومها ، فيعود به الى (الانتلجيزيا) . ثم يتناول ديوانه بأجزائه الاربعة وطبعها الثانية .. فيعرض لفنون ونماذج من سرقات العقاد المترجمة ، التي يخفق في استياب المعاني فيها فيظهر كالمبتلس بها في الضحى ، ..

والاخرى التي يأخذها عن شعراء العرب ، فيكشف عن اضطرابه في النقل ، ويظهر سطوه غير الموفق ، بأن يتنقل في المعنى الواحد من شاعر الى آخر بأوسع ما في هذا الباب الذي ما غادره النقد منذ أيام علوم البلاغة ، وكيف كانت تجري المعاني سائلة على السنة الشعراء الاقدمين وكأنها لا تغادر متردماً ، ..

ولعل من أغرب ما في الكتاب تصديه لمعاني مترجمة عن آداب الامم الاخرى ، مما يدل بوضوح على أن هناك من يعين الرافي عليها ، من أصدقاء العقاد نفسه ١١ ..

والكتاب بعد فريد في باب النقد الأدبي الحديث ، ولولا أن العقاد كان بادئاً بالتصدي والاشتم والإيذاء ، .. لخلص من ظلم الرافي له بعبارات كان فيها بعض جواب على كلمات العقاد في الورقات ، والصحف ، .. ولو ترفع

الرافعي عنها وعف^{٥٥} لهدم العقاد حقاً^{٥٥} ولا سيما في ملاحظته له في أفكاره
نفسها ، ومسلّماته وآرائه^{٥٥}

ويقول المرحوم العريان أن الرافعي لم يتصد للعقاد بهذه القسوة^{٥٥} إلا
بعد أن تجاوزت نحرشاته العقاد حد الخصومة الأدبية واللباقة^{٥٥}

* * *

ولقد تابع الرافعي نقده للعقاد في آثاره بعد هذا الكتاب ، تصدى فيها
لكتابه عن ابن الرومي ، ولدَيوانه (وحي الاربعين)^{٥٥} ولكن العقاد لم يستطع
الثبات أمامه ففر^{٥٥} من المعركة ناجياً بجلده بعد أن أضحى (أحق دولة) وقد
اجتمعت لدي هذه المقالات جميعاً ، وعسى أن أتمكن من إخراجها في كتاب على
حدة ، ليقف التاريخ الأدبي على حقيقة فلا يستطيع أن يطمسها مرجف ولا
منافق^{٥٥}

* * *

١١ - أوراق الورد

رسائلها ورسائله

ثلاثمئة وبضع عشرة صفحة - المطبعة السلفية ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١ م وأعيد
طبعه مرات .

كتاب فريد في العربية ، يؤلف ديواناً من الرسائل تطارحها شاعر فيلسوف
روحاني ، وشاعرة فيلسوفة روحانية^{٥٥} ،

صدره بتاريخ آخر جعله تكملة على كتابيه : رسائل الأحزان والسحاب
الأحمر ، وقال : إن فيها جملة آرائه في فلسفة الجمال والحب^{٥٥} ،

وما عرف أدب العربية رسالة كتبت من هذا الطراز ، على كثرة كتبها
 وكتبها ، . . وقد دار الرافعي دورته المعروفة في تاريخه لأدب العرب يستقصي ، . .
 فما وقف على اسم كتاب أفراد الرسائل الحب ، . . وقرأ على ننف ومستظرفات
 لا تسمى رسائل حب ، . وإن حفل التاريخ برسائل الاخوان والوجدان والديوان .
 وهكذا انطوى على محجوبة من هذا الفن بقيت في الغيب الى عهده
 الذي رجافيه أن تكون كتبه قد أظهرتها واستعلنت بها ، وأن تقول العربية
 « هاؤم اقرؤا كتابية » ص ٢٨ .

وعرض لتاريخ الحب عند صاحب الرسائل الذي « كان من نمائه وجماله
 وطهره كأنما أزهرت به روضة لا امرأة من النساء ، وكان من مساعه وحلاوته
 ولذاته البرينة ، كأنما أثمرت به شجرة خضراء تعتصر الحلاوة في أثمارها أصابع
 النور ، فأنت لا تجد في هذه الرسائل معاني النساء متمثلة في امرأة تتصبى رجلا ، . .
 ولكن معاني الحب والجمال متألهة في إنسانية تستوحى من إنسانية أو توحى
 لها » ص ٣٢ .

« والحب الصحيح إذا سلمت فيه دواعي الصدر ، واعتدلت به نوازي
 الكبد وتوثق فيه عقد النية ، واستوى غيبه ومشهده ، . . كان أشبه بقوة سماوية :
 تعمل لتبدع في الانسانية شعراً أسمى من حقائقها » .

والكتاب بعد « خالص للجمال بذاته ، دافع من الحب في خاص
 معانيه » ص ٣٦ .

يستهل الديوان بنظرته اليها :

تالله لو جددوا للبدر تسمية لأعطي اسمك يا من تعشق المقل

كلاهما الحسن فتاناً بصورته وزدت أنك أنت الحب والفزل
ويراها في بعض ساعات قلبه تظهر له وكأن سرّاً من الكون يتجلى بها ،
ويقول له من عينها : المسني وانظري فيها » ص ٤١ .

ويرى العطر الذي أهدها لها « سيعلم حين تسكبه على جسمها الفاتن أنه
رجع الى أجمل من أزهاره ، وأنه كالمؤمنين تركوا الدنيا ، ولكنهم نالوا الجنة
ونعيمها ص ٤٥ .

ويوم بعثت اليه برسمها كتب يقول :
« وهل في الحسن أحسن من هذا الوجه الذي يرف على القلب بأندائه ،
ويتلألأ بنضرتة ، حتى لكأنه خلق من نور الفجر ، وكأن علامة الفجر فيه إنما
هي هذا الروح الذي يحيط القلب من وجهك ، بمعان كنسمات الصبح ، غليظة
من شدة الرقة ذابلة من فرط الجمال ، مملوءة من روح الندى بما يجعلها حول النفس
كأنها جو من شعور حي فرح لا نسمات في الجو » ص ٤٨ .

وعلى أن هذه الرسالة جواب على رسالتها في ٢١ - ٦ - ١٩٢٤ ، فإن
الهلل حين نشرتها ، رخصت لها بصورة تشبه « بي » الى حد كبير .

ومن وراء البحر تتحدث اليه بحروفه ، ونحسب أن سعادة الفكر المتصل
بها منه ، تخفف عنها بعض ما تجده ، فتقطع المسافة المترامية بقوة الأحلام وتنهض :
« الحياة مادة يا صديقي ، فاذا لم أقل كلمة واسمع ردّها أو أخط سطرّاً
وأقرأ مثله ، فإن الفكر الذي يسعدني في كل شيء هو نفسه الذي يعذبني بك
حتى لا أراك » .

فيجيئها : أما والله إن في دون هذا للبلاغة ، فكلامك بيان مشرق

كإشراق الضحى ، بل لا أراك تجمعين ضميري وضميرك معاً في كلمة .. إلا
أحسست أنه لقاء بيننا في لفظ .. ٠٠١

الحياة مادة ، فأين أنت يا مادة الروح المنسكبة في روعي ١؟ ص ٥٧
ويعود الى دمه الكريم يعتهم عروقه السماوية ليتضرم بالشعاع القدسي من
أقصى التاريخ فيكون سرّاً من خلافة خليفة وملك ملك ص ٦٣ (١) .

ليت شعري ! أنقوم العاصفة الموحاء من خطرات مروحة الحبيبة ١؟
ويقع الزلزال المدمر من رجرجة كلمة من فيها ١؟ لا أدري .. ولكن ربما ..
ولا يكاد يصور معنى من المعاني في حالي الصد والمجران ، حتى يردفه
بمعاني من الرضا والوصال ، .. وكأنه يقارن بين اثنين :

« تلك التي يستمد من لينها ومماحتها وذكرياتها السعيدة (١) معاني الحب
التي تملأ النفس بأفراح الحياة ، .. وهذه يستوحىها معاني الكبرياء والصد
والقطيعة وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم » (٢) .
فهو حين يرى القمر « طابع الله على أسرار الليل في صورة وجه فائن ،
كما أن كل وجه معشوق هو طابع الله على أسرار القلب الذي أحبه » .. تهيم به
الأشواق فيداريها ويتأمل القمر (٣) :

(١) هكذا يعتقد بنفسه الكريم الذي ينتهي بالإمام العادل عمر الخطاب

(رض) كما مر بنا .

(٢) راجع العريان - حياة الرافعي ص ١٠٤ .

(٣) جواباً على رسالتها في ٢٠ شباط ١٩٢٥ م وقد حدثته عن « مي »

التي جرحته ليخرج عصارة الأحزان .. ١

يقول للعاشق المهجور مبتسماً خذني خيلاً أتى من تسميتها
.. أما أنا فأتاني البدر مزدهياً وقال جئت بمعنى من معانيها
وبعد أن يسأله عما جاء به - وهو صامت - .

كن مثلها لي جذباً في دمي وهوى أو كن دلالاً وكن سحراً وكن تيمها
فقال وهو حزين - ما استطعت سوى « أتى اختطفت ابتسامة لاح من فيها
ولا يكاد يتحدث عن « نظراتها » حتى يقول :

« لو سألتني من هو العاشق لأجبتك : من أحس أنه قذف به في
الابتسامات والنظرات مرة واحدة الى مهبط السموات ، فيشعر أن نعيمه أهناً
من نعيم أهل الأرض ، وأن عذابه أشد ، .. وكأنه إذ يتنعم لم يصب أسباب
النعيم ، بل أسباب الخلود في الجنة ، .. وإذ يتألم يجد مادة نارية خالدة على
قلبه » ص ٨٢ .

أما ألم الحب فذاك « حين يأتي على اللحم والدم معنى ، لو تجسم لكاف
هو الذي يصهر الحديد في موج من لهب النار ، ويحطم أنصخر في زلزلة من ضربات
المعاول ، وهو الألم الذي يهدم وينني ، .. وأعظمه لأعظم الحكماء
والشعراء » ص ٩٠ .

حقيقة الحب فيها .. ثم تظهر لي كأنني عالق منها بأوهام
ويظهر أن « مي » كانت تشبهه بنابغة فراسي ولد في الحياة مراراً ، ..
فيطرب لذلك ويرى « أن الشاعر العظيم تلد أمه منه الجزء الأرضي ، .. أما
الأجزاء الروحية فهذه تلدّها الحبيبات ومصائب الدنيا » ص ٩٧ .
وحين تجذبه فتنتها إليها يقول : « .. ومع جاذبية الألوان والاعطوار

في ثيابك وحلاك،.. جاذبية أعطر وأزهى في ملابس معانيك من العواطف، وفي ملابس روحك من الدلال ولا يعدُّك في هذه الفئنة الكاسية إلا السماء في فتنها للرجال الإلهيين حين تلبس حرائقها من شفق الصباح « ص ١٢١ .

وفي نار الكلمة يتساءل : أياكون الحب تنقيحاً في معاني السكون بالنفس وخيالاتها؟ أم في معاني النفس بالسكون؟ أم في كليهما؟

وحين تضيق من بعض ظنه يقول لها « لا تزال حقيقتك وراء آلاف من ظنوني كأن لها معنى اختباء الوحش في ألفاف الغابة وأشجارها،.. ويستعير بعض كلامها ليقول : « فإذا رضيت فإنك جذابة بل متوحشة في الجاذبية » ويقابل بينها وبين الثقيلة (مي) فيحسبها واحدة «.. وإن هجرت فانك في الهجر بلا رحمة ولا شفقة .. متوحشة متوحشة » ص ١٤٨ .

وحين تكتب إليه « أنا مقصرة ، أنا مذنبه ، فسامح التقصير ، وأعف عن الذنب وأنظر الى العاطفة التي تأبى إلا أن تحترمك ، وأن تبقيك على عرشك الذي ملكته باستحقاق » (١) يسارع فيعقب :

أما قبل .. فقد اجتمعت عندك بالحب ، وكشف لي عن مخلوقات الكون الشعري الذي تملؤه ذاتي فلا ينقص أبداً،..

ورأيتك يا فجرى وربيعي وشبابي وحيي .. فلن أنساك أبداً « ص ١٥٥ وهكذا يمضي ، يصوغ هذا الآيات الفريدة في رسائل ، يمزج قلماً بقله ويحول لغتها الى لغته حتى يشرف على الغاية،..

ولا تكاد (مي) تهديه كتابها « ظلمات وأشعة » حتى يلقف فيها رسالتها،

(١) رسالتها في ٢٧ كانون الأول ١٩٢٥ م .

التي تنتهي بقولها :

في أعماق نفسي يتصاعد لك الشكر بخوراً لأنك أوحيت إليّ ما عجز
دونه الآخرون أن أعلم ؟ انت الذي لا أريد أن تعلم » ص ١٦١ .

وهكذا يمضي في الموازنة بينهما ، في رسائل غاديات رائحات .. يضم
اليها فكراً وخواطر مما يفتنثر بين معانيه ..

ومن بينها رسالة في العتاب ، كان قد بعث بها إلى جريدة « السياسة »
فرأى فيها طه حسين أسلوباً لا يليق بالعصر ، فيناوشه الرافي بمحركة الأسلوب .
التي يجهز فيها على الترجمة ممن ارتضخوا رطانة العجمة الجديدة (١) ولكن
رسالة العتاب تبقى فناً بلاغياً لا يستطيل الى مثاله هؤلاء .

تبلغ به الظنون حالة يريد فيها أن يسو فلا يستطيع غير أن يهرع الى شجرات
له عند النهر يقيم عندها « صلوات في المحراب الأخضر » وبتل بمثل قوله :
« يا من خلقتني إنساناً ، ولكنه قضى عليّ أن أقطع الحياة كلها أنعلم كيف
أكون إنساناً » ص ٢٠٢ .

ولا يكاد يعودهن شئ حتى يتندر القول :

لهفي لأشجار المحبة مرّ فصل ربيعها
جدّ الهوى في غرسها ليجدّ في تقطيعها

ولا يكاد يحاول النسيان ويسدل الستار على الذكريات .. حتى يقتحم
عليه طيف الحبيبة زائراً ، يهدم جدار النسيان الذي رفعته بينها وبينه :

(١) راجع أنور الجندي — المعارك الأدبية .

حيا وسلم ثم غادر تاركاً يده على الكبد التي أدمها
ودنا ليعترف الهوى فتمالك أسرارها فرمت به فرماها
.. فيجثم على ظلمة الصد بألوان من النهار يموت قبل أن يولد النهار ص ٢٢١
ولا يكاد يستجيب لندائها فيكتب في معاني التهنيدات لتنظمها شعراً بالفرنسية ،
حتى تعود اليه تلك المعاني بحروفه ، ولكن بخط يدها ١١. فيتأوه ويتلوى ونجده
محباً « يشعر أحياناً من شدة القلق والاضطراب أن فكره يعدو بين الأشياء
والحوادث وراء الاطمئنان الذي فرّ من قلبه ص ٢٦٤ .

ويأخذ قبضة من سطور قلمها ، ونثراً من أحاديثها ، يجعل منها فصلين
ممتعين غاية من الأخذ والتوزيع الفني ، . ويلاحظ عليه إبقاء كلامها على حروفه
من غير تعديل ولا تبديل بخلاف الرسائل المتقدمة .

وهكذا حتى استطاع سد المكان الخالي في الأدب العربي بما يقابل بل
يفوق ما في اللغات الأخرى ، بعمل فصل فيه النزاع بين القديم والجديد ،
بتطهير فكرة الحب وتهذيب معانيه في نفوس الشباب والبنات .. لئلا يفسد بها
النفس فلا تسقط ، بتصوير العواطف وتحليلها (١) .

* * *

١٣ - رسالة الحج

فلسفته وأسراره

بضعة وخمسون صفحة من القطع المتوسط - مطبعة المستقبل بالاسكندرية .
رسالة قيمة في الفريضة الإسلامية الخامسة التي عليها تمام الأركان الخمسة ،

(١) رسائل الرافعي ص ١٩٤ .

كما يتم الانسان برجولته الناضجة ..

فلفظة الحج العربية من أدق الألفاظ : تتسع لكل معنى في توجه الانسانية نحو مركزها . وقد كانت « الحج عند عرب الجاهلية رمزاً نفسياً إلى استجماع الأرواح كلها في معنى إنسانيتها تبطل المنازعات في أشهره وتسقط الشهوات » ص ١٢ .

وبعد أن أتى على الفرائض الأربعة من الشهادة والصلاة والصوم والزكاة ، تحدث عن المساواة في الاسلام ، ومقاصد الحج ، وقارن بينه وبين أنظمة الفتوة والكشفية ، وبين العلاقة بينه وبين الجهاد ، وعرض المنافع الحج التي وردت في الآية الكريمة فأبان عن سر من إعجازها ، . الذي صرّح بإنسانية الفريضة قبل أن تكون عبادة .

وتحدث عن مناسك الحج بتفسير جديد ، .. ثم أورد مقترحات عملية لتنظيم هذه الفريضة ، واغتنامها فرصة لمؤتمر السياسة والاجتماع والاقتصاد بشكله العلمي والدولي ، وتنظيم هيئة مؤتمر الحج في كل قطر .. الخ .
وقد نسب الكتاب في طبعته الأولى الى الأستاذ حافظ عامر - رح -
قنصل مصر في جدة والعراق وصديق الرافعي .

ولكن العريان - الذي كاد لا يسميه في الطبعة الأولى من حياة الرافعي ، عاد في الثانية فسمّاه واعتبره من المقالات المنحولة (١) وعقب على رسالة حسين نصيف من أن أصل الرسالة بالأردنية ، نقلت عن ترجمة الإنجليزية مخطوطة ، ..
فعدّ عمل الرافعي فيها عمل المنشئي ، وصاحب البيان لفكرة زعم صديقه أنها فكرته .

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٢١ .

ولكن ما جاء في رسالة الرافي نفسه وهو يقدمها لصديقه وقوله :
« رسالة الحج بتكلم الحج نفسه فيها نحن لو أوحيت لما جاءت إلا هكذا ،
ولما أشبه مؤلفها بالجندي المجهول - تأمل - يجتمع التقديس عليه فيصبح في الحقيقة
هو القائد المجهول ليس له فخر النصر ،.. ولكن له المجد » (١) .
يكشف عن الحقيقة أكثر ، وأسلوب الرافي معروف في المقالات
المنحولة (٢) .

على أن فكرة تجديد معاني الحج قديمة قدم الحج نفسه ،.. وقد ألحّت
على الأمة العربية - الإسلامية بعد ذهاب وحدتها ،.. والحج بعد هو المؤتمر
القومي الأعظم لقوى الأمة الذي أريد به الاجتماع لا التفريق ، والقوة لا الضعف
والسياسة النفسية القوية لا الأهواء والمفارقات ،.. فلا بدع أن يكون الرافي
في بيانه العالي من أوائل الملبيين لهذه الفكرة .

* * *

١٣ - وحي القلم

الجزء الأول في ٣٩٤ صفحة من القطع الكبير ، والذي في ٤١٤
صفحة من القطع الكبير أيضاً صدر عام ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م
عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة . واعيد طبعها
مرات مع الجزء الثالث الذي أخرجه العربان ؛ ٤٨٠ صفحة
عن مطبعة الإستقامة .

كان المقالة البيانية التي ظهر بها الرافي وقع خاص في نفوس الأدباء
والنقاد معاً ، وهي التي ميزته على سائر معاصريه ،.. بما كان يحتفل لها من

(١) رسالة الحج ط ٢ ص ٣٥ . (٢) العربان - حياة الرافي ص ٣٢١ .

فنون الكتابة وأساليبها التي طوعها لقلمه البليغ ، وأدبه الاعتقادي العالي .
وكان لقهره خصومه بقوة العلمية ، وتحدياته السافرة ، والانتصار الأدبي
الذي حققه في خماسيته الانشائية الفريدة ، مما دعا الاستاذ لطفي جمعه أن يصرح
عقب صدور كتابه الأخير « .. وجدنا الاستاذ صادق الرافعي قد قطع شوطاً
بعيداً في التجديد من حيث لا يدري » (١) وبذلك أظهر قوله « أنه لا يوجد
في العربية قديم وجديد ، ولكن يوجد أسلوب واحد فصيح ، من ذاق حلاوته ،
ووصل القدرة على احتلال ناصيته .. لا يساويه ، ولا يستطيع التخلي عنه مهما
أعطي من المزايا » حبث قرر الرافعي بعدها : أن البيان في العربية أسمى وأدق
وأظرف من البيان في لغة باريس ولندن وبرلين وسواها .

ومن هنا نشأت فكرة الكتاب الذي يضع الأدب العربي الحديث على
جادة المسؤولية الاعتقادية للفكر في وضوح وجلالة ، فتارة يدعو « بالادبيات » ،
وأخرى « بالورقات » وثالثة « قول معروف » ورابعة « الكتاب النبوي » (٢)
وأخيراً « وحي القلم » حيث جرى على لسان أحد الأدباء الشبان فكتب إليه
يطلب التنازل له عن الاسم ، أو يبحث له عن اسم سواه (٣) .

وقد طلب الى الشيخ محمود أبي رية وسعيد العريان وأمين شرف وغيرهم
من محبيه وتلاميذه أن يبعثوا له بنماذج من مقالاته الأدبية ، أو يدلوه عليها

(١) لطفي جمعة - المساء ١٩ نيسان - ابريل ١٩٣١ م .

(٢) راجع الرافعي في رسائله للشيخ أبي رية ، وقد جرت التسمية

الأخيرة على لسان العريان .

(٣) من رسالة الأديب « عيسى متولي » ..

في مكانها من أنهر الصحف وأجزاء المجلات فتوفر له أكثر من مئة مقالة وحديث ،
انتقى منها ما أخرج به الجزء بن الأولين ، وابقى الاخرى لينظمها جزء ثالث
او كتاب آخر .

وعلى ذلك جرى ترتيب الكتاب لا على سبيل الابواب والفصول ،
وإنما على ما عن له من فكرة الجمع والضم في وقتها ، ولو مد الله في عمره ، لأعاد
ترتيبها بالشكل الآخر الذي حدث الشيخ ابارية والمرحوم العريان عنه ،
والذي اهتم الآن بالإعداد له ، ولا سيما ان العريان (رح) لم يأت بجميع المقالات
الباقية في الجزء الثالث ، وإنما بقيت هنالك احاديث وتعقيبات وكلمات تؤلف
جزءاً وآخر .

وقد صدر الكتاب بمقدمة بليغة تحت عنوان « البيان » فيها القول الفصل
في القدامى والمحدثين وما انتهت إليه معركتهم ، وفيها تعريض بخصومه حيث
يقول :

« في الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأني ألفاظهم فناً عقلياً غاية صحة
الأداء وسلامة النسق ، فيكون البيان فيهم على ندرة كوخز الخصرة في الشجرة
اليابسة هنا وهنا .. واسكن الفن البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوة الأداء
مع الصحة ، ومحو التعبير مع الدقة ، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة »

اولئك في الكتابة كالطير له جناح يجري به ، ويدف ولا يطير ، ..
وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجري ، .. ولو كتب الفريقان
في معنى واحد لرأيت المنطق في أحد الأسلوبين وكأنه يقول : أنا هنا
في معان والفاظ ، وترى الإلهام في الأسلوب الآخر أنه هنا في جلال وجمال

وفي صور وألوان .

وكأنما يدرك موقف هؤلاء من أدبه بالذات ، فيعرف بالكتابة المفيدة التي هي مثل الوجهين في خلق الناس « ففي كل الوجوه تركيب تام تقوم به منفعة الحياة ، ولكن الوجه المنفرد يجمع الى تمام الخلق جمال الخلق ، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة ، وهو لذلك وبذلك يُرى ويؤثر ويُعشق » .
ثم يصل بيت القصيد فيدافع عن أدبه وفنه بمثل قوله :

« ربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ، .. وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ، . وبأنه محيّر ، ولكن الحسن كذلك ، .. وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك » ص ٨ .

وبعد ذلك تأتي أحاديث الكتاب ومقالاته متتابعة ، فيها القصة التاريخية « اليمامتان » والفتح العربي لمصر ، وخبر مارية القبطية ونشيد اليمامة ، .. ويجتلي العيد ، ثم يبحث عن المعنى السياسي فيه الذي لا يراه « إلا إبراز الكتلة الاجتماعية للأمة متميزة بطابعها الشعبي ، مفصولة من الأجانب ، لابسة من عمل أيديها ، معلقة بعبيدها استقلالين في وجودها وصناعاتها ، ظاهرة بقوتين في إيمانها وطبيعتها مبهجة بفرحتين في دورها وأسواقها ، .. فكان العيد يوم يفرح فيه الشعب كله بخصائصه » ص ٢٧ ويشهد « الربيع » ليدرك أن الحياة إذا لم تفسدها جاءتك هداياها ، .. وإذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن » ص ٣٢ .

وتعرس ابنته « وهيبة » وينتظم لها « عرش الورد » ليلة زفافها فيخلق

بدعاء :

(يا نسجات الليل الصافية صفاء الخير ، أسأل الله أن تنبع هذه الحياة المقبلة في جمالها وأثرها وبركتها من مثل الورد المبهج ، والعطر المنعش ، والضوء الحميمي ، فإن هذه العروس المعتلية عرش الورد .. هي ابنتي) ص ٣٧ . ويستخدم الصيف فيذهب الى الربيع المائي عند البحر ، ويرسل من هنالك خواطره :
« ما أجمل الأرض على حاشية الأزرقين البحر والسماء ، لا يكاد الجالس هنا يظن نفسه مرسومًا في صورة إلهية وتأخذه « طفولتان » بمعناها الاجتماعي ، فيتحدث عن فساد النظام الإداري وتحالف القوة الشعبية ، وضياح الأحلام في القصر وبنت « الباشا » والزبال الفيلسوف .. وكأنما طارت منه « ورقة ورد » فلاحقها في (اللطائف المصورة) حيث جعلته يرى الانقسام الجميلة أقوى حكومة في الأرض .

ويعود الى التاريخ ليشهد (سمو الحب) في قصة عبد الرحمن القس وسلامة ، ويفلسف للمهر في الشريعة السمحاء في قصة زواج ابنة سعيد بن المسيب من تلميذه الذي فضله على ابن عبد الملك بن مروان خليفة المسلمين كله .. ثم يقص خبر زوجه إمام فيفسر بعض الحديث النبوي في صور من أخلاق التابعين ومزايهم . ثم ينتقل الى موضوع المرأة في العصر ودعوة (تحريرها وتحويلها وتجربتها .. الخ) في (الطائشة وفلسفتها ودموعها والتربية اللؤلؤية .. » ومذهبتنا دائماً وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب فخذ من أخطأ » ص ٢٠٥ ، وينعطف نحو تلامذته وقد جمعهم صفة العزوبة ، فيبحث عن علمها ويحاول حل معضلاتها حيث استنوق الجمل أو كان (أرملة حكومة) .

ثم يعود الى القصص ليتحدث عن أبي خالد الأحول الزاهد في

(رؤيا في السماء) وعن أبي يحيى مالك بن دينار و « بفتة الصغيرة » .. لينقلب الى « الأجنبية » التي تقتحم بوجودها أخلاقنا، وتبور بسببها نساؤنا، وتقدس في دماثنا جريمة إجتماعية ، وتمكّن الأجنبي من بيوتنا ص ٢٧٤ .

ويحذر الشرقية من « صري البحر » يا لحوم البحر سلخك من جلدك جزار « حتى يأتي على « الجمال البائس » وقصته الانسانية الخطيرة ، التي حدثنا العريان بخبرها .. ثم مشكلة تلميذ الأديب كامل محمود حبيب .. وهكذا تتابع أحاديث الكتاب وقصصه ومقالاته في أجزائه الثلاثة ..

وفي رأيي أن بقاء « وحي القلم » على هذه الصورة من الجمع والخلط في الموضوعات يقلل من خطورته الأدبية وأهميته البيانية ، وروحه الاعتقادية ..، ولو وزع حسب الموضوعات - وهذا ما أميل اليه - لجاء وحي آخر فيه من قوة الإبصار ووضوح الرؤية وحسن التوجيه ..، ما يُلهم ويأتي بالخوارق المرجوة من فوائد الأدب الرفاعي الاعتقادي .

وعلى ذلك نكتفي بتعريف الجزء الأول حسب ، ونرجي الحديث عن الآخرين حتى نعرف بآثاره الثرية الأخرى غير المطبوعة .

* * *

١٥ - تاريخ آداب العرب

الجزء الثالث - تاريخ الشعر ومذاهبه والفنون المستحدثة منه .. الخ

أخرجه المرحوم محمد سعيد العريا . عن مطبعة الاستقامة عام

١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م .

مرّ بنا في تعريف الجزء الأول ، أن الرفاعي حين همّ بوضع مؤلفه الفريد

في تاريخ الآداب العربية إنقطع لذلك من أواسط عام ١٩٠٩ م .. وبعد أن توفر له جمع المادة العلمية وتصنيفها وتوزيعها بحسب موضوعاتها .. اختط لنفسه ذلك المنهاج الواضح الذي يجمع ولا يفرق .. بعيداً عن محاولات المستشرقين وتابعهم في تليفيق « الأدبيات » .

وقد ظهر له أن ذلك يستغرق تأليفاً في اثني عشر باباً .. ما كاد يصدر الجزء بين الأول والثاني وفيها ثلاثة أبواب فقط حتى بدأ عظم المشروع ..! وعلى هذا الأساس فإن الأبواب التسعة الباقية كانت ستستوعب أجزاء أخرى لا تقل عن ثلاثة ، فيما لو استمر على منهجه ومذهبه في التأليف . ولكن حدث له أمور صرفته عن أدب التأليف والتأريخ إلى النقد والانشاء وتعجيز شائئيه وخصومه الكثير .

وبالرغم من إلحاح محبيه من رفاقه ورقيقاته وتلامذته ، واهتمامه هو بالذات ، فإنه لم يجد الوقت الكافي الذي يستطيع فيه العودة إلى ذلك الفن من العلمية الموفقة .

ولم يكد يلحق بالرفيق الأعلى حتى ألحّت على العريان جهات تستنجزه الوعد في إخراج بقايا التاريخ التي كان يحسبها تامة التأليف والتبويب .. ولكنه عانى الأمرين في الوقوف على أصولها ، وجمعها وإخراجها بهذا الشكل الذي جاءت تم الكتاب بجزء ثالث فقط ..!

تحدث في الباب الرابع عن تاريخ الشعر العربي ، فعقد انشأة الشعر عندهم فصلاً مهماً ، أتى فيه على ما للعلماء من تحقيقات في أولية الشعر العربي ، ورجح هذه الأولوية بالملات السابقة للبعثة الحمديدية .. وهو ترجيح له وجهته في وقته ،

وإن كان لا يقف أمام المنطق العلمي إلا إذا تحول إلى المثات السابقة للميلاد
الميسوي ..

وفي الفصل نفسه درس الباحث الفني والنفسي على اختراع الشعر ، ..
وفرق بين الرجز والقصيد وتكلم عن الأبيات المرسلة الخ ..

ثم استرسل في الحديث إلى أول من قصد القصائد واعتبره غير
امريء القيس والمهلهل ، .. ثم تحدث عن الشعر في قبائل العرب ، ومكانة الشعراء
عندهم ، . لينتهي إلى بيوتات الشعر والعروفون فيه .

والفصل الثاني عقده لسيا الشعراء ، فعرض لألقابهم ، وحالات الانشاد
كما مرّ بمقليهم ومكثريهم ، وحالاتهم النفسية في الارتجال والبديهة والروية .

ثم نظر في النبوغ وألقابه في الشعراء ، وفرق بين الاختراع والاتباع
وأأنواعه ، .. وبعد أن عرض لشياطين الشعراء ، تحدث عن طبقاتهم عند الرواة
والمصنفين . وأفرد موضوعاً خاصاً عن الشاعرات عندهم .

وفي الفصل الثالث أرّخ لفنون الشعر العربي وتنوعها على مدى الأيام ،
فلم يستنكر الهجاء عليهم ، وعده من قبيل التهذيب النفسي والاجتماعي لقيهم
وأخلاقهم فعرض الأثر في القبائل والشعراء وأشهر الهجائيين .

وكذلك رأى المديح سمواً في الاعتبار النفسي عندهم ، .. ولم ينس الأخلاق
الطارئة على المادحين من أثر الكدية الساسانية .

وهكذا مضى يتحدث عن الفنون الباقية في الفخر والحاسة والرثاء ،
والغزل والنسيب والوصف ، وفات العريان أن يقف منها على شعر الترقيص .

ثم تكلم عن الشعر الأخلاقي والمباذير الاجتماعية عندهم ، التي وجدها

من أرقى وأسمى ما وصلت اليه الفلسفات الانسانية المعاصرة .

وبعد أن عرض للحكمة ، والنضج العقلي في تجارب الحياة ، والشعر الإلهي ، والملحمي والعرفاني - الصوفي ، .. تكلم عن هزة النفس في الشعر الهزلي والقصصي ، وكذلك نظر في المنظومات العلمية .

وبعد ذلك انتقل الى تاريخ الفنون الحديثة في الموشح وسبب اختراعه ، والملحون فيه ، وأنواعه ، وأشهر الوشاحين وكتب التوشيح ، مما لا يزال الحديث عن هذا الفن لا يزيد عما جاء به الرافعي نحال .

وكذلك عرض للصناعات التي أولع بها المتأخرون كالديويت والمواليا ، والزجل والفنون العامة الأخرى .

وفي الباب السادس فصل القول في حقيقة المعلقة ، وتحدث عن امرئ القيس وشاعريته وشهرته ، وقارن بين معلقته وقصيدة علقمة ، ونظر في طرفة بن العبد ومذهبه الشعري ، وكذلك وقف مع حكيم الشعراء زهير بن أبي سلمى ، ليصف من ثم خشونة الشعر الجاهلي .

وجعل الباب السابع للعربية وآدابها في الاندلس ، وهو يؤلف كتاباً قائماً بذاته تحدث فيه عن عروبة الاندلس وحضارتهم فيها ومبلغ عنايتهم بالعلم والادب في القرون : الثالث والرابع والخامس .. وما بعد السادس .

فتكلم عن أدباء ملوك الاندلس ، وعصر الوزراء ، ونكبة ابن رشد ، وأدباء الاندلس وعلمائها ، والعلوم الفلسفية ومقاومتها وانتشارها ثم آخرتها .. حتى مصرع العربية في الاندلس ، وتنصّرها وترجمتها في أوربة وديوان التفتيش .. الخ .

أما الباب العاشر في التأليف وتاريخه عند العرب،.. حيث عرض لكتب الطبقات والتراجم، والمختارات والحماسات.. الخ.

والباب الحادي عشر في الصناعات اللفظية التي أولع فيها المتأخرون من لزوم ما لا يلزم، والقوافي المشتركة والمعراة.. والتخميس والتشطير.. الخ.

ولا تكاد تنتهي من المطبوع حتى يبلغ بك الحزن مدى غير قريب،..

لضياع بقية الأبواب والفصول،.. وعدم وجود «رافعي» آخر يتولى استكمال ذلك ليخرج المصنف الفريد هذا بصورته التي أرادها له رحمه الله

* * *

١٦ - رسائل الرافعي

٣٠٠ صفحة من القطع الكبير أخرجها الشيخ محمود أبو رية - مطبعة الحلبي

بالقاهرة - ١٣٧١ هـ - ١٩٥٠ م.

من الخصال الحميدة التي اتصف بها الرافعي علاقاته مع القراء،.. ففسد كانت ترتقي أبداً حتى تنمو وتتحول الى صداقة ورفقة ومحبة،.. ومن هنا لم يكن يهمل رسالة ولا سؤالاً يتوجه اليه به قاريه او سائل حتى يجيب عليه وفيه حقه.

وفي مطلع العقد الرابع من القرن الرابع عشر الحالي كان هنالك شاب يملاً قلبه حب الأدب، ويتوسل اليه الوسائل،.. فكتب يستطلع رأي الكاتب العثماني الكبير - الأمير شكيب أرسلان (رح) - في أحسن كتب الأدب،.. وكان الرافعي يومها قد أخرج الجزء الأول من كتابه «تاريخ آداب العرب»، وقد حظي بالاستقبال العلمي الكبير،.. فأشار الأمير علي أبي رية بأن يعكف عليه.

ولما كان طموح الشباب أكبر من أن يكتفي بذلك فقد كتب أبو رية الى الرافي نفسه يسأله عن كتب العربية ، وكيف يمتلك ناصية الأدب ، .. حيث رد عليه الرافي بجواب ثمين فيه توجيه وفيه دراية علمية عاملة .

ولم يكتف أبو رية بالجواب فتابع رسائله اليه ، وتلقى أجوبتها السديدة وارتفع بها الى مصاف الحوارين من تلامذة الرافي ومحبيه ، وتوطدت أسباب الصداقة والمحبة بينهما ثلث قرن من الزمن تلقى فيها عن الرافي جملة صالحة من الرسائل فيها أدب وعلم ومعرفة ، وتسجل إثباتاً للتاريخ في تلك الأيام .

فلما رأى الشيخ أبو رية ما رأى من إهمال الرافي بعد موته ، واطراح لأدبه ، والتجني عليه بزعم ملفقات تاريخية ، وأخرى أدبية ، وثالثة تزعم النقد عمد الى ما كان قد تلقاه من « رسائل الرافي » فأخرجها وفاءً لذكره ، ولم يحجب منها غير عبارات قليلة جداً لم يجد من اللياقة أن تكون فيها ، ورسالة او اثنين كما حدثني .

وفي هذه الرسائل يبدو الرافي على سجيته إنساناً أدبياً ، متمكناً من فنه ، يصون نفسه فلا يُلها ، ويرتفع فوق العصر وأسوائه ومرذولانه .. بقيم عليا ومثل وروائع خلقية وعلمية .

وفيها أخبار توفيقه الأدبي وتزوده بالمعرفة الواسعة ، وصفحات من أيامه وحياته ، وحديث كتبه وتأليفه وتصنيفه ، بما مرّ بنا في هذه الدراسة شأنه .

وفيها أيضاً أخبار علاقاته الأدبية والخاصة برجال جيله ، من زعماء السياسة ، والأدباء والفنانين والناس الآخرين ، .

ومن صفحاتها نستجلي الكثير من الوقائع والاحداث بتوثيق آخر ليست

منه شهوات التلقيق والاجتراء التي يعتمد اليها خصوصه ومناوئوه ..
وقد مهد لها الشيخ أبو رية بما كشف فيه عن علاقته هاتيك وأشار
الى طرف من قصة حبه ، وكيف أنه أراد أن يرتفع بعلاقته مع « مي » الى ما
فوق مستوى الشبهات من السمو بالعاطفة والاشراق الوجداني ، والانتظام
الروحي في صفو وخيلاء .. ولكنه لم يشر الى عقوق « مي » في هذه الناحية ..
وإن غمزها بقوله : ليثها جاذبته جل المراسلة ..
وخلاصة القول أن هذه الرسائل وثنائك تاريخية قيمة ، قد لا نعد لها مثل
الروايات التي تدخلها وجهات النظر والعواطف .
ولو تفضل أصدقاء الرافعي وتلامذته ممن تلقوا عنه مثل هذه الرسائل
وسواها ، فأقدموا على إخراجها وفاءً ، أو تقدموا بها إلينا فألزمونا ذلك واجباً ،
لقدّموا خدمة للأدب والفن والتاريخ لا تعدّها الدراسات ..
عسى أن يصل صوتي إليهم .. في أسمعهم ، أو آذان ذويهم وأبنائهم
وتلامذتهم ودارسيهم ، .. قبل أن أسميهم بأسمائهم فأطلب اليهم ذلك مـ

آثاره النثرية غير المطبوعة

كان الرافعي غزير الانتاج بشكل يبعث على الإعجاب والاكبار معاً ،
وحين يقف المرء على ثبوت مؤلفاته المطبوعة وحدها ويبصر في قيمتها الأدبية
والحضارية يدهش لتوفره على أسبابها مع ما كان عليه من هم الوظيفة ، التي
استهلكته منه زهرة النهار أربعين سنة ، والانحراف الغالب على صحته الذي
لم يكن يترك له العافية يتهاون فيها إلا لماماً ، بالإضافة الى هم الأسرة والاولاد
والعيال الآخرين الذين كان يلزم نفسه بإطعامهم وكسوتهم ، وتربيتهم وتأديبهم
على ما مر بنا بعض خبره .

وعلى أن ما طبع له من مؤلفاته بعد وفاته لم يكن يتعدى جزء من
« وحي القلم » وآخر من « تاريخ آداب العرب » ، فإن له مؤلفات نثرية أخرى
ما وجدت يد العناية التي تهتم بإخراجها الى اليوم ومنها :

١ - موعظة الشباب

هي قصة تمثيلية ورواية في آن واحد ، كتبها شعراً ونثراً ونشر في الجزء
الثالث من ديوانه شيئاً منها ، كما أعلن عنها بأن روح الشعر تنبع في كل فصل
من فصولها .

وقد وقفت على رسالة للمرحوم سلامة حجازي يطلبها منه اليه ، كي
يتمكن من عرضها وتمثيلها ، ويظهر أن المنية قد تخطفته قبل أن ينظر فيها ، وربما
بقيت ضمن مخلفاته ، ولم يكون جديلاً لو أن من عُنهوا بأثار الحجازي قد وقفوا
عليها فأعادوها الى أهله ، لتتمكن من إخراجها .

وكان صاحب الأعلام الشرفية قد نسب اليه رواية سماها «حسام الدين»
حسبها الأستاذ أنور الجندي أنها هي ! ولكن لا أستطيع أن أقع يقول فيها
ما لم أرها، ولعلها لرافعي آخر سواه .

* * *

٢ - ملـحـكة الانشاء

يخيل إلي أن الرافعي لو تهماً له أن يكون معلماً في مدرسة أو أستاذ جامعة
لأنهم في تلامذته وأولاده ثمار البلاغة والبيان العربي بأعرض ما كان يحتفل له بنفسه .
.. فهو منذ صباه اهتم بصياغة الجملة العربية ، ليرتفع بها عن العامة وصيغها
المتبذلة ، والترجمة وعباراتها المزدولة ، .. والعجمة وروايتها الشعبية والصليبية ،
سمواً باللسان العربي الى الوحدة اللغوية التي هي قوام الوحدة الفكرية التي تنشيء
الجيل المستقل .

ومنذ أوائل القرن شرع في كتابة موضوعات يجعل منها كالتماذج لتربية
ملـحـكة الانشاء ، .. ومنها ما نشره في الجزء الثالث من الديوان ، ومنها ما نشره
في الجزء الأول من ديوان النظرات عن « الحسن المصنوع » .
ولكن العريان - رحمه الله - لم يقف على بقية فصول هذا الكتاب ،
ويحسب أن الرافعي قد استعاض عنه بكتابه « حديث القمر » .

* * *

٣ - شعراء العصر وطبقاتهم

قد يكون اهتمام الرافعي بالشعر والشعراء أكثر من اهتمام سائر معاصريه
من الأدباء والنقاد ، .. فهو منذ استطالته الى شاعرية الحسن .. الى نقده اشعراء

جيله ، وسعيه وراء إمارته ، ، وإيذائه للعقاد وشوقي وسواهما .. كان يهتم
بتقويم الشعر العربي الحديث ليأخذ مكانته في الشعر الانساني ، ..
وهكذا عقد النية على وضع كتاب خاص في هذا الشأن ، وقد جاءت
الإشارة اليه في إحدى هوامش « حديث القمر » .. ولكن لم يقف العريان
على أصول خاصة له في ملف أو نحوه ..

ولكنني أحسب أن معظم فصوله منشور له في الصحف والمجلات ، وقد
توفرت عندي بما يؤلف هذا الكتاب بشكل أو آخر ، .. وربما أخرجته جزءاً
خاصاً من « وحي القلم » يضم اليه بضعة وعشرين فصلاً ومقالة ، فيها نقد وتعقيب
وترتيت ، وفيها جملة رأيي الرافي في الشعر والشعراء المعاصرين .

* * *

٤ - فصيح الكلام

« كتاب في اللغة يجمع اليه فصيح الكلام مما ورد في الكتب المختلفة »
كان في عام ١٩٢٨ م أوراقاً غير مرتبة ولا كاملة ، .. وقد ترك العمل فيه من
زمن ، .. فقد أدرك أنه يحتاج لإتمامه الى مطالعة سنة أو سنتين ، ثم أنه يحتاج
بعد ذلك في ترتيبه الى وقت وتعب .. »

ولم يطلع الرافي عليه أحداً ، حيث آثر أن يتمه أولاً ، إذ ليس من عادته
أن يتحدث عن أعماله أو يربها أحداً قبل تمامها (١) .

ولا أدري إن كانت تلك الأوراق مما لا يزال في مكتبته الى الآن
أما أنها لحقت مأساة تلك المكتبة ١٢ .

(١) أنظر رسائل الرافي ص ١٣٧ .

٥ - أسرار الإعجاز

كان للتوفيق الذي حالف الرافعي في تاريخه للقرآن الكريم وإظهاره لوجوه إعجازه ، ولا سيما في القيمة الأدبية والناحية البيانية التي غفل عنها سابقوه ، . . . وإعادة طبع الكتاب غير مرة ، . . . والكون فصوله وهوامشه لم تعد تحتل زيادة البسط والايضاح والزيادة ، . . . فقد عزم - رحمه الله - على أن يضع كتاب البلاغة الجديد في « أسرار الإعجاز » . فكان « مشغول الفكر به دائماً » ولا سيما حين اكتشف أن « الناس منهيتون للإيمان ، ولكن ينقصهم من يكشف لهم عن أمأكنه » وهذا كله يجعله لا يستريح إلا إذا أخرج لهم « أسرار الإعجاز » (١) .

ولما جاءت كلمة يوسف حنا أنه المختار لحراسة لغة القرآن ، حسبها إنباء من الغيب (٢) فقد ازداد همه في « كتاب بوضع إيقاوم التاريخ المنذفع بالناس الى المنحدر » .

وكانت طربقته تجتمع في « التفكير المستمر قبل الإقدام على العمل لأنها أنفع وأفضل » (٣) وكان يعتد بهذا الكتاب اعتداداً كبيراً . وبعد وفاته - رح - كان الكتاب يكاد يكون تاماً في أبوابه وكثير من فصوله ، . . . وفصول أخرى أجمل فكرتها في كلمات على أوراق ، أو أشار الى مصادرها .

وقد اطلع العريان على فصول منه وذكر نهجه في تأليفه الذي لخصه بما يلي:

(١) رسائل الرافعي ص ١٩٠ .

(٢) « « ص ١٩٣ .

(٣) « « ص ٢٢٣ .

أ - يتحدث في صدر الكتاب عن البلاغة العربية فيردها الى أصول غير الأصول التي اصطلح عليها علماءها منذ كانت ، ويضع لها قواعد جديدة وأصولاً أخرى .

ب - ويتحدث في الباب الثاني عن بلاغة القرآن وأسرار إعجازه مسترشداً في ذلك بما قدم في الباب السابق من قواعد .

ج - يتناول في الباب الأخير آيات من القرآن على أسلوب من التفسير يبين سر إعجازها في اللفظ والمعنى والفكرة العامة .

ويعتبر هذا الباب صلب الكتاب وأساسه ، وقد أتم الى آخر يوم كان العريان معه بعضاً وثمانين آية على هذا النسق (١) .

وقد نشر بعضها في « كوكب الشرق » والمقتطف وضمّن تفسير البعض الآخر أقاصيصه التي كان ينشرها في « الرسالة » ، والتي اجتمع بعضها في وحي القلم .

على أن ما وقفت عليه من خير الكتاب أنه كتب على الآلة ، وأودع كلا من العريان - رح - والشيخ محمود محمد شاكر والدكتور محمد ولده ، بعد توالي نداءات القراء لإخراجه ، ولكن الايام ما زالت تغلت من أيدي هؤلاء جميعاً فلم يرَ النور حتى اليوم .

* * *

(١) العريان - حياة الرافعي ص ٣٥٢ .

(٢) أنظر الرافعي - كوكب الشرق - ٤ نوفمبر ١٩٢٩ ، يناير ١٩٣١ م ،

والمقتطف - يناير وفبراير ١٩٢٩ م .

لقد بلغ الرافعي بأدب الانشاء ، غاية لم يدركها قبله أديب في تاريخ العربية كله ، . . . وأوفى عليها بما عرف عنه من النظرة الخارقة في التفسير والتحليل العلمي . . . والوصول الى حقائق ودقائق في كثير من الموضوعات التي يتصدى لها . وبوم انتهى من خماسيته في « أوراق الورد » ووضع الحد الفاصل بين زعم التجديد والاثمار الحق فيه . . . كان كالذي أحس أن هنالك من ينتظر منه البناء بعد الانتصار .

وتوالت رسائل القوم عليه تستحثه على الكتابة التي يجدون فيها أنفسهم مصورة في أفكارهم وما يتطلعون اليه من مغامم المعرفة ، وأبعاد الاعتقاد ، وأفواف الأدب وروائع الفن ، وثمار القرائح . . .

وكان للاستاذ كمال الدين الطائي السبق في هذا الحث ، ولا سيما حين راح يلحف عليه بالطلب للكتابة في الموضوعات النبوية عند ذكرى المولد . وقد مر بنا أن الرافعي كان قد أرخ للبلاغة النبوية في القسم الثاني من كتابه « اعجاز القرآن » ولكن بقيت معاني أخرى لم يتصد لها حداً للتاريخ ، . . . وإن كان حرصه عليها أكبر وأشد . . .

ولما وجد في كتابة طه حسين « على هامش السيرة » لونا من التهمك الصريح (١) أراد أن يكون له أسلوبه الذي ينفرد به في هذا الشأن فيكون كالرد الحاسم على هذا وأمثاله ممن يتاجرون بالسيرة العطرة . . .

وكانت للرافعي توسلاته بصاحب الشفاعة العظمى في مطلع حياته الشعرية

(١) رسائل الرافعي ص ٢٦٩ ، وقد مر بنا خبر ترجمتها ١١

ومنها قوله :

رعاك الله هل مثلي محبٌ وقد أمسى محمد لي خبيبا ..
وسواها مما يظهر لنا الأساس الاعتقادي الذي يصدر عنه بأدبه النبوي ..
وهكذا عاد فكتب في السمو الروحي الأعظم ، والجمال الفني في البلاغة
النبوية ..، وكان كالذي يفجر في الحديث النبوي طاقات ذرية هائلة تكشف
عن قوة الاعتقاد ومكانة الرسالة من الأمة ..،

وفي الوقت الذي كان يكتب فيه فصولاً من « أسرار الإعجاز »
وتكشف له الحقائق في تفسير الآيات القرآنية ، ويتوصل الى أسرار جديدة
في إعجازها لم يدركها سابقوه ..، كان من الناحية الثانية ينظر أثر التربية القرآنية
في السيرة النبوية العطرة ..، ويتسامى في جوٍّ روحاني خاص ينهيا للأعمال
الأدبية فيه (١) .

وما كاد يكتب عن « الاشراق الإلهي » ويصور روح الفلسفة الاسلامية
حتى بادر يقول : « هذه المقالات هي النمط الذي كنت أريد كتابة السيرة به » (٢) .
فلما كتب بضعة مقالات منها وهم أن يخرج كتاباً أدبياً آخر جرت على
فم المرحوم العريان تسميته بـ « الكتاب النبوي » فاستحسنها وعدها إلهاماً
وفاتحة بشرى .

« ولا بد من الصبر عليه وإيقافه لخدمة النبي (صلى الله عليه وسلم) تكون
شيئاً ..، ولعل الله يتقبلها ويكتبها عنده حسنة في سيأتي الكثيرة » (٣) .

(١) الرسائل ص ٢٦٩ . (٢) الرسائل ص ٢٧٣ .

(٣) « ص ٢٧٥ .

وما زال كذلك يكتب في « وحي الهجرة » و « حقيقة المسلم » .
ويدرك « الحقيقة أن الشباب الاسلامي في حاجة شديدة الى كتابة من هذا
النوع وفي كل وقت أتمنى أن يوفقني الله له » .
ولكنه بعد المعاناة في التأمل ، وإغراقه في إيذاء نفسه وعافيته في الصياغة
الفنية لهذا الأدب النبوي .. وجد أنه صعب جداً .. وليس في العربية مقال
واحد منه (١) .

ثم ظهر له أن (الكتاب النبوي) كلها كان صغيراً كان أقوى في تأثيره
وكان اجل وأبلغ (٢) ، فبعد ان تمّ بكتابة اثنتي عشرة مقالة من هذا النوع (٣)
عاد حين ادرك انه يلحّ على نفسه بالأذى وهو يعتصر المعاني « .. لهذا سأتمه
مقالات بأربع اخرى .. ثم مقدمة صغيرة فيجبيء في حجم « السحاب الأحمر » .
ولكنه حين تمّ بإخراج « وحي القلم » جعل من تلك المقالات أول الجزء
الثاني ، وجعل العريان إحداها أول الجزء الثالث .

ولكنني أجد من الصواب الأجدي أن تعود هذه المقالات مع تاريخ
البلاغة فتنظم « الكتاب النبوي » وتكون جزءاً خاصاً من وحي القلم ، .. وعلى
هذا الأساس أفردنا التعريف بها :

في مقالة « الإشراق الالهي وفلسفة الاسلام » يتحدث عن النبوة في
الفكر الانساني ويعقد المقارنة بينها وبين الأنواء ، فالنبي إشراق إلهي على

(١) الرسائل ص ٢٧٧ .

(٢) الرسائل ص ٢٧٨ .

(٣) « ص ٢٧٣ .

الانسانية يقومها في فلها الأخلاقي ، ويجذبها الى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب ، ويجيء النبي فتجيء الحقيقة الالهية معه في مثل بلاغة الفن البياني لتكون أقوى أثراً ، وأيسر فهماً وأبدع تمثيلاً .
ثم يمضي في هذا الموضوع يفلسف فكراً جديداً للدين الاسلامي ، ويعمل النبي العظيم مثله الأعلى الذي يعيش معه مسلماً ، ويذكره كل حين كأنه بين يديه ليكون دائماً ابن العجزة .

وفي « حقيقة المسلم » يستهل الحديث بقوله :
« لا يعرف التاريخ غير محمد (ص) رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الانساني كله ، كما تنصب المادة في المادة لتمرزج بها ، فتحولها فتحدث منها الجديد ، .. فاذا الانسانية تتحول به وتنمو ، وإذا هو (ص) وجود سار فيها فما تبرح تنمو به وتتحول » .

وما الاسلام عنده إلا « مبدأ إنكار الذات و (إسلامها) طاعة على النشاط والعكس لفروضها وواجباتها ، .. كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها الى الانسانية تصرفها وتعملها في كمالها ومعاليها » .

وعلى هذه الحقيقة المسئلة يمضي في تفسير العبادات والفروض بفلسفة

جديدة ..

وفي « وحي الهجرة » يجد أن « تاريخ ما قبل الهجرة وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الاسلام في الارض » فقد « بدأ الاسلام في رجل وامرأة و غلام ثم زاد حراً وعبيداً ، .. أليست هذه الجنس هي كل اطوار البشرية في وجودها ؟ ! » .

وفي « فلسفة قصة » يفسر قصة انفراد النبي (ص) بعد موت زوجته خديجة الصديقة وعمه أبي طالب ، حيث وصل القوم من أذاه أن حثوا التراب على رأسه ، .. فكانت إحدى بناته تغسل عنه التراب وهي تبكي .. فيقول لها النبي : يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أبالك ، فيمضي في تحليل هذا القول الآبد ، ويعجب لرموز القدر في هذه القصة .

« ألا ما أكمل هذه الانسانية التي تثبت أن قوة الخلق هي درجة أرفع من الخلق نفسه فهذا فن الصبر لا الصبر وحده ، وفن الحلم لا الحلم وحده . »
و « فوق الآدمية » يعرض لقصة « الاسراء والمعراج » التي يضطرب في تفسير واقعها وحقيقتها كثرة من فقهاء المسلمين أنفسهم ، .. فيرى في كثير مما وصل اليه العلم من الاختراع والاكتشاف في المادة والنفس بعض تفسير لتلك الواقعة ، فهو على الرأي الذي عليه الجمهور من أن الاسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً ، فيكشف عن أسرار الإعجاز في الآية « ما زاع البصر وما طأى » وقوله تعالى « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » فيثبت أن الطبيعة الآدمية كانت فيه كالنائمة عن حياتها الارضية بحقيقتها ، .. إذ من الممكن أن تتحول الأجسام الى حالتها الأثيرية في بعض الاحوال الخارقة .. الخ .

وفي « الانسانية العليا » يجمع أوصاف النبي (ص) من روايات مختلفة ويجعلها كالحديث الواحد .. فيكشف به عما يدهشه من مجموع صفاته بأن يتبين فيها « دليلاً بلياً على أنه مخلوق خلقة متميزة بنفسها كخلقة القلب الانساني نظامه حياته ، وحياته نظامه .. فلا يزال يمد أعضاء الجسم بمدد لا ينفد من القوة والبصر » .

وفي « سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم » يقول :

« ليس هناك خبز الشعير ، ولا الجوع ، ولا رهن الدرع عند اليهودي ، كلا .. كلا ، بل هناك حقيقة نفسية عقلية ثابتة متزنة قائمة بعناصرها السامية : من اليقين والعقل والحكمة ، .. الى الرفق والحلم والتواضع تجبزه هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجل الاجتماعي التام بأخلاقه وفضائله ، .. وهو الذي بعث لتنقيح غريزة التنارع من أجل البقاء وكسر هذه الحيوانية ، وقمع نزوانها وإماتة دواعيها ، والسمو بخواطرها ، فهو بنفسه صورة الكمال الذي بعث لتحقيقه وإثبات أنه الممكن لا الممتنع والحقيقي لا الخيالي » .

وفي « درس من النبوة » يفسر قوله تعالى « يا أيها النبي قل لأزواجك : إن كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً » .

.. ليقول من ثم « ليست قصة التخيير هذه مسألة الفنى والفقر في معاني المادة ولكنها من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح ، فهي صريحة أن النبي (ص) أستاذ الانسانية كلها ، واجبه أن يكون فضيلة حية في كل حياة ، وأن يكون عزاء في كل فقر ، وأن يكون تهدياً في كل غنى ، ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانون الأدبي للجميع » .

وفي « سمو الروحي الاعظم والجمال الفني للبلاغة النبوية » نظرة تفسيرية جديدة أخرى في الحديث النبوي الشريف غير التي تحدث عنها في « البلاغة النبوية » مع الاعجاز ، .. فيحلل حديث السفينة ، وحديث الغار ،

وما يلحق بهما من أحداث أخرى ، ويكشف عن أسرارها بتأمله ، ليقول من ثم :

« إن كلام نبينا (ص) يجب أن يترجم بفلسفة عصرنا وآدابه ، فستراه حيناً كأنما قيل مرة أخرى من فم النبوة ، وستراه في شرحه الفلسفي كالأزهار الناضرة : حياتها بشاشتها في النور ، وتعرفه إنسانية قائمة بذاتها تصحح أغلاط الزمن في أهله ، وأغلاط الناس في زمنهم ، وتجده يرف على البشرية المسكينة بجنان كحنان الأم على أطفالها ، والناس الآن كالأطفال غابت أهمهم فهم في تنافر صبياني ، فحنان قلب الأم الكبير هو القانون لكل قضايا القلوب الصغيرة » .

وهكذا كان - رحمه الله - يسعى لكتابة صور من السيرة العطرة ، ولكن بدا له أن ذلك الأسلوب عسر الهضم ، وفيه اعتصار لروحه يؤذيه في جميع أحيائه فانصرف عنه الى موضوعات أخرى لم يكن يخلّيها من خلق نبوي أبداً .

وهذا الكتاب كالحلاصة لأدب الرافعي وفنه ، وما كتبه في فنون البلاغة والانشاء جميعاً

... وآثار أخرى

كان العريان - رح - قد عرض لجانب من حياة الرافعي الفكرية ، كان فيه بعين ذوي المواهب الأدبية على أعمالهم ، .. وأن ذلك العون يتعدى حدود الأدلاء والمنهجية الى الكتابة والتصنيف ، ونحل بعض مقالاته وكتبه لهؤلاء وأولئك من اصدقائه وتلامذته ومحبيه ، ..

وأشار الى بعض أحاديثه التي كان يكتبها لمجلة البيان بخاصة ، او يملئها على محرري الصحافة الأدبية أمثال يوسف حنا وأسمد حسني والعريان نفسه وسواهم كثير ..

وقد كشف العريان النقاب عن حقيقة « رسالة الحج » التي قدمنا التعرف بها ، .. ولكنه أشار بحياء الى « شرح ديوان المتنبي » وسواء من المصنفات المنسوبة الى صهره الشيخ عبد الرحمن البرقوقي .

وكان قد حدثني يوماً عن « المقتطف » وجزئه الخاص بالمتنبي ، الذي كتبه الشيخ محمود شاكر وكيف أعانه عليه ، ..

ويوم استوضحته عما يذهب اليه الأستاذ أنور الجندي من أن الرافعي كانت له اليد الأولى في اخراج المكتبة الأزهرية لبعض الكتب الجليلة ، وبراعته في التحقيق ، .. لم يزد العريان - رح - عن القول « كان ذلك في مطلع حياته الأدبية » وربما بريء منها لو نسبت له فيما بعد ، لأنها لم تكن على الصورة المرجوة التي كان يتوخاها ..!

على أن - حفيد الشيخ محمد سعيد الرافعي - ينسب الى جده طول الباع في تحقيق هانيك الكتب .

فهناك تراث آخر يحتاج الى عناية خاصة في التحقيق والنسبة ، وإن كان بعضه معروفاً له ،.. ومنه :

١ - إفتتاحيات مجلة البيان - او معظمها - ومقالات في النقد تناول فيها شعراء العصر وأدباءه وآثارهم ، بغير قليل من التحليل والتصويب وربما الابتداء .. ومنها ما يؤلف فصولاً من كتابه « شعراء العصر » الذي عرفنا به آنفاً .

٢ - شرح ديوان : المتنبي وقد صرح العريان بنسبة مقدمته اليه ، وتغاضى عن يده في الشرح والمفردات والفوائد والتخریجات .. وما يزال معروفاً أنه للشيخ عبد الرحمن البرقوقي .

٣ - المتنبي : جزء خاص من المقتطف كتبه الاستاذ محمود محمد شاكر ، بعد أن خرج على كلية الآداب وأستاذ الأدب فيها . وكان الرافعي أراد بهذا الكتاب فتح جبهة أخرى على الدكتور طه حسين والجامعة ،..

وقد وردت إشارته في قوله « لست أغلو إذا قلت إن روح المتنبي قد أظهرت كبرياءها ، فاعتزلت المشهورين ولزمت صديقنا المتواضع محمود محمد شاكر مدة كتابته هذا البحث النفيس ، حيث كتب تاريخ المتنبي ولم ينقله . وقد وضع اسمه تفسيراً جديداً من المتنبي .. الى أن قال « من أعجب ما كشفه من أسرار المتنبي سره حبه ، فليس من احد يعلم هذا السر او يظنه ،.. والأدلة التي جاء بها تقف الباحث المدقق بين الاثبات والنفي .. وهذا حسبه فوزاً » .. وهي كما

ترى تشبه إشاراته الى مضمون رسالة الحج .

٤ - شرح ديوان حسان بن ثابت : وهو المعروف للشيخ البرقوقي أيضاً .

٥ - شرح أدب الكاتب لابن قتيبة :

كتبه الجوابقي ، وعرضه المقدسي على الرافعي لتحقيقه وإخراجه ، ثم اختلفا فأصدره الكتبي بمقدمة الرافعي ، وفيها رأي جديد في كتب الأدب القديمة من ابرع وأدق ما كتب في توثيق النصوص .

٦ - أمير الشعر في العصر القديم :

وضعه الاستاذ محمد صالح سمك ، وكتب الرافعي مقدمته ، وفيها ما يشف عن انه كان وراؤه في منهاج البحث ، وصادره ومراجعته .

٧ - الفاروق - عمر بن الخطاب - :

كتبه الاستاذ محمد ذياب ، وطلب الى الرافعي كتابة مقدمته التي لم تشر الى الكتاب من قريب ولا بعيد .

٨ - أعجب العجب من احوال العرب :

منظومة شعرية وضعها المرحوم عبد الحق الأعظمي الاستاذ بجامعة علي الأغر (عليكر) في الهند .

وقد كتب الرافعي لها مقدمة قومية رائعة ، بعد مراجعته لها في إرواها وأبياتها ومعانيها .

... وهناك بحوث ومقالات في جريدة الأخبار ، والسياسة والمقطم
والبلاغ وكوكب الشرق وسواها ، غفل من التوقيع او مستعارة الإِضاء ،
او منجولة لأدباء وكتاب وغير هؤلاء من مرتزقة الصحافة الآخرين ، ..
هي الأخرى تحتاج العناية الخاصة لجمعها وتصنيفها وإخراجها بشكل او آخر ..

الخاتمة

.. أما قبل

فهذه هي الدراسة المنهجية الاولى في حياة الامام مصطفى صادق الرافعي وآثاره ، تدل على أدبه وفنسه ، وتسهم في جلاء الكثير مما انبهم من أمره ، وتنصفه من أيامه في زمان تنكر له ولفنه ، وتعرض لمجالي من حياته الخاصة وروحه الشاعرة .

لقد قرأت الرافعي شاعراً وتغنيت معه ، وأديباً خلقت في آفاق خياله ، وآمنت بآيات فنه ، وانتصرت له بحماسة وعاطفة بعد أن ملأ عليّ آفاق الأخذ العلمي ، والعطاء الأدبي ، والاشراق البياني ، والمذهب الاعتقادي في رسالة العروبة الفكرية ، وحفظت له العهد والوداد .

ثم عدت اليه دارساً جوانب من حياته الشاعرة ، وروحه الثائرة ، أجدول معه في أيامه الحائرة ، ونزواته العائرة ، وانطلاقاته الكاثرة والسادرة ، ومجالي عصره في فنونه وآدابه ، ومرامي وجدانه ، وآيات إلهامه ، فأسوت لحياته غير المعافاة ، وحاولت أن أنصفه من أيامه في تاريخ الأدب الحديث ، بصفحات من تاريخه أجلوها لأول مرة ، أو أوضح منها بعض ما يغمض او يندبهم ، او يلتبس مع الأنواء ١

ثم وقفت معه أمام جيل يصارعه ، ويعاديه ، ولا يحاول دراسته او فهم

مذهبه ، وحاورت رفقة ما وقتته حقه من عرفان الجليل ، وعاتبت الهذمه ما بررت به ، وتناست ذكراه .

وقد حاولت في ذلك كله أن يتحدث هو عن نفسه ويجلو بعض ما فانت على معاصريه فهمه من جوانب أدبه ، وخطرات شعره ، وسرحات بيانه بما بثته في ثنابا الدراسة من شواهد كله ، وأبيات نظمه ، ونثير قلمه ، ودقة نقده ، وفريد رأيه وفلسفته .

ولم ينس في غمرة هذه الدراسة المضيئة أن أقف معه لحظات في مناقشة هادئة ، ومحاوره عائدة ، ومحاوله تستهدف الإصابة في الهدف ، ورد الخطل في الاتجاه ، وتصحيح ما ينغمر في وجهات النظر ، ويلتبس بالمفهومات المخالفة . وما سمحت لنفسى أن أدافع عنه بحماسة العاطفة ، وإنما تركت ذلك كله لبعض أحاديثه وأحكامه نفسها تجتمع له في حيثيات ، وتنظم في مفهوم ، أو تفرق عنه في دلائل فتخذله في بينات أو تتعلق عليه بشواهد . حتى تسعفه آراء بعض معاصريه فيه ومحاولاتهم تقويم أفكاره وتشمين أحكامه بلفئات دراسية مبنوثة هنا وهناك .

وفي عصر الرافي ، الذي وافى بخمسة فصول تناول الأول منها صدرا من تاريخ الحال السياسية في نصف القرن الأخير ، فعرضه من جديد بمناقشة علمية قد تشدد أحيانا وهي تفق على خلط بعض المؤرخين وغفلتهم ، ووقف على حيثيات جديدة فيها إعادة النظر في كثير من القضايا المعلقة . وكان الفصل الثاني في البيئته الاجتماعية استعراضا آخر يكشف عن مأس ، ويفضح مغالطات .

أما الحياة الثقافية والفكرية فقد كان لها تاريخ آخر فيه ميزات من التثبت ورد الاعتبار وتقويم الآراء .

وكذلك الحال مع الحركة الأدبية ، ويمتد الشعر العربي الحديث ، .. فقد أسهمت في الكشف عن كثير من خبايا الإدعاءات العريضة ، ورددت بعض الأصول الى مظانها من التاريخ الأدبي بصورتيه العربية والأخرى المترجمة عن آداب الأمم الأخرى ، ما تيسر لي ذلك .

أما الباب الثاني فهو في خمسة فصول أيضاً ، أرخ الأول منها للرافعي والرافعيين وترجم لأشهر علمائهم ، وتحدث الثاني عن سيرة الرافعي وحياته في الوظيفة والبيت ودنيا الأدب والفن .

وعرض الثالث لصودته الخلقية والنفسية كما اهتم فصل بثقافته وروافدها في الوقت الذي عرض الآخر لقصة حبه التي وثقها بمجديد الكتب والرسائل لتوافي القراء بأصواء أخرى على هذا الجانب الذي اضطرب فيه ذوو الآراء وأصحاب وجهات النظر ، والقلقون على مصائر بعض العواطف !

كل أولئك وسواها من القضايا والافكار حتى يظهر لنا الرافعي متفاعلاً مع عصره ، ومرتفعاً على هذا العصر بعبقريته خارقة ، وذكاء نفاذ وقوة وثبات .

وكان هنالك باب ثالث لآثار الرافعي ، .. فيه تعريف ونقد ، وتقويم بعد مناقشات وردود على بعض معاصريه ..

ولكن ظهر لي أنه يستوعب كتاباً برأسه ، .. فأثرت اختصاره
والحافه بالباين السابقين مقتصرأ على التعريف وشي . من المناقشة ، مرجئاً
التفصيل لطبعة تالية .

في الوقت الذي أرجو أن أكون قد أدت بعض الواجب الذي ألزمت
عني به أمام الامة تجاه الرافعي وآثاره .

.. وكم هو جميل أن يمد لي أدباء العربية يد العون ، فيبعثوا لي بما يعرفونه
أو يلقونه من آثار الرافعي الأخرى ولا سيما رسائله وتعقيباته ، ولو بصورة منها ،
أو يشيرون إليها في مظانها من خزانات كتب الأصدقاء والمعارف أو الصحف .
وعسى الله أن يفتح علينا بها جميعاً إنه هو الفتاح العليم

دائرة اللغة العربية - جامعة بغداد

مصطفى نهمان حسين البدري



ثبت بأهم المصادر والمراجع

- | | |
|---------------------------------|----------------------------------|
| ١١ - السحاب الأحمر | ١ - المصادر الأصلية - |
| ١٢ - على السُّفود | مؤلفات الرافعي حسب تسلسلها |
| ١٣ - أوراق الورد | التاريخي |
| ١٤ - وحي القلم - ثلاثة أجزاء | (أ) المطبوعة |
| ١٥ - رسائل الرافعي | ١ - ديوان الرافعي ثلاثة أجزاء |
| (ب) المخطوطة - التي جهزت | ٢ - ديوان النظرات ٠٠ |
| للطبع الآن | ٣ - تاريخ آداب العرب ثلاثة أجزاء |
| ١ - النظرات - الجزء الثاني | ٤ - إعجاز القرآن |
| ٢ - أغاريد الرافعي | ٥ - حديث القمر |
| ٣ - بقايا ديوان الرافعي | ٦ - المساكين |
| ٤ - الفوائد (المدايح الملكية) | ٧ - النشيد الوطني |
| ٥ - شعراء العصر | ٨ - نشيد سعد زغلول |
| ٦ - أسرار الإعجاز | ٩ - رسائل الاحزان |
| ٧ - الكتاب النبوي | ١٠ - المعركة تحت راية القرآن |
| ٨ - قصص الرافعي | |

٢ - المؤلفات الخاصة

جميل جبر - مي في حياتها المضطربة
عبد السلام هاشم حافظ - الرافعي
ومي

محمد سعيد العريان - حياة الرافعي
نعمات أحمد فؤاد - دراسة في أدب
الرافعي

٣ - الفهارس والمراجع
أحمد آدم الجندي - أعلام الأدب
والفن .

خير الدين الزركلي - الأعلام
حاجي خليفة - كشف الظنون

الحسيني - طبقات الشافعية

السبكي - « «

زكي محمد مجاهد - الاعلام الشرقية
في القرن الرابع عشر (أربعة جزاء)

عمر رضا كحالة - معجم المؤلفين
محمد فريد وجدي - دائرة معارف

القرن العشرين

يوسف أسعد داغر - مصادر

الدراسة الأدبية - جزاء

يوسف إلياس سركيس - معجم
المطبوعات العربية

٤ - الكتب والدراسات القومية

أحمد الطرابلسي - شعراء الحماسة
والعروبة في الشام

ساطم الحصري - القومية العربية

محمد عزة دروزة - الوحدة العربية

صديق شيبوب - القومية العربية

حمدي طربين - الوحدة «

مصطفى الشهابي - القومية «

مصطفى الخالدي وعمر فروخ -

التبشير والاستعمار

محمد سعيد العريان - أحاديث قومية

عبد القديم زلوم - كيف هدمت الخلافة

جواد رفعة - الخطر المحيط بالاسلام

حسين مؤنس - الشرق الاسلامي
في العصر الحديث

جورج أنطونيوس - ترجمة علي
حيدر الركابي ، و ترجمة إحسان عباس
- يقظة العرب

ذبيح الله - مآثر الكبراء في تاريخ
سامراء (ثلاثة أجزاء)

ساطع الحصري - الدولة العثمانية
والبلاد العربية

- محاضرات في نشوء الفكرة القومية
- يوم ميلاد .

عبد الرحمن الجبرتي - عجائب الآثار
في التراجم والأخبار

عبد الرحمن الرافعي - أحمد عرابي
- الثورة العراقية

- ثورة ١٩١٩
- عصر اسماعيل

- محمد فريد

عمر أبو النصر - جهاد فلسطين
العربية

عبد العزيز الرفاعي - أصول الوعي
القومي

محمد زغلول - القومية العربية في
الأدب الحديث

محمود كامل - عربتنا
٥ - التاريخ العام والمذكرات :

أحمد جمال باشا (السفاح) - مذكرات
أسعد طلس - تاريخ الأمة العربية -

الجزء الأول
أسعد طلس - مصر والشام في الغابر

والحاضر
اسحق موسى الحسيني - الاخوان

المسلمون - كبرى الحركات الاسلامية
أمين سعيد - ثورات العرب في

القرن العشرين
توفيق علي برو - العرب والأتراك

محمد ناجي القشطيني - تاريخ
المدرسة الحيدية (مخطوط) .

وليم ثل - ترجمة عجم نوبهض -
حاضر العالم الاسلامي (تعليق الامير
شكيب ارسلان) .

٦ - مصنفات عامة

اسماعيل عبد الحميد - الأدباء الخمسة
اسماعيل اليوسف - وحي الأدباء -

منشورات بيروت

أنور الجندي

- أضواء على حياة الأدباء .

- الحب والمجد

- الشعر المعاصر

- المعارك الأدبية

- نساء في حياة الأدباء

جورج زيدان - تاريخ آداب اللغة

العربية (اربعة أجزاء)

سعد ميخائيل - آداب العصر في

عبد الرحمن الرافعي - مذكراتي

مصطفى كامل

مقدمات الثورة

عبد الرزاق الحسني - تاريخ العراق
الحديث (ثلاثة اجزاء) .

عبد الرزاق الظاهر - الاقطاع
والديون في العراق .

عبد العزيز عرابي - الثورة العراقية
(ترجمة) .

كمال رفعة - الاستعمار والصهيونية .

كرومر - مصر الحديثة (ترجمة) .

محمد رشيد رضا - تاريخ الامام محمد
عبد (ثلاثة اجزاء) .

محمد رفعة - تاريخ مصر السياسي

محمد صبيح - قصة الأرض في مصر

محمد عبد الله عنان - مأساة مايرلنج

محمد مهدي كبة - مذكراتي

في صميم الأحداث .

- شعراء الشام والعراق ومصر
عبد السميع المصري - في موكب
الخالدين
عمر الدسوقي - في الأدب الحديث
- نشأة النثر الحديث وتطوره
- المسرحية
محمد سليمان - آداب العصر
محمد صبري - شعراء العصر
محمود ابراهيم وبدوي طبانة - تاريخ
الأدب الحديث - بغداد
مصطفى لطفي المنفلوطي - مختارات
المنفلوطي .
٧ - كتب التراجم والدراسات
الأدبية والنقدية
ابراهيم عبد القادر المازني - مع
العقاد - الديوان جزآن
احسان عباس - فن السيرة ، فن
الشعر ، فن المقالة
أحمد حسن الزيات - في أصول الأدب - جزآن
- دفاع عن البلاغة
أحمد الشايب - الأسلوب
أحمد الشرباصي - شكيب أرسلان
(جزءان)
أحمد عبد الستار الجوارى - نشأة
الحب العذري
أحمد الحوفي - اللغة والوطن
في الأدب العربي
- شوقي وشعره الاسلامي
إسحق موسى الحسيني - محاضرات
الموسم الثقافي في الكويت
إسماعيل أدهم - خليل مطران
- توفيق الحكيم
اليزابث درو - ترجمة محمد ابراهيم
الشوشي - الشعر كيف نفهمه ونتذوقه
أنيس المقدسي - الانتجات الادبية
الحديثة - جزآن
حسين الرضفي - الوسيلة الادبية
- جزآن

المصادر والمراجع

- ساعات بين الكتب ..
- شعراء مصر في الجيل الماضي
عبد العزيز البشري - المختار - جزءان
عبد اللطيف حمزة - الصحافة
والادب في مصر
عز الدين الامين - نشأة النقد
عمر الدسوقي - في الادب الحديث
- جزءان
- الفتوة عند العرب
- محمود سامي البارودي
- النابغة الذبياني
- مذكرات في مناهج البحث
(أمالى)
- نشأة النثر الحديث وتطوره
- تطور المقالة - بحث خاص
مرسل الى جامعات امريكا
ماري زيادة (مي) - ظلمات وأشعة
- عائشة التيمورية
جميل جبر - مي في حياتها المضطربة
زكي مبارك - الموازنة بين الشعراء
ستانلن هاين - ترجمة احسان
عباس - النقد الادبي - جزءان
سلامة موسى - البلاغة المصرية
شكيب أرسلان - شوقي - أو
صدقة أربعين عاماً
شوقي ضيف
- دراسات في الشعر المعاصر
- شوقي شاعر العصر الحديث
- مع العقاد
طه حسين - حديث الاربعاء -
ثلاثة اجزاء
- مستقبل الثقافة في مصر
طاهر الطناحي - الساعات الاخيرة
من حياتهم
عادل النضبان - نجيب الحداد
عباس محمود العقاد - حياة قلم ..

مصطفى عبد اللطيف السحرتي - الشعر

المعاصر على ضوء النقد الحديث

مصطفى ابو طالب - تراجم علماء
طرابلس

نعمات أحمد فؤاد - أدب المازني

« « « - دراسة في أدب

الرافعي

نجيب جمال الدين - خليل مطران

شاعر العصر

يوبيل عبد الحميد الرافعي

مهرجان الخليل

مهرجان البارودي

٨ - كتب في علم النفس والادب

حامد عبد القادر - العلاج النفسي

محمد خلف الله أحمد - من الوجهة

النفسية في دراسة الادب

مصطفى سويف - الاسس النفسية

للإبداع الفني - في الشعر خاصة

يوسف مراد - شفاء النفس

محمد خليفة التونسي - فصول من

النقد عند العقاد

محمد حسين هيكل - ثورة الادب

- في أوقات الفراغ

محمد رشيد الرافي - عبد القادر

الرافعي - الثاني

محمد صادق عنبر - ذكرى أمين

الرافعي

محمد صالح سمك - أمير الشعر في

العصر القديم

محمد صبري - أدب وتاريخ

محمد عبد الغني حسن

- الفلاح في الأدب العربي

- مي أدبية الشرق

محمد مهدي البصير - الموشح

محمد يوسف نجم وآخرون -

- الادب العربي في آثار الدارسين

محمود محمد صادق - من أدب

الثورات القومية

٩ - الصحف	١٧ - الثقافة	٣٥ - السيدات والرجال
والدوريات	١٨ - الثقافة الاسلامية	٣٦ - الشباب
١ - أبولو	- البغدادية	٣٧ - الشعب
٢ - الاحسان - السورية	١٩ - الجامعة	٣٨ - الضياء
٣ - الأخبار - الرافعية	٢٠ - الجمهور اللبنانية	٣٩ - صوت الاسلام
٤ - آخر ساعة	٢١ - الجمهورية البغدادية	- البغدادية
٥ - الاخوان المسلمون	٢٢ - الجواب	٤٠ - الظاهر
٦ - الآداب البيروتية	٢٣ - الحارس البغدادية	٤١ - العمل التونسية
٧ - الأسبوع	٢٤ - الحال	٤٢ - العربي
٨ - الانصار	٢٥ - الحديث	٤٣ - فتاة الشرق
٩ - الاشاعة	٢٦ - الحرية	٤٤ - الفتح
١٠ - الامرام	٢٧ - الدنيا المصورة	٤٥ - الفكر المعاصر
١١ - البصير	٢٨ - الرابطة العربية	٤٦ - الكاتب المصري
١٢ - البعث - السورية	٢٩ - الرسالة	٤٧ - الكتاب
١٣ - البلاغ	٣٠ - الزهراء	٤٨ - كل شيء
١٤ - البيان - البرقوقي	٣١ - الزهور	٤٩ - المسلمون
١٥ - التربية الاسلامية	٣٢ - سر كيس	٥٠ - المقتبس الدمشقية
- البغدادية	٣٣ - السفور	٥١ - المقتطف
١٦ - الثريا	٣٤ - السياسة	٥٢ - المقطع
	الأسبوعية	